



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ

موقف الدولة العثمانية من التهديدات الخارجية على الإيالات المغربية
في مراسلات الباب العالي إبان القرن 16م
- دراسة تحليلية -

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه (نظام ل.م.د) في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف:

أ.د. عبد الحق زريوح

إعداد الطالب:

سالم جوامع

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
شعيب مقنونيف	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيساً
عبد الحق زريوح	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفاً ومقرراً
مصطفى حجازي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضواً مناقشاً
مختار بونقاب	أستاذ التعليم العالي	جامعة معسكر	عضواً مناقشاً
محمد بوشنافي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضواً مناقشاً
عبد الرحمن قدوري	أستاذ محاضر "أ"	جامعة سعيدة	عضواً مناقشاً

السنة الجامعية: 1444-1445هـ/2023-2024م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى عائلتي،

ذاك الجبل الصلد الذي طالما احتميت به وقت الخطوب

شكر وتقدير

أتقدم بشكرٍ جزييل وتقديرٍ خاص لأستاذي المشرف؛ الأستاذ الدكتور عبد الحق زريوح، الذي كان لي نعم المرشد والموجه، والذي تابع سير دراستي وتقويمها فصلا فصلا، واهتم بأعمالي المكملّة للأطروحة من مقالات ومداخلات.

كما أتوجه كذلك بالشكر لكل من قدّم لي يد العون في هذه الدراسة من مساعدات أو توجيهات أو ملاحظات، من أساتذة أو طلبة زملاء، فشكرا لهم جميعا على كل ما قدّموه لي من صغير أو كبير في سبيل إنجازي لهذا البحث.

هذا، دون أن أنسى أن أعبر عن امتناني لكل معلّم درّسني وساهم في صقل معارفي وفي تربيتي، ولكل معلّم جادّ صادق النية يعمل بإخلاص لبناء الإنسان ورفع قيمة الجزائر بين الأمم.

- قائمة المختصرات

بالفرنسية	بالعربية
Ed :Edition	إش: إشراف (على الطبع)
N :Numero	تر: ترجمة
S.E : Sans Editeur	تق: تقديم
S.D : Sans Date	تع: تعليق
T :Tome	تن: تنسيق
Tr : Traduction	ط.ح: طبعة حجرية
V :Volume	ط.خ: طبعة خاصة
A.G.S : Archivo General de Simancas	أ.م.و.ج: أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية
R.A : La Revue Africaine	أ.و.ج: الأرشيف الوطني الجزائري أ.و.ت: الأرشيف الوطني التونسي د.م.ج: ديوان المطبوعات الجزائرية موفم: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية م.د.ب.ع.م: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية

مقدمة

1- التعريف بالموضوع:

يعتبر القرن السادس عشر من أكثر القرون أحداثا وتحولات على المستويات السياسية والحضارية والاستراتيجية في منطقة حوض البحر المتوسط، وإن كانت إرهابات هذه التحولات قد بدأت قبل مطلع هذا القرن؛ إذ نستطيع أن نعتبر أن فتح القسطنطينية في شرق المتوسط ومرافقه من صعود الدولة العثمانية وتوسعاتها في شرق أوروبا والمشرق الإسلامي أولى هذه الإرهابات، وقُبل مطلع القرن المذكور ببضع سنوات كان سقوط غرناطة، ذاك الحدث الهام والمحوري في غرب المتوسط الذي أفضى بدوره لخلق تداعيات وتحولات بالغة على المنطقة والعالم على حد سواء، حتى إنه يعتبر نهاية فترة القرون الوسطى وبداية للعصر الحديث، حيث إن سقوط غرناطة كان له دور كبير في التحولات السياسية والحضارية التي ظهرت في المنطقة والتي منها بروز الإمبراطورية الإسبانية في غرب المتوسط كقوة عظمى مناوئة للدولة العثمانية في شرقه. إضافة إلى بروز ظاهرة هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب وما رافقه من ظهور حركة التوسع الاستعماري الإسباني في هذه البلاد؛ والتي مهّدت بدورها للحضور العثماني في بلاد المغرب وحوض المتوسط الغربي. ومن ثمّ، بروز الصراع العثماني الإسباني الذي اتخذ شكلا حضاريا أوسع؛ فأمسى صراعا شرقيا إسلاميا/غربيا مسيحيا بقيادة كل من الدولة العثمانية في شرق وجنوب المتوسط والمملكة الإسبانية في غرب وشمال المتوسط.

ولئن كانت هاتين الأخيرتين هما قادتا هذا الصراع، فإن البلدان المغربية من جهة والإمارات الإيطالية وبلاد اليونان من جهة أخرى كانوا هم أيضا أطرافا أساسية في هذه المواجهة، بل وكانوا في الكثير من المرات ساحات مباشرة لها وفاعلين مباشرين فيها.

كان العقدين الأولين من القرن السادس عشر اقد عرفا سيطرة بالغة من قبل الإسبان على الحوض الغربي للبحر المتوسط وبلاد المغرب التي تهاوت دولها تباعا مع مطلع هذا القرن، غير أن الفترة اللاحقة (خاصة منذ قيام إيالة الجزائر العثمانية سنة 1519م) عرفت رُجحان كفة العثمانيين في هذه المناطق مما خلق توازنا في موازين القوى بين الشرق الإسلامي بقيادة الباب العالي وبين الغرب المسيحي بقيادة المملكة الإسبانية. إلا أنه، وفي ظل هذا التوازن بين الطرفين، بقيت التهديدات الخارجية مستمرة على الإيالات العثمانية المغربية سواء من قبل الغرب المسيحي أو من قبل المغرب الأقصى الذي قامت فيه الدولة السعدية المناوئة للوجود العثماني في بلاد المغرب.

على هذا الأساس، فإن موضوع دراستنا يتركز حول موقف الدولة العثمانية من التهديدات الخارجية على إيالاتها المغربية إبان النصف الثاني من القرن السادس عشر، انطلاقا من المراسلات العثمانية حصرا، أي أننا سنقوم في هذه الدراسة بتحليل المراسلات العثمانية الرسمية الموجهة لحكام الإيالات المغربية، والتي تدور مواضيعها حول التهديدات القائمة على هذه الإيالات سواء من قبل الغرب المسيحي بقيادة إسبانيا أو من طرف الدولة السعدية في المغرب الأقصى.

2- أهمية الموضوع:

تعتبر الدراسات التاريخية التي تعتمد أساساً على الوثائق الأرشيفية الرسمية مادةً أوليةً لها من أرقى الدراسات التاريخية وأكثرها قيمة علمية، إذ إنه لا تاريخ بدون وثيقة، وإن الوثائق هي أرقى المصادر التاريخية. وتأسيساً على هذا، اعتمد موضوعنا الموسوم بـ: " موقف الدولة العثمانية من التهديدات الخارجية على الإيالات المغربية في مراسلات الباب العالي إبان القرن 16م، دراسة تحليلية"، على الوثائق الأرشيفية الرسمية المتمثلة كما هو موضح في العنوان في مراسلات الدولة العثمانية لحكام إيالاتها المغربية (الجزائر، تونس و طرابلس المغرب) والمحافظة في الأرشيف الوطني الجزائري. ومنه، فإن دراستنا تتمثل في البحث في موقف الدولة العثمانية - في ضوء مراسلاتها الرسمية - من التهديدات التي تتعرض لها إيالاتها المغربية، ومن الحملات والتحالفات المنعقدة ضدها بشكل مباشر أو ضد مصالحها في حوض البحر المتوسط، وذلك من خلال دراسة تحليلية تعتمد في الأساس على هذه المراسلات الموجودة في الرصيد العثماني بالأرشيف الوطني الجزائري وتحديداً في مجموعة "مهمة دفترى" التي هي عبارة عن مجموعة كبيرة من المراسلات (الفرمانات، الأوامر، الأحكام، الرسائل) الموجهة لحكام الإيالات العثمانية المغربية من طرف الباب العالي والمتعلقة بمواضيع سياسية-عسكرية، اقتصادية واجتماعية.

كما أن ما يميز هذا الموضوع تحديداً هو محاولته كشف التحديات التي كانت تواجهها الجزائر بوصفها قوة ناشئة ثم قوة قائمة على الصعيد الإقليمي، وكيف

كانت الدولة العثمانية - باعتبارها تمثل مركز الخلافة الإسلامية وليكون الجزائر والإيالات المغربية يشكلون حلقات من حلقاتها - تنظر إلى هذه التحديات والتهديدات التي كانت تواجهها الجزائر خاصة والإيالات المغربية بشكل عام. وبصورة أوضح، إن كانت الدراسات السابقة تطرقت إلى دور الجزائر في الحروب العثمانية المتوسطية أو إلى علاقة الجزائر أو الإيالات المغربية بالباب العالي من جهة أو بالقوى الأوروبية المسيحية من جهة أخرى، فإن هذه الدراسة تهتم بالبحث في الموضوع من الاتجاه المعاكس؛ أي من زاوية نظر مقابلة، وهي كيف تنظر الدولة العثمانية وفيما يبرز اهتمامها بإيالاتها المغربية وبالتهديدات والتحالفات التي تُعقد ضدها سواء من طرف الغرب المسيحي بقيادة إسبانيا أو من طرف الدولة السعدية المعادية لإيالة الجزائر. هنا تحديداً، يبرز اختلاف هذا الموضوع مع الدراسات الأخرى التي تتداخل معه موضوعياً وزمناً.

وتبرز أهمية الموضوع كذلك، في كونه يتناول التطورات السياسية للإيالات المغربية ككتلة سياسية واحدة غير مجزأة وعلاقاتها مع الباب العالي من جهة، ومع الأطراف المعادية من جهة أخرى؛ إذ إن الإيالات المغربية كانت دائماً معرضة لنفس المصير تحيط بها نفس الظروف وتنتظرها ذات النتائج خاصة في الفترة الزمنية المدروسة. وبالتالي، فمن الجيد أن تكون دراسة التطورات السياسية في هذه الإيالات وعلاقاتها بالباب العالي والأطراف المعادية دراسة موحدة أو بالأحرى دراسة تبرز مدى كون هذه الإيالات كتلة سياسية واحدة تواجهها نفس

الظروف وترتبط بنفس الالتزامات وتقف نفس المواقف تجاه كل من الباب العالي من جهة والغرب المسيحي والدولة السعدية من جهة أخرى.

هذا، ناهيك عن كون الموضوع هو عبارة عن دراسة تحليلية للوثائق الأرشيفية حصراً، وعلى الخصوص مراسلات الباب العالي لحكام الإيالات المغربية وخاصة حكام إيالة الجزائر والتي ابتدأت حسب ما هو محفوظ في الرصيد العثماني من الأرشيف الوطني الجزائري منذ منتصف القرن السادس عشر، إذ إن هذه الدراسة تسعى لإبراز مدى اهتمام الدولة العثمانية بأمن إيالاتها المغربية وبأوضاعها الداخلية وعلاقاتها الخارجية، وكذا موقفها واستراتيجياتها لردع كل التهديدات الخارجية ولبسط الأمن وضمان سلامة هذه الإيالات. وكذلك ركزت هذه الدراسة على إظهار مدى حجم التنسيق والتعاون والتشاور الحاصل بين الإيالات المغربية -وخاصة إيالة الجزائر- وبين الباب العالي، وبالأخص على الصعيدين السياسي والعسكري-الاستخباراتي.

إضافة إلى هذا كله، تكمن أهمية هذا الموضوع في إبراز مدى محورية الجزائر وقيمتها لدى الدولة العثمانية، سواء السياسية أو العسكرية، وكذا في إظهار سلطة الجزائر على كل من تونس وطرابلس الغرب، إذ بيّنا كيف كانت إيالة الجزائر بمثابة المسؤول الأول المكلف من قبل الباب العالي بحماية الإيالات المغربية والوقوف على أمنها وحفظ أراضيها، وحتى بتسيير شؤونها الداخلية.

ومن ثمّ، فهذه الدراسة تفيد على المستوى الجيوستراتيجي في تحديد الوضعية التي توجد فيها الجزائر (ونؤكد هنا على محورية الجزائر مرة أخرى) تجاه التحولات

أو الصراعات القائمة على مستوى بلاد المغرب وحوض البحر المتوسط. خلال القرن السادس عشر بشكل خاص وخلال العصر الحديث بشكل عام، ولم لا القول: إن هذه الدراسة تفيد أيضا في معرفة وضعية الجزائر الجيوستراتيجية في وقتنا الراهن.

3- أسباب اختيار الموضوع:

لعله بإمكاننا أن نحصر الأسباب التي دفعتنا لاختيار هذا الموضوع فيما يلي:

- لأدني قررت أن أواصل دراستي خلال طور الدكتوراه في نفس التخصص الذي كنت فيه خلال طور الماستر وهو تاريخ الجزائر الحديث، حتى إن مذكرتي للماستر كانت حول موضوع دور سقوط غرناطة في قيام الإيالات المغربية العثمانية؛ إيالة الجزائر أنموذجا. وبالتالي، فأنا لم أخرج كثيرا عن هذا المجال وأردت أن أتعلم وأتخصص فيه وخاصة خلال القرن السادس عشر.

- الميول الشخصية نحو التاريخ السياسي والدراسات الجيوستراتيجية، خاصة فيما يتعلق بمنطقة حوض البحر المتوسط وبالقوى الإقليمية في هذه المنطقة نظرا لما يجذبني دائما من خلال أحداثها والتحويلات التي أفرزتها سواء على بلدنا الجزائر أو على المستوى الإقليمي بشكل عام.

- غير أن اختيارنا لهذا الموضوع بالذات كان صدفة نوعا ما؛ إذ وبعدما كنت ألقب في الأرشيف الوطني بالجزائر العاصمة وتحديدًا في الرصيد العثماني

وكنت وقتئذ بصدد دراسة موضوع آخر - وجدت أن كثيرا من وثائق القرن السادس عشر وهي في مجملها مراسلات من الباب العالي لحكام إيالة الجزائر تهتم كثيرا بموضوع التهديدات الخارجية على الإيالات المغربية وبم سائل الأمن وتبادل المعلومات الاستخباراتية والتحركات العسكرية والديبلوماسية التي تخص الإيالات المغربية والأطراف القائمة على الصراع معها إبان النصف الثاني من القرن السادس عشر. فقد وجدت أن أغلب هذه المراسلات تتمحور حول مسائل العلاقة مع القوى المسيحية الأوروبية وخاصة الإمبراطورية الإسبانية وكذا العلاقة مع الدولة السعدية في المغرب الأقصى والتهديد القائم من ناحيتها. من هذا المنطلق، رأينا أن الدولة العثمانية تهتم كثيرا بمسألة أمن وسلامة إيالاتها المغربية وبالتهديدات الخارجية التي تتعرض لها ومنه أردنا أن يكون موضوع دراستنا يتمحور حول: "اهتمامات الدولة العثمانية بالتهديدات الخارجية على الإيالات المغربية من خلال مراسلات الباب العالي لحكام الجزائر خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر في ضوء وثائق الأرشيف العثماني بالجزائر" ثم ضبط العنوان بعد تنسيق وتشاور بيننا أنا وأستاذي المشرف ليكون على الشكل الذي هو عليه الآن.

4- إشكالية البحث:

تتمحور إشكالية البحث حول كيفية تعامل الدولة العثمانية ومدى اهتمامها بالتهديدات الخارجية على إيالاتها المغربية، وفيم يتمثل موقف الباب العالي منها

انطلاقاً من مراسلاته الرسمية لحكام هذه الإيالات؟ وإلى أي مدى تعطينا هذه المراسلات الرسمية صورة أصدق وأوضح عن اهتمامات الباب العالي بإيالاتها المغربية في ظل الصراع القائم مع القوى المسيحية بقيادة المملكة الإسبانية من جهة، ومع الدولة السعدية في المغرب الأقصى من جهة أخرى؟

وتأتي ضمن هذه الإشكالية الرئيسية تساؤلات فرعية تخص الموضوع تبرز فيمايلي:

- أفيم تتجلى التهديدات الخارجية على الإيالات العثمانية المغربية وأين تدور مجرياتها؟

- فيم تبرز قيمة الجزائر السياسية والعسكرية بالنسبة للباب العالي ولمنطقة حوض البحر المتوسط إبان الفترة قيد الدراسة؟

- هل كان الموقف العثماني تجاه هذه التهديدات عسكرياً على طول خط الصراع أم أن الدولة العثمانية استعملت وسائل سياسية وديبلوماسية خلاله؟

- هل تكشف الوثائق المدروسة (المراسلات العثمانية لحكام الإيالات المغربية) وتسلط الضوء على جميع أطوار الصراع قيد الدراسة؟ أم أن هناك محطات وقضايا لا تُغطيها هذه المراسلات بشكل كافٍ مما يدفعنا لاعتماد مصادر تاريخية أخرى لإيضاح الصورة بشكل أكبر، ومن ثمّ، دراسة الموضوع بشكل أشمل وأعمق؟

5- منهج البحث:

اعتمدنا في هذا البحث على المنهج التاريخي بألياته وأساليبه المتنوعة التي من أبرزها التحليل والمقارنة.

6- خطة البحث:

وللإجابة على الإشكالية المطروحة ومعالجة الموضوع وضعنا خطة شاملة للبحث على النحو التالي:

الفصل التمهيدي: أوضاع بلاد المغرب والدولة العثمانية نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م: ويحتوي هذا الفصل على مبحثين اثنين:

المبحث الأول: أوضاع بلاد المغرب نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م: وهو مقسم بدوره إلى عنصرين:

يختص أولهما بالمغرب الأوسط (الجزائر)، أما الثاني فيختص بالمغرب الأدنى (تونس وطرابلس الغرب) وقد اخترنا الاحتفاظ في هذا الفصل بتسميات العصر الوسيط للبلدان المغربية حتى نساير العصور التاريخية في التأريخ للمنطقة، فيما تركنا الحديث عن المغرب الأقصى إلى الفصل الثالث المتعلق بالدولة السعدية.

المبحث الثاني: أوضاع الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م: يندرج تحت هذا المبحث- الذي حاولنا أن نكون مسايرين فيه زمنيا للمبحث الأول كي يستقيم البحث ويتوازن-عنصرين اثنين:

يختص الأول منهما بدراسة الأوضاع الداخلية للدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية في عهد السلطان بايزيد الثاني نهاية القرن 15م أما الثاني فيغطي فترة حكم سليم الأول وهي الفترة التي بدأ فيها النفوذ العثماني يصل إلى بلاد المغرب وبدأت تتأسس فيه الإيالات العثمانية.

الفصل الأول: الوجود العثماني في بلاد المغرب وبداية الصراع الأوروبي العثماني في المنطقة 1492-1551م: يندرج تحته مبحثين اثنين:

المبحث الأول: : الظروف الإقليمية وتداعياتها على بلاد المغرب 1492-1512:

يخوض هذا المبحث في التحولات السياسية والحضارية في غرب البحر المتوسط، وكيف انعكست على البلدان المغربية، ويتضمن بدوره ثلاثة عناصر، عالج أولها مسألة سقوط غرناطة وتداعياته على بلاد المغرب، فيما تطرق ثاني هذه العناصر إلى الاحتلال الإسباني لسواحل بلاد المغرب من وهران غربا حتى طرابلس الغرب شرقا. أما العنصر الأخير فسُلط الضوء على ظهور الإخوة بربروس في بلاد المغرب وبداية حركة المقاومة ضد الوجود الإسباني في المنطقة.

المبحث الثاني: بلاد المغرب بين الاحتلال الإسباني والفتح العثماني 1512-1551م:

يعالج العنصر الأول من هذا المبحث استقرار الإخوة بربروس في المغرب الأوسط ومواجهاتهم الأولى مع الإسبان والتي انتهت بتأسيس إيالة الجزائر سنة

1519م، أما العنصر الثاني فيسلط الضوء على تونس الحفصية والتجاذبات التي وقعت فيها بين العثمانيين والإسبان حتى حملة شاركان على تونس سنة 1534م، في حين يختص العنصر الثالث في دراسة الأوضاع السياسية في طرابلس الغرب من الاحتلال الإسباني إلى غاية الفتح العثماني وتأسيس إيالة طرابلس الغرب سنة 1551م

الفصل الثاني: الدولة العثمانية في مواجهة التهديدات الأوروبية على إيالتي طرابلس الغرب وتونس (1551-1574م):

المبحث الأول: موقف الباب العالي من التهديدات المالطية-الإسبانية على إيالة طرابلس الغرب 1560-1565: وقد قسمنا هذا المبحث حسبما تقتضيه الدراسة وانطلاقاً من المراسلات العثمانية التي بُني عليها البحث إلى عنصرين:

يعالج العنصر الأول تهديدات وحمولات فرسان القديس يوحنا المدعومين من مملكة إسبانيا على كل من طرابلس الغرب وتونس ومحاولة ضربها للمصالح السياسية والاقتصادية للدولة العثمانية وإيالاتها المغربية والتي تضاعفت خاصة بعد تأسيس إيالة طرابلس الغرب سنة 1551م، فيما يتطرق العنصر الثاني إلى موقف الدولة العثمانية واستراتيجيتها للرد على هذه التهديدات والذي تمثل في العزم على غزو جزيرة مالطا لضرب فرسان مالطا والاستيلاء على الجزيرة بما سيعزز أمن وسلامة الإيالات المغربية وخاصة طرابلس الغرب وتونس.

المبحث الثاني: سياسة الباب العالي تجاه الوجود الإسباني في تونس 1569م-1570م:

يختص هذا المبحث في إبراز استراتيجية الدولة العثمانية تجاه تمركز الإسبان في تونس ومحاولتها طردهم منها على أساس أن بقاءهم في تونس سيعزز من استمرار التهديد الإسباني للإيالات المغربية وللمصالح العثمانية على حد سواء، ويعالج العنصر الأول من هذا المبحث التدخل العثماني في الشؤون الداخلية الإسبانية من خلال دعم ثورة الموريسكيين سنة 1569م، إذ أن الباب العالي رأى في دعم هذه الاضطرابات الداخلي في إسبانيا فرصة لإمكانية ضرب القواعد العسكرية الإسبانية في تونس وتحريرها بشكل نهائي، أما العنصر الثاني فتطرق إلى الحملة العسكرية التي قامت بها الدولة العثمانية على تونس عن طريق قوات إيالة الجزائر والتي تمكنت من فرض السيطرة العثمانية على تونس سنة 1570م.

المبحث الثالث: استراتيجية الباب العالي تجاه الحلف الأوروبي المقدس والقواعد الإسبانية في تونس 1571م-1574م

يختص هذا المبحث في تسليط الضوء على الصراع العثماني مع إسبانيا وحلفائها من القوى الأوروبية المتوسطة، ومحاولة الدولة العثمانية السيطرة على النقاط والجزر الأساسية في البحر المتوسط كسياسة إستراتيجية لتأمين إيالاتها المغربية، وذلك من خلال عنصرين اثنين؛ يعالج أولهما المواجهة العثمانية ضد الحلف المسيحي المقدس والتي تمثلت في خوض معركة ليبانتو سنة 1571م، أما العنصر الثاني فيتطرق إلى الموقف العثماني من خسارة معركة ليبانتو ومحاولة

القيام برد فعل عسكري تمثل في الحملة العثمانية الكبرى لتحرير حلق الوادي وطرده الوجود الإسباني نهائياً من تونس والتي كُلت بالنجاح سنة 1574م.

الفصل الثالث: موقف الدولة العثمانية من تهديدات الدولة السعدية وتحالفاتها مع القوى الإيبيرية ضد إيالة الجزائر (1551-1598م) وتم تقسيمه على النحو التالي:

المبحث الأول: ظهور الدولة السعدية في المغرب الأقصى:

يتطرق في العنصر الأول إلى الأوضاع الداخلية في المغرب الأقصى مطلع القرن 16م، ثم إلى بداية الدعوة السعدية في المغرب الأقصى مطلع ق16م في العنصر الثاني، فيما سلطنا الضوء في العنصر الثالث على قيام الدولة السعدية ونهاية الحكم الوطاسي منتصف القرن 16م

المبحث الثاني: الموقف العثماني من تهديدات وتوسعات السلطان محمد الشيخ السعدي تجاه إيالة الجزائر 1551-1557م:

تم فيه التطرق إلى الاستراتيجية المتبعة من قبل الباب العالي وإيالة الجزائر تجاه توسعات محمد الشيخ السعدي نحو إيالة الجزائر، وفيه ثلاثة عناصر؛ أولها يعالج قضية إيواء إيالة الجزائر للمعارضة الوطاسية واستعمالها ضد السعديين، أما الثاني فيدرس الازدواجية العثمانية بين الخيارات السلمية والحربية في التعامل مع محمد الشيخ السعدي، في حين يدرس العنصر الثالث تحول الباب العالي من

تبنى الحل الدبلوماسي إلى اعتماد خيار الاغتيال السياسي وحاولنا فيه أن نقدم شيئاً جديداً في قضية اغتيال محمد الشيخ السعدي من قبل العثمانيين.

المبحث الثالث: التدخل العثماني في الشؤون الداخلية للدولة السعدية 1557-1578م:

قمنا بدراسة كيفية تعامل الدولة العثمانية مع الصراع الذي قام من أجل الحكم في المغرب الأقصى بعد مقتل الشيخ السعدي وكيف حاول الباب العالي استخدام هذا الصراع لمصلحته، ويتضمن هذا المبحث أربعة عناصر؛ يعالج أول هذه العناصر استغلال الأزمة السعدية من طرف العثمانيين وإيوائها للأمرء المنشقين، أما العنصر الثاني فيسلط الضوء على استئناف الصراع بين العثمانيين وعبد الله الغالب السعدي المناوئ للوجود العثماني ولتدخلاته في المغرب الأقصى، والعنصر الثالث يتطرق إلى ازدواجية الاستراتيجية العثمانية ضد عبد الله الغالب والتي اختلفت بين مساعي الصلح والخيارات العسكري، في حين يتناول آخر عنصر من هذا المبحث نجاح العثمانيين في تنصيب عبد الملك السعدي سلطاناً على المغرب الأقصى باسم الباب العالي وبسط النفوذ العثماني في المغرب الأقصى.

المبحث الرابع: السياسة العثمانية تجاه الدولة السعدية إبّان معركة وادي المخازن وولاية السلطان أحمد المنصور 1578م-1598م:

تم في هذا المبحث دراسة تداعيات معركة وادي المخازن على كل من المغرب الأقصى بشكل خاص ثم على إيالة الجزائر، حيث بعد هذه المعركة سيندسر التهديد السعدي على إيالة الجزائر حيث استنتهي الحروب والتدخلات العسكرية المباشرة بين الطرفين، وقد قسمنا هذا المبحث إلى ثلاثة عناصر؛ يتناول أول هذه العناصر البحث في علاقة الباب العالي بمعركة وادي المخازن سنة 1578م والدور الذي كان له فيها، أما العنصر الثاني فيسلط الضوء على انتقال الحكم في المغرب الأقصى إلى أحمد المنصور الذهبي وموقف العثمانيين من استلامه للحكم، أما ثالث هذه العناصر فيتطرق إلى السلام الجزائري السعدي خلال فترة أحمد المنصور نهاية القرن 16م والتي تخللتها الكثير من المراسلات والتحالفات والتي يمكن اعتبارها فترة زوال مايمكن تسميته بالتهديد السعدي على إيالة الجزائر إبان القرن 16م.

وفي آخر هذا الفصل وضعنا خاتمة جزئية كانت بمثابة حوصلة لما جاء فيه. وأخيرا الخاتمة؛ التي كانت حوصلة لأهم ما جاء في البحث، ذكرنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها في هذه الدراسة.

7- قراءة نقدية للمراسلات والأرشيف وأهم المصادر والمراجع:

اعتمدنا في هذه الدراسة على العديد من المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع، ولعل أبرز ما اعتمدنا عليه منها هو الوثائق الأرشيفية، إضافة إلى المصادر الأولية التي تتعلق بالموضوع بشكل مباشر، وكذا المراجع المتخصصة

في تاريخ الجزائر الحديث واجتبتنا قدر الإمكان الاعتماد على المراجع والدراسات العامة غير المتخصصة، ناهيك عن اعتمادنا على العديد من المقالات والرسائل الجامعية.

وانطلاقاً من ذلك يمكننا تصنيف المصادر والمراجع المعتمدة في الدراسة كمايلي:

أولاً: الوثائق الأرشيفية:

1- وثائق الأرشيف الوطني الجزائري (رصيد مهمة دفترى):

"يُعدّ الرصيد العثماني من أقدم الأرصدة المحفوظة على مستوى مؤسسة الأرشيف الوطني، ويحتوي هذا الرصيد على مجموعة من الوثائق التي تكونت بفعل الإدارة المركزية للباب العالي أو الولايات التابعة لها، وهو يشمل نشاط الدولة في جميع ميادين الحياة من مسائل عسكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية، وقد جاءت هذه الوثائق على شكل مراسلات بين الباب العالي وحكام الولايات التابعة له، كما تم تصنيف هذه الوثائق إلى سبعة أنواع ودفتر مهم (مهمة دفترى) هو الجزء الأول من هذه الأنواع السبعة"¹.

يحتوي رصيد دفتر مهم -الذي بنينا عليه هذه الدراسة- على 911 وثيقة مقسمة على 16 علبة على النحو التالي²:

¹ ديب ليلي، فهرس خاص بالرصيد العثماني (دفتر مهم)، مؤسسة الأرشيف الوطني، الجزائر، 2004،

ص2

² المرجع نفسه، ص3

عدد الوثائق غير المترجمة	عدد الوثائق المترجمة	عدد الوثائق	رقم العلبة
30	45	75	1
33	38	71	2
20	22	32	3
8	40	48	4
13	49	62	5
12	37	49	6
4	37	38	7
8	29	50	8
7	25	32	9
31	33	64	10
41	24	65	11
68	00	68	12
77	00	77	13
60	00	60	14
60	00	60	15
60	00	60	16
532	379	911	المجموع

وقد تم ترتيب هذه الوثائق حسب رقم الأحكام الصادرة من أصغر حكم إلى أكبر حكم وليس حسب تاريخ هذه الأحكام، كما أن بعض الأحكام في رصيد دفتر مهم تفتقد على الوثيقة (النسخة) المكتوبة باللغة العثمانية مثلما يوضح الجدول التالي³:

رقم العلبة	عدد الوثائق التي تفتقد للنص العثماني
1	1
2	7
3	3
5	15
6	12
7	13
8	3
9	4
المجموع:	58

وقد اعتمدنا في هذا الرصيد على الكثير من الوثائق/ المراسلات (77 وثيقة) متعلقة بشكل مباشر بالموضوع، تتعلق بمراسلات الباب العالي لحكام الإيالات المغربية وخاصة إلى حكام إيالة الجزائر بخصوص العلاقات السياسية والعسكرية وحتى الدبلوماسية مع الأطراف الإقليمية، وتغطي هذه الأحكام الفترة الزمنية

³ ديب، المرجع السابق، ص4

الممتدة من سنة 963هـ (1555م) إلى سنة 994هـ (1586م) أي فترة النصف الثاني من القرن السادس عشر وهي الفترة التي تمثل الإطار الزمني للموضوع قيد الدراسة، وقد تم حورت المراسلات العثمانية (التي بُني موضوع البحث على أساسها) حول المواضيع التالية :

أولاً: المراسلات العثمانية بخصوص التهديدات المالطية-الإسبانية للإيالات المغربية؛ ويمكننا تقسيمها إلى قسمين:

- القسم الأول: المراسلات المتعلقة بتهديدات فرسان مالطا على طرابلس الغرب وموقف الدولة العثمانية منها، وتوجد معظمها في الدفاتر التالية: (مهمة دفترتي 3، مهمة دفترتي 5، مهمة دفترتي 6).

- القسم الثاني: المراسلات المتعلقة بالتهديدات الإسبانية على تونس وموقف الدولة العثمانية منها، وهي كثيرة جداً، توجد في الدفاتر التالية: (مهمة دفترتي 10، مهمة دفترتي 12، مهمة دفترتي 13، مهمة دفترتي 14، مهمة دفترتي 16، مهمة دفترتي 18، مهمة دفترتي 19، مهمة دفترتي 21، مهمة دفترتي 22، مهمة دفترتي 23، مهمة دفترتي 24).

ثانياً: المراسلات العثمانية بخصوص تهديد الدولة السعدية على إيالة الجزائر وموقف الباب العالي منها، وتوجد في الدفاتر التالية: (مهمة دفترتي 6، مهمة دفترتي 7، مهمة دفترتي 12، مهمة دفترتي 14، مهمة دفترتي 18، مهمة دفترتي 30، مهمة دفترتي 35)

ثالثا: المراسلات العثمانية بخصوص قضايا الموريسكيين، وتتضمنها الدفاتر التالية: (مهمة دفترى 9، مهمة دفترى 10، مهمة دفترى 14).

رابعا: المراسلات العثمانية بخصوص السياسة الداخلية في إيالة الجزائر، وتحتويها الدفاتر التالية: (مهمة دفترى 21، مهمة دفترى 22، مهمة دفترى 23).

2- وثائق الأرشيف الوطني التونسي:

اعتمدنا فيه أساسا على رصيد الوثائق الإسبانية والمتعلقة بالعلاقات التونسية (الحفصية) الإسبانية خاصة زمن الحماية الإسبانية على تونس التي تركزت بعد غزوة شارل كان سنة 1535م، ونخص بالذكر هنا المعاهدتين المبرمتين بين الدولة الحفصية ومملكة إسبانيا:

- المعاهدة الإسبانية التونسية لسنة 1535، المجموعة رقم 2876، ملف رقم 12

- المعاهدة الإسبانية التونسية لسنة 1554، المجموعة رقم 2876، ملف رقم 21

3- وثائق دور الأرشيف الإسبانية:

تحميلا من بوابة الأرشيف الإسباني (Portal de Archivos Espanoles):

بوابة الأرشيف الإسباني (pares.mcu.es) هي الموقع الإلكتروني الرسمي الخاص بالأرشيف الإسباني وهو موقع حكومي مختص تابع لوزارة الثقافة والرياضة الإسبانية (Ministerio de Culyura y Deporte) توجد فيه آلاف

الوثائق التاريخية المرتبطة بالتاريخ الإسباني مأخوذة عن مختلف دور الأرشيف الإسبانية.

واعتماداً على هذه البوابة فقد تحصّلنا على الكثير من الوثائق التاريخية المتعلقة بالصراع الإسباني مع الدولة العثمانية وإيالاتها المغربية وبالتهديدات الأوروبية على الإيالات المغربية خلال القرن 16م، وبالتالي- وهو ما كان جيداً بالنسبة لدراستنا- فإن هذه الوثائق كانت مرتبطة بشكل مباشر مع موضوع بحثنا، إذ أن العديد من هذه الوثائق التاريخية تتحدث عن صراع الباب العالي مع إسبانيا وفرسان مالطا حول تونس وطرابلس الغرب في منتصف القرن 16م، وعن حصار مالطا سنة 1565م وكذا عن الدعم العثماني لثورة الموريسكيين سنة 1568م ومخاوف السلطات الإسبانية منه، إضافة إلى احتواءها على وثائق عديدة تنطبق لمعركة ليبانتو سنة 1571م ولحملة دون خوان على تونس وللحملة العثمانية لتحرير حلق الوادي ما بين 1573-1574م، وبإلقاء نظرة على خطة البحث المذكورة آنفاً نتأكد جيداً من مدى كون هذه الوثائق تتماشى بشكل كبير مع موضوع بحثنا مما يعتبر إضافة معتبرة له.

أخذت الوثائق التي تحصلنا عليها من بوابة الأرشيف الإسباني من اثنين من دور الأرشيف الإسبانية، وهي كالتالي:

3-1- وثائق أرشيف سيمانكاس (Archivo General de Simancas):

- A.G.S, EST, LEG, 1388,129-130
- A.G.S, EST, LEG, 1388,148

- A.G.S, EST, LEG, 1388,188
- A.G.S, EST, LEG, 1389, 34
- A.G.S, EST, LEG, 1389,53
- A.G.S, EST, LEG, 1393,214
- A.G.S, EST, LEG, 1393,230
- A.G.S, EST, LEG, 1398,160
- A.G.S, EST, LEG, 1400,47
- A.G.S, EST, LEG, 1401,141
- A.G.S, EST, LEG, 1402,91
- A.G.S, EST, LEG, 1402,93
- A.G.S, EST, LEG, 3631,64

3-2-وثائق الأرشيف التاريخي الملكي (Archivo Historico de la Nobleza):

- OSUNA, C.419, D.142
- OSUNA, C.419, D.226

ثانيا: المخطوطات: (مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية):

توجد بالمكتبة الوطنية الجزائرية عدة مخطوطات متعلقة بـ بدايات الوجود العثماني في الجزائر وبالصراع الجزائري الإسباني خلال القرن السادس عشر، وقد اعتمدنا منها مايلي:

- المخطوط رقم 1620 وهو عبارة عن رسالة من أعيان الأندلس للسلطان العثماني بايزيد الثاني من أجل التدخل لحمايتهم من اضطهاد المملكة الإسبانية وذلك مطلع القرن السادس عشر.

- المخطوط رقم 1622 (خبر قدوم عروج راييس إلى الجزائر و قدوم أخيه خير الدين) والذي يتحدث عن الإرهاصات الأولى لبداية الوجود العثماني في الجزائر ومارافقه من صراع الإخوة بربروس مع الإسبان في السواحل الجزائرية.
- المخطوط رقم 1626 (الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة) لصاحبه أحمد ابن رقية التلمساني ويتناول كذلك أهم الحملات الإسبانية على السواحل الجزائرية والصدام الذي وقع بين العثمانيين والإسبان في الجزائر إبان القرن السادس عشر وحتى عن تلك الحملات الأخرى اللاحقة خلال القرنين المواليين.

ثالثا: المصادر:

1- المصادر باللغة العربية:

- تحفة الكبار في أسفار البحار، الحاجي خليفة (ت1067هـ/1656م) وهو مصدر في غاية الأهمية خاصة فيما يتعلق بالحروب والفتوحات البحرية للدولة العثمانية في حوض البحر المتوسط، وقد اعتمدنا رواياته في وصف عدة وقائع بحرية يتناولها الموضوع كفتح طرابلس الغرب وحصار مالطا وفتح حلق الوادي، كما أفادنا في إجراء مقارنة الروايات التاريخية المتعلقة بالموضوع مع باقي المصادر سواء العربية أو الأجنبية .
- نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، للإفراني محمد الصغير (ت1043هـ/1670م) وهو كذلك من المصادر المهمة والقريبة زمنيا من الموضوع

قيد الدراسة، اعتمدنا فيه على ما يخص علاقة إيالة الجزائر بالدولة السعدية والمواجهات العسكرية التي جرت بينهما، إضافة إلى أنه أفادنا في دراسة وتحليل البعثات الدبلوماسية المتبادلة بين إيالة الجزائر والباب العالي من جهة والدولة السعدية من جهة أخرى، كما كان يشكل بالنسبة لنا فيما يتعلق بالعلاقة العثمانية السعدية مكملاً للنقائص التي صادفناها في الوثائق الرسمية.

- **تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية**، لمؤلف مجهول (عاش إبان القرن 16م)، أفادنا هو الآخر في دراسة علاقة إيالة الجزائر بالدولة السعدية واعتمدنا رواياته في مقارنة الروايات التاريخية الأخرى وإكمال ما شابها من نقص أو اختلاف.

- **تاريخ الشرفاء** لـ ديبغو دي طوريس، وهو عبارة عن مصدر أولي، عاش صاحبه في المغرب الأقصى خلال النصف الثاني من القرن 16م، وهي الفترة التي شهدت قيام الدولة السعدية في المغرب الأقصى وبداية صراعها مع إيالة الجزائر، وجدنا في رواياته الكثير من التحليلات والروايات المختلفة عما جاء في المصادر الأخرى وأفادنا بذلك في دعم تحليلاتنا ومقارناتنا المتعلقة بعلاقة إيالة الجزائر والباب العالي مع الدولة السعدية.

- **التنكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من الأخبار**، لمحمد بن خليل غلبون الطرابلسي، وهو مؤرخ عاش خلال القرن 18م، ورغم كونه مصدراً متأخراً نوعاً ما إلا أننا استفدنا منه في دراسة الأوضاع السياسية في طرابلس المغرب زمن الاحتلال الإسباني وحكم فرسان مالطا، كما أمدنا ببعض الروايات التاريخية المبكرة حول الفتح العثماني لطرابلس المغرب وحول التهديدات المستمرة لفرسان

مالطا على طرابلس الغرب والسواحل الشرقية التونسية وموقف الدولة العثمانية منها.

- **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار لمقديش محمود، وهو مصدر** من مصادر القرن 18م، عاصر فترة الوجود العثماني في تونس، أفادنا هذا المؤلف في دراسة فترة الوجود الإسباني في تونس خلال النصف الثاني من القرن 16م وفي دراسة بعض الحروب العثمانية في البحر المتوسط مثل حصار مالطا، وخصوصا بما يتعلق بالفتح العثماني لحلق الوادي والمواجهات العسكرية بين الباب العالي والمملكة الإسبانية للسيطرة على تونس وحلق الوادي مابين 1570-1574م.

2- المصادر باللغة الفرنسية:

- Histoire des Rois d'Alger :

لمؤلفه Haedo Frey Diego وهو قسّ إسباني أُسر في الجزائر خلال النصف الثاني من القرن 16م، تعتبر كتاباته من الروايات المهمة لدراسة تاريخ الجزائر في القرن 16م منذ مجيء الإخوة بربروس إلى الجزائر وإلى غاية نهايات القرن 16م، اعتمدنا عليه كثيرا في هذا الموضوع، سواء فيما يتعلق بالمواجهات العثمانية الإسبانية في حوض البحر المتوسط وشمال إفريقيا، مثل فتح طرابلس عام 1551م أو حصار مالطا سنة 1565م والتدخل العثماني في ثورة الموريسكيين سنة 1569م وكذا معركة ليبانتو وتحرير تونس مابين 1570-1574م، أو فيما يتعلق بالعلاقات مع الدولة السعدية والمواجهات العسكرية التي دارت معها خلال

الذصف الثاني من القرن 16م، كما أفادنا كذلك في الترجمة للكثير من الشخصيات التي وردت في هذه الدراسة، وكذا في مقارنة أعداد الجند والسفن والعتاد (الإحصائيات العسكرية) لدى أطراف الموجهات العسكرية المذكورة.

- Histoire Général des Turcs:

لمؤلفه Chalcondil Athénien وهو من مصادر القرن 17م، متخصص في دراسة تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها بالقوى الأوروبية، اعتمدنا عليه في دراسة التهديدات الإسبانية المالطية على كل من طرابلس الغرب وتونس، وكذا في دراسة الحروب العثمانية ضد القوى الأوروبية في البحر المتوسط، مثل حصار مالطا ومعركة ليبانتو، كما اعتمدنا عليه بشكل خاص في معرفة ما هو متعلق بتعداد الجند والسفن والعتاد الحربي (الإحصائيات العسكرية) بشكل عام لدى العثمانيين والأطراف الأوروبية في المواجهات المشار إليها آنفاً، ناهيك عن كون هذا المصدر إضافة إلى المصادر المسيحية عامةً يعطينا صورة أوضح عن الزاوية التي يكتب منها المؤرخ المسيحي عن الصراع الإسلامي المسيحي في القرن 16م.

رابعاً: المراجع:

1- باللغة العربية:

حاولنا قدر الإمكان خلال اعتمادنا على المراجع في هذه الدراسة أن نعتمد فقط على المراجع المتخصصة والتي تتماشى مواضيعها مع دراستنا هذه، ونذكر منها:

- المغرب في عهد الدولة السعدية، لعبد الكريم كريمة: وهو كتاب مختص في تاريخ الدولة السعدية، اعتمدناه في دراسة علاقة إيالة الجزائر والباب العالي مع الدولة السعدية والمواجهات التي دارت بين الطرفين، وقد أفادنا كثيراً في الفصل الثالث من الدراسة من حيث الإضافات التي قدمها لنا في الموضوع، ومن حيث ماورد فيه من مصادر تاريخية متنوعة، كما أعطانا

صورة لما يكتبه الطرف الآخر عن العلاقات الجزائرية السعدية خلال القرن 16م مما مكننا من أن نؤسس للموضوعية التاريخية في دراستنا هذه.

- الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا لعزير سامح إتر، وهو مرجع مختص في تاريخ الوجود العثماني في البلاد المغاربية وعلاقة العثمانيين بالأطراف الإقليمية في غرب البحر المتوسط، وتجدد الإشارة إلى أن هذا المؤلف لم يأخذ حقه مقارنة بباقي المراجع المتخصصة في الموضوع، لكننا نؤكد هنا على أنه مرجع في غاية الأهمية على اعتبار أنه يعتمد في دراسته على الكثير من الوثائق الرسمية العثمانية وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة مع الدولة السعدية أو بالحروب العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

2- باللغة الفرنسية:

- Histoire d'Alger Sous La Domination Turc:

لمؤلفه Henry Delmas De Grammont وهو مرجع متخصص في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، اعتمدها في أطوار كثيرة خلال الدراسة، خاصة بما يتعلق بتهديدات القوى الأوروبية على الإيالات المغاربية وبالأدوار التي اضطلعت عليها إيالة الجزائر سياسيا وعسكريا في المنطقة المغاربية والحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م، كما أفادنا كذلك في دراسة حيثيات الصراع الجزائري السعدي في النصف الثاني من القرن المذكور.

هذا إضافة إلى اعتمادنا على العديد من المجلات والتي نخص بالذكر منها مجلة (La Revue Africaine) والتي حوت أعدادها المختلفة عدة مقالات تخص موضوع الدراسة بشكل مباشر نظراً لاعتماد كتاب مقالاتها على العديد من المخطوطات والوثائق الأرشيفية التي تتعلق بالأوضاع السياسية في الجزائر وعلاقتها بالأطراف الخارجية خلال القرن 16م.

8- صعوبات البحث:

مثل كل الباحثين واجهتنا صعوبات وعراقيل عديدة في طريق بحثنا، لعل أهمها:

- صعوبة وضع خطة ثابتة للموضوع، وبالتالي صعوبة التقدم في الموضوع على اعتبار أن خطة البحث بمثابة دليل الباحث نحو هدفه في البحث، حيث أننا قمنا بتغيير خطة البحث عدة مرّات لتكون متوازنة معرفياً ومنهجياً من جهة، ولتساير التغيرات التي تطرأ على البحث مع اكتشاف كل متغير جديد من متغيرات البحث من جهة أخرى.

- طبيعة الموضوع في حد ذاته، فرغم كونه موضوع سياسي-عسكري إلا أنه معقد ومتشابك يحتاج لفهم الأوضاع العامة في منطقة حوض البحر المتوسط الحضارية والاجتماعية من أجل دراسته بشكل جيد ومتعمق.

- النقص المعرفي الذي تتركه الوثائق، إذ أن الوثيقة التاريخية ورغم كونها مصدراً أولياً لدراسة الموضوع التاريخي إلا أنها لا تغطي جميع الجوانب في الدراسة التاريخية، أو بالأحرى فإن ماتحملة الوثيقة قد لا يتماشى تماماً مع ما يهدف إليه الباحث في الدراسة أو مع ما يبحث عنه، مما يدفعه لتغطية النقص الذي تتركه الوثيقة من جهات أخرى، وأقصد هنا المصادر التاريخية (المخطوط أو المصنّف).

في الختام، أرجو أن تكون دراستي هذه في مستوى البحث التاريخي الأكاديمي الجدي والرصين، وأن تكون قد قدّمت إضافة ولو يسيرة لمجال البحث في تاريخ الجزائر الحديث بصفة خاصة ولمجال البحث التاريخي الأكاديمي في بلادنا بشكل عام.

هذا، كما أجدّد شكري وامتناني لأستاذي عبد الحق زريوح الذي طالما بدل جهداً في تنقيح عملي وطالما وجّه لي ملاحظات سديدة زادت من قيمة ومستوى

هذا البحث والأعمال المكّمة له، كما أشكر مسبقا أساتذة لجنة المناقشة الذين
لأشك سيبذلون جهدا لقراءة هذا البحث وتسجيل الملاحظات التي تخصه والتي
سأعمل بجدّ على الأخذ بها والاستفادة منها.

سالم جوامع، بودوخة (صندوق بريد 21034)، ولاية سكيكدة

في 25 جويلية 2023

الفصل التمهيدي: أوضاع بلاد المغرب والدولة العثمانية نهاية القرن 15م
ومطلع القرن 16م

مدخل

المبحث الأول: أوضاع بلاد المغرب نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م

المبحث الثاني: أوضاع الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية نهاية القرن 15م

ومطلع القرن 16م

خاتمة الفصل

شهد العالم الإسلامي مطلع العصر الحديث بشقيه المشرق والمغرب تحولات هامة ومحورية على جميع الأصعدة، وخاصة السياسية والدضارية، سببتها مجموعة من الظروف والعوامل الإقليمية والدولية وقتئذ.

ففي المغرب الإسلامي شهدت المنطقة نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م بداية انهيار وزوال دول خلفاء الموحدين؛ الحفصية والزيرية والمرينية، وقد كان الصراع السياسي بين هذه الدول الثلاث والذي رافقها منذ نشأتها في القرن 13م أحد أهم العوامل التي سببت ضعفها ثم زوالها في الأخير مع بداية العصر الحديث، هذا؛ في الوقت الذي سقطت فيه مملكة غرناطة آخر الأقاليم الإسلامية في الأندلس وما ترتب عنه من طرد وتهجير المسلمين إلى بلاد المغرب وكذا ظهور موجة الاحتلال الإسباني للمنطقة.

أما في بلاد المشرق الإسلامي، فقد بزغ كيان سياسي جديد مُمثلا في الدولة العثمانية التي أخذت في النمو والتوسع شيئا فشيئا إلى غاية تمكّنها من فتح القسطنطينية منتصف القرن 15م، لتستولي عندئذ على أراضي الإمبراطورية البيزنطية وتأخذ مكانها كقوة دولية في المشرق الأدنى والحوض المشرقي للبحر المتوسط، خصوصا بعد توسعها في جنوب شرق أوروبا ثم في المشرق الإسلامي. ومنه فإن هذا الفصل التمهيدي يتمثل في دراسة مختصرة لأوضاع البلدان المغربية التي ستضم لاحقا للحكم العثماني (الجزائر وتونس وطرابلس المغرب) خلال القرن 15م ومطلع القرن 16م وظهور الإمارات المستقلة والنزعات الاستقلالية فيها والتي كانت نتاجا لضعف السلطة المركزية لهذه الدول وتراخيها خلال هذه الفترة، وفي المقابل سندسلط الضوء على أوضاع الدولة العثمانية وتوسعاتها الإقليمية في شرق أوروبا والمشرق الإسلامي والتي كانت هي الأخرى نتاجا لقوة الدولة العثمانية ودليلا على صعود إمبراطورية جديدة ستكون قائدا للعالم

الإسلامي ودرعا عسكريا في مواجهة الحملات الغربية المسيحية للسيطرة عليه في ظل الصراع الحضاري الجديد الذي بُعث مرة أخرى مع بدايات العصر الحديث.

المبحث الأول: أوضاع بلاد المغرب¹ نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م:

بسبب الصراعات والتوترات السياسية بين الكيانات السياسية في المغرب الإسلامي خلال الفترة التي سبقت مطلع العصر الحديث، دخلت بلاد المغرب مرحلتها الحديثة وهي منهوكة القوى، متأزمة الأوضاع، دُولها متداعية متساقطة ومجتمعاتها مفككة، وأبوابها مفتوحة أمام الغزو الخارجي²، حيث ساهمت الحروب والصراعات بين دول المنطقة في خلق نوع من الفوضى السياسية في بلاد المغرب مما أدى إلى قيام الثورات والفتن الداخلية التي ساهمت في إضعاف المنطقة بشكل عام.

أولا: المغرب الأوسط (الجزائر):

كان من نتائج هذه الحروب المستمرة على المغرب الأوسط أن عمّت الفوضى ولم يحلّ القرن 15م على الانتهاء حتى بدى واضحا عجز بني عبد الواد عن فرض سيطرتهم على البلاد، ليس هذا فقط بل ولا حتى على الناحية الغربية والعاصمة تلمسان إلا بعسر³، ويصف توفيق المدني حالة بلاد المغرب عامة والجزائر خاصة بقوله: "ولم يكتف أهل هذا القطر المغربي لسوء حظهم بمحاربة

¹ يعني مصطلح بلاد المغرب في هذه الدراسة المنطقة الجغرافية الممتدة من إقليم طرابلس الغرب وضواحيه شرقا إلى سواحل المحيط الأطلسي غربا، فيما نقصد بالإيالات المغربية الدول التي كانت تابعة للدولة العثمانية في بلاد المغرب وهي الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. (الباحث)

² المغرب العربي الحديث من خلال المصادر (مؤلف جماعي)، تن، دلدنة الأرقش، د.ط، مؤسسة النشر الجامعي، تونس، 2003، ص9

³ الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها (مؤلف جماعي)، تن، عايشة غطاس، ط.خ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2007، ص11

دولة لدولة أو مَلِك لملك، إنما داخل كل دولة وحول كل مَلِك كانت الدسائس والفتن والمؤامرات والقتل، وما يتخلل ذلك من هول ومن فظائع هي القاسم المشترك الذي أَرَدَى البلاد وحطّم قواها وجعلها فريسة لكل مفترس...¹ وفي كتابه القيم "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا" يقول كذلك بأن التقهقر والفوضى والانحلال تلك هي الكلمات التي تلخص لنا حالة بلاد المغرب المؤلمة مطلع القرن 16م².

وتتفق الدراسات الأجنبية المعاصرة مع نظيرتها المحلية في وصف حالة المغرب الأوسط في هذه الفترة فقد جاء عن "جون وولف" صاحب "كتاب الجزائر وأوروبا" أن المغرب الأوسط أصبح نهاية 15م بدون حكومة يمكنها أن تزعم أنها تحكم باسم كل المنطقة، فقد كان عبارة عن مستنقع سياسي من مدن صغيرة وقرى مستقلة³، أما "يانسيك ماخوفسكي" صاحب كتاب "تاريخ القرصنة في العالم" فيذكر أنه بدءًا من منتصف القرن 15م أخذت دولة الحفصيين - والتي كانت تضم الجزء الشرقي من المغرب الأوسط - في التفكك لتحلّ محلها عدد من الدويلات الصغيرة التي استولت على معظم الموانئ في شمال أفريقيا مثل طرابلس وتونس والجزائر

¹ المدني أحمد توفيق، تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين، 1530-1554، مجلة الأصالة، الجزائر،

ع26، 1975، ص38

² المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، د.ط، دار البعث، قسنطينة، د.ت، ص64

³ وولف، ج.ب، الجزائر وأوروبا، تر و تع، أبو القاسم سعد الله، ط.خ، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 23، 24

وبجاية¹، وعن الوضع ذاته في المغرب الأوسط أواخر القرن 15م يقول المؤرخ "نيقولا إيفانوف" في كتابه "الفتح العثماني للأقطار العربية" إن الجزائر آنذاك كانت تمثل لوحة مُحزنة لبلاد مدمر، مستعبد وتتنازعه الصراعات الداخلية، ولم تكن في الواقع بالمغرب الأوسط أي سلطة حكومية موحدة، كانت البلاد ممزقة ومجزّعة إلى إقطاعات مستقلة متعددة، وإمارات للبدو الرحّل ومدن يحكمها الطغاة².

وبحكم أن القرن 16م هو قرن ارتباط بلاد المغرب بالدولة العثمانية فإن الدراسات التركية المعاصرة لم تُهمل هي الأخرى الحديث عن حالة الجزائر السياسية مطلع هذا القرن، فهذا المؤرخ التركي يلماز أوزتونا (Yilmaz Oztuna) يقول في كتابه "تاريخ الدولة العثمانية": "...كان وضع الجزائر الوسطى والشرقية ضعيفا تماما، كان شيوخ البرابرة المستعربون في نزاع وقتال، وكل واحد فيهم يسعى لإفناء الآخر، وليس من بينهم من يحمل صفة الحاكم...وقد كان ساحل الجزائر مفتوحا ومُيسرا للاستيلاء من قبل قوة خارجية..."³، أمّا "سامح إتر" صاحب كتاب "الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية" فيصف الوضع في المغرب عامة والمغرب

¹ ماخوفسكي يانسيك، تاريخ القرصنة في العالم، تر، أنور محمد إبراهيم، د.ط، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2008، ص 87

² إيفانوف نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية، تر، يوسف عطا الله، ط1، دار الفرابي، بيروت، 1988، ص97

³ أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تر، عدنان محمود سليمان، ط1، مؤسسة فيصل للتمويل، إسطنبول، 1988، ج1، ص240

الأوسط خاصة مطلع القرن المذكور بالضعف والانحلال مما جعله عرضة لحملة استيطانية من قبل إسبانيا والبرتغال¹.

1- ضعف السلطة المركزية:

مع نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م، ضعفت السلطة المركزية في البلدان المغربية (ويهمنا بشكل أكبر السلطان في تونس وتلمسان بحكم أن المغرب الأوسط الذي ستقوم فيه إيالة الجزائر العثمانية كان خاضعا لهما) ولم يعد نفوذهما الحقيقي يتعدى حدود عواصمهما والمناطق القريبة منها، أما في باقي الأجزاء فقد استبدت بها عملياً إما كيانات إقطاعية واهية تستمد قوتها من العصبية القبلية أو دولاً مدنً على السواحل، و أصبحت الحكومة المركزية دون سلطة ودون صلة مع الجهات النائية، فالدولة الزيانية لم تعد قادرة على فرض سيطرتها على المناطق الغربية للدولة ولا حتى على تخوم تلمسان إلا بعسر كبير²، ونفس الشيء بالنسبة للحفصيين الذي لم تعد سلطتهم تتعدى حدود العاصمة تونس أو على الأقل لم تعد مدن المغرب الأوسط وقبائله خاضعة لهم، حيث كانت السلطة الحفصية مهتمة فقط بفتحها الداخلية شديدة التعقيد وبالصرع الذي صارت تعيشه

¹ إلتز عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، تر، محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص17

² جميل عائشة، الجزائر والباب العالي من خلال الأرشيف العثماني 1520-1830، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2017-2018، ص 4، بلعربي خالد، الوضع السياسي في الجزائر أواخر سقوط الدولة الزيانية، مجلة كان التاريخية، ع23، 2014، ص31، الدولة الجزائرية الحديثة، المرجع السابق، ص11

الأسرة الحاكمة في هذه الفترة التي تفتت فيها الفضاء السياسي الحفصي وخرجت أقاليم كثيرة عن سلطة الدولة¹.

في ظل هذه الواقع السياسي الهش الذي ميّز المغرب الأوسط وسُلطتيه الزيانية والحفصية، كان لابد للقبائل والعشائر أن تتمرد وتشق عصا الطاعة بل وأن تستقل وتهدد السلطة المركزية، ففي الشرق كانت القبائل العربية والبربرية بقسنطينة وفي مملكة بجاية تعلن استقلالها²، كما أعلنت قبائل بني هلال وبني سليم هيمنتها على المناطق التابعة للدولة³، وبدواخل الغرب ساد نفوذ قبائل سويد وبني عامر⁴ والتي لعبت رفقة قبائل بني راشد دوراً في ضعف الدولة الزيانية، فضلا عن أن القوى الدينية ورجال الدين والمتصوفة اقد لعبوا هم أيضا دورا هاما في إضعاف الدولة وتأليب الناس ضد الحكومة المركزية في وقت الذي أصبح فيه رؤساء القبائل أقوى من الملوك⁵، حتى أن الكثير من الحكام (الزيانيون والحفصيون) اضطروا إلى

¹ ابن أبي دينار، محمد ابن أبي القاسم، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط.ح، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1865، ص159، فيرو شارل، تاريخ جيجلي، تر، عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر 2010، ص94، بن عميرة محمد، بن عميرة لطيفة بشاري، تاريخ بجاية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين، ط1، دار الفاروق، الجزائر، 2015، ص289

² فيرو، تاريخ جيجلي، المرجع السابق، ص94

³ بلعربي، المرجع السابق، ص101

⁴ حول سيطرة قبائل سويد وبني عامر وخروجهم عن قبضة السلطان وغاراتهم المتكررة على جيرانهم، ينظر: المازوني أبو زكريا يحي، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح، قموح فريد، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2011، ص154

⁵ بلحميسي مولاي، نهاية دولة بني زيان، مجلة الأصالة، الجزائر، ع26، 1975، ص34، بن خروف عمار، العلاقات بين الجزائر والمغرب 1519-1659، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، جامعة دمشق، 1983، ص18، جميل عائشة، المرجع السابق، ص5

الاستعانة بهذه القبائل ومنحها بعض الامتيازات خاصة قبائل بني عامر وسويد في المغرب وقبائل الذواودة والحناشنة ودريد في الشرق ، وقد ورد في نوازل المازوني على سبيل المثال أن قبائل غرب البلاد: "لم تعود تجري فيها أحكام السلطان ولا نوابه، بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم، بل إنما يداريهم بالأعطية والأنعام ببعض بلاد رعيته..."¹، وهذا ماجعل هذه القبائل تستغل حاجة السلطان إليها لتقلص من نفوذ الدولة عليها بشكل كبير.²

كان هذا الضعف الذي ميّز السلطة المركزية، وتعاظم نفوذ العشيرة والقبيلة والصراع القائم-ولو نسبيا-بينهما قد عمق ظاهرة الانحطاط والتفكك والفوضى³ مما أدى إلى سوء الأوضاع الاجتماعية واضطراب الأمن في المغرب الأوسط، وأصبح أهم ما يميّز المغربي مطلع القرن 16م-والوضع هنا ساقط على البلدان المغربية برمتها- هو شعوره الحاد والدائم بالخوف على نفسه وذويه و أملاكه⁴، كيف لا، وقد استولى المرابطون والمغامرون على السلطة، وأصبحت عقلية البداوة

¹ المازوني، المصدر السابق، ص155،154

² سعيدوني ناصر الدين، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2013، ص12، بلعربي، المرجع السابق، ص101، وللمزيد حول مكانة القبائل العربية في الدولة الزيانية ينظر: بن فريجة عبد المالك، القبائل العربية ومكانتها في الدولة الزيانية، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 1، الجزائر، 2014-2015

³ هذه الظاهرة شهدها أيضا المغرب الأقصى في الفترة ذاتها، وهو ما يتجلى من خلال الكتابات المغربية التي تؤرخ لهذه الفترة. ينظر: كريم عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ط3، جمعية المؤرخين المغربية، الرباط، 2006، ص13-23، بوشرب أحمد، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، ط1، دار الأمان، الرباط، 1997، ص66

⁴ المرجع نفسه، ص66

والعصبية القبلية هي المسيطر والمتغلب، ولا أدل على وصف هذا الوضع الاجتماعي والأمني المضطرب مما أورده صاحب "الدرر المكنونة" في بعض المسائل المتعلقة بالجانب الأمني بالمغرب الأوسط في هذه الفترة حيث ورد في بعض هذه المسائل أنه عمّت اللصوصية والظلم والمجاعات والأوبئة التي أرغمت الناس على مغادرة منازلهم وأوطانهم، كما انعدم الأمن نتيجة تراخي قبضة السلطان¹.

2- قيام الإمارات المستقلة:

جاء عن ابن سحنون الراشدي وصف لما آلت إليه بلاد المغرب الأوسط نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م حيث ورد عن صاحب "الثغر الجماني" أن: "...وكانوا لا يُقَرّون لملوكهم على قرار ولا يزالون يثورون على حكمهم في سائر الأعصار والأمصار... وهرمت دولتهم، ولما هلك السلف وضعف الخلف طمحت إلى بلدهم نفوس الكفرة..."².

وقد نتج عن هذا الوضع استقلال المدن والنواحي البعيدة عن الحكم المركزي مما أدى إلى اضطراب المغرب الأوسط وتجزئته إلى وحدات سياسية صغيرة ومتنافرة، فكل المدن الساحلية كانت إما تحت حاكم زياتي أو حفصي منشق أو تحت حكم مجلس منتخب من سكان المدينة³، ودسب وصف عبد الرحمن

¹ المازوني، المصدر السابق، ص 155، 154

² الراشدي بن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح، محمد البوعبدلي، ط1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص 456

³ بن خروف، المرجع السابق، ص 20

الجيلالي فقد " استبد الولاية ورؤساء القبائل والشيوخ و قادة الجيش بما اتصل بأيديهم من الولاية والحكم"¹، ففي أواخر القرن 15م كانت وهران تبدو مدينة مستقلة غير خاضعة لملوك تلمسان ولا يقبل أهلها أي والٍ من وُلاتها، يعينون من أعيانهم مشرفاً ومسيراً للمدينة، وقد ورد عن حسن الوزان الذي زار المنطقة في هذه الفترة أنه: "... كان الوهرانيون أعداء لملك تلمسان، لا يقبلون قط أي والٍ من ولاته ما عدا أميناً للمال وقابضاً يستلم مداخل المدينة، وكانوا ينتخبون رئيس مجلسٍ ينظر في القضايا المدنية والجنائية..."²، وقد كان هذا في الوقت الذي كانت فيه المملكة الزيانية لا تتعدى سلطتها العاصمة تلمسان وما جاورها من الأراضي³، كما كان الأبناء يثورون على آبائهم ويتحاربون على العرش فيما بينهم، مثلما حدث في عرش تنس بعد وفاة أميرها محمد الثابتي وما رافقه من صراع بين أبنائه الثلاثة حول الحكم مما أدى إلى خضوع مدينة تنس للحماية الإسبانية⁴، وقد تولى حكمها "حميدة العبد" الذي أسس بدوره إمارة ممتدة من غرب مدينة الجزائر إلى مصب وادي الشلف شرق مستغانم وإلى ما بعد المدينة جنوباً⁵، وفي شرشال-التي هُجرت بسبب الصراع الحفصي الزياني- اشكّل الموريسكيون

¹ الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، د.ط، دار الأمة، الجزائر، 2000، ج2، ص 276

² الوزان حسن، وصف إفريقيا، تر، محمد حجي و محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج2، ص 30، وينظر كذلك: كربخال مارمول، أفريقيا، تح، ترجمة محمد حجي، ط1، دار

المعارف، الرباط، 1984، ج2، ص 329

³ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 68

⁴ ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 35، 36، كربخال، المصدر السابق، ج2، ص 353

⁵ سعيدوني، المرجع السابق، ص13، الوزان، المصدر السابق، ج2، ص41

سلطة خاصة بهم لم تخضع لا لملوك تونس ولا لنظرائهم من بني زيان سُمّيت بمقاطعة المهاجرين¹، وفي الدواخل شكّلت مدينة مليانة إمارة مستقلة هي الأخرى، وحسب كربخال فإن هذه الأخيرة قد عرفت عهداً من الحرية استطاعت خلاله أن تدافع عن نفسها من الملوك الزيانيين، وقد عاش سكانها أحراراً إلى غاية ضمّها وإخضاعها من طرف العثمانيين².

أما شرق البلاد فعرف نفس الانقسامات التي عاشها غربها، فهاهي بجاية الحفصية قد كانت في هذه الفترة تعرف نوعاً من الاستقلال عن الحكم الحفصي منذ عهد الأمير أبو حسان الذي أسّس حكماً مستقلاً ببجاية، واستمر حكامها فيما بعد يتمتعون باستقلالية دائمة، وقد استمرت إلى غاية مطلع القرن 16م في شكل إمارة أو سلطنة تشكّل إقطاعاً للسلطة الحفصية المتمثلة في أميرها عبد العزيز الذي استقل بنفسه بحكم المدينة وقد كان أثناء هذه الفترة في صراع مع أخيه أبي بكر حاكم قسنطينة³، كما يقول كربخال عن بجاية أن أهلها لا يولون وزناً لسلطة الملوك وأنّ المدينة تكتسب ثروة هائلة من التجارة مع أوروبا⁴، كما لم تكن مدينة

¹ الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 34، إيفانوف، المرجع السابق، ص97

² الوزان، المصدر السابق، ج2، ص35، كربخال، المصدر السابق، ج2، ص360

³ دكاني نجيب، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر2، 2001-2002، ص11، فاليرين دومينيك، بجاية ميناء مغاربي، اتر، علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014، ص112، عبّاد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي، ط1، دار هومة، الجزائر، 2012، ص10، بن عميرة، المرجع السابق، ص286

⁴ كربخال، المصدر السابق، ج2، ص 376، 377

جيغل حسب المصدر ذاته تخضع لملوك تونس ولا لؤلّاتهم في بجاية¹، أما الوزان فيقول عنها أنها حافظت على حريتها من ملوك تونس وبجاية بفضل حصانة موقعها²، وشرقاً منها نجد مدينة القلّ التي بدت شبه مستقلة، سكانها متحررون لم يفتأوا يدافعون عن أنفسهم ضد سلطة تونس وحاكمها في قسنطينة³، أما هذه الأخيرة إحدى الحواضر الحفصية الكبرى في المغرب الأوسط فقد اتضح انفصالها عن الحكومة المركزية في تونس واستقل بها الحكام الحفصيون المحليون، أو على حد تعبير مورسيي (Mercier) قامت بها "دولة قسنطينة" المستقلة نهاية القرن 15م⁴، وكان ذلك في عهد السلطان محمد الثاني بن الحسن الحفصي (1493-1526م) الذي قال عنه ابن أبي دينار أنه يعتبر ختام الدولة الحفصية ولم يبق بعده "إسم و لا رسم" بعدما قام أهلها بعدة ثورات على الحكم الحفصي أهمها تلك الثورات التي قادتها قبائل رياح إيذاناً منها بالانعتاق من السلطة الحفصية⁵، وإلى الجنوب من قسنطينة كان إقليم الزاب والحصنة واكذا لمناطق المتاخمة للصحراء تحت حكم أمراء البدو من الذواودة⁶.

¹ كربيخال، المصدر السابق، ج2، ص 381

² الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 52

³ المصدر نفسه، ج2، ص54، عباد، المرجع السابق، ص10

⁴ Mercier Ernest, Histoire de Constantine, Marle et Biron Imprimerie Editeur, Constantine, 1903, p178

⁵ الوزان، المصدر السابق، ج3، ص 12، ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص151-159

⁶ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص37، سعيدوني، المرجع السابق، ص13، 12، إيفانوف،

المرجع السابق، ص97

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الإمارات والممالك تفاوتت من حيث القوة والانتشار إلا أن أقوى هذه الإمارات عسكرياً وأثقلها وزناً سياسياً هي الإمارات التالية: إمارة الثعالبة في مدينة الجزائر، إمارة جبل كوكو وإمارة بني عباس جنوب بجاية، إضافة إلى إمارة بني جلاب في تڤرت، وقد لعبت هذه الإمارات المستقلة دوراً بارزاً مطلع القرن 16م خصوصاً في علاقتها بالعثمانيين الذين سيظهرون بالمنطقة خلال هذه الفترة¹.

ثانياً: المغرب الأدنى (تونس-طرابلس الغرب):

1- تونس:

منذ منتصف القرن 15م بدأت بوادر الضعف تظهر على الدولة الحفصية في المغرب الأدنى على غرار ما حدث للأنظمة السياسية في المغربين الأوسط والأقصى، حيث عرفت هذه المرحلة ضعف السلطة المركزية وانفصال الأقاليم وما رافقه من التمردات الداخلية.

كانت فترة السلطان الحفصي أبا عمر عثمان (1435-1488م) آخر فترات القوة بالنسبة للسلطة الحفصية ومع ذلك لم تخلُ هذه الفترة من مظاهر الانحلال والضعف السياسي، فمنذ تولّيه الحكم مع منتصف القرن 15م كان على هذا السلطان أن يواجه مجموعة العقبات التي باتت تهدد الدولة الحفصية وأهمها:

¹ حول أهم الإمارات المحلية بالمغرب الأوسط مطلع القرن 16م ينظر: جوامع سالم، الإمارات المستقلة بالمغرب الأوسط مطلع العصر الحديث؛ أصولها ونشوءها، مجلة مدارات تاريخية، الجزائر، مج2، ع4،

الصراع على الحكم في الأسرة الحاكمة وظهور حركات الانفصال في المدن والأقاليم، إضافة إلى الانتفاضات والثورات المتكررة للقبائل¹.
كان ضعف السلطة المركزية عاملاً مُحفزاً للمدن والأقاليم البعيدة عن العاصمة تونس² من أجل التمرد والانفصال وهو ما شهدته الدولة الحفصية بالفعل في هذه الفترة، حيث عرفت مدينة طرابلس العديد من الثورات والتمردات ذات النزعة الانفصالية والتي اضطرت السلطان الحفصي سنة 1450م إلى محاولة استعادة النفوذ الحفصي المُهدّد فيها، حيث يقول الزركشي: "...ورحل السلطان إلى طرابلس يهدّن أوطانها ويطلب جبايتها..."³، وفي سنة 1460م طرد سكان طرابلس الوالي الحفصي وعيّنوا عليهم والياً منهم هو الشيخ سيدي منصور من أعيان المدينة، واستمرت السلطة في تنازع بين المحليين والسلطة الحفصية إلى غاية سنة 1493م أين انفصلت طرابلس بشكل شبه نهائي مُشكّلة حُكماً محلياً بزعامة المشايخ والمرابطين⁴.

ولم تقتصر التمردات الداخلية على الأقاليم البعيدة من العاصمة، حيث كانت المدن القريبة من تونس تشهد انتفاضات وثورات ضد السلطة الحفصية كما هو

¹ Histoire General de La Tunisie (Livre Collectif), Sud Edition, Tunis, 2008, T2, p384

² تونس: مدينة ساحلية تقع شمال البلاد، كانت عاصمة الدولة الحفصية ثم مقر إيالة تونس العثمانية، خضعت للسيطرة الإسبانية ما بين 1535-1574م، تم تحريرها وضمها نهائياً للحكم العثماني سنة 1574م، للمزيد حولها ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص70

³ الزركشي محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح، محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص145

⁴ ينظر العنصر الموالي المتعلق بطرابلس.

الحال مع مدينة نفطة¹ وكذلك مدينة القيروان التي انفصلت بعد وفاة السلطان عثمان تحت واستسلمت لحكم أسرة الشايبين².

هذا، وقد كانت الضرائب والمغرم المفروضة على المدن والقبائل من قبل الحكومة المركزية إحدى أسباب قيام الثورات والانتفاضات، إذ جاء عن الزركشي أن عرب أفريقية من أولاد مسكين وأولاد يعقوب والشنانفة تملدوا على السلطان بسبب جور الضرائب³، ويؤكد ذلك الرحالة المغربي حسن الوزان الذي يقول عن مدينة القيروان: "إن ملك تونس يثقل كاهلهم بالضرائب حتى صارت عيشتهم ضنكا..." ويؤكد الشيء نفسه أيضا بالنسبة لمدن قابس وبنزرت⁴.

ولم تجد القبائل الشرقية للمغرب الأوسط التي كانت تحت نفوذ الحفصيين عن ظاهرة الاستقلال عن السلطة الحفصية، حيث انتفضت قبيلة الذواودة بزعامة أسرة بن صولة وطردوا الوالي الحفصي منصور الصبان سنة 1464م، كما ثارت قبائل ورقلة وتقرت ووادي ريغ حتى أجبرت السلطان الحفصي على قيادة حملة عسكرية لإعادة نفوذه للمنطقة واخضاعها "لأجل فساد أهلها ومخالفتهم قواد السلطان"⁵، ويقول "روبير برونشفيك" في كتابه "تاريخ الدولة الحفصية" أن الذواودة كانوا يكدون الكره الشديد للسلطان الحفصي وأن هذا الأخير لم يتمكن من وضع

¹الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء أفريقية، تح، تق، محمد زينهم عزب، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2013، ص198

²قويسم محمد، قسنطينة ما بين القرن 13م والقرن 16م، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر2، 2014، ص102

³الزركشي، المصدر السابق، ص148

⁴الوزان، المصدر السابق، ج2، ص91

⁵الزركشي، المصدر السابق، ص156

حد نهائي لثورتهم وأعمالهم التخريبية التي أدت إلى انتشار اللأمن في المناطق والطرق الداخلية¹.

أما مدن المغرب الأوسط الحفصية مثل قسنطينة وبجاية والقل فقد كانت هي الأخرى تنفصل الواحدة تلو الأخرى عن السلطة الحفصية مؤسّسة حكومات محلية بزعامة شيوخها أو تحت حكم الولاة الحفصيين المتمردين وهو ماتمت الإشارة إليه في العنصر السابق.

ومما يؤكد كثرة الثورات والانتفاضات في المدن والأقاليم الحفصية ما ذكره "الشّماع" في كتابه "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" عن السلطان أبو عمر عثمان الذي كان "ملازما للسفر في كل عام لردع المفسدين في الأرض"²، ومنذ وفاة الأخير سنة 1488م- والذي يصفه صاحب "الخلاصة النقية" بأنه "خاتمة رجال بني حفص وتدّمة أنجادهم"³- أصبحت الدولة الحفصية مثل "مارد يقف على ساقين من طين" حسب الوصف الذي استعمله المؤرخ الروسي نيقولايف إيفانوف كدلالة على الهشاشة الكبيرة التي وصلت إليها الدولة، كما يقول إيفانوف كذلك بأن محاولات خلفاء هذا السلطان لتخلّص من ذفوذ الأعراب ومحاولات الانفصال كانت غالبا ما تنتهي بالفشل⁴، وفي عهد السلطان أبي عبد الله محمد ابن الحسن (1493-1452م) يقول صاحب كتاب "المؤنس في أخبار أفريقية

¹ برنشفيك روبير، تاريخ أفريقية في العهد الحفصي، تر، حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج1، ص288

² ابن الشّماع أبو عبد الله محمد، الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح، تق، الطاهر العموري، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص132

³ المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص198

⁴ إيفانوف، المرجع السابق، ص178

وتونس:" أذنت الدولة إلى الانقراض وخرجت أكثر البلاد عن طاعته..."¹، ومع نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م أصبحت القوة العسكرية الحفصية غير ذي فائدة في مقاتلة أي عدو قوي كما أصبحت البحرية تشكل نقطة ضعف كبيرة في الدولة وغير قادرة البتة على مواجهة التهديدات الصليبية الخارجية².

2- طرابلس الغرب:

كانت طرابلس الغرب³ وأقاليمها تابعة للدولة الحفصية، يحكمها السلطان الحفصي بواسطة والٍ يُعيّنه تنحسر مهامه في جمع الجباية وتجنيد الرجال، غير أن المدينة كما رأينا بدأت تعرف مع منتصف القرن 15م العديد من الثورات والانتفاضات ضد الحكم الحفصي.

في هذه الفترة شهد الواقع السياسي في المدينة تعاضم نفوذ الشيوخ والقضاة ورجال الدين على المدن والقرى والقبائل فعملوا على قطع صلاتهم بحاكم بلادهم وامتنعوا عن الاعتراف بملكٍ يُؤدّون إليه الخراج⁴، وقد وصل الحكم الحفصي في المدينة من الضعف إلى درجة مكنت شيوخ الزوايا من حكم المدينة والسيطرة على المنطقة حتى عُرفت هذه الفترة بـ"حكم المشايخ"⁵، وهنا يذكر المؤرخ "إيتوري

¹ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 159

² إيفانوف، المرجع السابق، ص 180، Histoire General de la Tunisie, op-cit, T2, p385،

³³ طرابلس: وتعني "المدن الثلاث" باللغة اللاتينية، كانت تابعة للدولة الحفصية قبل أن تخضع للاحتلال

الإسباني سنة 1511م، تم تحريرها وضمها للدولة العثمانية سنة 1551م، أطلق عليها تسمية طرابلس

الغرب لتمييزها عن طرابلس الشام الواقعة في لبنان حالياً. للمزيد حولها ينظر: الوزان، المصدر السابق،

ج2، ص 97

⁴ الباروني عمر محمد، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، د.ط، مطبعة الاماجي، طرابلس،

ليبيا، 1952، ص 9

⁵ ابن اسماعيل عمر علي، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا، ط1، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا،

1966، ص 17

روسّي " أنه منذ النصف الثاني من القرن 15م شكّلت طرابلس حُكما قريب الشبّه بالجمهورية وكان لطرابلس مجلس شورى يرأسه شيخ¹.

وفي هذه الفترة من القرن 15م كانت طرابلس لا تكاد تنتهي من ثورة حتى تندلع فيها أخرى ضد السلطة الحفصية ويقوم أهلها بالتمرد ضد الوالي الحفصي في المدينة مما يجبر السلطان الحفصي على الخروج إلى المدينة من أجل تعيين ولاة جُدد ولدسط نفوذه على المدينة، ويورد الزركشي نصاً في هذا الصدد يقول فيه: "... في سنة 861هـ (1456م) بعث السلطان بجيش لعزل القائد ظافر وتع بين القائد رضوان بعد انتفاضة أهل طرابلس... وفي آخر سنة 862هـ (1457م) خرج السلطان محلته إلى تاورغة وقفل راجعا وعقد في رجوعه على طرابلس للقائد أبو النصر بن جال الخير وصرفه إليها..."².

في سنة 1460م عرفت المدينة إحدى أخطر الثورات المحلية ضد السلطة الحفصية إذ قام أهالي المدينة بالتمرد على الوالي الحفصي وطردوه من المدينة التي أعلن أهلها انفصالهم عن الحكومة المركزية وقاموا بمبايعة رجل يسمى الشيخ سيدي منصور والياً عليهم نظراً لنفوذه الكبير في المدينة في الوقت الذي أرسلت فيه البيعة إليه كل من قبائل غريان وبنو وليد وترهونة ومسلاتة ومصراتة وتاجوراء وزوارة، وقد حاول السلطان الحفصي أبو عمر عثمان أن يرد الاعتبار للسلطة الحفصية في طرابلس فجهّز حملة عسكرية بتعداد خمسة آلاف جندي وثلاثة آلاف فارس غير أن أهالي طرابلس وحكومة مشايخها بقيادة سيدي منصور تمكنوا من هزيمة الجيش الحفصي³.

¹ روسي إيتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911، تر، اتق، خليفة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب، الإسكندرية، 1991، ص147

² الزركشي، المصدر السابق، ص150

³ الباروني، المرجع السابق، ص11

غير أن الفتن ظهرت داخل حكومة المشايخ هذه نفسها وانتهت باغتيال الشيخ سيدي منصور ومبايعة الشيخ سيدي يوسف خليفة له، كما أن السلطان الحفصي حاول مرة أخرى إعادة طرابلس إلى سلطانه فعين ابنه أبا بكر واليا عليها، إلا أن الانقسات داخلة البيت الحفصي حالت دون استقرار السلطة الحفصية في طرابلس حيث بعد وفاة السلطان أبو عمر عثمان سنة 1488م قام خليفته باغتيال ابن عمه الأمير أبو بكر والي طرابلس¹ مما ساعد على ظهور الفتن من جديد وانفلات المدينة من الهيمنة الحفصية، حيث قامت بها انتفاضة جديدة بزعامة "ابن طليس" الذي تولى حكم المدينة بعد هذه الأزمة وامتد نفوذه حتى الصحراء جنوباً². مع نهاية القرن 15م وبالتحديد سنة 1492م تأسس في طرابلس نظام حكم مشيخي جديد بزعامة الشيخ عبد الله الذي وُلِّي بإجماع أهل طرابلس وقد كانت له علاقات بتونس العاصمة إلا أنها اقتصرت على الجانب التجاري فقط دون السياسي³، حيث أن النفوذ الحفصي على المدينة لم يعد أواخر القرن 15م إلا إسمياً فقط⁴، ويصف الحسن الوزان المشهد السياسي في طرابلس مطلع القرن 16م بقوله: "إن أهالي طرابلس كانوا يطردون الحاكم الحفصي وجميع موظفيه في كل مرة ويقومون بتعيين وإل عليهم من بينهم..."⁵.

وقد أدت الثورات الداخلية وكثرة الانتفاضات إلى التأثير سلباً على طرابلس وإقليمها حيث لم يهتم حكامها المحليون -الذين كانوا في صراع مزدوج مع السلطة الحفصية من جهة ومع منافسيهم المحليين من جهة أخرى- بتحسين أسوارها أمام

¹ كريخال، المصدر السابق، ج3، ص26، برنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص298-307

² إيفانوف، المرجع السابق، ص170

³ الباروني، المرجع السابق، ص13

⁴ رشدي راسم، طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، ط1، دار النيل للطباعة، القاهرة، 1953، ص85

⁵ الوزان، المصدر السابق، ج2، ص180

التهديد الخارجي ولا بإخضاع القبائل غير ثابتة الولاء مما تسبب في انتشار اللصوصية والنهب وتردي الوضع الأمني، كما أن تمرد القبائل يعني بالضرورة رفضها دفع الضرائب والمغارم وهذا ما أدى إلى إفلاس خزينة طرابلس وانهايار وضعها الاقتصادي¹.

وعلى هذا الوضع المنهار سياسيا واقتصاديا سوف تتعرض المدينة مطلع هذا القرن، وتحديدًا سنة 1510م، إلى الغزو الصليبي المتمثل في الاحتلال الإسباني، وهو ما سنتطرق إليه في الفصل الموالي.

المبحث الثاني: أوضاع الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م :

مثلما تطرقنا لعرض الأوضاع السياسية الداخلية في بلاد المغرب نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م فذلك يستدعي كذلك عرضاً لأوضاع الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية في نفس الفترة التاريخية قيد الدراسة، خاصة وأن دراستنا تتمحور حول الإيالات العثمانية المغربية وموقف الباب العالي من التهديدات الأوروبية عليها، وعلى اعتبار أنه لا يمكن دراسة صراع الإيالات المغربية العثمانية مع القوى الأوروبية مع تحديد الدولة العثمانية وأدوارها في هذا الصراع، ناهيك عن أن التطرق لأوضاع الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية لا بد منه لضبط السياق التاريخي للأحداث وربطها ببعض، خاصة وأن أحداث القرن 16م ذات صلة وثيقة ببعضها البعض إذ أنها تشكل حلقة من حلقات الصراع الإسلامي المسيحي والذي قيد في هذه الفترة التاريخية من طرف الدولة العثمانية والامبراطورية الإسبانية.

¹ الباروني، المرجع السابق، ص14

أولاً: أوضاع الدولة العثمانية وعلاقتها بالخارجية في عهد بايزيد الثاني¹
(1481-1512م):

1- الصراعات الداخلية:

عندما توفي السلطان العثماني محمد الفاتح² في 3 ماي 1481م ترك من بعده ولدين اثنين هما الأمير بايزيد والأمير "جم"، ومثلما هي العادة في تاريخ الأسر الحاكمة فقد قام بين الطرفين صراع شديد من أجل وراثة العرش.

كان السلطان بايزيد الثاني كما يصفه صاحب "الدولة العلية" ميّالاً إلى السلم أكثر منه للحرب، ميّالاً للعلوم الأدبية مشتغلاً بها، ولذلك سمّاه بعض مؤرخي التُّرك "بايزيد الصوفي"، غير أن سياسة الدولة دعتَه إلى ترك أشغاله السلمية والانشغال بالحرب³.

في 12 ماي 1481م عُيّن بايزيد الثاني خليفة لوالده سلطاناً للدولة العثمانية من قبل وزراء الدولة وأعيانها، غير أن ذلك لم يَرُق أخاه جمّ الذي طالبه بتقسيم الدولة بينهما، إلا أن السلطان بايزيد الثاني رفض هذا المقترح وسار إلى قتال أخيه الذي لم يعترف له بالحكم والتقى الطرفان في معركة دارت في مدينة "يني

¹السلطان بايزيد الثاني بن محمد الفاتح (1481-1512م): عرفت فترة حكمه اضطرابات داخلية وصراعات على العرش، توسعت الدولة العثمانية في عهده في البلقان وشرق البحر المتوسط. للمزيد ينظر: القرمانلي أحمد بن يوسف، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تح، أحمد حطيّط وفهمي سعد، ط1، دار عالم الكتب، بيروت، 1992، ج3، ص37-42، المحامي محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح، إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981، ص179 وما بعدها.

²السلطان محمد الثاني "الفاتح" (1451-1481): من أشهر السلاطين العثمانيين، فاتح مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، في عهده زاد توسع الدولة العثمانية نحو الأناضول والبلقان. للمزيد ينظر: القرمانلي، المصدر السابق، ج3، ص27-37، المحامي، المرجع السابق، ص160 وما بعدها.

³المرجع نفسه، ص179

شهير " جنوب القسطنطينية يوم 20 جويلية 1481م انتهت بانتصار بايزيد وفرار الأمير جمّ إلى القاهرة عند المماليك¹، ثم لجأ الأخير إلى رودس عند فرسان القديس يوحنا حيث عرض عليهم المساعدة ضد أخيه بايزيد مقابل أن يساعده في تولّي حكم الدولة العثمانية قبل أن يتم تسليمه لقوات البابا وبقي مقيماً في إيطاليا إلى غاية وفاته بها سنة 1495م².

2- العلاقات مع القوى الأورومتوسطية³:

كان من أولى الصدمات العثمانية مع القوى الأورومتوسطية تلك المحاولة التي قادها السلطان محمد الفاتح للسيطرة على جزيرة رودس والجزر التابعة لإمارة البندقية في شرق المتوسط، خاصة أن السلطان محمد الفاتح قد وجد - بعد فتح القسطنطينية سنة 1453م والقضاء على الكنيسة الشرقية - الفرصة مواتية للزحف على روما والاستيلاء على الكنيسة الغربية وضم أراضيها للدولة العثمانية⁴، في ربيع سنة 1480م قرر محمد الفاتح الاستيلاء على جزيرة رودس القريبة من بر الأناضول وبدأ الحصار العثماني لهذه الجزيرة يوم 23 ماي واستمر القصف العثماني للجزيرة حوالي شهرين دون تحقيق أي نتيجة مما اضطر العثمانيين إلى فك الحصار خاصة وأنهم قد خسروا حوالي خمسة عشر ألف مقاتل في هذه

¹أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص185، 186، جبارة تيسير، تاريخ الدولة العثمانية، ط1، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2015، ص100، 101

²ينظر: المحامي، المرجع السابق، ص181، 182

³المزيد حول علاقة الدولة العثمانية بالدول الأوروبية المتوسطية من أواخر القرن 15م إلى منتصف القرن 16م ينظر: بن علي زكريا، الدولة العثمانية ودول البحر الأبيض المتوسط في عهد بايزيد الثاني وسليمان القانوني، رسالة ماجستير في تاريخ الجزائر والعالم المتوسطي في العهد العثماني، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2014، 2015

⁴جبارة، المرجع السابق، ص100، أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص174

المهمة¹، وبعد فشل حصار رودس وتحديدا في 26 جويلية 1480م اتجهت القوات العثمانية المكونة من حوالي مائة وثلاثين سفينة إلى الجنوب الإيطالي واجتاحت نابولي وتمكنت من الاستيلاء على ميناء "أترانتو" مع منتصف شهر أوت من السنة ذاتها².

أما في عهد ولده بايزيد الثاني فقد كانت علاقة الدولة العثمانية بالقوى الأوروبية متوسطة قائمة على السلم والتحالف، فمع مطلع القرن 16م أقامت الدولة العثمانية علاقات تحالف مع دولة البابا والإمارات الإيطالية (مملكة نابولي، دوقية ميلانو، إمارة فلورنسا) حيث كانت هذه الأخيرة تسعى للحصول على الدعم العثماني في حروبها البيزية وكذا من أجل الحفاظ على مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية في شرق المتوسط³.

وعلى عكس باقي الإمارات الإيطالية كانت إمارة البندقية بالدولة العثمانية متوترة ومضطربة، حيث قامت سنة 1499م حرب بين الطرفين بسبب استيلاء العثمانيين على ميناء ليباننتو واحتلالهم لكل من جزر مودون وكورون ونا فارين⁴ في الأرخبيل اليوناني، علماً أن هذه المناطق كانت خاضعة لإمارة البندقية، وعلى إثر ذلك فقد تمثّل رد فعل البنادقة في الاستجداد بقوات البابا وملك فرنسا، وقد راح هذا التحالف يحاصر جزيرة ميديلي الخاضعة للسيطرة العثمانية وذلك بغية إشغال العثمانيين عن تحقيق مزيد من التوسعات في أراضي البندقية

¹ خليفة حاجي، تحفة الكبار في أسفار البحار، تح، تع، محمد حرب وتسنيم حرب، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2017، ص73، المحامي، المرجع السابق، ص176

² أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص175، 176

³ المحامي، المرجع السابق، ص184، 185

⁴ حول الفتح العثماني لهذه الجزر والأقاليم ينظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ص74-78

في شرق المتوسط، وقد نجح هذا التحالف في وقف المد العثماني واضطرت الدولة العثمانية لعقد اتفاقية الصلح مع إمارة البندقية سنة 1502م¹.

أما عن العلاقات العثمانية الإسبانية فيمكننا القول بأنه لم يكن هناك بحكم الجغرافيا أي اتصال مباشر بين الطرفين، غير أن القضية الأندلسية شكّلت أصل قيام العلاقة بين الدولة العثمانية والمملكة الإسبانية وذلك منذ أواخر القرن 15م حيث أن أخبار الصراع بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة في آخر أيام بايزيد الثاني قد وصلت إلى المشرق الإسلامي الذي تفاعلت دوله مع القضية الأندلسية وسعت إلى دعمها، إذ يذكر شكيب أرسلان في "خلاصة تاريخ الأندلس": "... إن أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق واهتز لها العالم الإسلامي، ووافقت حصول الفتنة بين السلطان بايزيد الثاني وصاحب مصر فتّهادنا، ووقع الاتفاق على أن يرسل بايزيد أسطولاً على سواحل صقلية لكونها تابعة لمملكة إسبانيا، وأن يجهز صاحب مصر بعوثاً من قبل إفريقية، فلما أحسّ فرناندو وإيزابيلا أجمعاً على سدّ جميع الثغور البحرية كلها عن غرناطة قطعاً للإمدادات..."²، وقد كانت هذه المحاولة العثمانية لإشغال السلطات الإسبانية وفك الحصار عن مسلمي الأندلس من الإرهاصات الأولى للعلاقات العثمانية الإسبانية التي ستتحول إلى صراع مباشر طيلة القرن 16م.

وقد تمثّل التحرك العثماني المملوكي لندسة الأندلس في اتفاق الطرفين على إرسال السلطان المملوكي لراهبين اثنين من بيت المقدس يحملان رسائلً منه إلى كلٍّ من ملك نابولي والبابا والملكَيْن الكاثوليكَيْن يحثهم فيها على ضرورة عدم

¹ ينظر: رائسي محمد ناصر، العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن 16م، ط1، دار الهادي، بيروت، 2007، ص128، المحامي، المرجع السابق، ص185، أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص199، 200

² أرسلان شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، ط2، مطبعة الميناء، مصر، 1925، ص267

إيذاء مسلمي الأندلس لكي لا يؤدي ذلك إلى انتقام المسلمين من مسيحيي الشرق في مصر وبلاد الشام وكان ذلك في حدود سنة 1490م¹.
أما بعد سقوط غرناطة سنة 1492م واستيلاء الإسبان على مملكة غرناطة وكافة بلاد الأندلس فقد قامت السلطات الإسبانية باضطهاد المسلمين في غرناطة مما أدى إلى اندلاع ثورة مسلمي المدينة سنة 1501-1502م، وأمام ضعفهم في مواجهة السلطات الإسبانية قام المسلمون الغرناطيون بطلب المدد من البلدان الإسلامية وتحديدا من الدولة العثمانية التي كانت حينئذ في أوج قوتها، حيث قام أعيان غرناطة وعلمائها بإرسال خطاب إلى بايزيد الثاني سنة 1505م طلبوا فيه التدخل لحمايتهم من اضطهاد السلطات الإسبانية²، غير أن الدولة العثمانية آنذاك لم تدخل بعد في صراع سياسي وعسكري مع المملكة الإسبانية فلم يكن في صالحها أو على الأقل من أولوياتها التدخل في الأندلس، كما كان الجيش العثماني منشغلا آنذاك بحرب البانيا وبلاد الاموره (اليونان)، ومنه فقد اكتفى السلطان بايزيد الثاني بإرسال بعض السفن ناحية غرب المتوسط بقيادة كمال ريس للاتصال بمن أمكن من مسلمي الأندلس ونقلهم إلى البلدان الإسلامية في شمال أفريقيا³.

¹ خلاصة تاريخ الأندلس، المرجع نفسه، ص 292، 293

² ينظر: المقري أحمد بن محمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح، مصطفى السقاوي وإبراهيم الأدياري وعبد الحفيظ شلبي، ط 1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ج 1، 1939، ص 108-115

³ إيفانوف، المرجع السابق، ص 95، جبارة، المرجع السابق، ص 102، وتجدر الإشارة هنا إلى أن قضية الوجود العثماني في غرب المتوسط في عهد السلطان بايزيد الثاني ودور البحار كمال ريس في المنطقة مطلع القرن 16م وقبل مجئ الإخوة بربروس لاتزال تتميز بالكثير من الغموض والإجحاف من قبل الباحثين في التاريخ العثماني والمغاربي الحديث.

ثانياً: أوضاع الدولة العثمانية في عهد سليم الأول¹ (1512-1520م):

1- الصراعات الداخلية:

كان لاسلطان بايزيد الثاني ثمانية أبناء ذكور توفي منهم خمسة أثناء فترة حكمه، أما الثلاثة الباقون فعينهم على بعض الولايات العثمانية، حيث ولي الأمير أحمد على أماسيا، وكركود على أنطاليا، فيما عين سليم على طرابزون وقلد سليمان بن سليم ولاية القرم، غير أن الأمير سليم بن بايزيد لم يقبل بهذا التقسيم وأعلن تمرده على والده وإخوته².

بعد حروب عديدة بين الأمير سليم وبين أبيه وأخيه كركود³ أقر الإنكشارية دعم الأمير سليم وأتوا به إلى القسطنطينية⁴، وطلبوا من السلطان بايزيد الثاني - وكان ذلك في آخر أيامه - أن يتنازل له عن العرش، خاصة وأن الأمير سليم كان محبباً للحرب ومحبوباً لدى الإنكشارية لما يربطه بهم من علاقة جيدة منذ فترة مبكرة مم دفع بالسلطان بايزيد لقبول طلب الإنكشارية وتم تعيين الأمير سليم سلطاناً للدولة العثمانية خلفاً لأبيه السلطان بايزيد يوم 25 أبريل 1512م، هذا

¹السلطان سليم الأول (1512-1520م):تاسع سلاطين الدولة العثمانية، انفرد بالحكم بعد صراع شديد مع إخوته، في عهده انضمت الجزائر للدولة العثمانية، حول هذه الشخصية ينظر:ابن الحنبلي رضي الدين، در الحبيب في تاريخ أعيان حلب، تح، محمد الفاخوري ويحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1972، ج1، ص663، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تح، هانس أرنست، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1926، القرمانى، المحامى، المرجع السابق، ص188

²المحامى، المرجع السابق، ص186

³قرقود أو كركود (Kurkut): ابن السلطان العثماني بايزيد الثاني وأخ السلطان سليم الأول، قتل على يد الأخير بعدما نشب بين الإخوة صراع حول العرش. ينظر:القرمانى، المصدر السابق، ج3، ص42،43، المحامى، المرجع السابق، ص186

⁴ حول هذا الصراع ينظر: لطفي باشا، تواريخ آل عثمان، تر، محمد عبد العاطي محمد، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2018، ص247-253

الأخير الذي توفي بعد ذلك في مقر إقامته ببلدة "ديموتيقا" على الحدود الشمالية مع اليونان يوم 26 ماي 1512م¹.

كانت أولى المهمات التي أخذها السلطان سليم الأول على عاتقه على الصعيد الداخلي هي القضاء على إخوته ومناوئيه في الحكم، وهو ما تمّ له في العام الأول من جلوسه على كرسي السلطنة، فبعد توليته لابنه سليمان أميراً على القسطنطينية خرج السلطان سليم للبحث عن أخيه كركود في ولاية صاروخان، إذ تمكن بعد أسابيع من البحث من القبض عليه وقتله، كما قام كذلك بقتل الوزير مصطفى باشا الذي كان معارضا له ومواليا لأخيه الأمير أحمد، هذا الأخير الذي فضّل القتال على الفرار فالتقت قواته بقوات السلطان سليم في مدينة "يني شهير" يوم 24 أبريل 1513م ودرت بين الطرفين معركة انتهت بانتصار جيش السلطان ومقتل أخيه أحمد، كما قام السلطان بعد ذلك بقتل جميع أبناء إخوته الذي بقوا في البلاد ولم يُبق له أي منازع في الملك².

2- العلاقات الخارجية:

2-1- مع الصفويين في بلاد فارس:

ينتسب الصفويين إلى الشيخ الصّوفي إسحاق صّفي الدين الذي أسّس زاويته الصوفية في مدينة أردبيل شمالي إيران، ومع منتصف القرن 15م اعتنق "الجُنَيْد" وهو أحد أجداد صفي الدين المذهب الشيعي الإثني عشري ورفض إذ ذاك الاعتراف بسلطة الأمراء المسلمين من السنة وراح ينشر المذهب الشيعي في صفوف قبائل التركمان في آسيا الوسطى، غير أن قيام الدولة الصفوية بشكل رسمي كان على يد الشاه إسماعيل الصفوي سنة 1502م بعد أن سيطر على

¹أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص208-210، جبارة، المرجع السابق، ص103

²المحامي، المرجع السابق، ص188

كافة الأقاليم الفارسية وضرب السكة باسمه وأعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة الصفوية في بلاد فارس¹.

كان لجوء الأمير أحمد إلى الصفويين سنة 1512م بعد الصراع الذي نشب بينه وبين أخيه السلطان سليم على الحكم أول مسببات التوتر في العلاقة العثمانية الصفوية، وأمام إيواء الصفويين للأمراء العثمانيين المعارضين له قام السلطان سليم بجمع حوالي أربعين ألفاً من الشيعة المنتشرين في الحدود الشرقية للدولة العثمانية بطريقة سرية وأمر بقتلهم جميعاً معلناً بذلك الحرب على الدولة الصفوية².

وفي سنة 1514م جهز السلطان سليم الأول قواته وخرج قاصداً مدينة تبريز عاصمة الصفويين حيث وقعت بين الطرفين قرب المدينة يوم 24 أوت 1514م معركة "تسالديران" الشهيرة³ والتي انتهت بانتصار العثمانيين الذين دخلوا العاصمة تبريز يوم 4 سبتمبر 1514م، وأمام التقهقير الصفوي قرّر السلطان سليم الأول تجهيز حملة عسكرية أخرى على الصفويين سنة 1515م أدت إلى استيلاء العثمانيين على أقاليم بلاد فارس الغربية، وفي أثناء عودة الجيوش العثمانية إلى القسطنطينية قامت بفتح كل من ماردين والرقة والموصل شمالي العراق والشام

¹ طقوش محمد سهيل، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط3، دار النفائس، بيروت، 2013، ص152

² المحامي، المرجع السابق، ص189

³ للمزيد حول هذه المعركة وحول المراسلات المتبادلة قبلها بين السلطان سليم الأول وإسماعيل الصفوي ينظر: لطف باشا، المصدر السابق، ص253 وما بعدها.

إضافة إلى ديار بكر جنوب شرق الأناضول، كما دانت للعثمانيين قبائل الكرد القاطنة بين الأناضول وبلاد الشام¹.

2-2- مع المماليك في مصر:

بعد انتهائه من حربه ضد الصفويين وجّه السلطان سليم الأول أنظاره إلى المماليك، خاصة وأن هؤلاء قد رفضوا مسبقاً التحالف مع العثمانيين ضد الصفويين، ولما علم السلطان المملوكي قانصوه الغوري بنية سليم الأول التحرك ضده بعث إليه بسفارة دبلوماسية من أجل تهدئة الوضع بينه وبين العثمانيين، غير أن السلطان العثماني لم يقبل هذه السفارة وقام بطرد المبعوث المملوكي². ويبدو أن السلطان العثماني بعد تحقيقه لانتصارات على الصفويين وتمكّنه من فتح العديد من الأقاليم في البلاد العربية في الشام والعراق قد قرّر التوسع جنوباً من أجل ضم باقي المناطق العربية والتي كانت خاضعة لحكم المماليك في إطار سياسته التوسعية التي فرضتها قوة الدولة العثمانية والظروف الإقليمية في المنطقة، وعلى هذا الأساس خرجت الجيوش العثمانية قاصدة أراضي بلاد الشام الخاضعة لسيطرة المماليك مما جعل قانصوه الغوري يقرر محاربة العثمانيين وهكذا التقى الطرفان قرب مدينة حلب في موضع يقال له "مرج دابق" يوم 24

¹القرماني، المصدر السابق، ج3، ص43، 44، مقديش محمود، نزهة الأنداز في عجائب التواريخ والأخبار، تح، علي الزواري ومحمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ج2، ص39، المحامي، المرجع السابق، ص190، 191

²ينظر: ابن زنبل أحمد الرمّال، آخرة المماليك، تح، عبد المنعم عامر، د.ط، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1998، ص92، 93، وحول المراسلات المتبادلة بين الطرفين، ينظر كذلك: لطفي باشا، المصدر السابق، ص301

أوت 1516م وانتهت المعركة بهزيمة المماليك ومقتل السلطان قانصوه الغوري وبالتالي سيطرة العثمانيين على بلاد الشام¹.

حين وصل خبر الهزيمة أمام العثمانيين ومقتل السلطان قانصوه الغوري عقد عسكر المماليك اجتماعا في القاهرة وقاموا على إثره بتعيين طومان باي خلفا له²، وبعد استلام الأخير للحكم راسله السلطان العثماني طالبا منه الاعتراف بسلطة الدولة العثمانية على الأقاليم المصرية مقابل إعلان الصلح بين الطرفين، وقد أورد ابن زنبل نصاً في هذا الصدد نذكر منه: "...إني أريد أن تكون الخطبة والسكة باسمي وأنت نائب عدي وأبقيك على ما أنت عليه..."³، وقد كان هذا العرض بادئ الأمر قد لقي ترحيباً من طومان باي غير أن قائد عسكره الأمير "علان" طالبه بوجوب مقاتلة العثمانيين مما جعل السلطان المملوكي الجديد يغير رأيه ويقرر مواجهة الدولة العثمانية حسبما أورده ابن زنبل في باقي السياق.

بعد المعارك الأولى التي وقعت على الحدود الجنوبية لبلاد الشام قام العثمانيون بالاستيلاء على بيت المقدس وطبرية وغزة وصفد والرملة⁴، وعقب هذه الفتوحات سارت الجيوش العثمانية قاصدة مدينة القاهرة عاصمة المماليك أين التقى الطرفان ووقعت بينهما معركة "الريداية" الشهيرة بين مصر وفلسطين يوم 22 جانفي 1517م والتي انتهت بانتصار العثمانيين الذين واصلوا السير بعد هذا النصر

¹ الصديقي محمد بن أبي السرور، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تح، ليلي الصباغ، ط1، دار البشائر، بيروت، 1995، ص74، 75، القرمانى، المصدر السابق، ج3، ص44، مقديش، المصدر السابق، ج2، ص45، أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص222، 223، وللمزيد حول معركة مرج دابق بين المماليك والعثمانيين ينظر: ابن زنبل، المصدر السابق، ص98-103، لطفي باشا، المصدر السابق، ص303-314

² المنح الرحمانية، المصدر السابق، ص86

³ ابن زنبل، المصدر السابق، ص119

⁴ القرمانى، المصدر السابق، ج3، ص46

ودخلوا مدينة القاهرة التي في الوقت الذي فرّ فيه السلطان المملوكي طومان باي إلى نواحي الجيزة خارج القاهرة وبقي يقاتل القوات العثمانية التي لحقت به إلى أن وقع في الأسر وأعدم شنقاً يوم 13 أبريل 1517م¹.

وبانتصار العثمانيين على المماليك وأخذ مدينة القاهرة تمّ رسمياً فتح مصر وضمّها للحكم العثماني في الوقت الذي حضر فيه آخر أمراء الدولة العباسية - التي قامت إسمياً وروحياً في مصر بعد سقوط بغداد في يد المغول سنة 1258م - بين يدي السلطان سليم الأول وأعلن عن انتقال الخلافة الإسلامية لصالح الدولة العثمانية، كما أرسل حاكم مكة المكرمة أبو البركات الهاشمي ابنه "أبا نُمَيّ محمد" إلى القاهرة حيث سلّم السلطان العثماني الآثار النبوية (الراية الشريفة والبردة النبوية) وكذا مفاتيح الحرمين الشريفين² رموز الخلافة الإسلامية وعلى أساس ذلك صار السلطان العثماني لأول مرة يُلقَّب بالخليفة.

2-3- مع القوى الأوروبية:

لم تشهد فترة حكم سليم الأول الكثير من مظاهر الاتصال سواء الإسلامي أو الحربي مع الدول الأوروبية وخاصة القوى المتوسطة نظراً لانصرافه لمحاربة الصفويين في بلاد فارس والمماليك في البلاد العربية.

بعد فتح مصر والسيطرة على بيت المقدس سنة 1517م وبعد عودته إلى القسطنطينية وصل إلى السلطان سليم الأول سفير المملكة الإسبانية حاملاً رسالة من الملك الإسباني فرناندو الخامس (Fernando 5) من أجل التباحث حول

¹ القرمانلي، المصدر السابق، ج3، ص46، المنح الرحمانية، المصدر السابق، ص86-89، مقديش، المصدر السابق، ص47، المحامي، المرجع السابق، ص193، طقوش، المرجع السابق، ص171، وللمزيد حول معركة الريدانية والفتح العثماني لمصر ينظر: ابن زنبيل، المصدر السابق، ص149 وما بعدها، لطفي باشا، المصدر السابق، ص315 وما بعدها

² القرمانلي، المصدر السابق، ج3، ص46، 47، طقوش، المرجع السابق، ص184، 185

أوضاع المسيحيين وحرّياتهم الدينية في بلاد الشام وكذا حول السماح للمسيحيين بزيارة بيت المقدس والذي كان تابعاً للمالِك قبل ذلك مقابل دفع المبلغ الذي كان يُدفع للممالِك، وقد وافق السلطان العثماني على طلب المملكة الإسبانية وطلب من سفيرها إرسال مبعوث آخر للتفاوض حول هذه المسألة¹.

أما إمارة البندقية التي سبق وأن كانت في حرب مع الدولة العثمانية ما بين 1499-1502م فقد تفاوضت مرة أخرى مع السلطان العثماني، حيث أتى سفير البندقية للقاء سليم الأول وتعهد بدفع حكومة إمارته ضريبة سنوية مقابل احتفاظها بجزيرة قبرص وشريطة ألا يحاول العثمانيون الاستيلاء عليها².

أما بخصوص العلاقة مع فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس فلم تتسم بالسلم والوديّة حيث قرر السلطان العثماني سنة 1520م تجهيز حملة لفتح الجزيرة وضمها للحكم العثماني، حيث رأى السلطان وجوب الاستيلاء على هذه الجزيرة وذلك من أجل فتح الطريق أمام وصول محاصيل الأقاليم العثمانية من مصر وبلاد الشام إلى القسطنطينية، إذ أن فرسان القديس يوحنا كانوا يشكلون تهديداً لذلك، حيث طلب السلطان من وزرائه وقادة الجيش أن يجهزوا حملة عسكرية لفتح الجزيرة، غير أن هذه الحملة لم تنطلق نظراً لوفاة السلطان سليم الأول يوم 22 سبتمبر 1520م³ مما أجّل فتح هذه الجزيرة إلى سنة 1522م في عهد ولده السلطان سليمان القانوني.

¹المحامي، المرجع السابق، 196، 197

²المرجع نفسه، ص 197، أوزتونا، المرجع السابق، ج 1، ص 236

³حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 80، جبارة، المرجع السابق، ص 117

- أما خلال فترة سليمان القانوني¹ وعلى عكس فترة أبيه سليم الأول عرفت العلاقات مع القوى الأوروبية صداماً مباشراً وهذا راجع إلى عدة عوامل أهمها:
- اقوة الدولة العثمانية وتحوّلها إلى إمبراطورية واسعة الأطراف تسعى للاستيلاء على المزيد من الأقاليم.
 - إتمام تأمين الحدود الشرقية بعد هزيمة وردع الصفويين في بلاد فارس
 - إتمام فتح البلاد العربية من العراق إلى مصر.
 - رغبة السلطان سليمان القانوني في التوسع داخل القارة الأوروبية بغية تأمين الحدود الشمالية الغربية للإمبراطورية العثمانية.
 - محاولة السيطرة على البحر المتوسط والتحكم في أهم الجزر والمضائق الاستراتيجية.

وعلى هذا الأساس كانت أولى الحملات العسكرية الخارجية للدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني هي الحملة العثمانية على البلقان وتحديداً على عاصمة الصرب مدينة بلغراد، حيث كان القانوني قد أرسل وفداً لملك المجر-التي كانت بلغراد خاضعة له- يطلب منه الجزية أو الحرب، فقام الأخير بقتل الوفد العثماني ما جعل السلطان سليمان يقرر إعلان الحرب على المملكة المجرية، إذ سار

¹ سليمان بن سليم "القانوني" (1520-1566م): من أشهر سلاطين الدولة العثمانية، في عهده تم فتح بلدان وأقاليم عديدة وضمها للدولة العثمانية مثل جزيرة رودس سنة 1522م وطرابلس الغرب سنة 1551م، اشتد الصراع في فترته مع القوى الأوروبية خاصة بعد ضم المجر سنة 1526م وحصار فيينا سنة 1529م. للمزيد ينظر: القرمانلي، النصدر السابق، ج3، ص48-66، المحامي، المرجع السابق،

القانوني بنفسه على رأس القوات العثمانية البرية وتمكن من هزيمة المجرين وفتح مدينة بلغراد يوم 29 أوت 1521م¹.

بعد تحقيقه النصر على المجر في البلقان وجّه السلطان العثماني أنظاره إلى جزيرة رودس القريبة من برّ الأناضول والتي كانت تشكل تهديداً للمصالح العثمانية، حيث قام "القانوني" بقيادة القوات البرية باتجاه الجزيرة فيما حاصرها الأسطول العثماني بحرا وذلك بداية من يوم 26 جوان 1522م، وقد كان السلطان العثماني قد استغلّ اضطراب أوضاع الدول الأوروبية إذ كانت المملكة الفرنسية تخوض حرباً ضد المملكة الإسبانية وكانت المجر متقهقرة داخلياً مما حال دون تقديم الدول الأوروبية المدد والوعون لفرسان القديس يوحنا في رودس، واستمر القصف والحصار العثماني لجزيرة رودس إلى غاية استسلام حاكمها الذي أرسل اثنين من زُهبانه يعرضون الاستسلام على السلطان العثماني، وبذلك انتهى القتال بين الطرفين وتم فتح جزيرة رودس يوم 22 ديسمبر 1522م².

أمام هذه الانتصارات المتتالية للدولة العثمانية ضد القوى الأوروبية قرر سليمان القانوني إتمام عملية التوسع العثماني في أوروبا، وحسب "بول كولز" صاحب كتاب "العثمانيون في أوروبا" فإن استيلاء العثمانيين على رودس في العام التالي لاستيلائهم على بلغراد كان يعني أن سليمان القانوني عازم على تطويق الأوروبيين

¹ جبارة الخنساء صلاح، الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة النيلين، الخرطوم، 2017، ص35-37، أبو ج بل كاميليا، السلطان سليمان القانوني (حياته، حروبه، إدارته)، رسالة ماجستير في تاريخ الدولة العثمانية، جامعة دمشق، 2010، ص111، 112

² حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 82، 83، مقيدش، المصدر السابق، ج2، ص49-51، أمجان فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، تر، جمال فاروق وأحمد كمال، ط2، دار النيل، القاهرة، 2015، ص50-61

ومحاربتهم على صعيدي البلقان والبحر المتوسط¹، وعلى هذا الأساس قرر غزو العاصمة المجرية بودا (بودابست حالياً) التي كانت تحت حكم أسرة ملكية مرتبطة بالملكية الإسبانية²، وذلك بعد مُقترح عرضه عليه ملك فرنسا فرانسوا الأول (Francois 1) الذي كان بدوره في حرب مع ملك إسبانيا³.

وافق السلطان العثماني على الطرح الذي قدّمه نظيره الفرنسي والذي وجد فيه أيضاً فرصة مناسبة للتوسع العثماني في أوروبا، وسار القانوني بجيش قوامه مائة ألف جندي قاصداً "بودا" عاصمة المجر أين التقى بالقوات المجرية التي كانت تحت قيادة ملكها لا يوش الثاني (Lajos 2) أين دارت بينهما معركة موهاج (موهاكس) الشهيرة جنوب العاصمة بودا يوم 28 أوت 1526م والتي انتهت بانتصار العثمانيين ومقتل لا يوش الثاني ملك المجر، وبعدها استسلم أهالي العاصمة بودا وسلم أعيانها مفاتيح المدينة للسلطان العثماني الذي دخلها يوم 10 سبتمبر 1529م ثم قام بتتصيب أمير ترنسلفانيا جون زابولي (Szapolya) - والذي كان مناوئاً للايوش الثاني - حاكماً على المجر باسم لعثمانيين⁴.

¹ كولز بول، العثمانيون في أوروبا، تر، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، د.ط، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1993، ص 91

² كانت مملكة المجر ضمن السلطة الإسبانية إذ أن الملكة ماري زوجة لا يوش الثاني هي أخت ملك إسبانيا شارلكان، ينظر: مانتران روبرير، تاريخ الدولة العثمانية، تر، بشير السباعي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993، ص 220، وللمزيد حول كيفية امتلاك إسبانيا لحكم كل من النمسا والمجر عن طريق الزواج السياسي ينظر: أوزتونا، المرجع السابق، ج 1، ص 266

³ حول الاتفاق الفرنسي العثماني الذي أفضى للحملة العثمانية على المجر ينظر: المحامي، المرجع السابق، ص 209، 208، أوزتونا، المرجع السابق، ج 1، ص 268، 267، ط قوش، المصدر السابق، ص 185، جبارة الخنساء، المرجع السابق، ص 47

⁴ مانتران، المرجع السابق، ص 220، المحامي، المرجع السابق، ص 210-214، أبو جبل، المرجع السابق، ص 113-116

لم يدم الحكم العثماني كثيرا في المجر، إذ قام الملك فرديناند النمساوي (Ferdinand d'Autriche) بإزاحة جون زابولي حليف العثمانيين من حكم المجر¹، هذا الأخير الذي راسل للسلطان العثماني مُخبرا إياه بالمستجدات في بلاده وطالبا منه التدخل في المجر مرة ثانية، وعلى هذا الأساس خرجت القوات العثمانية بقيادة سليمان القانوني قاصدة هذه المرة فيينا عاصمة النمسا والتي فرضت عليها حصارا بتاريخ 27 سبتمبر 1529م قام العثمانيون خلاله بقصف المدينة وقلاعها إلى غاية 14 أكتوبر من نفس السنة أين نفذت ذخيرة العثمانيين الذين تأكدوا - أمام ضراوة ملكها فرديناند النمساوي في الدفاع عن المدينة وكذا قرب حلول الشتاء وقساوة الطقس - من فشل الحصار، وفضّل القانوني فكّ الحصار على فيينا والعودة إلى القسطنطينية².

أخيرا؛ وبالنسبة لبلاد المغرب، فقد كان التناحر السياسي بين دول بلاد المغرب والصراع الذي لم يفتأ أن توقف في المنطقة سببا مباشرا في ضعف هذه الدول وظهور الإمارات المستقلة والنزعات الانفصالية فيها مما سبّب انهيارها في الأخير.

وقد رافق الضعف السياسي الذي مرّت به المنطقة في هذه الفترة ضعفٌ على الصعيدين الاقتصادي والحضاري، إذ لا يمكن لمنطقة منهاره سياسيا وعسكريا أن تعيش الازدهار والرّقي الاقتصادي والحضاري، وعلى هذا الأساس دخلت بلاد المغرب القرن 16م وهي منهاره وتمداعية على جميع الأصعدة مما سيجعلها تقع

¹ فرديناند النمساوي هو شقيق الملكة ماري زوجة لايوش الثاني ملك المجر وزوج أخته في الوقت ذاته وكذلك هو شقيق الملك شارلكان، ومنه فقد سعى لإعادة حكم عائلته على الأراضي المجرية وطرده العثمانيين، ينظر: مانتران، المرجع السابق، ج1، ص220

² مانتران، المرجع السابق، ج1، ص222، كولز، المرجع السابق، ص101، أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص272-275، طقوش، المرجع السابق، ص190، 191

أفي سطوةٍ وتحت هيمنة القوى الإقليمية المجاورة بداية بالاحتلال الإسباني الذي حتم على ساكنة المنطقة الاستنجاد بالعثمانيين والذي سينتهي بتأسيس الحكم العثماني في بلاد المغرب.

أما بالنسبة للدولة العثمانية فيمكننا القول إنها صارت منذ فتح القسطنطينية سنة 1453م من القوى الدولية الفاعلة في حوض البحر المتوسط، وإنه منذ هذا التاريخ بدأت الدولة العثمانية في توسعاتها نحو القارة الأوروبية ثم نحو البلاد العربية، مما أهلها لتكون القوة السياسية القائدة في العالم الإسلامي من جهة، ولتدخل في صراع مع القوى الأوروبية في شرق المتوسط ثم في البلاد المغربية من جهة ثانية.

هذا، كما تجدر الإشارة إلى أن الدولة العثمانية في الوقت الذي كانت فيه تتوسع في المشرق الإسلامي وأوروبا ما بين 1512-1529م وصل نفوذها كذلك إلى شمال أفريقيا وبدأ الوجود العثماني يتنامى شيئاً فشيئاً في ظل الصراع الذي تشهده المنطقة مع القوى الأوروبية وخاصة الإمبراطورية الإسبانية، وإن كان التوسع العثماني في شرق أوروبا وشرق البحر المتوسط كان نتيجة سياسة توسعية عثمانية محضة، فعلى العكس من ذلك فإن الاحتلال الإسباني لبلاد المغرب سيكون العامل الأساسي للوجود العثماني في هذه المنطقة، والذي سيبدأ بتأسيس إيالة الجزائر سنة 1519م وهو ما سنتطرق إليه في الفصل الموالي.

الفصل الأول: الوجود العثماني في بلاد المغرب وبداية الصراع الأوروبي العثماني في المنطقة 1492-1551م

مدخل

المبحث الأول: : الظروف الإقليمية وتداعياتها على بلاد المغرب 1492-

1512

المبحث الثاني: بلاد المغرب بين الاحتلال الإسباني والفتح العثماني 1512-

1551م

خاتمة الفصل

"يمكن اعتبار القرن السادس عشر مفترقا تاريخيا سيقتر انطلاقا منه مآل توزيع القوى على طرفي العالم القديم، وفيه ستع أشد المعارك البحرية والبرية هولا، والتي ستتوقف على نتائجها مواقع الأطراف المتجابهة: الشرق الإسلامي العثماني والغرب المسيحي الأوروبي، إمبراطوريتان، سيغطي عراكهما أحداث القرن السادس عشر؛ الإمبراطورية المسيحية المقدسة وعلى رأسها شارل الخامس، والإمبراطورية العثمانية بقيادة سليمان القانوني. ستتجابه الدولتان في البر والبحر، وكل منهما ستقدم نفسها كحام لدين وحضارة، هكذا شكلا بحق طرفي التناقض في معادلات الصراع الحضاري-السياسي في فاتحة العصر الحديث"¹. بهذه الكلمات افتتح شمس الدين الكيلاني فصل "العثمانيون والأوروبيون في القرن السادس عشر" من كتابه "الإسلام وأوروبا المسيحية" وهي عبارات تحدد بدقة وتبرز بوضوح طرفي الصراع في البلاد الواقعة على حوض البحر المتوسط بشقيها الإسلامي والمسيحي.

ولأن بلاد المغرب هي همزة الوصل بين بين هذين الشقين مع انتمائها للشرق الإسلامي حصرا، فقد شكّلت هي الأخرى إحدى أهم حلقات الصراع بين العثمانيين والأوروبيين وخاصة الإمبراطورية الإسبانية خلال القرن السادس عشر. وانطلاقا من ذلك فإننا سندسلط الضوء في هذا الفصل على حيثيات الصراع العثماني الإسباني في بلاد المغرب، بداية بالاحتلال الإسباني ثم التدخل العثماني وتأسيس الحكم العثماني في المنطقة خلال هذه الفترة، وسيكون من الجيد أن نبدأ بدراسة

¹ الكيلاني شمس الدين، الإسلام وأوروبا المسيحية، ط1، دار الثقافة للنشر، دمشق، 2007، ص111

هذا الموضوع- بالتطرق إلى الظروف الإقليمية في منطقة غرب البحر المتوسط وتداعياتها على بلاد المغرب (وعلى الجزائر بشكل خاص) مطلع القرن السادس عشر.

المبحث الأول: الظروف الإقليمية و تداعياتها على بلاد المغرب (1492-1512م):

عرفت منطقة غرب البحر المتوسط نهاية القرن 15م، ومطلع القرن 16م عدة تحولات هامة ساهمت في بلورة الأوضاع السياسية في المنطقة التي شهدت في هذه الفترة نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث. كان سقوط غرناطة¹ سنة 1492م حدثاً دولياً هاماً، غير أنه كان أكثر أهمية على المستوى الإقليمي، أي على منطقة غرب البحر المتوسط، إذ أن جميع الأحداث اللاحقة في المنطقة ستتعلق بشكل مباشر بهذا الحدث السياسي الهام، وبحكم الجغرافيا والتاريخ المشترك فقد كان لسقوط غرناطة تداعيات مباشرة على البلدان المغربية، تمثلت أولاً في هجرة الأندلسيين إلى المنطقة ثم في الاحتلال الإسباني لمدن وسواحل هذه البلدان، كما كان لسقوط غرناطة دوراً كبيراً في التوجه

¹ حول موضوع سقوط غرناطة ينظر:

- مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تح، ألفريد البستاني، ط1 مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 2002
- المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1
- عنان عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997
- عبده حتامله محمد، التنصير القصري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكين، ط1، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1980
- إيرفينج واشنطن، أخبار سقوط غرناطة، تر، هلاني يحيى نصري، ط1، دار الانتشار العربي، بيروت، 2000

العثماني إلى منطقة غرب البحر المتوسط، إذ إن إنقاذ مسلمي الأندلس وإبعاد الإسبان عن أسواحل بلاد المغرب كان أهم محركات التوسع العثماني في بلاد المغرب، خاصة أن الدولة العثمانية منذ فتح القسطنطينية¹ على يد السلطان محمد الفاتح سنة 1453م قد أصبحت القوة الإسلامية الرائدة التي حملت لواء الدفاع عن المسلمين في مواجهة المد الصليبي الحديث² على الأراضي الإسلامية عامة وبلاد المغرب خاصة منذ مطلع القرن السادس عشر.

ومنه فإننا سنتطرق في هذا المبحث للحديث عن الظروف الإقليمية في غرب البحر المتوسط والتي كانت أهم الأسباب التي أسست للوجود العثماني في بلاد المغرب خلال القرن السادس عشر.

¹ حول فتح القسطنطينية ينظر:

- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص 38-55
- مقديش، المصدر السابق، ج 2، ص 13-32
- ابن عماد، شذرات الذهب، المصدر السابق، ج 9، ص 516، 517
- مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج 1، ص 113-127
- الأقسكي علي همت بركي، أبو الفتح السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية وحياته العدلية، تر، محمد إحسان عبد العزيز، مطبعة السعادة، القاهرة، 1953
- الرشيد سالم، محمد الفاتح، ط 2، دار البشير للثقافة، القاهرة، 2013
- شيمشيريغيل أحمد، بني عثمان سلطنة بنفوذ عالمي، تر، مهتاب محمد، ط 1، دار ثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، 2016، ج 2، ص 145-195

² تعتبر الحملات الإسبانية والبرتغالية على بلاد المغرب بمثابة حملات صليبية جديدة شهدتها العصر الحديث أعقبت - مع فارق زمني - الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي إبان القرن 11م خلال العصر الوسيط. (الباحث)

أولاً: سقوط غرناطة وتداعياته على بلاد المغرب:

1- هجرة مسلمي الأندلس إلى بلاد المغرب:

1-1- ما بين 1492-1499م:

رغم أن إسبانيا النصرانية ظلت بعد استيلائها على مملكة غرناطة سنة 1492م تلتزم بدنود المعاهدة¹ التي أبرمت على إثر تسليم غرناطة من حفظ حقوق المسلمين الاجتماعية والدينية إلا أن الكثير من مسلمي الأندلس فضلوا الهجرة إلى بلاد المغرب، فسقوط بلادهم في أيدي النصارى لم يجعل لدى غالبيتهم الرغبة في البقاء تحت الحكم الإسباني، وحسب الأستاذ عبد الله عنان فإن ذلك يدل على عدم ثقة المسلمين في ولاء سادتهم الجدد وأنهم كانوا ينظرون إلى مستقبلهم في تلك البلاد بعين الخوف والريب²، في حين أثر بعضهم البقاء في الأندلس واشتروا من الراحلين الأراضي بأبخس الأثمان، خاصة بعدما سمعوا بالشدّة والغلاء التي كانت تعيشها عدوة المغرب³، ويورد صاحب "ذبذة العصر" نصاً عن هجرة أهالي الأندلس بعد تسليم غرناطة إلى البلدان المغربية جاء فيه: "...وبادر المسلمون بالجواز إلى العدو من المراسي، فخرج أهل مالقة إلى بادس وأهل ألميرية إلى

¹ وقعت معاهدة تسليم غرناطة بين عبد الله بن محمد والملكين الكاثوليكين يوم 21 محرم 897هـ/ 25 نوفمبر 1491م، وقد تضمنت المعاهدة سبعة وستين شرطاً منها منح الأمان وكذا الرعاية والاحترام لمن أراد البقاء فيها من المسلمين، ينظر: المقري، المصدر السابق، ج1، ص67، المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، 1968، ج4، ص525، 526

² عنان، المرجع السابق، ص31.

³ المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص67، 68

تلمسان وخرج أهل دانية إلى تونس والجزائر والقيروان، وخرج من بقي من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران وبني راشد...¹، وعلى أية حال، فإن الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب قد انطلقت بُعيد تسليم غرناطة، وقد كان في مقدمة هؤلاء المهاجرين أسرة بني سراج وغيرهم من سادة غرناطة وعامتهم.²

وازدادت هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب على إثر صدور فتاوى تحرم البقاء في ظل حكم النصارى، ولعل أبرزها الفتوى التي أصدرها الونشريسي عام 1495م و المعروفة بـ "أسنى المتاجر فيمن غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عنه من العقوبات والزواجر"³، وإننا لنستطيع فهم محتوى الفتوى من العنوان الذي يشير إلى تحريم البقاء في بلاد تقبع في ظل حكم النصارى، وقد تمثلت النقاط الأساسية لنص الفتوى فيما يلي:

- الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة على المسلم إلى يوم القيامة.
- الهجرة لا تسقط على الذين استولى النصارى على بلدانهم ولا تقبل أعداء كالأمال والوطن، ومن مات وهو مُصر على ذلك فعاقبته كالذي خالف الشرع.
- لا تسقط الهجرة إلا في حالة العجز عنها.⁴

¹ نبذة العصر، المصدر السابق، ص 48

² عنان، المرجع السابق، ص 311

³ حول هذه الفتوى ينظر: مؤنس حسين ، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر للونشريسي أبو العباس أحمد، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1957، مج5، ع 1، 2، ص 20-63

⁴ مؤنس، المرجع السابق، ص 23-27

وخلاصة الفتوى تحريم الإقامة تحريماً مقطوعاً به عن الدين ومن استخف به فهو مارق في الدين مخالف للجماعة¹. وهنا يعلق حسين مؤنس محقق الفتوى بأن الونشريسي لم يكلف نفسه أثناء إصدارها عناء البحث عن أحوال من يفتي لهم وتقصي أخبارهم ومعرفة الأسباب التي تدفعهم إلى البقاء في الأندلس، كما ينتقد فتواه بنماذج عن حالات أخرى عرفت الجاعات الإسلامية أثناء وقوع بلدانهم في حكم النصارى وأن العلماء في تلك الحالات لم يصدروا فتاوى تحرم الإقامة بتلك البلاد، ويقول أخيراً أن الونشريسي أصدر هذه الفتوى وهو متبجح في داره بفاس². من جهتنا، نقول إن حسين مؤنس يبدو متعاطفاً مع من آثر البقاء في الأندلس من المسلمين ولهذا فهو يبرر لهم ذلك، لكن الونشريسي بصفته رجل دين لا يمكنه الإصغاء إلى العواطف فهو يفكر بما يتماشى مع الشريعة الإسلامية وأن فتواه تلك كانت قائمة على حجج وبراهين من القرآن والسنة النبوية، كما أننا نرى أن مؤنس قد أخطأ في حق الونشريسي حين ذكر بأنه لا يعلم أحوالهم والظروف التي تدفعهم إلى البقاء في الأندلس، فالأخير يعرف كل ذلك، كيف لا وهو يستوطن فاساً أكثر المدن التي استقبلت الجالية الأندلسية وقد عرف منهم أحوال إخوانهم في الأندلس، كما كان صدى الأندلس وأخبارها منتشراً في سائر أسقاع الدنيا، فكيف لا يصل ذلك الصدى إلى الونشريسي وهو صاحب فتاوى المغرب والأندلس وأبرز فقهاء بلاد المغرب في القرنين 15 و16م³.

¹ مؤنس، المرجع السابق، ص 28

² ينظر: المرجع نفسه، ص 5، 6

³ حول شخصية الونشريسي، ينظر: التتبكي، المصدر السابق، ص 135

على أية حال، فإن صدور هذه الفتوى كان لها أثر بالغ في ارتحال عدد كبير من مسلمي الأندلس إلى بلاد المغرب¹ وهم بذلك انصاعوا إلى أوامر الدين والشرع ولو أن ذلك كلفهم ترك الوطن والأهل.

1-2- مابعد صدور قرار التنصير سنة 1499م:

أ- الهجرة بعد صدور قرار التنصير:

في سنة 1499م نقض الملك الكاثوليكيان إيزابيلا (Isabella) وفرناندو الخامس (Fernando 5) شروط معاهدة تسليم غرناطة² وأصدرا مرسوماً ملكياً يُلزم بتنصير مسلمي الأندلس وفوضا هذه المهمة إلى مطران طليطلة الكردينال خيمينيس دي سيسنيروس (Cardinal Ximenes De Cisneros)³، وقد أورد المقري في نفع الطيب نصاً عن ذلك جاء فيه: "...ثم إن النصاري كثثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربعة وتسعمائة (1499م)..."⁴، ويذكر صاحب نبذة العصر في ذات الصدد أنه: "...بعد ذلك دعاهم الملك فرناندو إلى التنصير وأكرههم عليه سنة أربع و تسعمائة فدخلوا في دينهم كرهاً وصارت الأندلس كلها نصرانية..."⁵، وقد

¹ بوحسون عبد القادر، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، مذكرة لنيل درجة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، الجزائر، 2008-2007، ص 106

² حول شروط معاهدة تسليم غرناطة ينظر: عنان، المرجع السابق، ص 245-250

³ المرجع نفسه، ص 315

⁴ المقري، نفع الطيب، المصدر السابق، ج4، ص 527

⁵ نبذة العصر، المصدر السابق، ص 44

أدى هذا الإجراء لقيام انتفاضة في البيازين والبشارت من نواحي غرناطة، مما اضطر السلطات الإسبانية إلى تهجير المنتفضين إلى خارج البلاد¹.

ومع ذلك فإن الدراسات المتخصصة لا تسهب كثيرا في الحديث عن هجرة مسلمي الأندلس إلى البلدان المغربية في هذه الفترة (أي بعد سنة 1499م) حيث تكفي بذكر أن السلطات الإسبانية قد هجرت المسلمين الذين رفضوا التنصر مثلما جاء عن المقري في "أزهار الرياض": "... وعلم النصارى بأن من بقي من المسلمين إنما هم أسرى في أيديهم وعيال عليهم بعد أن انتزعوا منهم الأسلحة و المعازل و عتو فيهم بالخروج والجلاء"²، ولا يوجد أي ذكر لسنة الهجرة أو المواطن المهاجر إليها، باستثناء ما جاء عن الأستاذ عبد الله عنان في كتابه "نهاية الأندلس" أنه سنة 1501م أصدر الملك الكاثوليكيان قراراً خلاصته أن الإله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، وبالتالي فيحضر على المسلمين التواجد فيها مما أدى لقيام ثورة في غرناطة والتي انتهت بعفو الملك فرناندو الخامس عن الثوار المسلمين بشرط أن يتصرفوا خلال ثلاثة أشهر أو يغادروا إسبانيا تاركين أملاكهم للدولة، فأثر معظمهم النفي والجواز إلى بلاد المغرب، وقد هاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها، وقد استعملت السلطات الإسبانية سفنها لنقلهم إلى الخارج³.

¹ حتامله ، المرجع السابق، ص228

² المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص69

³ عنان، المرجع السابق، ص324،325

غير أن الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب سواء الاختيارية أو القسرية سوف تتوقف وتتحسر لاحقاً، إذ إنه في 12 فيفري 1502م أُصدر قرار ملكي يحتم على كل مسلم يبلغ الرابعة عشر من عمره أن يغادر مملكة غرناطة قبل شهر من صدور هذا القرار، وسمح لمن يريد الخروج أن يتصرف في ماله وأملاكه شرط ألا يكون الخروج إلى البلاد المغربية ويمكن الخروج إلى بلاد أخرى¹.

ومن خلال هذا القرار نلاحظ أن السلطات الإسبانية كانت تهدف من خلاله إلى إجبار مسلمي الأندلس على التنصر إذ ليس لهم ملاذ آخر يلجأون إليه غير بلاد المغرب، كما يفهم من القرار تخوف السلطات الإسبانية من ردة فعل محتملة من الأندلسيين الذين قد لجأوا مسبقاً إلى بلاد المغرب.

ب- الهجرة وعمليات الإنقاذ:

أدى القرار الأخير إلى قلة عمليات هجرة مسلمي الأندلس باستثناء من استطاع منهم بيع أملاكه والفرار إلى بلاد المغرب²، "فكم من الضعفاء و المعدومين لم يقدروا على الهجرة واللاحاق بإخوانهم المسلمين"³، إذ أنه ليس في مقدور كل أهالي غرناطة أن يتحمل تكاليف الهجرة خارج البلاد.

¹ حومد أسعد، مدنة العرب في الأندلس، د.ط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت، ص230، قطب علي محمد، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، دن، د.ت، ص45

² عنان، المرجع السابق، ص327

³ نبذة العصر، المصدر السابق، ص44

ومن هنا سيبدأ عهد جديد هو عهد الإنقاذ وندجدة مسلمي الأندلس (الموريسكيين¹) الذين لم يستطيعوا الهجرة وبقوا ينتظرون النجدة من بلاد المسلمين لتنجيهم من عذاب محاكم التفتيش² التي استعملت كل الوسائل وخاصة الدموية والوحشية لإجبار المسلمين على التنصر، خاصة بعدما صرح مفتي وهران في

¹ الموريسكيون (Los Moriscos): يطلق هذا الاسم للدلالة على مسلمي الأندلس الذين صاروا تحت الحكم الإسباني والذين أُجبروا على التنصر بموجب قرار 1499م المذكور آنفاً، وحول قضية الموريسكيين وتاريخهم في إسبانيا ينظر:

- كاردياك لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، تر، عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة المغربية، تونس، د.م.ج، الجزائر، 1983
- دي إيتيا خينيس بيريث، الحرب ضد الموريسكو، تر، عائشة محمود سويلم، مر، جمال عبد الرحمن، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009
- لي هنري تشارلس، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، تر، الكرمي حسن سعيد، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت 1988
- آرينال مارثيديس غارسيا، الموريسكيون الأندلسيون، تر، جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003
- باروخا خوليو كارو، مسلمو مملكة غرناطة بعد عام 1492م، تر، تق، جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، أبوظبي، 2003
- التميمي عبد الجليل، تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية، منشورات م.د.ب.ع.م، زغوان، تونس، 1991
- عنان عبد الله، نهاية الأندلس، المرجع السابق.

² محاكم التفتيش، والأصح دواوين التحقيق (L' Inquisicion): هي محاكم أو دواوين كاثوليكية مهمتها كشف مخالفات الكنيسة الكاثوليكية ومعاقبتهم، نشطت في إسبانيا ابتداءً من سنة 1242م وأُنشئت في مملكة قشتالة ابتداءً من سنة 1478م، قامت بدور كبير في مطاردة مسلمي الأندلس وإجبارهم على التنصر مستعملةً أبشع الوسائل من تعذيب وحرق وتقتيل، ينظر: عنان، المرجع السابق، ص328، جوزيف بيريز، التاريخ الوحيز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، تر، مصطفى أمادي، ط1، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، 2011

رسالة وجهها إلى مسلمي الأندلس سنة 1503م جاء فيها: "...إني أدعو الله أن يغير الأحداث لصالح دين الإسلام.. وحتى تتمكنوا من عبادة الخالق دون خوف وهذا بفضل التعاون مع الأمراء الأتراك..."¹، ويبدو أنه نفس المفتي (أحمد بن جمعة) الذي أصدر فتوى في العام الموالي ترخص للمسلمين "التقية" إذا طُلب منهم التنصر أو القيام بممارسات تخالف الشرع الإسلامي²، وهذا ما جعل مسلمي الأندلس يستغيثون بالسلطان العثماني بايزيد الثاني، إذ بعثوا له برسالة من أجل إنقاذهم مُبرزين فيها تسلط الإسبان عليهم وإجبارهم على التنصر³.

وعلى أمل وصول الدعم من بلاد المغرب ومختلف بلاد المسلمين استقر مسلمو الأندلس في ثغور وسواحل إسبانيا انتظاراً لنجدة إخوانهم المسلمين، حيث ظهرت في تلك الأثناء مراكب كمال راييس أحد البحارة الأتراك الذين أرسلهم السلطان العثماني إلى غرب البحر المتوسط والذي قام بالإغارة على السواحل الإسبانية ونقل الكثير من مسلمي الأندلس إلى سواحل بلاد المغرب في بدايات القرن 16م⁴، في الوقت الذي كان فيه ملوك وسلطين البلدان المغربية عاجزين عن نجدة مسلمي الأندلس بسبب أوضاعهم الداخلية وبداية الهجمات البرتغالية

¹ التميمي عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، منشورات م.د.ب.ع.م،

تونس، 1989، ص12

² كاردياك لوي، المرجع السابق، ص91، 92

³ ينظر: المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص108، 109

⁴ إيفانوف، المرجع السابق، ص96، محمد دراج (المحقق)، مذكرات خير الدين بربروس، ط2، دار

الأصالة، الجزائر، 2013، هامش ص80

والإسبانية على سواحل بلدانهم¹، غير أنّ عمليات إنقاذ الموريسكيين وتوطينهم في بلاد المغرب وخاصة في المغرب الأوسط سوف تزداد مع منتصف القرن 16م وتتجلى بشكل أكبر مع الإخوة بربروس خاصة بعد تأسيس إيالة الجزائر العثمانية سنة 1519م حيث سيكون للأسطول الجزائري إسهام كبير في عمليات إنقاذ وتهجير مسلمي الأندلس إلى بلاد المغرب وخاصة إلى إيالة الجزائر².

ثانياً: الاحتلال الإسباني لسواحل بلاد المغرب (1505م-1511م):

قبل الحديث عن الاحتلال الإسباني لسواحل بلاد المغرب يجب أولاً أن نتطرق إلى دوافع هذا الاحتلال وأسبابه من أجل أن نلّم أكثر بهذه القضية وبغية تسليط الضوء على جوانبها المتعددة، وكذا لربط الأحداث الحاصلة بين ضفتي غرب البحر المتوسط في نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م.

¹ التميمي عبد الجليل، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني، المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1975، ع3، ص38

² حول هذه المسألة ينظر: سحابات زهيرة، دور الأسطول الجزائري في إنقاذ مسلمي الأندلس 1529-1609م، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، الجزائر، 2019، ع20، غيلاني السبتي، دور البحرية الجزائرية والعثمانية في إنقاذ مسلمي الأندلس 1492-1609م، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة بسكرة، الجزائر، ع14، 2015

1- دوافع الاحتلال الإسباني لسواحل بلاد المغرب¹:

بعد أن حققت إسبانيا وحدتها السياسية بعد استيلائها على مملكة غرناطة الأندلسية سنة 1492م وضمّ أراضيها للمملكة الإسبانية، وجّهت الأخيرة أنظارها إلى الضفة الجنوبية لغرب البحر المتوسط، حيث سعت إلى مدّ نفوذها إلى بلاد المغرب، ولكي تتجنب الاصدام مع مملكة البرتغال التي باشرت أيضاً حملاتها الاحتلالية أبرمت المملكتان معاهدة تورديسياس (Tordesillas) في 7 نوفمبر 1494 والتي تمّ بموجبها تقسيم مناطق النفوذ بين المملكتين، فكان لإسبانيا كل

¹ من أهم الدراسات التي تناولت بصفة خاصة موضوع الاحتلال الإسباني للمغرب الأوسط (الجزائر) وسواحل بلاد المغرب بصفة عامة نذكر:

- فكاير عبد القادر، الصراع الجزائري الإسباني خلال القرن 16م، ط1، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016
- فكاير عبد القادر، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية 1505-1792م، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2009
- تومي طاهر، علاقات الإيالات المغربية العثمانية مع إسبانيا 1520-1792، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2018-2019
- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق.
- دكاني نجيب، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية، المرجع السابق
- العبيدي سمير عبد الرسول، الحملات الإسبانية على الموانئ الجزائرية (1505-1510م)، مجلة العميد، العراق، ع31، 2019
- أبلالي أسماء، التحرشات الإسبانية على السواحل الجزائرية خلال القرن 10هـ/16م، مجلة روافد للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، الجزائر، ع2، 2017

ماهو شرق صخرة باديس (Le Penon de Valez)¹ من بلاد المغرب فيما كان غرب هذه النقطة للبرتغال² ومع مطلع القرن 16م بادرت إسبانيا في تجهيز حملاتها لاحتلال المناطق التي خولتها لها المعاهدة المذكورة. فما هي الدوافع والأسباب التي حركت إسبانيا لاحتلال سواحل بلاد المغرب؟

1-1- الدافع الديني:

تؤكد الدراسات التاريخية للقرن 16م أن الدافع الديني كان أهم الأسباب التي حركت إسبانيا لاحتلال سواحل بلاد المغرب، حيث تؤكد هذه الدراسات أن الدين كان الموجه لكل التحركات السياسية في مملكة إسبانيا خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م الذي ألهب الإسبان وحفزهم على محاربة أعداء الدين³، فقد كانت سياسة الملك فرناندو الخامس تنص على إقامة السلم بين المسيحيين وإعلان الحرب على الكفار (المسلمين)⁴.

وكدليل آخر على الصبغة الدينية للحرب الإسبانية على المغرب الأوسط حث البابا الكاثوليكي جميع البلاد المسيحية على وضع إمكاناتها البشرية والمالية لإبعاد خطر المسلمين، كما أمر جميع المسيحيين بدفع ضريبة كرو سادا

¹ باديس (Valez): مدينة في المغرب الأقصى على ساحل البحر المتوسط، بنت السلطات الإسبانية في إحدى جزرها المقابلة على إثر احتلالها قلعة تدعى صخرة باديس، ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج1، ص325

² أبرمت هذه الاتفاقية بين إسبانيا والبرتغال حول تقسيم مناطق النفوذ ليس في شمال إفريقيا فقط بل أيضاً في آسيا والعالم الجديد، ينظر: نايت بلقاسم مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل 1830، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2007 ج1، ص57

³ التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، المرجع السابق، ص68

⁴ المرجع نفسه، ص70

(Crusada) لملوك إسبانيا من أجل مواصلة الحرب على أفريقيا (بلاد المغرب)¹، دون أن ننسى الدور الذي لعبته وصية الملكة إيزابيلا التي تركتها قبل وفاتها، والتي جاء فيها: "...عليكم مواصلة فتح إفريقيا (بلاد المغرب) وعدم الكف عن المحاربة في سبيل الدين أعداء الدين (المسلمين)"²، كما يفسر هذه النزعة الدينية كذلك إسناد مهمة الاحتلال وقيادة الحملات على السواحل البلدان المغربية وخاصة سواحل المغرب الأوسط - كما سنرى - للكاردينال خيمينيس أسقف طليطلة أحد أكبر الشخصيات الدينية في إسبانيا، والذي كان له الدور الكبير في مهاجمة واحتلال بلاد المغرب³.

1-2- الدافع السياسي:

جاء عن الأستاذ توفيق المدني في كتابه "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا" أن الإسبان الذين تمكنوا قبيل سنوات من استعادة كامل أراضي الأندلس وتحقيق وحدتهم السياسية لم ينسوا ثلاثة أمور كانت من العوامل البارزة لاحتلالهم بلاد المغرب؛ أولها أن جنود الفتح الإسلامي للأندلس قدموا من بلاد المغرب⁴، إضافة إلى أن النجدة كانت تأتي الأندلس زمن الحرب مع الممالك الإسبانية من بلاد المغرب كما الحال مع المرابطين والموحدين ومشيخة الغزاة المرينيين، وأخيرا؛

¹ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 80

² De Grammont H.D, Histoire d'Alger Sous La Domination Turque 1515-1830, Ernest Leroux Editeur, Paris, S.D, p5

³ التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، المرجع السابق، ص 71

⁴ ربما هذا ما جعل الإسبان يسمون جميع مسلمي الأندلس بـ"المورو" (Los Moros) أي المغاربة، ينظر: أرسلان شكيب، تاريخ غزوات العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 23

أن المسلمين الذين هاجروا والذين طُردوا من إسبانيا قد لجأوا بعد ترك أوطانهم إلى بلاد المغرب، وإنهم يستثيرون أهلها ويبتون في صفوفهم دعوة الجهاد والعمل على استعادة الأندلس¹.

ومن هنا، فإن إسبانيا كانت تخشى ردة فعل المغاربة والأندلسيين لاحتلالها من جديد، وفي هذا الصدد يرى المؤرخ الأمريكي المعاصر "وليم سبنسر" أن هجرة الموريسكيين إلى بلاد المغرب قد وفرت سبباً لتدخل إسبانيا في المنطقة، حيث أنه قد اشتدت مخاوف الأخيرة من هجوم المسلمين المضاد²، ولهذا فقد بادرت السلطات الإسبانية بالهجوم واحتلال سواحل البلاد المغربية لقطع أي تهديد محتمل من المسلمين.

الم يكن الإسبان غافلين عما قد يحدث لو يتصل أهالي بلاد المغرب بالدولة العثمانية، فظهور الأخيرة كقوة إسلامية كبرى واتحادها مع المغاربة قد يُعجّل في إسقاط مملكة إسبانيا الفتية، وإن لم يكن كذلك فسيشكل تهديداً كبيراً لها ولمشاريعها في المنطقة، خاصة وأن سلاطين الدولة العثمانية قد بدأوا يهتمون بقضايا المسلمين في غرب البحر المتوسط وقد رأينا ذلك في العنصر السابق.

ومن هذه الدوافع السياسية كذلك حالة الضعف والانحلال السياسي التي تعيشها بلاد المغرب، فقد جاء في رسالة من فيرناندو دي زافرا (Fernando De Zafra) المكلف بحراسة الشواطئ الإسبانية ومراقبة حركة المهاجرين الأندلسيين

¹ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 45، وكذلك ينظر: أبلالي، المرجع السابق، ص 39

² سبنسر وليم، الجزائر في عهد رياس البحر، تع وتق، عبد القادر زبادية، د.ط، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2007، ص 34

إلى الملكين الإسبانيين أن بلاد المغرب بأكملها تجتاز حالة انهيار نفسي يظهر معها أن الله قد أراد منحها لصاحبها الجلالة¹، وفي هذه الرسالة تحريض ضمني واضح للاستيلاء على بلاد المغرب التي لم تكن بهذه الحالة قادرة على مقاومة هذه "الصليبية الجديدة" كما يصفها مولاي بلحميسي².

1-3- الدافع الاقتصادي:

يتجلى بشكل أكبر في محاولة القضاء على الجهاد البحري الإسلامي (القرصنة حسب الوصف الأجنبي) في غرب البحر المتوسط وتداعياتها السياسية في المنطقة، وهنا يجدر بنا الوقوف وقفة مفاهيمية مع هذا المصطلح.

القرصنة: هي نوع من الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية، الغاية منها ضرب اقتصاديات العدو بالاستيلاء على سفنه بما فيها من البضائع والأشخاص³.

وقد كانت القرصنة تعتبر نشاطاً قانونياً إبان العصر الحديث، إذ كانت الحكومات تُسلم أوراقاً رسمية للقرصنة فتُكسبهم بذلك صبغة رسمية وتجعلهم شبه جنود متطوعين يعملون في البحر⁴، كما يذكر "فرنان بروديل" في كتابه "المتوسط والعالم المتوسطي" أن القرصنة ظاهرة قديمة في المتوسط لها قواعدها وأعرافها

¹ De Grammont, op-cit, p5

² Belhamissi Mouley, Marin et Marins d'Alger 1518-1830, Bibliotheque National d'Algerie, Alger, T:1, 1996, p 35

³ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص72

⁴ المرجع السابق، ص72

وتقاليدها، إذ كانت تعقبها مفاوضات بين الدول والمدن التي تقوم بينها¹، فيما يذكر "ماخوفسكي" صاحب كتاب "تاريخ القرصنة في العالم" أن القرصنة كانت تعتبر وسيلة شرعية من وسائل الحروب في البحر وأنها كانت جزءاً لا يتجزأ من حركة التجارة ولم تكن هناك قوانين محددة تحظرها².

وإذا كانت القرصنة نشاطاً مُقَدَّناً فإن هناك نوعاً آخر من القرصنة هو اللصوصية البحرية والذي تقوم به سفن الخواص من البحارة من أجل سلب ونهب السفن التجارية دون مراعاة علاقات وأوقات السلم والحرب بين الدول³.

أما فيما يخص القرصنة في جنوب غرب البحر المتوسط⁴ والتي اتخذت طابع الجهاد البحري فإنها قد ازدادت حدّة وضراوة بعد إبعاد مسلمي الأندلس ولجؤهم

¹ بروديل فرنان، المتوسط والعالم المتوسطي، تر، مروان أبي سمرا، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993، ص151

² ماخوفسكي، المرجع السابق، ص342،343

³ المرجع نفسه، ص342، المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص72

⁴ حول القرصنة في الجزائر وفي البلدان المغربية وظروف الأسر والافتداء مطلع وخلال العصر الحديث ينظر:

- Haedo, F. D, De la Captivite a Alger, Tr, Moliner Violle, Adolphe Jordane Imprimeur Libraire Editeut, Alger, 1911
- Dan Pierre R. P, Histoire de Barbarie et de ses Corsaires, 2E, Libraire Ordinaire du Roi, Paris,1646,
- Christian Pitois, Histoire de Pirates et Corsaires de L'Océan de Méditerranée,D. Cavaille Editeur, Paris,1846
- De Grammont H. D, La Course et l'Esclavage et la Rédemption a Alger, Extrait de la Revue Historique, Paris 1885

إلى بلاد المغرب، حيث كان هؤلاء على معرفة واسعة بالملاحة وصناعة السفن، فأخذت مدن سواحل البلدان المغربية تباشر عمليات القرصنة دفاعاً عن أراضيها ومُقابلةً العُدوان بالمثل¹، حيث كان أهالي المنطقة يشنون رفقة مهاجري الأندلس الغارات على جزر وسواحل إسبانيا ينهبون الموانئ ويأسرون آلاف المسيحيين²، كما يذكر "سبنسر" أن تدخل الجهاد كعامل ديني قد أعطى للقرصنة الإسلامية طابعاً شرعياً تُجيزها الدولة وتمنح للقراصنة الرواتب والتسهيلات³، أما "بروديل" فيصرح بأن القرصنة كانت نشاطاً رائجاً في البحر المتوسط يمارسه الجميع، إذ يقول أنه على الرغم من أن المؤرخين أكثروا من الحديث عن قرصنة إسلامية خصوصاً في الجزائر، فإن القرصنة كانت منتشرة في أنحاء المتوسط كلها من دون أن تعرف وطناً أو ديناً⁴.

عموماً، فإن الجهاد البحري (القرصنة الإسلامية) في غرب البحر المتوسط هي تلك العمليات البحرية التي قام بها المسلمون انطلاقاً من سواحل البلدان المغربية ضد سواحل وسفن الدول الأوروبية المعادية لها في غرب البحر المتوسط منذ القرن 15م والتي ستستمر إلى غاية القرن 19م.

- Orse l'Abbe, Alger pendant Cent ans et la Redemption des Captifs, Imprimerie Adrien le Clere, Paris, 1860

¹ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، 74، 75، العبيدي، المرجع السابق، ص 146، 147

² Berbrugger Adrien, Mers El Kebir, Tr, Suarez Diego, R.A, V: 9, Alger, 1856, p338

³ سبنسر، المرجع السابق، ص 11

⁴ بروديل، المرجع السابق، ص 152

ومن هنا فقد كان الحد من حركة الجهاد البحري (القرصنة حسب الوصف الأجنبي) أبرز الدوافع الاقتصادية للدول الإسبانية على سواحل البلدان المغربية، فقد جاء عن هايدو (Haedo) أن الحد من قرصنة الجزائريين كانت الاهتمام الأول للملك الكاثوليكي فيرناندو¹، أما "جون وولف" فيذكر أن الأخير حاول منع القرصنة بالسيطرة على الموانئ التي تُنفذ منها عملياتها، ويضيف أن هذه السياسة كانت تهدف إلى وقف نشاط البحارة القرصنة العاملين ضد الممتلكات الإسبانية². هذا، كما أن القضاء على حركة الجهاد البحري سيضمن أيضاً سلامة وحرية التجارة البحرية للسفن الإسبانية والمسيحية عموماً في غرب البحر المتوسط الذي يعتبر أهم الطرق التجارية البحرية آنذاك.

وأخيراً، يمكن أن نقول حول دوافع الاحتلال الإسباني لسواحل بلاد المغرب بما جاء عن المؤرخ الإيطالي "إيتوري روسي" الذي قال بأن "احتلال بلاد الشمال الأفريقي كان يبدو شيئاً ضرورياً للإسبان، تدعو إليه أسباب سياسية واقتصادية وفي نفس الوقت أسباب دينية"³.

¹ Haedo F.D, Topographie et Histoire General d'Alger, Tr, Monereau et Berbrugger, R.A, 1870, V:14, Alger, p415

² وولف، المرجع السابق، ص26، 27

³ روسي، المرجع السابق، ص168

2- الحملات الإسبانية واحتلال سواحل بلاد المغرب 1505-1511م:

2-1- احتلال المرسى الكبير¹:

كانت أولى الحملات الإسبانية لاحتلال المغرب الأوسط (الجزائر) الحملة على المرسى الكبير سنة 1505م، ويبدو أن اختيار الإسبان لهذا المرسى يعود إلى أهميته الاستراتيجية والاقتصادية أولاً، فقد جاء عن الوزان في وصفه للمرسى الكبير أنه: "ميناء ما أظن أن في الدنيا أكبر منه، يمكن أن ترسوا فيه مئات البواخر و السفن الحربية في مأمن من كل عاصفة و إعصار"²، أما مرمول كريبخال فيصفه بأنه: "أجمل مراسي إفريقيا وأعظمها، كانت ترسوا فيه كل عام السفن الضخمة من البندقية وغيرها من بلاد أوروبا حاملة البضائع لتنتقل بعد ذلك إلى وهران"³، ويتضح من خلال وصفي الوزان وكريبخال هدف السلطات الإسبانية في القيام بحملتهم الأولى على المرسى الكبير، إذ أنه بالسيطرة عليه سوف تسيطر على كامل الجهة الغربية للمغرب الأوسط، فالمرسى الكبير هو شريان الحياة الاقتصادية للدولة الزيانية ثم لوهران المستقلة بعد ذلك، كما أنه بحكم موقعه الهام سوف يساعد السلطات الإسبانية في بسط نفوذها على كامل ساحل المغرب الأوسط كما سنرى فيما بعد، هذا كما تعلل الروايات الأجنبية سبب

¹المرسى الكبير: مدينة ساحلية على هيئة قلعة محصنة غرب المغرب الأوسط، ميناؤها من أكبر الموانئ في بلاد المغرب، للمزيد حولها ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص31، كريبخال، المصدر السابق، ج2، ص327

² الوزان، المصدر السابق، ج2، ص31

³ كريبخال، المصدر السابق، ج2، ص327

احتلال المرسى الكبير بكونه كان مركز عمليات القراصنة البربر على سواحل إسبانيا وجزرها القريبة والتي يعودون منها محملين بالأسرى والغنائم¹. أسندت القيادة العامة للحملة الإسبانية لاحتلال المرسى الكبير للقائد دييغو فيرنانديز (Diego Fernandez) في حين تولى قيادة الأسطول القائد ريمون دو كوردوبا (Rimon de Cordoba) وقد كان تعداد الحملة الإسبانية سبعة بواخر حربية ومائة وأربعين زورقاً رفقة خمسة آلاف جندي² بينهم عدد من النبلاء³، وقد أقلعت الحملة من ميناء مالقة أواخر شهر أوت سنة 1505م واضطرتها عاصفة بحرية للتوقف في ميناء ألميرية مابين 3 إلى 7 سبتمبر لتستأنف الحملة الإسبانية سيرها إلى المرسى الكبير⁴، وتجمع الروايات على أن تأخر الحملة كان في صالح الإسبان إذ أن أهالي المرسى الكبير كانوا قد خرجوا لمقاومة الإسبان حين بلغهم نبأ هذه الحملة غير أنهم انصرفوا عن ذلك بعد تأخرها ظناً منهم أن الإسبان قد تراجعوا أو أنهم كانوا يَنشُدون هدفاً آخر⁵.

في صبيحة 10 سبتمبر 1505م أرسى الأسطول الإسباني قبالة المرسى الكبير، وقد كانت السفن الإسبانية منذ اقترابها من الساحل تتبادل طلقات المدفعية مع

¹Berbruger, Mers El Kebir, op-cit, p338

²Ibid, p399, De Grammont, La Domination, op-cit, p6

³كربخال، المصدر السابق، ج2، ص328

⁴De Grammont, La Domination, op-cit, p6

⁵الميلي، المرجع السابق، ج3، ص23، المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص96، العبيدي،

المرجع السابق، ص149

مدافع المسلمين التي كان دويها أكثر من مفعولها حسب دي غرامون¹ (De Grammont)، كما جاء عن كريبخال حول هذه المعركة أنه: "... قد حاصروا الأسطول المدينة وقاتلها بشدة ودافع المسلمون عنها وردوا على النصارى بمدفع من حديد ولكن هؤلاء سسدوا في اتجاهه مدفعاً آخر أصابه في الصميم وحطمه وقتل المدفعي المكلف به، ما أدى بالمسلمين إلى قبول الاستسلام فخرجوا بأهلهم ونسائهم تاركين المدينة مفتوحة للمسيحيين..."².

بعد المقاومة الأولى التي قُتل على إثرها قائد الحامية اضطرت حامية المرسى الكبير إلى الانسحاب إلى داخل المدينة مما أمكن القوات الإسبانية من النزول إلى المرسى الكبير والاستيلاء عليه، ويذكر صاحب "طلوع سعد السعود" في هذا الصدد: "... ثم جهز (ملك إسبانيا) جيشاً إلى وهران فغزاها وملك برج مرساها سنة إحدى عشر من العاشر..."³، وعلى إثر سقوط الحصن العسكري للمرسى الكبير في أيدي الإسبان اضطرت أهالي المنطقة - رغم معارضة البعض - إلى عقد اتفاقية استسلام مع الإسبان تضمن لهم الحياة وحرية الانسحاب وكان ذلك بعد خمسين يوماً من الحصار الإسباني⁴، ونشير هنا إلى أن الإسبان كانوا خلال هذه المدة

¹De Grammont, La Domination, op-cit, p6

²كريبخال، المصدر السابق، ج2، ص328

³المزاري، المرجع السابق، ج1، ص211

⁴الميلي، المرجع السابق، ج3، ص23، المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص99

متحصنين فقط بقلعة المرسى، حيث أن "الإسبان ملكوا برج القلعة واستقروا به"¹ حسبما أورده صاحب "دليل الحيران"، وعلى أية حال فقد استسلمت مدينة المرسى الكبير التي لم يُفدها مدد السلطان الزياني ودخلت القوات الإسبانية إلى المدينة التي حُوّل مسجدها بأمر من القائد العام ديبغو فيرنانديز (Diego Fernandez) إلى كنيسة "القديس ميكائيل".²

بعد أن وصل إلى إسبانيا خبر نجاح الحملة الإسبانية في احتلال المرسى الكبير أعلنت السلطات الإسبانية بأمر من الملك "فرناندو الخامس" الأفراح لمدة ثمانية أيام -مما يبرّر ويؤكد إضافة إلى تحويل مسجد المدينة إلى كنيسة الصبغة الديفية للحملة الإسبانية على المرسى الكبير وبقية الحملات الأخرى كما سيرد لاحقاً -، وقبل عودته إلى إسبانيا ترك قائد الحملة ثمانمائة جندي تحت قيادة روي دو روكسا (Roy de Roxa) انصرفوا إلى تحصين مواقعهم وتوسيع شبكة اتصالاتهم في المدينة بحثاً عن مصادر للتموين، كما تمّ بناء حصن جديد وُضعت فيه حامية عسكرية.³

رغم المقاومة الجريئة لقوات المرسى الكبير إلا أن سقوطه والمدينة في أيدي الإسبان كان أمراً حتمياً نظراً لغياب السلطة المركزية، كما أن بقاء ميناءً بتلك القيمة الاستراتيجية التي أوردها الجغرافيون بدون قوة تدافع عنه الخطر الخارجي

¹ الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح، تق، المهدي البوعبدلي، ط1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص187

² الملي، المرجع السابق، ج3، ص23، المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص98

³ De Grammont, La Domination, op-cit, p8

كان عاملاً آخر في سقوط المرسى الكبير في أيدي السلطات الإسبانية بتلك السهولة.

وتجدر الإشارة هنا أنه بعد مرور عامين حاولت القوات الإسبانية التوغل في الداخل إذ اتجهت إلى منطقة مسرغين في 6 جوان 1507م لكنها مُنيت بهزيمة ذكراء قُتل على إثرها ثلاثة آلاف جندي مما اضطرها إلى العودة والتحصن في المرسى الكبير¹.

2-2- احتلال وهران²:

كانت وهران تشكل تهديداً لإسبانيا حيث أنها كانت مقرّ القراصنة الذين يقومون بالهجمات المتتالية على جزر البليار وسواحل إسبانيا الشرقية والجنوبية³. وعلى هذا الأساس جهزت السلطات الإسبانية في سنة 1509م حملة عسكرية لاحتلال وهران، وعُيّن أسقف طليطة الكردينال خيمينيس (Cardinal Ximénes de Cisneros) الذي كان المشرف على عمليات تنصير مسلمي الأندلس كما رأينا في الفصل السابق قائداً عاماً للحملة، وهو دليل آخر على الصبغة الدينية للحملات الإسبانية على البلاد المغربية، وكان الأسطول الإسباني الحامل لخمسة آلاف جندي قد خرج من ميناء قرطاجنة يوم 16 ماي 1509م

¹ الجيلاي، المرجع السابق، ج2، ص 278، المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص104-106
² وهران: مدينة ساحلية كبيرة غرب المغرب الأوسط بناها البربر (السكان المحليون) وهي تقع شرق المرسى الكبير، للمزيد حولها ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص30، ج2، ص329

³ الوزان، المصدر السابق، ج2، ص30، كربخال، المصدر السابق، ج2، ص330

بقيادة بيدرو نافارو (Pedro Navarro) اقد نزل أولاً بالمرسى الكبير قبل أن يتوجه إلى وهران يوم 19 جوان¹.

خرجت قوات مدينة وهران للاقاء القوات الإسبانية إلا أنها قررت بعدما رأت عظمة الأسطول الإسباني وكثرة الجند أن تعود للمدينة وتتحصن خلف أبوابها، لكنّ المسلمين وهم متحصنون في مدينتهم لم يكونوا على علم بأن بينهم خونة وعملاء للإسبان، حيث أورد كريخال أن " حاكم المرسى الكبير قد اتفق مع يهودي ومسلمين على أن يُسلموا المدينة في موعد مضروب"² وقد كان هذا اليهودي يدعى آشتورا³ أما الخائنين المسلمين فهما عيسى العريبي وابن قانص وفي رواية أخرى عيسى بن الغريب والغناش⁴.

بعد نزول القوات الإسبانية ضربت حصاراً على مدينة وهران و بينما كان جند المدينة يقاتلون الإسبان من بابها الأمامي قام اليهودي ومن معه من العملاء بفتح

¹ ينظر Fey Henry Leon, Histoire D'Oran avant, pendant et apre La Domination: Espagnole, Adolphe Perrier Editeur, Oran, 1858, p68, Berbrugger Adrien, La Conquête d'Oran en 1509, R.A, V:10, Alger, 1866, p47

² كريخال، المصدر السابق، ج2، ص331

³ Berbrugger Adrien, La Conquête d'Oran, op-cit, p47, Fey, op-cit, p69

افي حين جاء في المصادر المحلية أن اسمه الزاوي ابن كيسة أو ابن زهو. ينظر: الزياتي، المصدر السابق، ص188، المزاري، المصدر السابق، ج1، ص188

⁴ الزياتي، المصدر السابق، ص188، المزاري، المصدر السابق، ج1، ص188، Berbrugger, La Conquête d'Oran, op-cit, p48

الباب الخلفي للمدينة فحوصر المسلمون من الجهتين وأوغل الإسبان في القتل و الذبح حتى بلغ عدد القتلى من الأهالي أربعة آلاف قتيل.¹

وقد جاء عن المدني أن الكردينال خيمينيس كان يراقب المعركة عن كثب ولم يستطع -رغم كرهه الشديد للمسلمين- ضبط دموعه وهو يشاهد بشاعة المنظر وشناعته²، كما يذكر الوزن حول هذه المعركة أن " السكان خرجوا يقاتلون بغير نظام وتركوا المدينة خالية فأرسل الإسبان جنداً من الطرف الآخر...ولما أخذ المغاربة يتراجعون إلى الداخل لصد العدو عن المدينة وقعوا بين الفريقين الإسبانيين فضيقوا عليهم الخناق ولم ينج منهم إلى القليل..."³.

ويبدو أن الوزن قد أهمل في حديثه عن احتلال وهران قضية الخيانة التي ساهمت بشكل كبير في سقوط المدينة، أما كريبخال فيضيف على قضية الخيانة عاملاً آخر لانتصار الإسبان هو أن "المسلمين خرجوا دفعة واحدة للقتال و لم يخلفوا داخل المدينة سوى القليل من الناس...ودخل الإسبان من الطرف الآخر بينما كان المسلمون يوجدون خارجها، و دخلها النصارى بدون مقاومة كبيرة و هاجموا المسلمين من الخلف فكانت مذبحة عظيمة في المسلمين...وإن كان بعضهم قد صمد خمسة أيام في دار الفقيه قرب الجامع إلا أنهم لم يستطيعوا في الأخير النجاة من الفتك و الأسر"⁴.

¹ كريبخال، المصدر السابق، ج2، ص330،331، Berbrugger, La Conquête d'Oran, op-cit, p48

² المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص111

³ الوزن، المصدر السابق، ج2، ص31

⁴ كريبخال، المصدر السابق، ج2، ص330،331

بعد سقوط المدينة في أيدي الإسبان الذين لم يخسروا سوى ثلاثين من رجالهم¹،
بادر الكردينال خيمينيس بتحويل مساجد المدينة إلى كنائس وصيّر جامعها الأكبر
كاتدرائية²، كما دخل في طاعة الإسبان طوائف من الأعراب كأولاد راشد من مغراوة
وأولاد شافع من بني عامر³، وقد كان استيلاء الإسبان على وهران قد تمّ في عهد
السلطان الزياني أبي قلموس الذي أعلن الولاء لإسبانيا وصار ملتزماً بدفع المغارم
إليها⁴، وهو ما يعني تلقائياً خضوع العاصمة تلمسان ودخولها تحت الحكم
الإسباني، وفي هذا الصدد قال الحافظ أبو راس في سينيته حول احتلال وهران
زمنَ السلطان المذكور:

خامس عشر من عاشر أناخ بها الإسبانيون أهل الشرك و الرجس
جحافل الكفر قد حموا جوانبها وعن دفاعهم عجز أبو قلمس⁵

¹ كريخال، المصدر السابق، ج2، ص331،48، Berbrugger, La Conquête d'Oran, op-cit,

² المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص112،73، Fey, op-cit,

³ المشرفي عبد القادر، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، ط.ح، د.ن، د.ت، ص3،4، وبخصوص موقف قبائل وهران من الاحتلال الإسباني للمدينة وعلاقتهم بالإسبان ينظر: بن براهيم هاشمي، قبائل وهران والاحتلال الإسباني؛ قراءة في مواقف التحالف والولاء، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، الجزائر، 2020، 2021، بن براهيم هاشمي، بوغفالة ودان، القبائل المتعاونة مع الاحتلال الإسباني، مجلة الناصرية للدراسات التاريخية والاجتماعية، الجزائر، مج8، ع1، 2017

⁴ كريخال، المصدر السابق، ج2، ص331، الزياني، المصدر السابق، ص188

⁵ الناصري محمد أبوراس، الدل السندسية في شأن وهران و الجزيرة الأندلسية، ط.ح، مطبعة بيدير فونتانا، الجزائر، 1903، ص6

2-3- احتلال بجاية¹:

استكمالاً لمشروعها لاحتلال مدن وسواحل بلاد المغرب، جهزت السلطات الإسبانية حملة ثلاثة لاحتلال مدينة بجاية، ففي يوم 1 جانفي 1510م أُلْعِ الأُسْطُولُ الإسباني بقيادة بيدرو نافارو من جزر الباليار أين أُعدت الحملة على بجاية، والتي كانت تتكون من أربع عشرة سفينة تحمل عشرة آلاف جندي بمدفعية ضخمة وآلات عديدة وسلاح وفير، وقد رَسَدَت الحملة الإسبانية أمام مدينة بجاية يوم 5 جانفي 1510م².

يذكر كربيخال أن الحملة الإسبانية لم يشعر بها أحدٌ ولا استعداد لها أهالي بجاية، لذلك فقد فوجئوا بالهجوم الإسباني ولم يجدوا بُدأً من الهروب إلى الجبال³، في حين جاء عن توفيق المدني أن أهالي المدينة كانوا مستعدين للدفاع عنها ومنعوا القوات الإسبانية من النزول إلى البرِّ وأنَّ جُنْدَ حامية المدينة تبادلوا ضرب المدافع مع المدفعية الإسبانية، كما أشار المدني إلا أن البون كان شاسعاً بين عدد وعدة القوات الإسبانية وبين نظيرتها البجائية التي كانت معركتها كما وصفها "معركة شعب لا معركة حكومة"⁴، حيث أن سلطة بجاية كانت في هذه الفترة في صراع

¹ بجاية: مدينة ساحلية في المغرب الأوسط نادية الشرق، كانت رفقة قسنطينة من أهم مدن الدولة الحفصية في المغرب الأوسط، للمزيد حولها ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص49

² كربيخال، المصدر السابق، ج2، ص377، المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص120

³ المصدر نفسه، ج2، ص377، وحول احتلال بجاية ينظر أيضا: Feraud Charles, Conquête de Bougie par Les Espagnols d'apre un Manuscrit Arabe, R .A, V:12, Alger, 1868, p250.

⁴ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص119

حول العرش تمثل في انقلاب الأمير عبد الرحمان على ابن أخيه عبد الله أمير بجاية وزجّ به في السجن¹، ومنه لا نستبعد أن حدثاً مثل هذا كان دافعا آخر للحملة الإسبانية على مدينة بجاية وعاملا مساهماً في سقوطها في أيدي الإسبان. دخلت القوات الإسبانية مدينة بجاية بعدما قسّمها بيدرو نافارو إلى قسمين، الأول أحاط بأسوار المدينة والثاني تولّى اقتحامها، وهكذا نجح الإسبان في احتلال المدينة وأوغلوا في قتل أهلها الذين فرّ غالبيتهم إلى خارج المدينة².

أسفر الاحتلال الإسباني لمدينة بجاية عن قتل أربعة آلاف من أهلها³، كما راح الجنود الإسبان يخربون المدينة وينهبونها، فضلا عن كونهم قاموا بنقل ما استطاعوا حمله من ثروات المدينة ونفائسها غنائماً إلى إسبانيا، كما قام بيدرو نافارو من أجل بسط سلطته على المدينة ببناء حصن على الشاطئ تستقر فيه حاميته عكس ما كان يظن الأهالي، حيث أنهم كانوا يظنون بأن الإسبان سوف يغادرون المدينة بعد نهبها والاستيلاء على ثرواتها⁴.

هذا، وقد دخل في طاعة الإسبان عبد الله المسجون أمير بجاية بعدما خُرب في جملة الأسرى الذين كانوا في المدينة وصار دليلاً للقوات الإسبانية⁵، كما تجدر

¹ حول الأوضاع السياسية في بجاية عشية الاحتلال الإسباني ينظر: بلبروات بن عتو، بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني 1510-1554م، مجلة عصور جديدة، جامعة وهران، الجزائر، ع7، 8، 2012-2013، ص177، 178

² المرجع نفسه، ص180

³ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص122

⁴ كربخال، المصدر السابق، ج2، ص378

⁵ المصدر نفسه، ج2، ص378

الإشارة إلى أن السلطان الحفصي أبا عبد الله محمد لم يحرك ساكناً إزاء ما حدث للمدينة فلا ساهم بمدد ولا قام بأية محاولة ولا خطوة لاسترجاع مدينته من أيدي الإسبان، بل على العكس من ذلك تماماً بادر السلطان الحفصي باسترضاء الملك الإسباني بإعلان الطاعة له متعهداً بدفع جزية سنوية كدليل للخضوع والتبعية¹. من هنا يمكن القول أن مشكلة وراثة العرش ساهمت مرةً أخرى كما كانت دائماً في تاريخ الأسر الحاكمة وخاصة الإسلامية في سقوط قاعدة أخرى من قواعد بلاد المغرب الأوسط، وإن غياب السلطة المركزية وانعدام الجيوش النظامية كان أهم العوامل التي أدت إلى سقوط المدن الساحلية المغربية بهذه السرعة والسهولة.

2-4- خضوع مدينة الجزائر² وبقية المدن الساحلية:

بعد هذه الانتصارات التي حققتها إسبانيا في المرسى الكبير وفي وهران وبجاية رأت بقية المدن الساحلية أن تُعلن الولاء والتبعية للسلطات الإسبانية، فبعد أيام من احتلال الإسبان لمدينة بجاية قرر حاكم مدينة الجزائر سالم التومي وبعض أعيان المدينة أن يعقدوا معاهدة استسلام مع السلطات الإسبانية، حيث توجه سالم التومي على رأس وفد من مدينة الجزائر إلى بجاية أين التقى مع بيدرو نافارو واتفق الطرفان على عقد معاهدة اشترط فيها القائد الإسباني أن يُطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين في مدينة الجزائر وأن لا يتصدى بحارتها للسفن الإسبانية³.

¹ روسي، المرجع السابق، ص 169

² الجزائر: مدينة على ساحل المغرب الأوسط، كانت تسمى قبل العهد العثماني جزائر بني مزغنة نسبة لقبيلة التي كانت تسكنها، أما الجزائر فهي جمع جزر نسبة للجزر الصخرية التي كانت تقابلها، للمزيد حولها ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 37، كرخال، المصدر السابق، ج 2، ص 362

³ الجبلاي، المرجع السابق، ج 2، ص 282، المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 126، 127

وفي السنة الموالية، أي سنة 1511م، سار وفد آخر من مدينة الجزائر إلى إسبانيا لعقد اتفاقية نهائية، وانتهت مفاوضات وفد مدينة الجزائر مع مجلس سرقسطة بإعلان تبعية مدينة الجزائر لإسبانيا وعلى أن يسلم حاكمها إحدى الجزر قبالة المدينة لكي تشيّد عليها السلطات الإسبانية قلعة لمراقبة تجارتها وضمان حرية مواصلاتها البحرية¹، كما تضمن لهم مراقبة عمليات القرصنة والحدّ من نشاطها²، وبعد عقد هذه الاتفاقية شرع الإسبان في بناء هذه القلعة التي أصبحت تعرف لاحقاً بصخرة الجزائر³ (Le Penon d'Argel) وُضعت بها حامية عسكرية من مائتي جندي إسباني⁴.

وكانت القوات الإسبانية قد احتلت مدينة عنابة سنة 1510م وتركت بها حامية لحراستها⁵، كما حدّت مدن تنس ودلس وشرشال حدّو مدينة الجزائر، حيث أرسلوا إلى السلطات الإسبانية وفوداً لإعلان التبعية والطاعة للسلطات الإسبانية مقابل عقد السلام معها⁶، كما أرسل أعيان مدينة مستغانم في 26 ماي 1511م رسالة

¹ أبلالي، المرجع السابق، ص46

² De Paradis Venture, Alger au 18 Siecle, Ed, Fegnan. E, Imprimeur Libraire Éditeur, Alger, 1898, p4

³ حول تاريخ حصن البنيون ودوره السياسي والعسكري في الجزائر خلال فترة الاحتلال الإسباني ينظر: Bernruger Adrien, Le Pegnon d'Alger, Challamal Libraire, Alger, 1860

⁴ Haedo, Topographie, op-cit, p415, De Grammont, La Domination, op-cit, p15

⁵ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص141

⁶ De Grammont, La Domination, op-cit, p15

إلى إسبانيا يُعربون فيها عن طاعتهم ودخولهم في خدمة جلالة ملك وجمالة ملكة قشتالة بأمانة وإخلاص¹.

2-5- احتلال مدينة طرابلس:

بعد احتلال المدن الساحلية الاستراتيجية في المغرب الأوسط حاولت إسبانيا مد نفوذها شرقا وبالتحديد إلى الأقاليم الشرقية للمغرب الأدنى من أجل الاستيلاء على المواقع المهمة في المنطقة ولعل أهمها مدينة طرابلس التي كانت مستهدفة تحديدا من قبل السلطات الإسبانية.

ربما يكون من الأفضل أن نبدأ الحديث عن الاحتلال الإسباني لـطرابلس بالتساؤل الذي طرحه المؤرخ "جان كلود زليتنر": لماذا طرابلس، هذا الميناء البعيد؟ يجب هذا الأخير أن ه ناك سببين رئيسيين وراء ذلك: الأول ذو طبيعة استراتيجية؛ فإسبانيا كانت تتبعاها كل من نابولي وصقلية ومالطا التي تقابل طرابلس في الضفة الشمالية للبحر المتوسط وبالتالي فالاستيلاء عليها يعني تقسيم البحر المتوسط إلى قسمين يسيطر فيه الإسبان كلية على الجزء الغربي منه وبالتالي منع العثمانيين عنه، أما السبب الثاني فيعزوه "زليتنر" إلى الثراء الهائل الذي تزخر به المدينة والذي يقول عنه أنه أذهل الرحالة المعاصرين²، وفعلا، فحسب ماجاء عن حسن الوزان الذي زار المدينة في مطلع القرن 16م فإن: "... السكان يتعاطون التجارة بكثرة لأن المدينة قريبة من نوميديا ومن تونس دون أن توجد مدينة غيرها حتى الإسكندرية، وهي كذلك قريبة من مالطا ومن صقلية، وكانت سفن البنادقة ترسو بها قديما وتقوم بتجارة كبيرة مع تجار طرابلس ومع

¹ De La Primaudaie Elie, Documents inedits sur l'histoire de L'Occupation Espagnol en Afrique, R.A, V:19, Alger, 1875, p73,74

² زليتنر جان كلود، طرابلس ملتقى أوروبا ووسط بلدان إفريقيا، تر، جاد الله عزوز الطلحي، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، 2001، ص28

الذين يفدون إليها كل سنة من أجل هذه السفن..."¹، كما يذكر ابن غلبون في كتابه "تاريخ طرابلس الغرب" أن تجّار صقلية ومالطا لما رأوا من غنى المدينة وضمّعت سكانها عسكرياً وصنّفوا ذلك لملك صقلية من أجل حمله على احتلالها، إذ أخبروه كما في نص ابن غلبون أنهم ما رأوا "أكثر من أهلها مالا وأقلّ سلاحاً وأعجز أهلاً عن دفاع العدو"².

ومنه واعتماداً على ما سبق يمكننا القول بأن الأهمية الاستراتيجية والازدهار الاقتصادي هما أهم عاملين من عوامل الاحتلال الإسباني لطرابلس.

بعد أمر ملكي من فرناندو الخامس ملك إسبانيا جهّز بيدرو نافارو الذي أصبح يتولى منصب القائد العام للقوات الإسبانية في شمال أفريقيا الحملة العسكرية على مدينة طرابلس والتي انطلقت من ميناء بجاية مكوّنة من ثمانية آلاف رجل اتجهت صوب جزيرة صقلية أين انضمت إليها سفن الجزيرة وكذا السفن القادمة من نابولي والتي ستشارك في الحملة على طرابلس تحت تنسيق هوغو دي مونكادي (Hugo di Moncade) نائب ملك صقلية³.

غادر الأسطول الإسباني⁴ ميناء جزيرة فافينيانا بصقلية يوم 15 جويلية 1510م وتوقف في مالطا أين انضمت إليه مجموعة من البحارة المالطيين باعتبارهم

¹ الوزان، المصدر السابق، ج2، ص98

² ابن غلبون محمد بن خليل، التنكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار (تاريخ طرابلس الغرب)، تح، الطاهر الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1934، ص92، 93

³ روسي إيتوري، طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا، تر، محمد التليسي، ط1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، 1969، ص18، عبيد مصطفى، طرابلس الغرب من الاحتلال الإسباني إلى دخول العثمانيين، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ع18، 2015، ص324

⁴ تجدر الإشارة إلى أن ممالك الجنوب الإيطالي (صقلية، نابولي ولاحقاً جزيرة مالطا) هي أراضي كانت خاضعة للإمبراطورية الإسبانية خلال الفترة المدروسة.

مرشدين وذلك لمعرفتهم بطرابلس ولخبرتهم بكافة سواحل الشمال الأفريقي، ثم غادرت الحملة مجددا من مالطا يوم 20 جويلية مكونة من مائة وعشرين قطعة بحرية تحمل خمسة عشر ألف جندي إسباني وثلاثة آلاف من الإيطاليين وعدد من البحارة المغامرين¹.

وصل الأسطول الإسباني قبالة مدينة طرابلس صبيحة يوم 25 جويلية ونزلت القوات الإسبانية إلى البر في غضون ساعات قليلة حيث قُسمت إلى قسمين؛ قام نصف بمهاجمة المدينة بينما تولى النصف الآخر التكفل بحماية القوات المهاجمة من ضربات القبائل القاطنة بريف المدينة، وسرعان ما استولت القوات الإسبانية بمساعدة المدفعية على سور المدينة وأبراجها مما مكّنهم من الدخول إلى المدينة حيث وجدوا أمامهم مقاومة عنيفة من قبل الأهالي، ورغم هذه المقاومة إلا أن الهجوم الإسباني نجح في احتلال المدينة وخلف ستة آلاف قتيل من سكان المدينة وأسر حوالي عشرة آلاف منهم، كما تم إطلاق حوالي مائة وسبعين أسير مسيحي، فيما لم تتجاوز الخسائر الإسبانية سوى ثلاثمائة قتيل²، وقد ذكر ابن غلبون وصفا لهذه الحملة وحيثياتها، إذ ورد عنه: "...وَجَهَّزَ لَهَا أُسْطُولا فَأَخَذَهَا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَلَمْ يَنْجُ مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا مَنْ تَسَوَّرَ لَيْلًا، وَانْحَازَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى جِبَالِ غَرِيانٍ وَتَاجُوراءٍ وَمَسَلاتَةٍ، وَصَارَتِ الْمَدِينَةُ لِلنَّصَارَى"³.

¹ بازامه، المرجع السابق، ص 53، الباروني، المرجع السابق، ص 31

² كرىخال، المصدر السابق، ج 3، ص 122، 123، روسي، طرابلس، المرجع السابق، ص 19، زليتنر،

المرجع السابق، ص 31

³ ابن غلبون، المصدر السابق، ص 93

نستنتج أخيراً أن إسبانيا قد استطاعت خلال وقت وجيز ودون مقومات تُذكر احتلال قواعد هامة ومدن كثيرة على ساحل بلاد المغرب، وإن الانحلال السياسي كان أهم العوامل التي ساعدت في ذلك، كما أن هذا الاحتلال سيكون هو الآخر عاملاً مهماً وسبباً رئيسياً مُمهّداً لمرحلة جديدة في المنطقة ستبدأ مع ظهور العثمانيين ومحاولاتهم لتحرير بلاد المغرب من الاحتلال الإسباني واستعباد المسيحية.

ثالثاً: ظهور الإخوة بربروس في بلاد المغرب 1492-1512م:

1- أصل الإخوة بربروس :

لَمَّا فتح العثمانيون جزيرة ميديلي إحدى جزر الأرخبيل اليوناني في البحر المتوسط على عهد السلطان محمد الفاتح سنة 1457م¹ اقرّر الأخير أن يضع حامية عسكرية تستقر في الجزيرة بصفة نهائية، ولأنه لا يمكن لجند الحامية أن يستقروا فيها بدون زواج فقد سمح السلطان لجنوده بأن يتزوجوا من فتياتها². كان من بين هؤلاء الجند شاب من الروميلي³ اسمه يعقوب، من فرسان السبايحية¹ وقد تزوج هذا الفارس من إحدى فتيات الجزيرة وأنجب منها أربعة أبناء،

¹ مذكرات خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص27

² ينظر: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تص، تع، نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934، ص6، حاجي خليفة، المصدر السابق، ص84، إلتز، المرجع السابق، ص27، عقيب محمد السعيد، دور خير الدين بربروسا في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر، مجلة البحوث والدراسات، الجزائر، ع13، 2012

³ الروميلي (Rumleli): هو الاسم الذي أطلق على أراضي الدولة العثمانية الواقعة في أوروبا، ينظر: صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة السعودية، 1999، ص129

هُم : إسحاق، عروج، خِضر وإلياس²، وهم الذين سُدِّيعرفون فيما بعد بالإخوة بربروس³.

هذه هي الرواية المتفق عليها تقريبا حول مولد وأصل الإخوة بربروس، غير أن هناك روايات أخرى أكثر اضطرابا وإثارة للجدل، حيث عرف أصل هؤلاء الإخوة بعض الاختلاف من جانب المؤرخين و الباحثين، فمنهم من يقول بأن والدهم يعقوب كان مسيحيا ثم اعتنق الإسلام⁴ وأنه استقر في الجزيرة بعد تقاعده من الجيش العثماني وعمل فيها خزّافا⁵، فيما تذكر بعض الروايات الغربية أن أباهم من أصل ألباني مسيحي كان قد أُسِر من طرف العثمانيين وعمل مُجدِّفا في

¹ السبايحية (Sipahi): هي فرقة الفرسان الخيالة في الجيش العثماني، ينظر: صابان، المرجع السابق، ص132

² ينظر: مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص29،30، غزوات عروج، المصدر السابق، ص6، وكذلك:

De La Gravière Jurien, Doria et Barberousse, Libraire Plon Librairie Editeur, Paris, 1886, p79, Farine Charles, Deux Pirates au 16eme Siècle, Histoire des Barberousse, Paul Ducroco Libraire Editeur, Paris, 1869, p3, Christian, op-cit, p113

³ الأصح بارباروسا (Barbarossa): بمعنى ذوي اللحية الصهباء أو الزعراء، ويبدو من خلال لغة هذا اللقب أنه أطلق عليهم من قبل الإيطاليين الذين تعرفوا عليهم بعد ازدياد واشتداد نشاطهم البحري في البحر المتوسط. (الباحث)

⁴ Haedo F.D, Histoire des Rois d'Alger, Tr, H.D De Grammont, Imprimeur Libraire Éditeur, Alger,1881,p3

⁵ De Grammont H.D, La Course, op-cit, p5,3، سبنسر، المرجع السابق، ص3،5

البحرية العثمانية قبل أن يعتنق الإسلام تحت اسم يعقوب¹، ويرى البعض غير ذلك، حيث يذكر فريد بك المحامي صاحب "تاريخ الدولة العلية" أن الأخوين عروج وخضر (خير الدين) كانا مسيحيين واعتدقا الإسلام²، هذا؛ ولدينا رواية أخرى أكثر شذوذا تقول بأن الإخوة بربروس هم بالأساس فرسان فرنسيون شاركوا في حملة لويس الثاني عشر ملك فرنسا مع إمارة البندقية ضد الدولة العثمانية سنة 1501م وبعد انتهاء الحملة فضلوا البقاء في شرق البحر المتوسط أين اشتغلوا بالتجارة وغيروا أسماءهم وادّعوا بأنهم أبناء مرتدّ يهودي من ميدللي وذلك كي يُخفوا أصلهم الحقيقي³.

أما حول والدة الإخوة بربروس فتذكر الروايات التاريخية أنها أرملة أو ابنة راهب مسيحي تدعى "كاتالينا" أو "كاترينا"، في حين يرى البعض أنها سيدة أندلسية⁴، أما "وليم سبنسر" فيقول عن والدتهم أنه يكتنفها الغموض، فربما هي بنت أحد الرهبان أو أنها امرأة أسرها يعقوب في البحر⁵، هذا؛ كما تذكر بعض

¹ Belachemi Jean.Louis, Nous les frères Barberousse Corsaires et Rois d'Alger, Librairie Artheme Fayard, 1984, p12

² المحامي، المرجع السابق، ص230

³ Inconnu, Vie de Barberousse, General des Armées Navales de Soliman le second Empereur des Turcs, Bellin Librairie, Paris, 1789, p27-29

⁴ ينظر: سبنسر، المرجع السابق، ص38، إيفانوف، المرجع السابق، ص96، حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، ط1، مركز الوثائق الاقتصادية والاجتماعية، وهران، 1972، ص162، سالم أحمد، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2011، ص84

⁵ سبنسر، المرجع السابق، ص38

الروايات أن للإخوة بربروس أخوات بنات بقوا على الدين المسيحي حسبما تقتضيه عادات زواج المرأة الأرثوذكسية بالرجل المسلم¹.

يقول صاحب كتاب حياة بربروس (Vie de Barbarousse) أن هؤلاء الإخوة يعتدرون من أكثر المفردات التي تمت كتابتها إثارة للاهتمام على الإطلاق²، ورغم ذلك فإن أصلهم ونشأتهم بقيت غير معروفة وهذا بسبب إجحاف المخطوطات العربية والتركية حسب بلاشمي (Belachemi)³.

أما مذكرات خير الدين بربروس فلم تفصل هي الأخرى ولم تُسهب في الحديث عن هذه المسألة، حيث أن خير الدين أشار فقط إلى أن أباه يعقوب كان أحد فرسان السبائية وأنه كانت إحدى بنات جزيرة مديلي، حتى أن المصادر الجزائرية تدعوه بـ "ابن المدلية"⁴. هذا؛ ويذكر المؤرخ التركي "يلماز أوزتونا" في كتابه "تاريخ الدولة العثمانية" أن: "...والد الإخوة بربروس هو أبو يوسف يعقوب نور الله آغا ابن عبد الله آغا سبايهي جاؤوا من قاراسي..."⁵ وهو بذلك يؤكد كونهم مسلمي الأصل، لا كونهم مسيحيين أو يهود، ويؤكد فونتير دو بارادي

¹ Haedo, Rois D'Alger, op-cit, p4, Belachemi, op-cit, p14, Christian, op-cit, p113,96 إيفانوف، المرجع السابق، ص

² Vie de Barberousse, op-cit, p32

³ Belachemi, op-cit, p11

⁴ ينظر: الزباني، المصدر السابق، ص242، المزاري، المصدر السابق، ج1، ص251

⁵ أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص239

(Venture de Paradis) هذا الرأي إذ يذكر بأن والدهم يعقوب كان مسلما

خالصا أي أنه لم يكن مسيحيا ولا يهوديا ولا مرتدا¹.

على أية حال و بناءً على ما اتفقت عليه المصادر لا على ما اختلفت فإن

الموطن الأصلي للإخوة بربروس هو جزيرة ميدللي، أبوهم يعقوب أحد فرسان

الجيش العثماني و أمهم إحدى نساء هذه الجزيرة .

2- نشاط الإخوة بربروس في شرق البحر المتوسط:

إن الروايات المسيحية الغربية -ورغم أنها مجرّحة في بعض الأحيان- تفصّل

في نشأة الإخوة بربروس أفضل من نظيرتها الإسلامية (العربية والتركية) حيث

تذكر هذه الروايات التوجهات المهدية للإخوة بربروس منذ فتوّتهم، وحسبها (أي

الروايات الغربية) فقد اشتغل الأخ الأكبر إسحاق نجارا وعروج في التجارة

والملاحة، أما خضر فاشتغل خزّافا مثل أبيه، في حين تفرغ إلياس لدراسة القرآن

وعلوم الدين²، أما حسب مذكرات خير الدين فقد اشتغل الإخوة بربروس على

العموم بالتجارة ، كان نشاط إسحاق في جزيرة ميدللي أما خضر(خير الدين)³

¹ De Paradis, op-cit, p2

² Belachemi, op-cit, p14, Farine, op-cit, p4, Christian, op-cit,p113

³ اسمه "خِضِر" (Hizir): أما اسم خير الدين فقليل أن السلطان سليم الأول هو من أطلقه عليه، وقيل سليمان القانوني حين قال له: "أنت خير الدين والدنيا" بعدما وصلتته انتصاراته في غرب المتوسط، ينظر:

مذكرات خير الدين، المصدر السابق(هامش المحقق)، ص30

فنشاطه كان في "سيلانيك" و"أغريبور"¹، في حين عمل عروج و إلياس في التجارة البحرية.²

في إحدى سفرات عروج البحرية³قامت سفن فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس بهجوم على سفينة عروج قُتل على إثره أخوه إلياس بينما وقع عروج أسيرا لديهم⁴، وقد اشتغل عروج أثناء مكوثه في الأسر جَدَّافا في سفن المسيحيين، وتقول بعض الروايات أنه قد عُرِض عليه أن يعتنق المسيحية مقابل أن يُفكَّ أسره غير أنه رفض ذلك⁵، هذا؛ كما لم تُقدِّ محاولات خير الدين في افتداء أخيه عروج فبقي في الأسر إلى أن تمكن من الفرار حينما كانت سفن محتجزيه بالقرب من أنطاليا إحدى مدن جنوب الساحل التركي وكان ذلك حوالي سنة 1506م⁶ ليتعرف بعدها على أحد التجار البحارة يدعى علي راييس يشتغل بين أنطاليا والإسكندرية⁷، وبعد مرافقته إلى الإسكندرية دخل عروج في خدمة سلطان مصر "قانسوه الغوري" وأسندت إليه مهمة رئاسة السفن التجارية لدولة المماليك .

¹ سيلانيك وأغريبور: هما الآن مدينتان يونانيتان، كانتا سابقا ضمن أراضي الدولة العثمانية.

² مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص31، إتر، المرجع السابق، ص28

³ يذكر هايدو (Haedo) أن جرأة عروج وكفاءته جعلت أصحاب السفن التجارية يطلبون خدماته، كما أنه

كان منذ شبابه يبحث عن قبطان كي يعمل إلى جانبه، ينظر: Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p4

⁴ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص33، غزوات عروج، المصدر السابق، ص6، De

Grammont, La Domination, op-cit, p20

⁵ Belachemi, op-cit, p19

⁶ أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص242، فيما تذكر بعض الروايات أنه قد تم افتدائه من قبل الأمير

كركود حاكم أنطاليا مع جماعة من الأسرى، ينظر: إيفانوف، المرجع السابق، ص96، Belachemi,

op-cit, p19

⁷ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص33-44، غزوات عروج، ص7-10

أثناء ممارسة عروج لنشاطه التجاري على راس سفن دولة المماليك أغارت عليه سفن رودس مرة أخرى - وقد كانت حينئذ الحرب البحرية في أوجها بين المسلمين والمسيحيين - فاضطر عروج إلى الفرار بينما استولى المغيرون على سفنه¹.
لجأ عروج إلى أنطاليا مرة أخرى وهناك طلب من الأمير كركود ابن السلطان بايزيد الثاني بوساطة من خازنه "بياله باي" أن يمدّه بسفينة من أجل الغزو البحري فأمر له كركود بسفينة وزاده الخازن سفينة أخرى² ليستأنف عروج غزوه البحري³، ويذكر هنا "يلماز أوزتونا" أن السلطان كركود سأل عروج عن عدم ذهابه إلى غرب البحر المتوسط حيث المسيحيون يبطشون بالمسلمين، وأوصاه بأن يحدو حدو كمال راييس⁴ بأن يذهب إلى هناك ويسعى لتخليص المسلمين من بطش الإسبان⁵.

¹ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص47، إتر، المرجع السابق، ص32، أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص242

² مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص47، 48، سعد نيفين مصطفى حسن، دور الأخوين خير الدين بربروسا وأخوه عروج في مقاومة الاستعمار الإسباني في شمالي إفريقيا، المؤتمر الدولي الخامس "العرب والترك عبر العصور"، جامعة قناة السويس، الإسكندرية، 2013، ص763

³ كانت الحروب والغارات البحرية متبادلة بين المسحيين الإيطاليين والمسلمين العثمانيين في شرق المتوسط، وإن غزوات عروج المتعددة ضد الجنوبيين والإمارات الإيطالية كانت بدافع الانتقام على اعتداءاتهم ضد عائلته ومسلمي جزيرته، ينظر: Belachemi, op-cit, p16

⁴ كمال راييس: بحار تركي دخل في خدمة السلطان بايزيد الثاني سنة1494م، انتقل إلى غرب البحر المتوسط رفقة بعض البحارة لنجدة مسلمي الأندلس توفي سنة1511م، التحق معظم بحارته بعروج وخير الدين، ينظر: مذكرات خير الدين، المصدر السابق(هامش المحقق)، ص80، إيفانوف، المرجع السابق، ص95

⁵ أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص232

واصل عروج نشاطاته البحرية في شرق المتوسط وقام -رفقة من معه من البحارة الأتراك- بغزو الجزر اليونانية والإيطالية واستولى على عدة سفن من المنطقة قبل أن يقرر العودة إلى إزمير¹ لمقابلة ولي نعمته الأمير كركود، غير أن نبأ وصله حال بينه وبين ذلك²، إذ أنه أثناء ذلك تولى سليم الأول ابن بايزيد الثاني عرش الدولة العثمانية (سنة 1512م) ووقعت بينه وبين إخوته -وأحدهم كركود- خلاف كبير انتهى به إلى أن قتلهم جميعاً واستقر في الحكم³، وبما أن عروج كان موالياً للأمير كركود فقد خاف من العودة إلى إزمير أو إلى أي ساحل تركي آخر خشية أن يفتك به سليم الأول، فلجأ إلى سلطان مصر مرة أخرى قبل أن يقرر العمل بنصيحة الأمير كركود ويتوجه إلى غرب البحر المتوسط أين ساقته الظروف إلى جزيرة جربة التي استقر بها هو ومن معه من البحارة رفقة حوالي اثني عشر سفينة⁴.

باستقرار عروج ببروس-الذي سيلحق به كل من أخويه خير الدين وإسحاق- ومن معه من البحارة الأتراك في جزيرة جربة سيبدأ عهدٌ جديد في تاريخ بلاد المغرب، عهدٌ سيميزه اتصال الأتراك بالعنصر المدلي في المنطقة ومن تم

¹ إزمير (Izmir): مدينة تركية على ساحل بحر إيجه شرق البحر المتوسط

² مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص54، أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص232

³ القرمانلي، المصدر السابق، ج3، ص42،43، ابراهيم بك حليم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية،

ط1، مؤسسة المكتبة الثقافية، بيروت، 1988، ص79، المحامي، المرجع السابق، ص188

⁴ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص54-56، غزوات عروج، المصدر السابق، ص13، شارف

رقية، تشكل الكيانات السياسية للمغرب العربي في إطار الدولة العثمانية في الفترة الحديثة، مجلة

الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر2، ع13، 2011، ص134، سعد نيفين، المرجع السابق، ص764

انطلاقاً أولى شرارات تحرير ثغور بلاد المغرب من الاحتلال الإسباني والتأسيس للحكم العثماني في المنطقة.

المبحث الثاني: بلاد المغرب بين الاحتلال الإسباني والفتح العثماني (1512-1551م):

أدى الإخوة بربروس دوراً سياسياً واستراتيجياً هاماً في مد النفوذ العثماني إلى بلاد المغرب، حيث لا يمكن الحديث عن قيام الولايات المغربية العثمانية دون التطرق إلى دور الإخوة بربروس في تأسيس الحكم العثماني بالمنطقة، فبعد قيادتهم لحركة المقاومة ضد الاحتلال الإسباني في بلاد المغرب وخاصة في المغرب الأوسط، عمل الإخوة بربروس على ربط المنطقة بالدولة العثمانية وذلك من أجل الاستفادة من قوتها العسكرية ووزنها الثقيل كقوة سياسية جديدة في العصر الحديث، وكذا من أجل جعل بلاد المغرب حلقة من الحلقات المكوّنة للخلافة العثمانية.

كانت سنة 1519م هي سنة الوجود الرسمي العثماني في بلاد المغرب وذلك بعد إلحاق الجزائر رسمياً بالدولة العثمانية تحت حكم خير الدين بربروس، هذا الأخير الذي قاد حركة المقاومة من أجل تحرير بلاد المغرب من الاحتلال الإسباني وربطها بالدولة العثمانية، لتأتي بعد ذلك المحاولات لتأسيس باقي الولايات المغربية في كل من تونس وطرابلس في النصف الأول من القرن 16م. ومنه فإننا نستطرق في هذا المبحث لنشأة الحكم العثماني الرسمي في بلاد المغرب وكيفية قيام الولايات المغربية العثمانية خلال الفترة المذكورة، مع التطرق في خضم ذلك إلى بداية الصراع العثماني الإسباني في بلاد المغرب والحوض

الغربي للبحر المتوسط، إذ أن الصراع العثماني الإسباني كان من أهم العوامل التي رسّخت وأسست لبقاء العثمانيين وقيام إيالاتهم في بلاد المغرب.

أولاً: الإخوة بربروس في مواجهة الإسبان، وتأسيس إيالة الجزائر:

1- استنجد سكان المغرب الأوسط بالإخوة بربروس¹:

أفي جزيرة جربة²، التحق بعروج أخواه خير الدين وإسحاق، ومن أجل بدء نشاطهم البحري في غرب البحر المتوسط طلبوا من السلطان الحفصي أبا عبد الله محمد ميناءً يكون مركزاً لنشاطهم البحري في المنطقة، فمنحهم ميناء حلق الواد³، ويقول صاحب "الخلاصة النقية" في هذا الصدد: "...وقدما الحضرة في بعض غزواتهما على السلطان محمد بن الحسن فقابلهما بالجميل وأعانهما على قصدهما في سبيل غزو الكفار على أن يحملا له الخُمس..."⁴، ومن هنا بدأ

¹ هناك العديد من المصادر التي أرخت لسيرة الإخوة بربروس وكيفية اتصالهم بالمغرب الأوسط وغزواتهم في هذا البلد، منها ما هو مصنّف ومنها ما هو مخطوط، ولعل أبرزها: غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، مذكرات خير الدين بربروس، المصدر السابق، كما تحتفظ المكتبة الوطنية الجزائرية بعدة مخطوطات عن سيرة عروج وخير الدين وكيفية قدومهما إلى الجزائر منها ما اعتمدناه في دراستنا هذه والمعنون بـ: "الخبر عن قدوم عروج راييس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين"، ينظر: أ.م.و.ج، مخطوط رقم 1622

² جربة: جزيرة قبالة جنوب الساحل التونسي، عرفت استقلالاً عن الدولة الحفصية أواخر ق15م، ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص93، 94

³ حلق الوادي (La Goulette): ميناء شمال البلاد قرب مدينة تونس العاصمة.

⁴ المسعودي الباجي، المصدر السابق، ص203، وكذلك: غزوات عروج، المصدر السابق، ص11، المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص158، أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص243، في حين ذكر خير الدين في مذكراته أنها اتفقا مع السلطان الحفصي على ثمن الغنائم فقط. ينظر، المذكرات، المصدر السابق، ص56

الإخوة بربروس نشاطهم في غرب البحر المتوسط وبدأ بذلك عهد جديد من العهود التي مرت بتاريخ بلاد المغرب بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة.

تحدث المصادر و المراجع - كما سنرى - على أن سبب مجيء الإخوة بربروس إلى المغرب الأوسط كان بعد استغاثة أهالي البلاد مثل أهالي وأعيان بجاية من أجل طرد الاحتلال الإسباني من أراضيهم¹، غير أن خير الدين بربروس يقول في مذكراته أن مجيئهم أو ظهورهم في سواحل المغرب الأوسط أول مرة كان قبل استغاثة أهالي الجزائر، إذ جاء في المذكرات أنه عندما كان هو (خير الدين) وأخوه عروج يقومان بالقرصنة قبالة سواحل حلق الواد كانا يريدان "التوجه إلى جنوة إلا أنه بسبب مخالفة الرياح توجهنا إلى سواحل الجزائر فرسونا أمام قلعة تدعى بجاية"²، ونستنتج من هذا النص أن أول ظهور للإخوة بربروس في سواحل المغرب الأوسط كان بسبب سوء الأحوال والاضطرابات البحرية التي جعلت أسطول الإخوة بربروس يظهر قبالة سواحل بجاية بعدما كان متجها إلى الغزو ناحية السواحل الإيطالية، وبالتالي لم يكن إذ ذاك بعد اتصال بين أهالي بجاية والإخوة بربروس.

¹ ينظر: الإفرائي محمد الصغير الفشتالي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تح، أ. هوداس، مطبعة بردين، أنجي، فرنسا، 1888، ص 17، الزباني، المصدر السابق، ص 232، المزاري، المصدر السابق، ج 1، ص 250، المدني، المرجع السابق، ص 162، إلتز، المرجع السابق، ص 45

² مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص 64

على أية حال، فقد دارت معركة¹ بين قوات عروج والحامية الإسبانية وقواتها في بجاية قبالة المدينة² استحوذ عروج على إثرها على ثلاث سفن إسبانية، إلا أنه أصيب بقذيفة في ذراعه الأيسر اضطرته إلى الانسحاب والعودة إلى حلق الواد أين قُطعت ذراعه بعدما لم يجد الأطباء علاجاً لها³.

بعدما رأى أهالي بجاية المعركة التي دارت بين الإخوة بربروس والإسبان في المدينة أدركوا قدرة هؤلاء على رفع الاحتلال الإسباني عنهم، فقرر أعيان بجاية وأهلها الاستغاثة بالإخوة بربروس، وقد جاء في مذكرات خير الدين أنه بعدما كان يتأهب للخروج إلى مضيق جبل طارق من أجل إنقاذ الموريسكيين وصله وفد من أهالي بجاية حاملاً رسالة جاء فيها: "...إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال، لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أبنائنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم، جعلكم الله سبباً لخلصنا.. فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار..."⁴، أما الإفرائي فيؤكد في هذا الصدد أن أبا العباس أحمد ابن القاضي⁵ زعيم إمارة

¹ خلافاً للدراسات السابقة لم نعتبر الصدام الذي دار بين أسطول عروج والحامية الإسبانية قبالة بجاية محاولة تحرير لها من قبل الإخوة بربروس على أساس أنهم لم يتصلوا بعد بأهاليها الذين طلبوا منهم بعد ذلك التدخل لتحرير المدينة.

² تذكر المراجع أن هذه المعركة كانت بعد استغاثة أهالي بجاية غير أن نص المذكرات يفند ذلك، ينظر: المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص163، إلتز، المرجع السابق، ص46

³ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص65-67، p11، Haedo, Rois d'Alger, op-cit,

⁴ المصدر نفسه، ص84، 85

⁵ ينظر ترجمته لدى: ابن عسكر محمد الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر، تح، محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977

كوكو¹ هو أول من اتصل بالإخوة بربروس وطالبهم بإنقاذ بلاده من بطش الصليبيين الإسبان، إذ جاء عند صاحب "تزهة الحادي": "...ولما رأى أبو العباس المذكور قوة شوكة النصارى الكفار وانتشارهم في بلاد المغرب وضعف المسلمين عن مقاتلتهم، كاتب الترك وعرفهم عزة هذه البلاد، لما يسمع من شدة الأتراك في المعارك ونجدتهم في الحروب والمضايق وإرهابها للكفرة، فقصد بحسن نيته أن يرفعوا من عزة الإسلام ما انخفض ويقووا من أمره ما ضعف، وقال إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو لذئب، فأقبل الترك نحوه مسرعين وجعل هو يحرض الناس على اتّباعهم و الانخراط في سلوكهم و السمع والطاعة لهم عروج...²، ورغم أن خير الدين لم يُشر في مذكراته لرئيس بعثة أهالي بجاية فمن المحتمل أن تكون هي نفسها البعثة التي ترأسها ابن القاضي نظرا للتشابه الكبير بين ما جاء في الرسالتين المذكورتين.

لبى عروج نداء أهالي بجاية وقدم إليها بأسطول عدته ألفان وثلاثة وثلاثون بحاراً وعشرة سفن ومائة وخمسون مدفع، كما انضمت إليه قوات مكّونة من عشرين ألفاً من فرسان ورجال بجاية والقبائل المجاورة لها³ واستمر حصار هذه القوات لمدينة بجاية مدة شهر كامل، غير أن الحامية الإسبانية استبسلت في

¹ للمزيد حول أصل ونشأة هذه الإمارة ينظر: بن الشيخ علي، مملكة كوكو ونظامها السياسي والعسكري، رسالة دكتوراه في اللغة والثقافة الأمازيغية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2018، Genevois. H, Legends des rois de Koukou, Atelier de l'ecole second, Alger, 1974

² الإفرائي، المصدر السابق، ص17

³ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص89

الدفاع عن المدينة ومع وصول أنباء المدد الإسباني القادم إلى الحامية الإسبانية في بجاية اضطرت قوات المسلمين إلى الانسحاب وفك الحصار¹.

2- استقرار الإخوة بربروس في المغرب الأوسط:

2-1- تحرير مدينة جيجل²:

كانت مدينة جيجل محتلة من قبل جمهورية جنوة الإيطالية منذ سنة 1260م، وقد أقام بها "الجنويون" حامية عسكرية ومركزا تجاريا للتبادل بين بين ضفتي غرب البحر المتوسط³.

عندما قام عروج بمهاجمة بجاية أحسّت الحامية الجنوية في جيجل بالخطر وطلبت الدعم من القائد الجنوي أندري دوريا (Andre Doria) من أجل حمايتها من الغزو المحتمل للأتراك، وفعلا، فبعد حصار بجاية انسحبت قوات عروج وخير الدين إلى سواحل جيجل⁴ وأثناء ذلك طلب سكان المدينة من الأخوين طرد الحامية الجنوبية من المدينة⁵ فراحت قوات عروج تخوض معركة مع الحامية "الجنوية" وتمكنت قوات عروج من فتحها وانتهت المعركة بفرار جند الحامية وقواتها وبذلك فُتحت مدينة جيجل وصارت منذ سنة 1514م أول قاعدة للإخوة بربروس في

¹ المصدر نفسه، ص 90

² جيجل: مدينة على ساحل المغرب الأوسط شرق بجاية كانت أول قاعدة للإخوة بربروس في المغرب الأوسط. ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص51،52، كربخال، المصدر السابق، ج2، ص380

³ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص166

⁴ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص90

⁵ Sander Range et Denis Ferdinand, Fondation de La Régence d'Alger, J. Ange Editeur, Paris,1837,T:1, p51,

المغرب الأوسط¹، وبعد فتح المدينة قام عروج وخير الدين بإصلاح قلعة الميناء ووضعها تحت رقابة أهالي المدينة وزودها بثلاث سفن وخمسين جندياً لحمايتها²، وافتح جيجل تمكن الإخوة بربروس من تحقيق هدف مزدوج؛ فتح مدينة محتلة وامتلاك قاعدة في المغرب الأوسط³ يستقرون فيها لمواصلة نشاطهم البحري وتحرير المدن المحتلة.

2-2 - فاتحة العلاقة بين الإخوة بربروس والباب العالي:

بعد فتح مدينة جيجل رأى الإخوة بربروس أنه من الأفضل إخبار السلطان العثماني بوضعهم في غرب البحر المتوسط وإعلان الولاء له، فبعثوا له رفقة "بيري راييس"⁴ رسالة عرضوا فيها للسلطان العثماني حالة البلاد المغربية والصعوبات التي تواجههم في إنقاذ مسلمي الأندلس، كما أرفقوا هذه الرسالة بهدايا إلى السلطان سليم الأول الذي رحب بهداياهم واستمع لرسالتهم، ثم قرر أن يمدّهم ببعض العدة والعتاد، فضلا عن أنه بعث لسلطان تونس رسالة تتضمن توصية

¹ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص90، 15، 14، op-cit, Haedo, Roi d'Alger,

²Sander et Denis, op-cit, p51

³ يرى فونتير دو بارادي (Venture De Paradis) أن الحكام العثمانيين بالجزائر كانوا يعاملون أهل جيجل معاملة خاصة مقارنة بباقي سكان البلاد، وذلك ولأن جيجل كانت أول قاعدة للأتراك في الجزائر، ينظر: De Paradis (Le Traducteur), Fondation de La Regence, op-cit, p50 ، ويتفق

كربخال كذلك مع هذا الرأي، ينظر: كربخال، المصدر السابق، ج2، ص281

⁴ محي الدين بييري راييس (ت 1549م): بحار وجغرافي تركي قدم إلى غرب البحر المتوسط لإنقاذ مسلمي الأندلس وانضم إلى الإخوة بربروس، أُلّف كتاب البحرية الذي يعتبر من أهم المصادر الجغرافية البحرية في القرن 16م، للمزيد حوله ينظر: الكندري فيصل عبد الله، الملاح والجغرافي بييري ريس، مجلة رسائل جغرافية، جامعة الكويت، الكويت، ع234، 1999

للأخير بضرورة مساعدة الإخوة بربروس¹. وقد كانت تلك فاتحة علاقة الإخوة بربروس بالدولة العثمانية .

2-3- معركة بجاية الثانية:

بعد فتح مدينة جيجل واتخاذها قاعدة بحرية في ساحل المغرب الأوسط وبعد توثيق العلاقات مع السلطان العثماني قرر الإخوة بربروس أن يواصلوا سلسلة فتح مدن المغرب الأوسط وأن يعيدوا محاولة تحرير مدينة بجاية.

خرج عروج في سنة 1515م بعمارة بحرية إلى بجاية وحين وصلت قرب المدينة اخترقت وادي الصومام الذي كانت مياهه غزيرة تساعد على الإبحار، كما قام جيش القبائل المحلية بدصار المدينة من جهة البر وهكذا حاصر المسلمون مدينة بجاية² وتواصل الحصار مدة أربعة وعشرين يوماً³، غير أن نفاذ الذخيرة والبارود حال دون فتح المدينة واضطر المسلمون إلى الانسحاب وفك الحصار. هذا؛ وقد جاء في بعض الروايات أن عروج كان قد راسل السلطان الحفصي من أجل أن يرسل له بعض المدد والعتاد والذخيرة غير أنه تجاهل ذلك⁴. إن المراجع و الدراسات المعاصرة تشير إلى أن عروج وخير الدين اضطررا بعد نفاذ الذخيرة إلى فك الحصار والانسحاب إلى جيجل، إلا أن خير الدين يذكر في

¹ كما ورد في مذكرات خير الدين أن موقف السلطان الحفصي تجاه الإخوة بربروس بدأ يتغير منذئذ.

ينظر: مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص 82-86

² المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 169

³ إلتز، المرجع السابق، ص 52، 48، Sander et Denis, op-cit,

⁴ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص 92، المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 170،

Sander et Denis, op-cit, p53

مذكراته بأنه قد تمكن من فتح قلعة المدينة واستولى على حاميتها، وذكر بأن أعيان وشيوخ وقادة المناطق المجاورة قد جاؤوا بعد ذلك مبايعين له ولأخيه¹، وهذا ما لم تتطرق إليه المراجع والدراسات الأخرى مما يخلق إشكالاً في هذه القضية؟ يجيب "إلتر" في كتابه "الأتراك في إفريقيا الشمالية" عن هذا التساؤل بأنه بعدما تم قصف قلعة بجاية لمدة أربعة أيام سقط الحصن الخارجي للقلعة وهدمت استحكاماته الرئيسية، فاندفع المسلمون إلى القلعة واستولوا على حاميتها وأسروا خمسمائة جندي منها، لكن المدينة لم تسقط في أيديهم فواصلوا الحصار إلى أن انسحبوا حينما نفذت الذخيرة والبارود رغم أن عروج كان مصمماً على فتحها² قائلاً: "هنا تركت ذراعاً³ وهنا سأترك قلعتي أيضاً؟! و الله لن أعود قبل أخذها"⁴، غير أنه اضطر كما أشرنا إلى الانسحاب، وهنا تبدو إجابة إلتر عن التساؤل الفارط منطقية كما تعتبر معلومة مكّملة لما تتركه المصادر من نقائص أو مناقضات في رواياتها.

3- تأسيس إيالة الجزائر:

¹ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص91

² ورد في مذكرات خير الدين أن عروج كان في جيجل وقتئذ وأنه لم يشارك في هذا الحصار، ينظر: المصدر نفسه، ص91

³ كان عروج قد أصيب في معركة بجاية الأولى عام 1512م بقذيفة في ذراعه الأيسر مما اضطره إلى بترها، ينظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ص85، مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص67

68

⁴ إلتر، المرجع السابق، ص48

بعد مجيء الإخوة بربروس ومن معهم من البحارة العثمانيين إلى سواحل المغرب الأوسط على إثر استغاثة أهل البلاد وبعد استقرارهم في جيجل أول قاعدة لهم في المغرب الأوسط سيعمل هؤلاء رفقة حلفائهم من المحليين (الجزائريين) على لمّ شمل المغرب الأوسط وأقاليمه المتفرقة وتحرير ما تبقى من مدن هذه البلاد من الاحتلال الإسباني، وقد قرروا من أجل ذلك الانضمام للدولة العثمانية التي ستمنحهم مزيداً من الدعم العسكري والمعنوي لتشكيل كيان سياسي قوي في المغرب الأوسط والذي سيكون بتأسيس إيالة الجزائر العثمانية وهو ما سنتطرق إليه في هذا العنصر.

3-1- الإخوة بربروس في مدينة الجزائر:

كانت مدينة الجزائر كما رأينا، فيما سبق ذكره في الفصل الأول، تحت حكم سالم التومي الثعالبي خاضعةً للحماية الإسبانية وحاميتها المقيمة في قلعة البنيون منذ سنة 1511م .

في 12 جانفي 1516م توفي ملك إسبانيا فرناندو الخامس (5 Fernando) وبوصول أنباء وفاته إلى مدينة الجزائر رأى بعض أعيان المدينة أن الفرصة قد سنحت لحلّ معاهدة الخضوع التي أقاموها مع السلطات الإسبانية سنة 1511م وقرروا استغلال حالة إسبانيا السياسية بعد وفاة ملكها والاستغاثة بعروج وخير الدين من أجل طرد الحامية الإسبانية من المدينة، فبعث هؤلاء الأعيان إلى عروج يستجدونه من أجل ذلك¹، وقد جاء في مذكرات خير الدين أنه "...عندما كنت أنا

¹Haedo, Roi d'Alger, op-cit, p16, Dan, op-cit, p79

وأخي عروج في مدينة جيجل وصلت وفود كثيرة من المدن الجزائرية وكان أهمها وفد مدينة الجزائر ... كان أهالي الجزائر يشكون من ظلم الإسبان ويرجون تدخلنا لإنقاذهم...¹، كما ورد عند ابن رقية التلمساني أن الإخوة بربروس لما كانوا مستقرين بجيجل بعث إليهم أهل مدينة الجزائر يشكون النصارى قائلين لهم: "...سمعنا بكم أناس تدبون الجهاد وأخذتم بجاية وجيجلة من النصارى ونصرتم الدين، فهنيئاً لكم أيها المجاهدون، لا بد أن تقدموا إلينا وتخلصونا من هؤلاء الملاعين الكفرة، لأننا في محنة عظيمة وذلة شديدة..."².

مرة أخرى لبي عروج بربروس نداء أعيان الجزائر وخرج من جيجل على رأسه عمارة بحرية مكونة من خمسمائة بحار³ وست عشرة سفينة محملة بالعتاد إضافة إلى خمسة آلاف من جنود زواوة⁴ أرسلهم أحمد ابن القاضي حاكم إمارة كوكو⁵،

¹ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص 92

² ابن رقية محمد بن عبد الرحمن التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تح، خير الدين سعدي، ط1، دار أوراق ثقافية، جيجل، الجزائر، 2017، ص84، وللاضطلاع على المؤلف في صيغته المخطوطة ينظر: أ.م.و.ج، مخطوط رقم 1626.

³ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص93

⁴ نسبة إلى قبيلة زواوة التي كانت تتشكل منها قوات إمارة كوكو، وزواوة هي قبيلة بربرية كبيرة تنتشر مضاربها في المغرب الأوسط وتحديدا فيما يسمى بمنطقة القبائل حالياً، لعبت دوراً كبيراً في الأحداث السياسية التي عرفتها الجزائر خلال القرن 16م وتأرجحت علاقاتها بين التحالف والصراع مع السلطة العثمانية بالجزائر طوال العهد العثماني، للمزيد حول تاريخ هذه القبيلة في العهد العثماني ينظر: مبارك فاهيمة، بلاد زواوة في ظل الحكم العثماني 1511-1830م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر 2، 2015، 2016، Boulifa, S. A, le Djurdjura a travers l' Histoire, Bringau Imprimeur Editeur, Alger 1925

⁵ Mercier Ernest, Histoire De L'Afrique Septentrionale, Ernest Leroux Editeur, Paris 1868, T3, p16, De Grammont, La Domination, op-cit ,p22

وحسب ساندر وديني (Sander et Denis) فإن عروج وحلفاؤه المحليين قد أعدوا مسبقا كل التحضيرات اللازمة لهذه الحملة الهامة¹ في الوقت الذي كان فيه خير الدين يلتقي بالسلطان الحفصي في تونس ليعبر له عن لومه وامتعاضه من رفضه وتماطله في إرسال المدد له ولإخوته أثناء حصار بجاية².

مع وصول قوات تحالف الإخوة بربروس وإمارة كوكو³ إلى مدينة الجزائر استقبلها أهالي المدينة وأعيانها استقبال الفاتحين⁴، وبعد دخول المدينة ولقاء عروج وابن القاضي مع رجالاتها وأعيانها قرر عروج أن يسير نحو مدينة شرشال التي كانت خاضعة للحماية الإسبانية فاستخلص المدينة واستولى على مينائها⁵، حيث أن ميناء الجزائر كان تحت سيطرة حامية البنيون وبالتالي فقد كان لزاما على

¹ Sander et Denis, op-cit, p65

² مذكرات خير الدين ، المصدر السابق، ص 93

³ حول علاقة إمارة كوكو بالإخوة بربروس ينظر: جوامع سالم، آل بربروس وآل القاضي بين التحالف والصراع خلال القرن 16م (مقاربة تاريخية أنثروبولوجية)، مجلة أنثروبولوجية الأديان، جامعة تلمسان، الجزائر، مج16، ع2، 2020

⁴ Dan, op-cit, p79, De Tassy Laugier, Histoire du Royaume d'Alger, S.E, Amsterdam, 1724, p13

⁵ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p18 ويذكر "جون وولف" أن شرشال في هذه الفترة كانت تحوي عددا كبيرا من مهاجري الأندلس مما كان عاملا مساعدا عروج على فتحها، ينظر: وولف، المرجع السابق، ص30

عروج إيجاد ميناءٍ تستقر فيه قواته، وبعد فتح شرشال عاد إلى مدينة الجزائر أين أسند له أعيانها مهمة أمير الجهاد¹.

3-2- تأسيس أول سلطة عثمانية في مدينة الجزائر:

بعد أن أعلن عروج نفسه حاكماً لمدينة الجزائر كان لابد له من تشكيل حكومة جديدة تكون تمهيداً لتأسيس كيان سياسي جديد في البلاد، وقد جاء في مذكرات خير الدين ما يؤكد نية الإخوة بربروس في الاستقرار بالجزائر وتأسيس دولة فيها حيث يقول خير الدين بربروس: "...لقد بات من اللازم علينا أن نؤسس لأنفسنا دولة جديدة في غربتنا هذه..."²، وقام عروج انطلاقاً من ذلك وفي أول خطوة منه لبسط نظام سياسي جديد في المدينة برفع رايته فوق أسوار المدينة³، وقام بإصلاح قلاعها وأسوارها وزاد في بناء نقاط الاستحكام والمراقبة، ووزع الحرس عليهم، كما قسّم الوظائف بين الأتراك وأعيان المدينة الذين كلّفهم بمهام الجمارك ومراقبة الموازين والإشراف على السوق وتنظيمها⁴، ولم يكن سكّ النقود التي كتب عليها "ضرب في الجزائر"⁵ إلا دليلاً واضحاً على نية عروج في تأسيس دولته الجديدة

¹ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 22، De Grammont, La Domination, op-cit, p22, ص 174

² مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص 92

³ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 175

⁴ إلتز، المرجع السابق، ص 53، سبنسر، المرجع السابق، ص 40

⁵ المدني، حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 175

التي خضعت لها كافة السهول والمناطق المجاورة لمدينة الجزائر، كما أسّس عروج مجلسا استشاريا من علماء وأعيان المدينة لمساعدته في تنظيم أمور الدولة والمساهمة في إزالة الفوضى وإرساء مبادئ هذا النظام الجديد¹ الذي قال عنه حمدان خوجة: "...ومنذ ذلك تكونت في مدينة الجزائر حكومة قائمة على مبادئ معتدلة تدعوا إلى التفاهم وربط مصالح أهالي و مصالح الأندلسيين..."²، وهكذا وضع عروج بربروس رفقة أعيان الجزائر أول اللبّات في بناء إيالة الجزائر العثمانية والتي ستؤسّس رسميا بعد قرار الانضمام النهائي للدولة العثمانية.

3-3- إحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

بعد مقتل عروج في تلمسان وإسحاق في قلعة بني راشد في معركتين منفصلتين مع الإسبان سنة 1518م³ أقر خير الدين بربروس ترك الجزائر والعودة إلى إسطنبول لمواصلة سيرته البحرية في خدمة الأسطول العثماني، وعلى إثر ذلك جمع خير الدين أعيان مدينة الجزائر وقال لهم: "إني عزمتم على السفر إلى حضرة السلطان وقد أمّنت الآن على بلادكم بما أخلفه عندكم من العسكر المجاهدين وقد وصل إليكم من أهل الأندلس عدد كثير وعندكم من السلاح و العدة ما

¹ المدني، حرب الثلاثمائة سنة، المرجع السابق، ص175، إتر، المرجع السابق، ص53

² خوجة حمدان بن عثمان، المرأة، تر، تح، العربي الزبيري، موفم للنشر، الجزائر، 2006، ص7

³ ينظر:

Berberuger Adrien, La Mort de Le Fondateur de La Regence d'Alger, R.A, V:4, Alger, 1860, De Grammont, H. D, Quell est le Lieu de la Mort d'Aroudj Barbarousse, R.A, V:22, Alger,1878

تقومون به بأمر الجهاد...¹ غير أن أعيان المدينة الذين رأوا قدرة خير الدين على مواجهة الاعتداءات الإسبانية ودحر الفتن الداخلية طلبوا منه البقاء وألحوا عليه قائلين حسبما ورد عند صاحب الغزوات: "أيها الأمير لا تُطَيِّب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذلك، إن الله قد نصرنا بك على العدو... أنت بيننا وبينهم سدٌّ لا يخلصون إلينا ما دمت في هذه البلاد وإن الله سائلك عنا يوم القيامة...أيها الأمير يتعين عليك البقاء في هذه المدينة لأجل حراستها و الذب عن ضعفاء أهلها ولا رخصة لك في الذهاب عنهم و تركهم عرضة للعدو الكافر..."²، وقد كان هذا الخطاب المؤثر الذي سمعه خير الدين من أعيان مدينة الجزائر وحرصهم الشديد ونيئتهم الصادقة في مواصلة مسيرة الجهاد تحت قيادته جعله يحدد عن قرار المغادرة ويقرر مواصلة مهمة الجهاد في الجزائر.

- رسالة أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني:

كان خير الدين بربروس يعرف كثرة أعدائه في الجزائر وكان يدرك أنه لا يستطيع بمفرده أن يتغلب على الحركات العديدة المناهضة له وعلى رد الاعتداءات الإسبانية التي كانت تتعرض لها الجزائر بين الفينة والأخرى، لقد كان خير الدين كما يصفه "جون وولف" سياسياً ورجل دولة يتمتع بمهارة فائقة وذكاء عميق ولذا قرر بعد أن طلب أعيان الجزائر بقاءه أن يطلب حماية الدولة العثمانية التي ستضمن له مزيداً من الهيبة ومن الإعانة العسكرية والمالية³.

¹ غزوات عروج، المصدر السابق، ص41

²المصدر نفسه، ص41

³ وولف، المرجع السابق، ص89

من أجل ذلك طلب خير الدين من أعيان الجزائر الانضمام للدولة العثمانية قائلاً لهم: "...وقد ظهر لي من الرأي أن نعتمد في حماية هذه المدينة على الله سبحانه وتعالى ونصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا سليم فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلات الجهاد... ولا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة له وضرب السكة عليه..."¹ وهو ما وافق عليه أعيان مدينة الجزائر من أنصار خير الدين وجهزوا وفدا برئاسة الشيخ أبو العباس أحمد بن القاضي الذي اختاره خير الدين ممبعوثاً وحاملاً رسالة أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول²، وقد رافق أحمد ابن القاضي في هذه المهمة حاجي حسين ممثلاً عن خير الدين بربروس³ وربما مترجماً وشارحاً للسلطان الوضع العام في الجزائر وفي بلاد المغرب عموماً.

استقبل السلطان العثماني سليم الأول الوفد الجزائري واستجاب لطلبهم وقبل بيعة أهل الجزائر، حيث سلّم فرماناً⁴ للحاج حسين ورد فيه أمر تعيين خير الدين بربروس "بايلربايا"⁵ على الجزائر ومنحه الخلعة السلطانية¹ وراية الإمارة وأذن بأن

¹ غزوات عروج، المصدر السابق، ص42

² ينظر: التميمي عبد الجليل، أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول، المجلة التاريخية المغربية، زعوان، تونس، ع6، 1976، ص116

³ إلتز، المرجع السابق، ص72

⁴ الفرمان (Ferman): هو الأمر السلطاني المكتوب الصادر في قضية من القضايا، ينظر: صابان، المرجع السابق، ص164

⁵ بايلرباي (Beylerbegi): بمعنى أمير الأمراء وهو من أعلى المناصب في الدولة العثمانية، يشرف الباييلرباي على رئاسة الولاية وقيادة الجيش كما تمنح له إقطاعات مالية كبيرة، للمزيد ينظر: المرجع نفسه،

تُضرب السكة باسمه وبأن تُصرف الخطبة إليه². كما إجراء رسمي لإعلان التبعية للدولة العثمانية.

بعد عودة الوفد إلى مدينة الجزائر جمع خير الدين بربروس أهالي المدينة وأعيانها وأخبرهم بقبول السلطان طاعتهم وتبعتهم للدولة العثمانية³، وبعد مدة وجيزة بعث السلطان العثماني أسطولا إلى أياالة الجزائر حاملا معه ألفين من الجنود الإنكشارية⁴ وأربعة آلاف جندي متطوع منحهم نفس الحقوق والامتيازات

ص64. وقد أطلق هذا اللقب كتسمية للمرحلة الأولى للوجود العثماني في الجزائر ما بين 1519-1587م، وللمزيد حول أوضاع الجزائر خلال هذه المرحلة (مرحلة البايلربايات) ينظر: Haedo, Rois, d'Alger, op-cit.، صقر ولاء، أوضاع الجزائر السياسية والإدارية والاقتصادية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة تشرين، سوريا، 2016، 2017

¹ الخلعة السلطانية: لباس رسمي يرتديه السلاطين العثمانيون، كما يقدمونه لمن يقوم بخدمات جليلة للدولة أو عند تنصيب إداري أو عسكري، ينظر: مذكرات خير الدين، المصدر السابق (هامش المحقق)، ص82

² المصدر نفسه، ص123.

³ إلتز، المرجع السابق، ص72

⁴ الإنكشارية (Yeni Cery): بمعنى القوات الجديدة أو الجديد، هي فيالق عسكرية من المشاة أسسها السلطان العثماني أورخان بن عثمان (1326م-1362م) من أبناء النصارى الذين رُبوا تربية عسكرية من أجل خدمة الدولة العثمانية، ينظر: صابان، المرجع السابق، ص41، بيتروسيان إيرينا، الإنكشاريون في الامبراطورية العثمانية، تق، مر، قسم الدراسات بمركز جمعة الماجد، ط1، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 2006، معاشي جميلة، الإنكشارية والمجتمع ببابلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2007، 2008، ص2،3

التي يتمتع بها جنود الدولة العثمانية¹، ويقول "جون وولف" عن هذه الخطوة أنها كانت "حاسمة في تطور إيالة الجزائر التركية إذ أن دخول الإنكشارية قد وفّر القوة العسكرية الضرورية ليس فقط من أجل الدفاع عن مدينة الجزائر ولكن أيضا لتوسيع رقعة الفتوحات العثمانية لتشمل كل المغرب الأوسط"². وهكذا تم انضمام الجزائر للدولة العثمانية بشكل رسمي سنة 1519م وقامت منذ هذا التاريخ إيالة الجزائر العثمانية تحت حكم خير الدين بربروس لتتواصل بعد ذلك عمليات تأسيس باقي الإيالات العثمانية في بلاد المغرب على غرار تونس وطرابلس الغرب كما سنرى فيمايلي.

ثانيا: تأسيس الحكم العثماني في تونس (المرحلة الأولى 1534-1535م):

1- محاولة إلحاق تونس بالدولة العثمانية:

سنة 1534م تمت ترقية بايلرباي الجزائر خير الدين بربروس من قبل السلطان العثماني سليمان القانوني لتولي منصب القائد الأعلى للأسطول العثماني "قبطان داريا"³ وعلى إثر ذلك توجه حاكم الجزائر لاستلام مهامه في القسطنطينية، غير أن ذلك لم يكن ليحول دون عودته إلى إيالة الجزائر، بل على العكس من ذلك تماما كان بايلرباي الجزائر يريد أن يوسع سلطته على بلاد المغرب، حيث

¹ إتر، المرجع السابق، ص72،73،37 Haedo, Roi d'Alger, op-cit,

² وولف، المرجع السابق، ص32

³ قبطان (قبودان) داريا (Kaptani Derya) : الاسم الذي يطلق على أكبر منصب بحري في الدولة العثمانية، يقابله في الوقت الراهن رئيس القوات البحرية أو الأميرال، ينظر: صابان، المرجع السابق،

كان من توصيات إبراهيم باشا وزير السلطان العثماني لخير الدين ألا ينشغل -بعد استلامه لمذنبه الجديد- بالحملات البحرية وأن يعمل على توسيع السيطرة العثمانية في البلدان المغربية¹، ومن هنا، فقد عاد خير الدين من إسطنبول صيف عام 1534م وهو عازم على ضم تونس الحفصية لإيالة الجزائر وبالطبع إخضاعها للحكم العثماني.

2- فتح خير الدين بربروس مدينة تونس:

بعد وفاة السلطان الحفصي محمد بن الحسن، تولى الحكم من بعده السلطان الحسن بن محمد وقد كان بينه وبين إخوته صراع حول الملك انتهى بتصفية السلطان الجديد لجميع إخوته الذين لم يفلت منهم إلا اثنان وهما الرشيد وعبد المؤمن، هذا الأخير الذي لجأ إلى خير الدين بربروس في الجزائر وطلب منه أن يُعينه ويدعمه ضد أخيه الحسن².

في الوقت الذي كان فيه الرشيد بن محمد الحفصي لاجئاً عند خير الدين بربروس في الجزائر (وكان ذلك قبل تعيين خير الدين قائداً للأسطول العثماني) وصلت إلى الأخير الأوامر السلطانية تطلب منه الالتحاق بالقسطنطينية لتولي منصب "قبطان داريا"³ فغادر خير الدين بربروس الجزائر وأخذ معه الأمير الحفصي الرشيد بن محمد، وقد كان خير الدين قد اصطحب معه الأمير الحفصي لسببين رئيسيين؛ أولهما أن خير الدين لم يكن بإمكانه التدخل في تونس دون إذن

¹ ينظر: مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص208

² القرمانلي، المصدر السابق، ج2، ص413، 414

³ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص203، 204

من السلطان العثماني¹، وكذلك من أجل أن يستعمل الرشيد كورقة سياسية وكمبرر للتدخل في تونس ومحاولة إخضاعها.

في الأستانة² وبعد اجتماعه بخير الدين بربروس الذي وصف له حال البلاد التونسية أذن السلطان سليمان القانوني لبايلرباي الجزائر بقيادة حملة على تونس وضمها للدولة العثمانية، وكان خير الدين قد سعى بجد في إقناع السلطان سليمان بضرورة فتح تونس، من ذلك أن قال له بأن الأسطول العثماني حينما يسير إلى بلاد المغرب لا يجد ميناء يرسو فيه والمسافة إليها بعيدة جداً مما يجعل الأسطول إذ ذاك مهدداً من قبل الكفار، كما أخبره بأنه لا يوجد مكان يسدع الأسطول العثماني إلا ميناء حلق الوادي³، وقد كان خير الدين من الدّهاء بأن استغل الصراع السياسي بين الأمراء الحفصيين ولجوء الرشيد إليه من أجل إقناع السلطان بضم تونس للحكم العثماني، وقد أورد القرماني نصاً عن هذه الحثيات جاء فيه: "...فقال أن أهل تونس متضجرون من سلطانهم، وهذا أخوه الرشيد عندنا، والناس يحبونه ويطيعونه، فإن أمرت سرت بالعمارة وذكرت لأهل تونس أن الرشيد معنا فنملك تونس مع اتفاق من أهله لتكون البلاد كلها للسلطان، فقل

¹ كرخال، المصدر السابق، ج3، ص30، القرماني، المصدر السابق، ج2، ص414

² الأستانة: من المسميات التي تطلق على مدينة إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية على غرار تسمية القسطنطينية التي احتفظت بها منذ العهد البيزنطي، وقد وردت هذه التسمية غير مرة في المراسلات الرسمية للباب العالي. (الباحث)

³ القرماني، المصدر السابق، ج2، ص414

السلطان نهم الرأي...¹، وهكذا نجح خير الدين بربروس في إقناع الباب العالي بضرورة ضم تونس وبدأ في التحضير لهذا الفتح الهام.

3- إحاق تونس بالدولة العثمانية (المحاولة الأولى سنة 1534م):

قرر خير الدين بربروس أن يتوجه أولاً إلى إيالة الجزائر من أجل التنسيق مع نائبه حسن آغا² قبل أن يتجه نحو تونس، وقد جاء عن خير الدين في مذكراته: "...كان أول خروج لي بصفتي قبطان داريا أني توجهت إلى صقلية ومن هناك إلى الجزائر ثم إلى تونس..."³، وقد كان "القبطان داريا" قد خرج من الأستانة في شهر أوت من سنة 1534م بعمارة بحرية قوامها أربعين سفينة تحمل قرابة تسعة آلاف جندي أرسلتهم السلطات العثمانية كما انضمت إليه عساكر إيالة الجزائر في ميناء عنابة⁴ ليتوجه خير الدين إلى تونس حيث تمكن أولاً من السيطرة على ميناء بنزرت⁵ ثم على ميناء حلق الوادي في الوقت الذي فر فيه السلطان الحفصي الحسن بن محمد من مدينة تونس⁶.

¹ القرماني، المصدر السابق، ص414، 415

² حسن آغا: علج خصي من أصل سرديني، تبناه خير الدين بربروس منذ الصغر، تولى حكم إيالة الجزائر بالنيابة ما بين 1534-1545م بعد تولي خير الدين بربروس مهمة قيادة الأسطول العثماني، ينظر: ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، تح، فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، سطيف، الجزائر، 2008، ص39، Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p62

³ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص211

⁴ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p47, De Grammont, La Domnination, op-cit, p37

⁵ بنزرت مدينة ساحلية شمال غرب تونس، للمزيد حولها ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص68

⁶ كربخال، المصدر السابق، ج3، ص31

وقد جاء عن ابن أبي دينار بخصوص حملة خير الدين على تونس: "...وفي أيامه (السلطان الحسن بن محمد الحفصي) جاءت عمارة من برّ التّرك لأخذ تونس أرسلها إبراهيم باشا وزير السلطان سليمان...فنازل تونس وأخذها وفرّ عنها الحسن ودخل خير الدين إلى تونس واستقل بقصبتها..."¹، أما صاحب "الخلاصة النقية" فيقول عن الحدث ذاته: "...ثم قصد (خير الدين) تونس بأمر من السلطان فوصل بنزرت واستولى عليها وخطب بها للسلطان...ولمّا بلغ ذلك الحسن الحفصي أيقن بالغبطة وهرب بما خف عليه وارتحل خير الدين فدخل الحضرة بلا قتال واستقل بها..."²، غير أن أهل مدينة تونس بعدما عرفوا أن الرشيد لم يكن برفقة خير الدين ببروس وأنه لم يأت لإعادة الرشيد بن الحسن إلى الحكم ثاروا ضده ورفضوا وجوده، كما ثار عليه أنصار الحسن بن محمد فقاتلهم خير الدين وقتل منهم حوالي ثلاثين ألف نفس حسبما أورده القرمانى³.

لم يحل هذا الرفض الشعبي دون مواصلة خير الدين فتح دواخل البلاد التونسية وإخضاعها لذفوضه، حيث جاء في مذكراته بأنه دخل تونس، وفتح سائر نواحي المملكة حتى بلغ القيروان في الجنوب ثم قفل راجعا إلى تونس⁴، وبعد ذلك لم يجد أهل مدينة تونس بُدأً من أن يتصالحوا مع خير الدين، وتوقف القتال بين الطرفين ودانت البلاد التونسية للقوات العثمانية وقائدها خير الدين ببروس، وهنا يقول

¹ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص154

² الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص203

³ القرمانى، المصدر السابق، ج2، ص415

⁴ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص211

صاحب "الخلاصة النقية": "و ساس خير الدين الرعية و سكن الثائرة، و أتى بالعسكر من الجزائر واستظهر بهم على أمره..."¹.

هكذا إذاً تمكن خير الدين بربروس من فتح تونس وضمها للدولة العثمانية، غير أن قيام الحكم العثماني في تونس لم يدم أكثر من سنة واحدة إذ استطاع ملك إسبانيا شارلكان (Charles Quint)² سنة 1535م السيطرة على تونس وأخذها من العثمانيين وإخضاعها للحماية الإسبانية بعد حملة عسكرية ضخمة استطاع فيها أن يهزم قوات خير الدين بربروس ويعيد تنصيب الحسن الحفصي على عرش تونس³، كما قام الملك الإسباني بفرض الحماية الإسبانية على تونس وفق ما نصت عليه المعاهدة الثنائية بين الملك شارلكان والاسطان الحسن الحفصي الموقعة سنة 1535م⁴، والتي كان من أهم بنودها:

¹ الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص204

² شارلكان أو شارل الخامس (Charles Quint) 1500-1558م: ملك إسبانيا و إمبراطور أوروبا (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) مابين 1519 و 1558م، من أهم شخصيات القرن 16م، معاصر للسلطان سليمان القانوني وخير الدين بربروس، في عهده عرفت العلاقات العثمانية الأوروبية أوج الصراع في حوضي المتوسط الشرقي والغربي وكذا في شرق أوروبا، للمزيد حول هذه الشخصية، ينظر: روبيرتسون وليم، اتحاف ملوك الزمان بأنداء الإمبراطور شارلكان، تر، خليفة محمود، ط.ح، المطبعة العامرة، القاهرة، 1850

³ حول حملة شارلكان على تونس وإخضاعه لها سنة 1535م ينظر: روبيرتسون، المرجع السابق، ج2، ص70-76، درويش الشافعي، الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، ع20، 2017، تومي طاهر، المرجع السابق، ص266-288

⁴ حول نص المعاهدة الإسبانية التونسية لسنة 1535م ينظر: أ.و.ت، رصيد الوثائق الإسبانية، صندوق 2876، رقم12 (الملحق رقم8)

- يلتزم السلطان الحفصي بدفع تعويضات الحملة وبدفع ضريبة سنوية للحكومة الإسبانية مقدرة بألف دوكة ذهبية.
- إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين في تونس.
- يتنازل السلطان الحفصي للحكومة الإسبانية عن موانئ حلق الواد، المهدية وعنابة ليقموا بها حاميات عسكرية.
- عدم السماح لسفن الب حارة والقرا صنة الم سلمين بالرسو في الموانئ التونسية¹.
- وتجدر الإشارة أخيرا إلى أن الحماية الإسبانية على تونس ستستمر إلى غاية الفتح العثماني لتونس من طرف علي سنة 1570م ثم استعادة حلق الواد والطرند النهائي للإسبان سنة 1574م.

ثالثا: تأسيس إيالة طرابلس الغرب 1551م:

1- مدينة طرابلس تحت حكم فرسان مالطا:

استمر حكم الإسبان لمدينة طرابلس² منذ احتلالها سنة 1510م إلى غاية سنة 1530م حيث تنازلت الحكومة الإسبانية على المدينة لفرسان القديس يودنا (فرسان مالطا) الذين استمروا في حكم المدينة إلى غاية الفتح العثماني سنة 1551م.

¹ درويش، المرجع السابق، ص 9

² للمزيد حول علاقات طرابلس الغرب بإسبانيا خلال القرن 16م ينظر: درويش الشافعي، علاقات طرابلس الغرب بإسبانيا خلال القرن 16م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، الجزائر، ع19، 2013

كانت منظمة فرسان القديس يوحنا¹ تتخذ جزيرة رودس مقرا لها إلى غاية سنة 1522م حيث فُتحت الجزيرة من طرف الدولة العثمانية وقرّر السلطان العثماني طرد هذا التنظيم نهائيا من الجزيرة²، مما اضطر مرشدها الأعظم لأن يتوجه بطلب ملك إسبانيا شارلكان في أكتوبر من سنة 1523م أن يمنح المنظمة جزيرة مالطا في البحر المتوسط لاتخاذها مقرا جديدا لها، وكذا من أجل استئناف نشاطها الحربي الصليبي ضد البلاد الإسلامية³.

وافق الملك شارلكان على هذا الطلب⁴ وقام بمنح فرسان القديس يوحنا جزيرة مالطا كي يتخذوها مركزا جديدا لهم، كما اشترط الملك الإسباني أن يتولوا مهمة الدفاع عن مدينة طرابلس وكان ذلك من خلال المرسوم الذي وقعه شارلكان سنة 1530م والذي تنازل بموجبه عن جزيرة مالطا لفرسان القديس يوحنا، كما ولّاهم أيضا على مدينة طرابلس الواقعة تحت الاحتلال الإسباني، وقد جاء في هذا المرسوم مايلي: "...قد وهبنا القصر والأماكن وجزائرها في طرابلس ومالطا وقوزو إلى منظمة فرسان القديس يوحنا، لحياء هذه المنظمة واستقرارها وهي هبة

¹ للمزيد حول نشأة وتاريخ فرسان القديس يوحنا ينظر: رايلي سميث جوناثان، الإستراتيجية، فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، تر، صبحي الجابي، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1989، الباروني، المرجع السابق، ص85، 86

² مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص328، كولز، المرجع السابق، ص91، وحول الفتح العثماني لجزيرة رودس ينظر: لطفي باشا، المصدر السابق، ص352-354، الوديناني خلف، الفتح العثماني لجزيرة رودس، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1997

³ روسي، طرابلس تحت حكم الإسبان، المرجع السابق، ص50

⁴ قبل شارلكان بالتنازل عن مالطا وطرابلس لفرسان القديس يوحنا نظرا لانشغاله بالحروب الداخلية الأوروبية في إيطاليا وفرنسا، ينظر: بن اسماعيل، المرجع السابق، ص20

خالصة عن رضا منا...¹، وقد عبرت المنظمة عن امتنانها الشديد للملك شارلكان عن هذا التنازل في رسالة بعثها قائدها الأعلى إلى الملك الإسباني جاء فيها: "...وبما أن جلالتم القيصرية عندما طلب منكم التنازل عن هاتين الجزيرتين طلبتم أن نقبل معها مدينة طرابلس بكل ما يتبعها فإننا قبلنا هذا رغم ضعف قوى المنظمة² رغبة منا في خدمة جلالتم القيصرية، وفي الوقن نفسه نأمل أن تكونوا لنا سندا وعونا حيثما لا تكفي قوانا في خدمة الله للاحتفاظ بتلك الأماكن وحماية المنظمة نفسها...³، ومن خلال هذا النص نجد أن فرسان القديس يوحنا ورغم إقرارهم بصعوبة المهمة المسندة إليهم إلا أن حاجتهم للتمركز في مالطا بعد طردهم من رودس جعلتهم يقبلون استلام حكم مدينة طرابلس. وهكذا تم استقرار فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطا وتولوا حكم مدينة طرابلس نيابةً عن الإسبان واستقروا بها رسميا ابتداءً من 25 جويلية 1530م بقيادة القسّ غاسبار دي سانغوزا (Gaspere di Sanguessa).⁴

¹ بن اسماعيل، المرجع السابق، ص20

² في سنة 1524م زار وفد من فرسان مالطا مدينة طرابلس وعند عودتهم نصحوا القائد الأعلى للمنظمة بعدم قبول مهمة استلامها نظرا لصعوبة وتكاليف الدفاع عنها، وبما أن تنازل شارلكان للمنظمة عن جزيرة مالطا كان مقرونا بتوليهم حكم طرابلس، فإن فرسان مالطا لم يجدوا بُداً من قبول العرض بكامل تفاصيله، بازامه محمد مصطفى، ليبيا في عشرين سنة من حكم الإسبان (1510-1530)، د.ط، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1965، ص110، روسي، طرابلس، المرجع السابق، ص52

³ الباروني، المرجع السابق، ص85

⁴ مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص332، روسي، طرابلس، المرجع السابق، ص53

2- استنجد أهالي طرابلس بالدولة العثمانية:

كانت فاتحة العلاقة بين أهالي طرابلس والدولة العثمانية تلك السفارة التي بعث بها أهالي تاجوراء¹ إلى القسطنطينية طالبين العون من السلطان العثماني، إذ يذكر الأنصاري في كتابه "المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" أن: "...ولما تفاقم الخ طرء على أهالي طرابلس واستفحل أمر منازل بهم من فتنة الإسبنيول... انتدبت جماعة من أهلها سكنة تاجوراء، ووفد وفد منهم إلى دار السعادة العلية مستندين بالخلافة العثمانية وكان ذلك سنة 926هـ (1520م)²، وقد استجاب³ السلطان سليمان القانوني لوفد تاجوراء وقرر أن يرسل معهم بعض القوات العثمانية لتحرير المدينة تحت قيادة مراد آغا⁴.

تختلف الروايات التاريخية في تاريخ مجيء مراد آغا إلى تاجوراء أو في بدايات التواجد العثماني في طرابلس وتاجوراء مما يطرح أمامنا عدة نقاط استفهام، فهذا ابن غلبون يقول: "...فاستعمل عليهم مراد آغا وقدموا به لبلادهم ودانوا له وكان

¹ تاجوراء: مدينة ساحلية شرق طرابلس لجأ إليها سكان الأخيرة بعد سقوطها في أيدي الإسبان، للمزيد حولها ينظر: كربيخال، المصدر السابق، ج3، ص128

² الأنصاري أحمد بك النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، د.ط، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص186

³ تقول بعض الآراء بأن الدولة العثمانية أصرت على إظهار نفسها كمحرر للشعوب الإسلامية كي تغطي على أطماعها التوسعية في شمال إفريقيا، ينظر على سبيل المثال: بروشين نيكولاي إيليتش، تاريخ ليبيا من منتصف القرن 16 إلى مطلع القرن 20م، تر، تق، عماد حاتم، ط2، دار الكتب الليبية، طرابلس، ليبيا، 2001، ص26

⁴ الأنصاري، المصدر السابق، ص186، ابن غلبون، المصدر السابق، ص93

ذلك سنة 952هـ¹ أي أن مراد آغا والقوات العثمانية وصلت تاجوراء حوالي سنة 1546م؟ أما كربخال فيقول في هذا الصدد: "...عندما سقطت المدينة (طرابلس) في أيدي النصارى لجأ العديد من سكانها إلى تاجوراء، وقد تمكن ضابط تركي اسمه مرتجي² (Mortaga) من بسط نفوذه على المدينة ومضى يشن هجمات على فرسان مالطا³ وبالتالي فإنه من خلال ماورد عن كربخال يتضح لدينا أن مراد آغا استقر في المدينة بعد سنة 1530م وهو تاريخ استيلاء فرسان مالطا على طرابلس؟ وهناك رواية أخرى تقول أنه في سنة 1531م -أي بعد سنة واحدة من حكم فرسان مالطا مدينة طرابلس- اقام خير الدين بربروس بمهاجمة مدينة تاجوراء وقوات فرسان مالطا وبعد انتهائه من حملته البحرية على المدينة قام بوضع حامية عسكرية مجهزة بالأسلحة والمدافع في مدينة تاجوراء المجاورة وولى عليها قائداً يدعى "خير الدين كرمان"⁴، في حين يقول ناصر الدين سعيدوني أن مراد آغا وخير الدين كرمان كانا منذ سنة 1520م يقودان في تاجوراء حركة المقاومة ضد الإسبان؟⁵

¹ ابن غلبون، المصدر السابق، ص 93

² من الواضح أن النطق الصحيح هو: مراد آغا.

³ كربخال، المصدر السابق، ج 3، ص 128

⁴ تومي طاهر، المرجع السابق، ص 207، روسي، طرابلس، المرجع السابق، ص 61، إيفانوف، المرجع

السابق، ص 221، الباروني، المرجع السابق، ص 92

⁵ سعيدوني ناصر الدين، ولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس)، ط 2، دار البصائر،

الجزائر، 2013، ص 32

يُقَدِّم لنا الباروني في كتابه الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس حلاً لهذه المسألة المعقدة وتوفيقاً بين الروايات التاريخية المعروضة آنفاً، إذ يقول بأن مراد آغا¹ إنما جاء بديلاً لخير الدين كرمان بعد وفاته سنة 1538م²، وانطلاقاً من كلام الأخير يمكننا أن نضع فرضية بخصوص هذه القضية؛ حيث يمكننا القول بأن السلطان العثماني بعد استقباله لسفارة أهالي تاجوراء قد فوّض أمر الدفاع عن المدينة لخير الدين بربروس حاكم إيالة الجزائر التي تأسست سنة 1519م والذي أسند بدوره هذه المهمة لقائده خير الدين كرمان، وبعد وفاة الأخير سنة 1538م اختار السلطان العثماني مراد آغا وأرسله لخلافته في مهمة الدفاع عن طرابلس وتاجوراء من فرسان مالطا.

إذاً، يتبين لنا من هذا العرض أن الروايات تختلف في تاريخ بداية الوجود العثماني بطرابلس الغرب وفيمن كان أول قائد عثماني يتولى مهمة المقاومة ضد الإسبان وفرسان مالطا في هذا القطر المغربي، غير أنه يتأكد لدينا أن الوجود العثماني في طرابلس الغرب بدأ منذ استيلاء فرسان مالطا على المدينة أي سنة 1531م أولاً عن طريق القائد خير الدين كرمان الذي ولاه خير الدين بربروس حكم منطقة تاجوراء وأسند إليه مهمة الدفاع عنها، ثم عن طريق مراد آغا الذي أرسله السلطان العثماني لقيادة المقاومة في طرابلس وتاجوراء.

¹ حول هذه الشخصية ينظر: الباروني، المرجع السابق، ص 107-110

² المرجع نفسه، ص 106، وكذلك ينظر: إيفانوف، المرجع السابق، ص 221

3- انضمام طرابلس للحكم العثماني:

كان الوجود العثماني في طرابلس منذ عهد خير الدين كرماني ثم مراد آغا يهبيء الوضع لفتح طرابلس نهائياً وضمها للدولة العثمانية التي كانت ترى في إخضاع طرابلس خطوة استراتيجية كبيرة لبسط نفوذها في غرب البحر المتوسط خاصة بعدما تمكن العثمانيون من ضم الجزائر وجعلها مركزاً للحكم العثماني في المنطقة. حول ضم طرابلس للحكم العثماني يُضفي ابن غلبون نوعاً من الصدفة التاريخية، إذ يذكر أن أهالي المدينة وقائدها مراد آغا قد طلبوا من الأسطول العثماني المتجه إلى تونس أن يساعدهم في تحرير المدينة من فرسان مالطا وأن قائد الأسطول قد رفض ذلك بحجة أنه ليست لديه أوامر السلطانية للقيام بذلك "فهوّنوا عليه أمرها وصغروها بين يديه فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يعطوه حجة على أن لا يكون عليه درك من السلطان لمخالفته أمره وأنهم المؤخذون بذلك فأعطوه بذلك حجة وحاصروها برا وبحرا فأخذوها..."¹، وبالتالي فحسب المؤرخ المذكور فإن الأسطول العثماني لم يخرج من الأستانة قاصداً تحرير طرابلس وإنما كان قاصداً تونس وأن أعيان طرابلس هم من أوقفوهم وحثوا قيادة الأسطول على تحرير طرابلس، غير أن المؤرخ المعاصر "إيتوري روسي" يفتد هذا الكلام ويقول بأن الحملة على طرابلس كانت مجهزة ومدبرة من القسطنطينية².

يبدو أن هذا الأخير محقٌّ في تحليله، إذ أن هناك رواية تاريخية تؤيد طرحه، حيث يذكر صاحب كتاب "المنهل العذب" أن مراد آغا هو من طلب المدد من

¹ ابن غلبون، المصدر السابق، ص 94

² روسي، طرابلس، المرجع السابق، ص 63

السلطان العثماني لمحاصرة طرابلس وتحريرها، إذ جاء عنه: "...وفي سنة 957هـ (1550م) التمس (مراد آغا) المدد، ثم أسس طابية (حامية) صغيرة بين طرابلس وتاجوراء للمدافعة، وأرسل العمال وأمن السبل وبسط في الناس العدل...وفي سنة 958هـ (1551م) جاء الأسطول العثماني إلى طرابلس بمعية طرغود فاستولى عليها..."¹، وهذا كبريخال يقول في ذات الصدد أنه في سنة 1551م جهّز السلطان سليمان العثماني أسطولاً بقيادة كل من سنان باشا² وصالح راييس³ وطرغود راييس⁴، وبعدهما قام الأسطول بالهجوم على صقلية والأشواط

¹ الأنصاري، المصدر السابق، ص 188

² سنان باشا: قائد وبحار عثماني خاض العديد من الحرب البحرية على رأس الأسطول العثماني ساهم في تحرير اليمن وطرابلس وتونس وإخضاعهم للدولة العثمانية، للمزيد ينظر: الجبوري رابحة محمد، القائد سنان باشا وجهوده في استعادة اليمن وتونس 1568-1574م، مجلة جامعة تكريت للعلوم، تكريت، العراق، ع1، 2011

³ صالح راييس: قائد وبحار عثماني أصله من الإسكندرية، شارك في العديد من الحروب البحرية العثمانية، تولى منصب بايلرباي الجزائر ما بين 1552-1556م، توفي أثناء حصار وهران سنة 1556م، للمزيد حول شخصيته ينظر: سعيديوني، الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 291-313، زغار محمد مختار، صالح راييس بطل الوحدة والجهاد 1552-1556م، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، الجزائر، مج2، ع4، 2020

⁴ طرغود أو (درغوث) راييس: قائد وبحار عثماني قاد العديد من الحملات البحرية العثمانية في البحر المتوسط، ساهم في تحرير طرابلس وجزيرة جربة، تولى حكم إيالة طرابلس ما بين 1556-1565م، توفي في حصار مالطا 1565م، للمزيد ينظر: سقور سناء عارف، عهد البكلربكي (إمرة الأمراء) في إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب (دراسة مقارنة)، رسالة دكتوراه في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، جامعة دمشق، 2018، ص 157-163، روسي، طرابلس، المرجع السابق، ص 69، 68، كولز بول، المرجع السابق، ص 93

الإيطالية توجه إلى طرابلس¹. ومن هاتين الروايتين نتأكد من أن الأسطول العثماني قد خرج من القسطنطينية قاصداً تحرير طرابلس ولم يكن ذلك عن طريق الصدفة كما في رواية ابن غلبون.

أما فرسان مالطا فقد علموا مسبقاً بتجهيز الدولة العثمانية أسطولاً لتحرير طرابلس ويظهر ذلك من خلال الرسالة التي أرسلها قائد فرسان مالطا إلى السلطات الإسبانية يوم 31 جويلية 1551م والتي نبّه فيها بتجهيز الباب العالي حملة عسكرية على طرابلس² وذلك بغية إرسال السلطات الإسبانية الدعم لفرسان مالطا لمواجهة الحملة العثمانية.

وصل الأسطول العثماني المتكون من حوالي مائة وخمسين سفينة وعشرة آلاف جندي³ قبالة مدينة طرابلس يوم 4 أوت 1551م، وقد كان سنان باشا فور وصوله قبالة المدينة قد بعث إلى حاكم المدينة غاسبر دي فالير (Gaspare di Vallier) -وهو من فرسان مالطا- وطلب منه الاستسلام غير أن الأخير رفض ذلك⁴ مما جعل سنان باشا يُعطي الأمر بمباشرة الهجوم على طرابلس براً بينما تولى طرغود ريس قصف المدينة من البحر، وقد كانت القوات العثمانية قد بدأت

¹ كرخال، المصدر السابق، ج3، ص124

² ينظر: A.G.S, LEST, LEG, 1381,149 (الملحق رقم9)

³ فيما كانت قوات فرسان مالطا تتكون من ثلاثمائة مالطي وستمائة مرتزق إيطالي وحوالي مائة عسكري من عرب المدينة، ينظر: إيفانوف، المرجع السابق، ص225

⁴ مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص334، إيفانوف، المرجع السابق، ص224، ويبدو أن سبب رفض الاستسلام من قبل الحاكم المذكور يعود إلى انتظاره الدعم من السلطات الإسبانية إذ أن فرسان مالطا قد راسلوا السلطات الإسبانية مرة ثانية في 6 أوت 1551م أي بعد وصول الحملة العثمانية لطرابلس الغرب.

ينظر: A.G.S, LEST, LEG, 1381,149

الهجوم يوم 8 أوت واستمرت في حصارها وقصفها للمدينة إلى غاية 14 أوت أين تمكنت من إسقاط قلعة الحامية مما سهّل بعد ذلك دخول القوات العثمانية إلى المدينة منتصرة على قوات فرسان مالطا التي فضّلت الاستسلام وفق شروط اتفق عليها الطرفان¹.

كان فرسان مالطا قد جعلوا شرطاً لاستسلامهم حفظ أرواحهم والسماح لهم بمغادرة طرابلس إلى مالطا بسلاحهم وذخيرتهم² وهو ما وافقهم عليه سنان باشا بعد وساطة من دارامون (Daramont) السفير الفرنسي لدى الباب العالي³، ويقول كريبخال أن العثمانيين قد وفّوا بعهدهم لفرسان مالطا حيث أنهم لم يمستّوهم بأذى وعاملوهم بالحسنى، بل ونقلوهم على سفنهم إلى مالطا⁴.

ولا يمكن هنا تجاهل دور المقاومة المحلية في تحرير طرابلس، حيث كان شيوخ طرابلس ورجالها على رأس المقاومة البرية في تاجوراء ومنعوا على فرسان مالطا التموين من القرى الساحلية⁵.

¹ الويشي عطية فتحي، العثمانيون بطرابلس الغرب جدلية العلاقة بين المجتمع والدولة 1551-1912م، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ع 35، 2017، ص 140، عبد يد، المرجع السابق، ص 334، 335

² ابن غلبون، المصدر السابق، ص 94، الباروني، المرجع السابق، ص 132

³ روسي، طرابلس، المرجع السابق، ص 76، إيفانوف، المرجع السابق، ص 226، وقد تمّت جلسة الاستسلام في خيمة سنان باشا بينه وبين دي فالليه (De Vallies) حاكم طرابلس، ينظر: الباروني، المرجع السابق، ص 134

⁴ كريبخال، المصدر السابق، ج 3، ص 125

⁵ الويشي عطية، المرجع السابق، ص 35

بعد دخول العثمانيين مدينة طرابلس قام سنان باشا بتعيين مراد آغا كأول حاكم عثماني على المدينة وعلى إقليم طرابلس الغرب، وقد أقسم الأخير على القرآن بأن يتولى إدارة البلاد باسم السلطان العثماني¹.

يمكننا القول مما سبق إن العثمانيين نجحوا إلى غاية منتصف القرن السادس عشر في تأسيس الحكم العثماني في بلاد المغرب ودحر الوجود الإسباني في المنطقة، ورغم بقاء بعض المناطق الخاضعة للإسبان كوهران في الجزائر والتبعية الحفصية للإمبراطوية الإسبانية إلا أن ذلك لم يُعق مطلقاً نشوء الحكم العثماني في المنطقة وتأسيس الولايات المغربية العثمانية التي ستواصل تحت قيادة وبمعية الباب العالي الصراع مع القوى الأوروبية وستستمر في التصدي لتهديداتها المتوالية على البلدان المغربية إلى غاية أواخر القرن المذكور.

في الأخير نخلص إلى إن التغيرات التي شهدتها العالم مطلع العصر الحديث على مستوى القوى الإقليمية كصعود الإمبراطوريتين العثمانية في الشرق والإسبانية في الغرب قد جعلت بلاد المغرب شاهدةً على الصراع بين هاتين القوتين الجديتين، بل وكانت ساحة لهذا الصراع ومسرحاً له خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، إذ إن الصراع بين القوتين على بلاد المغرب كان حتمية سياسية وعسكرية وجيوستراتيجية بين قوتين صاعدتين تحاول كلّ منهما التوسع والهيمنة، كما تحمل كلّ منهما راية الدفاع عن الشعوب المنضوية تحتها أو التي استنجدت بحكمها كما هو الحال بالنسبة للتدخل العثماني في المنطقة.

كذلك، لعبت الظروف الإقليمية وعلى رأسها سقوط غرناطة عام 1492م عاملاً أساسياً في اصطدام القوتين العثمانية والإسبانية في بلاد المغرب، إذ إن سقوط

¹ الأنصاري، المصدر السابق، ص188، إيفانوف، المرجع السابق، ص226

غرناطة مثلما كان محركاً للإسبان للتوسع في المنطقة، فقد كان كذلك دافعاً للدولة العثمانية لأن تتجه إلى المنطقة لنجدة مسلمي الأندلس وبلاد المغرب الواقعين تحت موجة الاحتلال الإسباني على حد سواء.

هذا، كما كان الاحتلال الإسباني لبلاد المغرب والتحرك العثماني ذي الصبغة الدينية لنجدة المنطقة من الوجود المسيحي الصليبي أحد أهم مقومات تأسيس الحكم العثماني في المنطقة وتأسيس الإيالات المغربية العثمانية.

**الفصل الثاني: الدولة العثمانية في مواجهة التهديدات الأوروبية على إيالتى
تونس وطرابلس الغرب (1551-1574م)**

مدخل

**المبحث الأول: موقف الباب العالي من التهديدات المالطية-الإسبانية على إيالة
طرابلس الغرب 1551-1565**

**المبحث الثاني: سياسة الباب العالي تجاه الوجود الإسباني في تونس 1568م-
1570م**

**المبحث الثالث: استراتيجية الباب العالي تجاه الحلف الأوروبى المقدس والقواعد
الإسبانية في تونس (1571م-1574م)**
خاتمة الفصل

بعد تأسيس الحكم العثماني في بلاد المغرب استمر وازداد اهتمام الباب العالي بالأوضاع السياسية في المنطقة، وعلى هذا الأساس فإن الدولة العثمانية لم تتوان مطلقاً عن صد أي عدوان خارجي على إيالاتها المغربية، بل وعن تتبع تحركات الأعداء الأوروبيين والاستخبار عن حملاتهم ومشاريعهم العسكرية ضدها، إذ أن القوى الأوروبية ونظراً للقيمة الاستراتيجية الكبيرة للإيالات المغربية فإنها لم تتوقف عن محاولات استردادها من الدولة العثمانية وهو ما تم من خلال العديد من الحملات والغزوات العسكرية البحرية.

ومنه فإننا سنعالج في هذا الفصل موقف الباب العالي من التهديدات الأوروبية وحملات الإسبان والمالطيين المتوالية على كل من طرابلس الغرب وتونس وذلك في الإطار الزمني المحدد للدراسة (النصف الثاني من القرن السادس عشر)، إذ أننا سندسلط الضوء في هذا الفصل على موقف الدولة العثمانية من خلال مراسلاتها لحكام الإيالات المغربية بخصوص التهديدات الأوروبية على كل من طرابلس الغرب وتونس، وكذا على الدور السياسي والعسكري الذي لعبه الباب العالي في تأمين وحفظ إيالاته المغربية وفي التصدي لهذه الحملات الأوروبية الصليبية التي لم تنقطع طيلة النصف الثاني من القرن المذكور.

المبحث الأول: موقف الباب العالي من التهديدات المالطية - الإسبانية على إيالة طرابلس الغرب 1551-1565:

تحدثنا في الفصل الأول وتحديداً فيما يتعلق بتأسيس إيالة طرابلس الغرب عن فرسان القديس يوحنا (فرسان مالطا)، هذا التنظيم الذي استقر في جزيرة مالطا بعد أن طُرد من جزيرة رودس بعد فتحها من طرف العثمانيين عام 1522م، ومنذ طردهم ثانيةً من طرابلس الغرب -التي كانت تحت سلطتهم بتفويض من الملك الإسباني- وتحريرها على يد القوات العثمانية سنة 1551م لم يعد لفرسان القديس يوحنا مقراً لهم غير جزيرة مالطا وبعض الجزر الصغيرة المتاخمة لها، ومن هذه الجزيرة استأنف هذا التنظيم العسكري الصليبي غاراته على إيالة طرابلس الغرب ومحاولاته لاستردادها.

أولاً: التصدي لمحاولة فرسان مالطا استعادة مدينة طرابلس (معركة جربة 1560م):

1- نشاط فرسان مالطا على سواحل إيالة طرابلس الغرب وتونس:

بدأ فرسان مالطا منذ طردهم من طرابلس سنة 1551م بتنظيم أسطول حربي وظلوا يضايقون سواحل البلدان المغربية وبالخصوص سواحل طرابلس الغرب وتونس بحكم قربهما من الجزيرة، كما كانوا أيضاً يقومون بقطع سبل التواصل بين القسطنطينية و الجزائر الخاضعة لها في بحر إيجه¹، فضلاً عن أن جزيرة مالطا كانت تسد الطريق بين عاصمة الدولة العثمانية والإيالات المغربية كما شكلت

¹ روسي، لبيبا، المرجع السابق، ص229، إيفانوف، المرجع السابق، ص237

تهديدا مستمرا للمراكز العثمانية في شمال أفريقيا¹، إضافة إلى أن فرسان مالطا كانوا يقطعون الطريق على قوافل الدجيج البحرية²، ولم يكتف فرسان مالطا بمضايقة سفن الدولة العثمانية وإيالاتها بل كانوا يقومون بغزو سواحل طرابلس الغرب والبلاد التونسية، ففي شهر أوت من سنة 1552م غزا فرسان مالطا مدينة زوارة التابعة لإيالة طرابلس الغرب، وقد استطاعت هذه الغزوة أن تُحدث الكثير من الضرر في المدينة التي وقع ألف وخمسمائة من أهلها في أسر فرسان مالطا لولا أن القائد مراد آغا تمكن من إجهاض هذه الحملة التي انتهت بخسائر فادحة في صفوف المالطيين³.

وفي خطوة تعتبر رداً على استيلاء العثمانيين على طرابلس وقّعت الحكومة الإسبانية سنة 1554م معاهدة جديدة مع السلطان الجديد أحمد بن الحسن الحفصي⁴ كي تضمن بها استمرار تكريس نفوذها والحفاظ على مصالحها في بلاد المغرب خاصة أن هذه المصالح تقلصت أكثر منذ انضمام طرابلس للحكم العثماني سنة 1551م، وفي سنة 1557م فضّلت الحكومة الإسبانية ممثلة بالملك الجديد فيليب الثاني (2 Philippe)⁵ استعمال وسيلة دبلوماسية أخرى من أجل التحكم في طرابلس الغرب والحفاظ على مصالحها في ظل فشل المحاولات

¹ Belhamissi, op-cit, T2, p93, Maxange Defontin, Eudj'Ali, A. Pedone Editeur, Paris, 1930, p76

² فكاير، المرجع السابق، ص 340، جميل عائشة، المرجع السابق، ص 151

³ روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص 217

⁴ ينظر: المعاهدة التونسية الإسبانية لسنة 1554م، أ.و.ت، المجموعة رقم 2876، ملف رقم 21

⁵ فيليب الثاني (2 Phillip) : ابن الإمبراطور شارلكان وخليفته، تولى عرش الإمبراطورية الإسبانية ما بين 1558-1598م، للمزيد حوله ينظر: حتامله محمد عبده، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد

فيليب الثاني، ط1، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1982، ص 11-24

العسكرية، إذ حاول الأخير التقرب من الحاكم الجديد لطرابلس الغرب طرغود باشا وبعث له برسالة مؤرخة في 2 جويلية من العام المذكور جاء فيها: "أخبرني البعض بحسن نيتك ومحبتك لجنابي السلطاني، ولا يسعني إلا أن أشكرك إزاء ذلك، وإذا كان بمقدورك الدخول في خدمتي فسأكون ممتنا جدا لذلك... وسيكون كل شيء في صالحك كما سيخبرك أو يكتب لك الأخ نيكولا".¹ غير أن محاولة استمالة طرغود باشا لم تكلل بالنجاح نظرا لاستمرار تعدي فرسان مالطا على سواحل إيالة طرابلس والمناطق المجاورة لها.

وعلى غرار تهديدات فرسان مالطا المتكررة لسواحل إيالة طرابلس الغرب وجزر البلاد التونسية وتهديد مصالحها ومصالح الدولة العثمانية في غرب المتوسط وبعد فشل محاولة استمالة حاكمها طرغود باشا كما تقدم، قرر فرسان مالطا تجهيز حملة لاستعادة مدينة طرابلس، فنظرا لمكانتها الاستراتيجية في البحر المتوسط فقد أوعز فرسان مالطا لملك إسبانيا بضرورة استعادة هذه المدينة التي انضمت مؤخرا للحكم العثماني، فقرر ملك إسبانيا فيليب الثاني تجهيز حملة عسكرية لاسترداد طرابلس وطرد العثمانيين منها²، حيث أنه في 14 جويلية 1559م بعث الملك الإسباني رسالة إلى أندري دوريا يخبره فيها بضرورة الاستعداد وتجهيز حملة لاستعادة طرابلس³، هذا في الوقت الذي رحبت فيه الإمارات الجنوبية لإيطاليا بهذه

¹ De La Primaudaie Elie, Documents inédits sur l'histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique (1506-1574), R.A, V:21, Alger, 1877, p288

² روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص 223

³ A.G.S, LEST, LEG, 1388, 188³

الخطوة وأعلنت استعدادها للمشاركة في هذه الحملة¹، كما كان التنافر الحاصل بين طرغود باشا والزعامات المحلية في الجنوب الشرقي التونسي من الدوافع الأخرى التي حرّكت فرسان مالطا للقيام بهذه الحملة، حيث يذكر حاجي خليفة في كتابه "تحفة الكبار في أسفار البحار" أنه كان بين طرغود باشا وأمراء العرب حرب وصراع، وأن أمراء العرب ومشايخهم يميلون إلى الفرنجة وأنهم يريدون أن يضربوا الدولة العثمانية وأن يسيؤوا إليها²، وقد كان هذا العامل من العوامل الأخرى التي أراد فرسان مالطا استغلالها لاسترداد مدينة طرابلس والسيطرة على السواحل الشرقية للبلاد التونسية في آن.

كّف ملك إسبانيا فيليب الثاني نائبه في صقلية دون دي ميدينا تشيلي (Don di Medina Coeli) بقيادة الحملة والإعداد لها، فقام بتجهيز أسطول قوامه أربع وخمسون سفينة من نوع غاليرا³ وغليوطة¹ وثمانين وعشرين قطعة بحرية كبيرة

¹ روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص223، منفروني كاميلو، إيطاليا في الأحداث البحرية الطرابلسية، تر، عمر محمد الباروني وصلاح الدين السوري، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1988، ص89

² حاجي خليفة، المصدر السابق، ص138، ويذكر ابن أبي دينار في هذا السياق أن القبائل المحلية في جربة قد وقفت ضد طرغود باشا خلال هذه الحملة إذ جاء عنه: "...ذلك أن جربة عصت عليه لظلم منه..."، المصدر السابق، ص161، ومن الجدير الإشارة هنا إلى أن طرغود باشا بعد ضم طرابلس للحكم العثماني كان قد قام بإخضاع العديد من المدن التونسية مثل جربة وقفصة والمنستير وسوسة وصفاقس كما أخضع القيروان بعدما قضى على حكم أسرة الشايبين فيها ونصّب عليها حيدر باشا حاكما عليها باسم العثمانيين وكان ذلك حوالي سنة 1557م، وقد كان الوجود العثماني في هذه المناطق يقابله بعض الرفض الشعبي ممثلا في القبائل والعشائر المحلية، ينظر: إيفانوف، المرجع السابق، ص331، 332، روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص228

³ الغاليرا أو القادراغا: من أكبر السفن الشراعية في الأسطول العثماني، يبلغ متوسط طولها حوالي مائة متر وعرضها حوالي أربعة عشر مترا، متوسط حمولتها حوالي مائة وخمسين مقاتلا وحوالي مائة مجذفا، كما

أخرى وضع على رأسها القائد الجنويّ أندري دوريا (Andrea Doria)، فيما تولى دون ألفارو دي ساندي (Alvaro de Sande) قيادة الجيش البري، وقد كان عدد الجنود المشاركين في هذه الحملة حوالي إثني عشر ألف جندي من نابولي وصقلية وفلورنسا إضافة إلى قوات البابا وجنود من ألمانيا وإسبانيا².

2- تحرك الدولة العثمانية لمواجهة فرسان مالطا:

في الوقت الذي كان الإسبان يُعدّون فيه العُدّة للحملة على مدينة طرابلس وصلت الأخبار بشأنها إلى الباب العالي، حيث أن بيّاله باشا القائد العام للأسطول العثماني وكذا حاكم طرابلس الغرب طرغود باشا قد قاما بإبلاغ الباب العالي بتحركات فرسان مالطا مما جعل الأخير يقوم فوراً بإصدار أوامره لحكام إيالاته المغربية بضرورة اتخاذ الاحتياطات والاستعدادات اللازمة لمجابهتها³، وهو ما يظهر بدايةً من خلال رسالة موجهة إلى حسن باشا بايلرباي الجزائر بتاريخ 15 شوال 966هـ/21 جويلية 1559م جاء فيها:

"حُكْم إلى بكربكي الجزائر

أرسلت رسالة إلى سعادتني تبلغ فيها أن رئيس البحر المدعو خوجة علي وهو من رؤساء الكونوللية جلب جاسوسا مهما أبلغ عند السؤال عن أوضاع الكفار

¹ يُحمل عليها عدد من المدافع الكبيرة والمتوسطة والصغيرة. ينظر: صابان، المرجع السابق، ص172،

Belhamissi, op-cit, T1, p100

² الغليظة أو الغاليطة: من السفن المدفعية ذات الأشعة، مقدمتها تشبه مؤخرتها، تحتوي على ما بين 20-24 مقعدا وما بين 122-190 مجذفا. ينظر: صابان، المرجع السابق، ص 175، أوزتونا، المرجع

السابق، ج2، ص437

³ روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص223، منفروني، المرجع السابق، ص59

³ حاجي خليفة، المصر السابق، ص138

المذلين أنه توجد للإسبان المهزومين في مسينة إثنان وثمانون سفينة من نوع قارذغة وعشر سفن من نوع غاليطة ومن المزمع وصول أربعين قطعة من سفن الفرنجة للانضمام إليها...ومن المزمع أن توجه على طرغود بك...وبناء على كل ذلك فقد صدرت أحكام شريفة مثلما عرضت تقضي بأن يقوم كل من قبودان رودس السابق علي والقبودان الحالي أحمد بن علي قورد بالالتحاق بك على رأس سفنه وعلى وجه السرعة وأن يقوم قبودان مصر بحماية مضيقة رودس...وينبغي ألا تكون على الغفلة، بل تكون مجدا وغيورا في حفظ البلاد وحراستها، وتحول دون إلحاق الضرر والأذى من قبل الكفار الأذلاء بالأسطول السلطاني والبقلاع والبقاع والنواحي والقرى وتكون على أتم البصيرة والانتباه..."¹، وكما راسل الباب العالي حاكم الجزائر حسن باشا حول هذه الغزوة المحتملة قام كذلك بإرسال خطاب إلى حاكم تونس بخصوص نفس الموضوع بتاريخ ربيع الأول 967هـ/ ديسمبر 1559م جاء فيه:

"حكم إلى حاكم تونس

هذا مثا لنا ال عالي ال شريف السلطاني..أ صدرناه إ لى الج ناب ال عالي الأميري..الحاكم يومئذ بولاية تونس أدام الله تعالى سعده وأنجح قصده...ثم الآن أيضا قد سمع بسدتنا السنية قصد الكفار المذكورين خذلهم الله وتوجه عزيتمهم غير الموجهة إلى تلك الديار لاجرم أمرنا لردهم وقمعهم ومقابلتهم ومقاتلتهم وقلعهم بتجهيز سفن مملوءة بالأساكر المنصورة والآلات والعدد...فمثالنا الشريف إليكم أنه إذا جاء الكفار إلى تلك الديار قبل قدوم مراكبنا المذكورة

¹أ.و.ج، مهمة دفترى 3، حكم 139، 15شوال 966، بيات فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية، اتق، خالد أرن، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، 2010، ج 2، ص 324،

ووصولها لتلك الولاية حينئذ على ما هو مركز في جبلتكم الحسنة..معاونة ومعاودة أهالي الإسلام وأمر خير الأنام مجدين ومجتهدين في دفع مضرة أولئك الكفرة الفجرة..لئلا يقع والعياذ بالله من أولئك الكفار...خسارة لأهالي تلك الولاية المباركة....¹، ويبدو أن حاكم تونس آنذاك المولى أحمد بن محمد الحفصي قد رحّب بالتعاون مع العثمانيين للوقوف في وجه هذه الحملة وهو ما يظهر من خلال ما ذكره ابن أبي دينار في كتابه المؤنس: "...ولما كان طرغود باشا محاربا لجربة أرسل له السلطان أحمد المؤمنة...²، وهو ما يؤكد استجابة السلطان الحفصي لنداء السلطان العثماني حول التعاون ضد فرسان مالطا.

وبما أن إيالة طرابلس الغرب هي المستهدفة من هذه الحملة الإسبانية فقد بعث السلطان العثماني إلى حاكمها طرغود باشا خطابا يخبره فيه بأهمية إيالة طرابلس الغرب وبضرورة الحفاظ عليها من حملات الصليبيين وذلك في رسالة بتاريخ 5 ربيع الأول 967هـ/5 ديسمبر 1559م جاء فيها:

" حُكَم إلى بكاربكي طرابلس الغرب طرغود باشا

أرسلت رسالة إلى سدة سعادتني تبلغ فيها أنه بعد عودة أسطولنا السلطاني قام الكفار الأذلاء بإعداد العدة لتحشيد سفنهم وأنهم يعتزمون التوجه نحو الولاية المذكورة، وبناء عليه فإن إيالة طرابلس هي كسائر ممالكي الحروسة...ويُعد حفظها وحراستها بكل وجه من الوجوه والحيلولة دون إلحاقها بضرر أو أذى من أعداء الدين من أهم الأمور، ولهذا فقد تم مرة أخرى تجهيز مراكب بحرية لا حد لها لهذا الغرض...وتكون قلبا وقالبا مع قبائل الأعراب ومشايخ العربان وغيرهم

¹بيات، المرجع السابق، ج3، ص243، 244

²ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص161

من أهالي الولاية وبحسن الاتحاد والاتفاق معهم.. وتحفظ ليلا ونهارا وبالوجه المناسب مدينة طرابلس والمناطق الواقعة في تلك السواحل وتحرسها، وتعمر القلاع المحتاجة إلى التعمير والترميم، ولا تتهاون في تجهيزها بالأسلحة والمعدات، وتحول بعناية الله تعالى دون إلحاق أعداء الدين والكفرة الملائين الضرر والأذى بالبلاد والولاية والقلاع والبقاع والنواحي والقرى والرياح والبرايا...¹، ومن هنا يظهر جليا اهتمام الباب العالي وحرصه على أمن إيالاته المغربية وسعيه إلى وقف أي تهديد صليبي ضدها، وفي هذه المراسلات كذلك نلاحظ حرص الباب العالي على ضرورة التنسيق والتعاون بين الإيالات المغربية فيما بينها، وكذا تأكيده على أن القوات العثمانية الهمايونية جاهزة دائما للالتحاق بالقوات العثمانية في الإيالات المغربية لردع وقتال أي حملة صليبية على هذه الأخيرة.

هذا، ولم يتوقف خطاب الباب العالي بخصوص هذه الحملة على الجهات الرسمية، أي حكام الإيالات المغربية، بل قام الباب العالي أيضا بإرسال خطاب إلى الأعيان والمشايخ والزعامات المحلية القبلية في طرابلس الغرب مؤرخ في 4 ربيع الأول 967هـ/4ديسمبر 1559م جاء فيه:

" هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني... أرسلناه إلى العلماء والفضلاء والفقهاء والخطباء والأئمة وجميع الرعايا بطرابلس الغرب... إذا جاء الكفار إلى تلك الديار قبل قدوم مراكبنا المذكورة وعساكرنا المؤيدة المنصورة إليكم... حينئذ على ما هو مقتضى شجاعتكم ومركز في جبلتكم الحسنة وحسن إسلامكم وغيرتكم وحميتكم لدين الإسلام مع أمير الأمراء وسائر عساكر الإسلام... إنسانكم واحد ووجهتكم واحدة بحيث لا يتمكن أحد من أولئك الكفار المخذولين لمضرة

¹ بيات، المرجع السابق، ج3، ص293-295

أحد من المسلمين..."¹، وفي هذا الخطاب نلحظ جيدا إدراك الباب العالي لأهمية العنصر المحلي وضرورة إشراكه في الصراع مع المسيحيين الأوروبيين، كما نجده يحثهم فيه على ضرورة الاتحاد مع القوات العثمانية وتوحيد جبهة المسلمين في الدفاع عن الأراضي الإسلامية ضد القوى الأوروبية الغازية.

3- معركة جربة:

انطلقت الحملة الإسبانية من جزيرة صقيلة في شهر أكتوبر من سنة 1559م غير أنها اضطرت بسبب سوء الأحوال الجوية للتوقف في جزيرة مالطا²، وفي هذه الأخيرة اجتمعت كل الوحدات العسكرية بما في ذلك وحدات من قوات فرسان القديس يوحنا ومن هناك استأنفت الحملة سيرها نحو طرابلس يوم 10 فيفري 1560م، ومباشرة ومع وصول الحملة الإسبانية-المالطية قبالة جزيرة جربة بدأ قادتها بالاتصال مع الزعماء المحليين المناهضين للوجود العثماني في الجزيرة، وخاصة زعماء قبيلة المحاميد الذين أبدوا تأييدهم للحملة الإسبانية-المالطية على طرابلس، ومن قبالة جزيرة جربة زحفت القوات الإسبانية-المالطية باتجاه طرابلس ونزلت بسواحل مدينة زوارة، وبمساعدة القبائل المحلية المناهضة لطرغود باشا والعثمانيين وصلت القوات الإسبانية-المالطية قبالة مدينة طرابلس، غير أن وقوف قائد الحملة دون مدينا تشيلي على تجهيزات المدينة وتحكماتها الجيدة جعله يضطر للانسحاب³.

¹ بيات، المرجع السابق، ج3، ص296-298

² Kavas Ahmet, Osmanli Devleti 'ni Kuzey Afrika'da Kalicilastiran Sefer: Tunus Savasi 1574, Siyasal bilgiler facyulesi (ISMUS), I/1, 2016, p18

³ منفروني، المرجع السابق، ص60

بعد إدراك قادة الحملة الإسبانية-المالطية صعوبة الاستيلاء على طرابلس فضلوا البحث عن نقطة استراتيجية بديلة وكانت جزرة جربة القريبة من طرابلس هي ذلك الخيار، حيث إنه في 7 مارس 1560 نزلت القوات المالطية-الإسبانية بجزيرة جربة وبسبب ضعف الاستعدادات العسكرية بها فقد استطاعت الحملة الغازية بعد مناقشات مع بعض الفرق المحلية والعثمانية هناك السيطرة على حصن الجزيرة والاستقرار فيه¹، فيما قام أندري دوريا بمراسلة السلطات الإسبانية مباشرة إياها بنجاح الحملة في السيطرة على جزيرة جربة².

بعد سقوط جربة اتصل طرغود باشا بالباب العالي موضحاً له أن سقوط هذه الجزيرة وتهديدات فرسان مالطا تمثل هزيمة لكافة المسلمين في المنطقة³، ومن أجل ذلك لم يتأخر الرد العثماني، حيث جهز الباب العالي حملة بحرية تحت قيادة القبطان "بيآله باشا" وصلت إلى جربة في 10 ماي 1560م، وخلال معركة قصيرة استطاع الأسطول العثماني أن يهزم القوات المالطية-الإسبانية التي اضطر قسم كبير منها إلى الفرار إلى صقلية في الوقت الذي غرقت فيه العديد من القطع البحرية أو وقعت في أسر القوات العثمانية، أما قائد القوات البرية ألفارو دي ساندي فقد بقي محاصراً في حصن الجزيرة ينتظر وصول الدعم من صقلية ومالطا إلى غاية 29 جويلية حيث كان لا يزال يقاوم رفقة من معه من الجند بشراسة وبسالة⁴ قبل أن يقع في أسر القوات العثمانية واضطرت بعد ذلك الحامية

¹ منفروني، المرجع السابق، ص 60

² ينظر: A.G.S, EST, LEG, 1389,53 (الملحق رقم 10)

³ Kavas, op-cit, p18

⁴ ينظر التقرير الذي وصل إلى السلطات الإسبانية حول السلوك الحسن والشجاع للقوات الإسبانية والمالطية في الدفاع عن الحصن الإسباني في جربة: A.G.S, LEST, LEG, 1389,166

المالطية-الإسبانية في جزيرة جربة للاستسلام بعد تأكد الهزيمة¹، هذا وقد أسرع رئيس بريد نابولي خوان زاباتا (Juan Zapata) بإرسال تقرير للسلطات الإسبانية في 23 أوت 1560م حول استسلام قوات حصن جربة وكيفية الاستيلاء عليه من قبل العثمانيين².

حسب المؤرخ "جون وولف" فإن نتائج النصر العثماني باستعادة جربة لم تكن عسكرية فقط، فقد كانت نسفاً مريعاً للسمعة الإسبانية ولأمنها كذلك، كما أن هذا النصر قد زاد من قوة وعمليات البحارة العثمانيين في البحر المتوسط، فضلاً عن كونه شجع الموريسكيين عن الانتفاضة ضد السلطات الإسبانية وقوى لديهم إرادتهم في التخلص من اضطهادها³. والأهم من كل ذلك فقد كانت هذه الهزيمة التي ألحقها العثمانيون بالإسبان في جزيرة جربة قد جعلت الباب العالي يفكر جدياً في الاستيلاء على جزيرة مالطا والقضاء نهائياً على تنظيم فرسان القديس يوحنا وهو ما سنتطرق إليه في العنصر الموالي.

ومن هنا فقد نجحت الدولة العثمانية في ردع أول حملة خارجية كبيرة على إيالة طرابلس الغرب منذ انضمامها الرسمي إلى الباب العالي، وقد رأينا من خلال المراسلات العثمانية كيف كان الاهتمام كبيراً من قبل الباب العالي بشأن حفظ وتأمين إيالة طرابلس الغرب من التهديدات التي تواجهها.

ونظراً لحرصه على تشجيع وتثمين دور العنصر المحلي في وقف التهديدات الخارجية على إيالاته المغربية فقد بعث الباب العالي برسالة تنص على تقديم منح

¹ حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 140، روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص 224

² ينظر: A.G.S, LEST, LEG, 1389, 34 (الملحق رقم 11)

³ وولف، المرجع السابق، ص 75

وعلاوات لجميع الرؤساء المتطوعين المشاركين مع الأسطول العثماني في معركة جربة¹.

ثانياً: الحصار العثماني لجزيرة مالطا سنة 1565م:

1- الأهمية الاستراتيجية لجزيرة مالطا²:

حتى بعد هزيمتهم في جربة سنة 1560م لم يتوقف فرسان مالطا عن تهديد إيالة طرابلس الغرب، إذ أنه في سنة 1561م غزا المالطيون مدينة مصراتة وقاموا بنهبها وأسر ما يقارب خمساً وستين أسيراً أغلبهم من النساء والأطفال، إضافة إلى إغاراتهم على السفن التجارية العثمانية وتهديد مبادلاتها الاقتصادية، ففي ربيع عام 1564م استولى فرسان مالطا على سفينة تابعة لحكومة طرابلس الغرب، وسفينتين للشحن مرسلتان من إسطنبول إلى طرغود باشا، وفي جوان من نفس العام هاجم فرسان مالطا في البحر الأدرياتيكي سفينة عثمانية كبيرة كانت متوجهة إلى ميناء البندقية³، بل أن اعتداءات فرسان مالطا طالت حتى إحدى السفن الحاملة لأغراض منقولة إلى قصر السلطان العثماني وهو ما اعتبره الأخير إهانته لشخصه ولعائلته على حد تعبير المؤرخ الإنكليزي "إدوارد كريسي"⁴.

¹أ.و.ج، مهمة دفتري 3، حكم 1611، 968هـ.

² مالطا (Malta): جزيرة تقع في منتصف البحر المتوسط شمال ليبيا وجنوب إيطاليا، تتكون من أربعة جزر هي غوزو، كومينوطو، فيلفولا ومالطا وهي الجزيرة الكبرى والرئيسية، تبلغ مساحتها 316 كم، تبعد عن الساحل الليبي بـ330كم وعن ساحل تونس بـ320كم.

³ كريسي إدوارد شيفرد، تاريخ الأتراك العثمانيين، تر، سالم أحمد سالم، ط1، دار جامعة حمد بن خليفة للدراسات والبحوث، الدوحة، 2019، ص182، أمجان، المرجع السابق، ص433، روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص229

⁴كريسي، المرجع السابق، ص 182

وعلى العموم وحسب المؤرخ الإيطالي "إيتوري روسي" فإن أسباب الصراع بين العثمانيين وفرسان مالطا لا يمكن حصرها نظرا لحالة الحرب الدائمة بين الطرفين والتي جعلت حكام إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب على الخصوص يهتمون أشد الاهتمام بفرسان مالطا وبتهدياتهم المستمرة على الإيالات العثمانية وعلى النفوذ العثماني في غرب المتوسط¹.

كانت هذه التهديدات التي يقوم بها فرسان مالطا على المصالح الاقتصادية وكذا الاستراتيجية للعثمانيين من أسباب إصرار سليمان القانوني على تنظيم حملة للاستيلاء على الجزيرة، هذا؛ ويذكر فريد بك المحامي في كتابه "تاريخ الدولة العلية العثمانية" أن هناك عاملاً آخر مهماً جعل العثمانيين يفكرون في الاستيلاء على مالطا ألا وهو الأهمية الاستراتيجية الكبيرة لها، فمالطا تقع بين طرابلس الغرب وجنوب إيطاليا، حيث من الضروري-حسب المحامي- أن تحتلها أي دولة تريد أن يكون لها اليد الطولى على البحر المتوسط²، كما يذكر المؤرخ الإنكليزي "إدوارد كريسي" أن سليمان القانوني كان جدّ مهتم بالقيمة العسكرية والسياسية التي تمتلكها جزيرة مالطا، إذ لو كانت القوات العثمانية قد استقرت في السابق في مالطا فإنها كانت ستستخدم كقاعدة للعمليات العسكرية البحرية في غرب البحر المتوسط والتي كانت ستتجح لا محالة³، أما الباحث أحمد قواش (Ahmet

¹كريسي، المرجع السابق، ص229، وتجدر الإشارة إلى أن نشاط طرغود باشا في البحر المتوسط كان مراقبا بشدة من قبل فرسان مالطا وهو ما يظهر من خلال بعض التقارير الاستخباراتية مثل التقرير الذي أرسله فرانسيسكو زاباتا (Francisco Zapata) رئيس البريد السريع في صقلية إلى خوان زاباتا (Juan Zapata) شقيقه رئيس البريد في نابولي بتاريخ 20 أفريل 1564م، ينظر: A.G.S, LEST,

LEG1393, 230

² المحامي، المرجع السابق، ص249

³ كريسي، المرجع السابق، ص182، أمجان، المرجع السابق، ص434

(Kavas) فيعتبر أن الحصار العثماني لمالطا كان مهما جدا من حيث التنافس الثنائي مع المملكة الإسبانية والذي سيستمر على مدى عقود في المنطقة¹، بمعنى أن السيطرة على مالطا قد تلعب دورا كبيرا في ترجيح ميزان إحدى القوتين على الأخرى في البحر المتوسط.

كان الإسبان مثل العثمانيين يدركون جيدا الأهمية الاستراتيجية للبحر المتوسط² في الصراع القائم بين الطرفين خلال القرن السادس عشر، حيث بدأ ملك إسبانيا فيليب الثاني في هذه الفترة برنامجاً طموحاً لإنشاء أساطيل بحرية في مياه البحر المتوسط في جنوب إيطاليا والساحل الشرقي لإسبانيا، كما تلقى عوناً من البابوية لتحقيق هذا الغرض، وفي سنة 1562م تحديداً اجتمع برلمان قشتالة في دورة غير عادية لتقديم العون والمزيد من الدعم لهذا المشروع³، وفي المقابل زاد اهتمام سليمان القانوني بتعزيز السفن الحربية في غرب البحر المتوسط منذ ضم طرابلس الغرب سنة 1551م⁴ من أجل حماية الإيالات العثمانية في المنطقة وذلك لبعدها عن مقر الخلافة ولكونها تحت التهديد الدائم للغزو الإسباني وهجمات المسيحيين المتكررة من جنوب إيطاليا⁵.

¹ Kavas, op-cit, p18

² للمزيد حول أهمية البحر المتوسط في العلاقات الدولية المتوسطية خلال العصر الحديث ينظر: بيرة مريم رزاق، أهمية حوض المتوسط في العلاقات المتوسطية وانبعاث النشاط البحري الجزائري في العصر الحديث، مجلة المعارف للبحوث والدراسات، جامعة الوادي، الجزائر، ع3، 2015

³ كولز، المرجع السابق، ص94

⁴ للمزيد حول اهتمام القوى الكبرى في البحر المتوسط بالأساطيل البحرية في العصر الحديث وتطور الأسطول العثماني ينظر: عبد الحي نبيل رضوان، تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط، مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، ع20، 1998

⁵ المحامي، المرجع السابق، ص249

2- الاستعدادات العثمانية لفتح جزيرة مالطا:

في ظل هذه التهديدات التي كانت تلحق بالمصالح العثمانية من قبل فرسان مالطا عقد السلطان سليمان القانوني اجتماعا في مقر الحكم بالقسطنطينية سنة 1564م حول اتخاذ قرار بشأن إرسال حملة عسكرية للاستيلاء على مالطا، وخلص الاجتماع إلى الموافقة على القرار¹، وفي شهر ديسمبر من نفس العام أرسلت الأوامر إلى جميع رؤساء البحرية في الأقاليم العثمانية بضرورة التأهب للمشاركة في هذه الحملة²، ويبدو أن الاستخبارات الإسبانية والمالطية في الجزر المتوسطية قد علمت بالاستعدادات العثمانية لهذه الحملة وهو ما يظهر من خلال التقرير الذي وصل إلى البلاط الإسباني من طرف نائب ملك نابولي بتاريخ 9 جويلية 1564م والذي يتضمن معلومات حول استعدادات البحرية العثمانية للقيام بعمليات في البحر المتوسط ناحية الغرب³.

في مارس 1565م أعطى السلطان سليمان الإذن بخروج الأسطول الهمايوني⁴ لفتح مالطا، وكان السلطان العثماني قد جعل قيادة الحملة تحت كل من القبودان

¹ سالم أحمد سالم، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2011، ص 141

² في ديسمبر 1564م أصدرت تعليمات لكل من حاكم جزيرة ميديلي وحاكم الإسكندرية علج علي بتجهيز السفن استعدادا لغزو مالطا، كما تمت مراسلة حسن باشا حاكم الجزائر وطرغود باشا حاكم طرابلس الغرب بشأن هذه المهمة، هذا إضافة إلى توجيه تعليمات بحشد قوات عسكرية من حوالي عشرين إمارة بالأناضول والرومييلي استعدادا لحصار مالطا، ينظر: أمجان، المرجع السابق، ص 435

³ ينظر: A.G.S, LEST, LEG, 1393, 214 (الملحق رقم 12)

⁴ هُمايون (Humayun): كلمة تعظيم خاصة بسلطين الدولة العثمانية، كما تستخدم للمتعلقات الخاصة بالسلطين فيقال: الذات الهمايوني، الجيش الهمايوني، الأسطول الهمايوني (والرسائل الهمايونية) وهكذا... ينظر: صابان، المرجع السابق، ص 226

بيّاله باشا¹ والسرदार² مصطفى باشا³ وقد جاء في كتاب "تحفة الكبار في أسفار البحار" حول هذه الحملة: "...عندما رجع بياله باشا بالأسطول العثماني من حماية الشواطئ العثمانية في سنة 968هـ (1560م)، صدر له الأمر السلطاني بتجهيز السفن لحملة مالطا، وأصبح مصطفى باشا بن أحمد قائداً، واقتحم بياله باشا البحر بجنود من الأناضول والروميلي بمائة وخمسين قطعة سفينة مختلفة الأنواع من الأسطول السلطاني وذلك في و في أواخر شعبان سنة 971هـ⁴ (مارس 1565م)، وقاموا من ميناء آوارين في 14 شوال (15 ماي 1565م) واتجهوا نحو مالطة..."⁵، وقد كانت القوات العثمانية التي خصصت لهذه الحملة كبيرة جداً حيث كانت القوات التي خرجت من موانئ القسطنطينية وحدها باستثناء قوات الأقاليم العثمانية الأخرى تتكون من حوالي مائة وخمسن

¹ بيّاله باشا: أصله من كرواتيا، يعتبر من أشهر أمراء البحر العثمانيين، قائد الأسطول العثماني في حصار وهران سنة 1556م، وفي معركة جربة سنة 1560م وفي حصار مالطا سنة 1565م، تولى منصب قبطان داريا بعد سنان باشا ما بين 1554-1578م، ينظر: حاجي خليفة، المصدر السابق،

ص137، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، المصدر السابق (هامش المحقق)، ص115

² السرदार (Serdar): هو اللقب الذي يُطلق على الصدر الأعظم حين يخرج لحرب لا يكون السلطان مشاركاً فيها، وكان يقال له أيضاً السر عسكر أي قائد الجيش، ينظر: صابان، المرجع السابق، ص133

³ مصطفى باشا أو لاله كارا مصطفى باشا: من أصل ألباني (أرناؤوطي)، كان الوزير الخامس في مجلس سليمان القانوني أثناء تكليفه بقيادة الحملة السلطانية على مالطا سنة 1565م والحملة على قبرص سنة 1570م، ارتقى لمندوب الصدر الأعظم (الوزير الأول) سنة 1580م وتوفي في نفس العام، ينظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ص154، المنح الرحمانية، المصدر السابق (هامش المحقق)،

ص114، كريسبي، المرجع السابق، ص182

⁴ انطلاقا مما ورد في مراسلات الباب العالي بخصوص هذه الحملة فالأصح هو سنة 972هـ

⁵ حاجي خليفة، المصدر السابق، ص144

سفينة وما يقارب الخمسين ألف جندي¹، كما انضمت إلى هذه القوات في وقت لاحق وحدات مختارة من مصر وطرابلس الغرب والجزائر، هذه الأخيرة التي بعث السلطان العثماني لحاكمها حسن بن خير الدين خطابا بتاريخ 25 جمادى الأولى 972هـ/ أواخر جانفي 1565م جاء فيه:

"حُكْم إلى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب

...قد تم تعيين الدستور المكرم وزير مصطفى باشا قائدا بنية فتح قلعة مالطا الواقعة في ديار الغرب وكما هو معروف منذ أمد بعيد بأن تلك الجزيرة هي بمثابة مقر للكفار أصابهم الدمار الذين لا يرتدعون عن قطع طريق الحجاج والتجار القاصدين مصر بحرا ملحقين بهم كل أنواع الخسائر لذا فإن قلع وقمع تلك القلعة هو من أمر من واجبات الدين ومن مهمات دولتي الهمايونية..."²، ونظرا لأهمية هذه الغزوة فقد طلب الباب العالي من حاكم الجزائر تجنيد مجموعة من الرياس والبحارة المتطوعين للمشاركة فيها، كما تعهد الباب العالي بمكافأة هؤلاء المتطوعين وكل من يشارك في حملة مالطا رفقة القوات العثمانية حيث جاء في ذات الخطاب: "...أن تستميل وترغب الرؤساء المتطوعين في تلك الديار إلى غزوتي الشريفة، وأن تعلن أن كل من يشارك ويقدم خدماته سيكون محط رعايتنا الملوكية... ولن يضيع أجر أحد منهم..."³، ومن خلال طلب الباب العالي

¹ تختلف الكتابات حول عدد القوات العثمانية المشاركة في هذه الحملة، للمقارنة ينظر: إيفانوف، المرجع السابق، ص 237، روسي، ليديا، المرجع السابق، ص 230، مانتران، المرجع السابق، ص 230،

Belhamissi, op-cit, T2, p93

²أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 565، 25 جمادى الأولى 972هـ

³أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 565، 25 جمادى الأولى 972هـ

الاستعانة بالبحارة المتطوعين من العنصر المحلي¹ يتضح لدينا جليا الأهمية الكبيرة لهذه الحملة والسعي الحثيث من قبل الدولة العثمانية للاستيلاء على جزيرة مالطا، وهذا ما يؤكد توالي المراسلات إلى القيادات الجزائرية من أجل هذه الحملة، حيث إن الباب العالي قد بعث بمراسلة أخرى إلى حاكم الجزائر جاء فيها:

"حُكْم إلى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب

سبق أن أرسلت خطابا إلى عتبتنا العلية تعلم فيه أن الكفار أصابهم الدمار قد أعدوا العدة لأسطولهم هزمه الله ونظرا لإعلامك بوجوب دفع مضرتهم وفسادهم في البر والبحر... فقد جهزنا الأسطول الهمايوني المظفر بع ساكر بوا سل وعيننا... مصطفى باشا قائدا عاما... وأمرت:

... ألا تغفل عن الكفار أصابهم الدمار... وعند وصول الأسطول الهمايوني إلى تلك الجوانب عليك أن تكون حاضرا وناظرا تجاه الأعداء وتظهر كل أنواع الإقدام وحسن الاهتمام..."²، ومنه فإن هذا الخطاب يتضمن تأكيدا من الباب العالي على ضرورة مشاركة وحضور الأسطول الجزائري في حملة فتح مالطا، كما فيه أيضا ما يبين لنا مدى التنسيق العالي وغير المنقطع بين الجزائر والباب العالي بخصوص ما يتعلق بالحرب مع القوى الأوروبية وأمن الإيالات المغربية والذي

¹ في هذا الصدد تذكر الباحثة بوحمشوش نعيمة أن التعاون اللوجستيكي والعسكري بين الباب العالي وإيالة الجزائر كان قائما طيلة القرن السادس عشر، وأنه قد تمثل -إضافة إلى المشاركة في الحروب- في توفير الحرفيين والمواد الاستراتيجية والموثون والذخيرة، وأن هذا التعاون والتضامن لم يكن - حسب الباحثة- مع حكومة الجزائر فقط بل مع العنصر المحلي من جميع أنحاء الإيالة. ينظر: بوحمشوش نعيمة، التضامن بين إيالة الجزائر والباب العالي أثناء القرن السادس عشر من خلال وثائق "مهمة دفترية"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ع30، 2015، ص113

² و.ج، مهمة دفترية 6، حكم 904، 20 شعبان 972هـ

يظهر من خلال العبارة التالية الواردة في ذات الخطاب: "...ولانتوانى عن إعلامنا بالأمور والقضايا المهمة في تلك الديار..."¹.

وتأكيدا منه على ضرورة التحاق الأسطول الجزائري بالقوات العثمانية لحصار مالطا قام الباب العالي بتوجيه خطابه آخر لحاكم الجزائر بتاريخ 3 رمضان 972هـ/4 أبريل 1565م يخبره فيه بتوجه القوات العثمانية لحصار الجزيرة ويطلب منه الالتحاق بها والمشاركة في فتح مالطا، حيث جاء في هذا الخطاب: "...وينبغي عليك ألا تكون في غفلة من الأعداء الأذلاء وذلك عندما يكون أسطولي السلطاني محاصرة القلعة المذكورة، وتبدل مساعيك في حفظ البقاع والقلاع الواقعة في السواحل التابعة لولايتك، وفي تدمير وقهر الأسطول المهزوم القادم من قبل الكفار لتقديم المساعدة، وبالاجمال في إلحاق الأضرار والهزائم بالأعداء..."².

ومن أجل ألا تضطرب الأوضاع في إيالة الجزائر ويسودها الأمن والاستقرار خلال الحملة على مالطا وجه الباب العالي خطابا لأعيان الجزائر يأمرهم فيه بضرورة طاعة البايلر باي حسن بن خير الدين والامتثال لأوامره، حيث ورد فيه: "...عند وصول حكيمي الشريف الواجب الاتباع أن تتعاملوا بحسن القبول مع كلامه وبالشكل الذي يراه مناسبا فيما يتعلق بتنظيم وانتظام تلك الديار وضبطها وربطها لقمع أهل الفساد والعناد وإصلاح البلاد، ولا تتجاوزوا أمره وكونوا في أتم الطاعة والانقياد..."³، هذا، وقد كان الباب العالي قد أجّل -لأهمية فتح مالطا- النظر في بعض القضايا الأخرى كالتدخل في الصراع بين الأمراء السعديين في

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 904، 20 شعبان 972هـ

² أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 972، 3 رمضان 972هـ

³ أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 973، 3 رمضان 972هـ

المغرب الأقصى¹، حيث جاء في إحدى الرسائل الموجهة لهم: "...إلى خدفي الأماجد والأكارم... الشيخ عبد المؤمن والشيخ عبد الملك... ولا تغفلا عن مداراة اشقيقكما...ريثما يتم أمر هذه الغزوة..."² وهو ما يدل على أهمية الحملة على مالطا وضرورة التجند والتفرغ لها وعدم فتح جبهات متعددة قد لا تعود بالنفع السياسي ولا العسكري على الدولة العثمانية.

في المقابل، كان فرسان مالطا قد استعدوا لهذه الحملة بأن نقلوا الشيوخ والنساء إلى إيطاليا، كما زادوا من تحصينات الجزيرة وأنشأوا نظام اتصال بين حصونها لصد الهجوم العثماني³ في الوقت الذي شرع فيه رئيس فرسان مالطا دو لافاليت⁴ (De la Valette) بربط اتصالاته مع ملك إسبانيا فيليب الثاني ومع البابا بيوس الرابع (Pie 4) لحثهم على ضرورة إرسال كل ما يمكنهم إرساله من القوات لمنع سقوط مالطا وتجنبيها نفس مصير جزيرة رودس، كما أوعز لهما بكون سقوط مالطا سيعرض المسيحية والدول المسيحية للخطر⁵.

¹ ينظر المبحثين الثالث والرابع من الفصل الثالث

² أ.و.ج، مهمة دفترى6، حكم 971، 7رمضان 972 هـ

³ Belhamissi, op-cit, T2, p93, Heers Jacque, Les Barbaresques (La course et la guerre en Méditerranée), 8^{eme}Ed, Perrin Editeur, Paris, 2008, p88

⁴ جون دو لافاليت باريزو (De la Valette Parisot): من أشهر قادة فرسان مالطا، أصله من أسرة نبلاء فرنسية، تولى مهمة الدفاع عن الجزيرة أثناء حصار سنة 1565م، سميت نسبة إليه عاصمة الجزيرة بـ "فاليتا". ينظر: وولف، المرجع السابق، ص79

⁵ بوجم شوش نعيمة، مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر، ط1، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص170، 171

3- بداية الحصار:

في 18 ماي 1565م وصلت القوات العثمانية إلى شواطئ مالطا واستقرت بمرسى السيروكو (Marsa Sirocco) قرب الجزيرة¹، ومنذ الساعات الأولى انقسمت قيادة الحملة العثمانية فيما إن كان يجب أن تباشر الهجوم قبل وصول الدعم من إسبانيا والجنوب الإيطالي لفرسان مالطا، أم تنتظر وصول الدعم من طرغود باشا حاكم طرابلس الغرب ومن حاكم الجزائر حسن باشا²، غير أن القائد مصطفى باشا أخذ بالرأي الأول وقرر أن يباشر الهجوم³ على حصن سان إلمو (Sant' Elmo) أحد حصون جزيرة مالطا الأربعة⁴ وقام بإنزال ثلاثة آلاف جندي إلى بر الجزيرة⁵.

بعد عشرة أيام من القصف العثماني غير المُجدي على حصون مالطا وصلت قوات إيالة مصر بقيادة عرج علي⁶ قادمة من ميناء الإسكندرية مكونة من ست

¹ Athénien Chalcondil, Histoire général des Turcs, Tr, Blaise de Vigenaire, Imprimerie et Librairie Ordinaire du Roy, Paris, T1, 1663, p648, De Rotalier Charles, Histoire d'Alger et de La piraterie des Turcs dans La méditerrané, Paulin Libraire Editeur, Paris, 1841, T2, p196

² Heers, op-cit, p88

³ رأى بيّاله باشا أن من الأحسن انتظار قدوم طرغود باشا وقواته من طرابلس الغرب، في حين قرر مصطفى باشا بدء الهجوم دون انتظار قوات الإيالات المغربية. ينظر: كريسبي، المرجع السابق، ص183

⁴ هذه الحصون هي: حصن سان إلمو، حصن سان ميشال (San Michele)، حصن سان أنجيلو (Sant' Angelo) وحصن البورغو (Borgo)، ينظر: روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص230

⁵ De Rotalier, op-cit, p196

⁶ عرج علي أو قليج علي: بحار وقائد عثماني أصله من كلابريا بإيطاليا، تولى حكم إيالة طرابلس الغرب بعد وفاة طرغود باشا سنة 1565م، تولى منصب حاكم الجزائر بايلرباي أفريقية سنة 1568م، وأصبح "قبطان باشا" قائدا عاما للأساطيل العثمانية سنة 1571م، للمزيد حول هذه الشخصية ومساهماتها في

سفن تحمل ما يقارب ألف رجل¹، وفي اليوم الموالي وصل طرغود باشا من طرابلس الغرب رفقة خمس عشرة سفينة وألف وأربعمائة جندي²، وبعد وصوله لساحة المعركة مباشرة عارض طرغود باشا الهجوم العثماني على حصن سان إلمو مبرراً ذلك بأن الحصن هو أقل الحصون أهمية عسكرية بين الحصون إذ أنه سي سقط طواعية بمجرد تمكن القوات العثمانية من الاستيلاء على الحصون الأخرى، غير أن طرغود باشا لم يشأ شق الصف داخل الحملة وواصل مع باقي القيادة قصف حصن سان إلمو³.

كانت القوات المدافعة عن جزيرة مالطا تتكون من سبعمائة فارس وثمانية آلاف وخمسمائة جندي إضافة إلى بعض المرتزقة من الجنوب الإيطالي⁴، وقد وُفقت هذه القوات في الوقوف أمام هجمات العثمانيين وفي النجاح في الدفاع عن الجزيرة، وزاد من صعوبة فتح الجزيرة أمام القوات العثمانية مقتل طرغود باشا يوم 16 جوان أثناء هجومه على حصن سان إلمو حيث أصابته شظية صخرية بقي جراحها يصارع الموت إلى أن توفي يوم 23 من نفس الشهر، وقد كان لوفاة

الحروب العثمانية ينظر: سي يوسف محمد، قليج علي ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر2، 1988، تركي عباس، إضاءات حول شخصية بايلرباي الجزائر قليج علي 1568-

1587م، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، الجزائر، م2، ع4، 2020، Maxange, op-cit.

¹ إسحابات زهيرة، البحرية الجزائرية ودورها في الحروب العثمانية، مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة تيارت، الجزائر، ع9، 2016، ص142

² روسي، لبيبا، المرجع السابق، ص230، 651، Athenien, op-cit.

³ كريسي، المرجع السابق، ص183، 203، De Rotalier, op-cit.

⁴ كريسي، المرجع السابق، ص183

طرغود باشا أثر جد سلبي على الحملة، إذ أنها أثارت القلق والاضطراب في صفوف القوات العثمانية¹.

4- دور قوات إيالة الجزائر في حصار مالطا:

ذكرنا آنفا أن الباب العالي قد قام بإرسال عدة رسائل حول حصار مالطا لحاكم إيالة الجزائر حسن بن خير الدين مطلع سنة 1565م، غير أن التحاق القوات الجزائرية بالجزيرة قد تأخر² إلى غاية شهر جويلية، حيث قدم بايلرباي الجزائر إلى مالطا يوم 8 جويلية رفقة ثمانية وعشرين سفينة مجهزة بالمدفعية والدخيرة تحمل ألفين وخمسمائة جندي وبحار من خيرة الجند³ عرفوا في الكتابات التاريخية الأجنبية بـ (Les Braves d'Alger) أي "شجعان الجزائر"⁴، هذا وقد ترك حسن بن خير الدين قبل التحاقه بمالطا بعض القوات لحماية الجزائر من أي هجوم محتمل أثناء غيابه⁵، وقد كان وصول قوات إيالة الجزائر بمثابة دعم معنوي وعسكري كبير للحملة العثمانية على مالطا⁶.

¹ حاجي خليفة، المصدر السابق، ص145، سي يوسف، المرجع السابق، ص75، روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص230

² تطرح الباحثة بوحمشوش نعيمة عدة تساؤلات حول سبب تأخر الأسطول الجزائري في اللحاق بجزيرة مالطا، هل هي تعليمات من الباب العالي؟ أم بسبب انشغاله بمراقبة منطقة غرب المتوسط وحماية الأسطول العثماني من الخلف؟ وتصل الباحثة إلى سبب تراه مُرجّحا وهو أن هذا التأخر يُعزى للأنباء التي وصلت إلى الجزائر والتي تفيد بوجود استعدادات إسبانية لمهاجمة إيالة الجزائر وسواحل بلاد المغرب. ينظر: بوحمشوش، المرجع السابق، ص178

³ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p130

⁴ Athenien, op-cit, p657, De Retallier, op-cit, p224, De Grammont, La Domination, op-cit, p100

⁵ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p130

⁶ Maxange, op-cit, p86

حين وصل حسن بن خير الدين إلى مجلس قيادة الحملة والذي كان يتكون من بياله باشا ومصطفى باشا إضافة إلى علج علي، طرح بايلرباي الجزائر على قادة الحملة أن يهاجموا حصن سان ميشال (San Michèle) باعتباره النقطة الأهم لحسم المعركة، وهو ما وافق عليه السردار مصطفى باشا وكلف حسن بن خير الدين وقواته بمهاجمة الحصن¹، وعلى الرغم من شجاعة قوات حاكم الجزائر ورغم قدرته الهائلة في التأثير على جنوده، ورغم المجهودات الكبيرة التي بذلتها من أجل الاستيلاء على الحصن إلا أنها باءت بالفشل².

في 20 أوت 1565 عقد نائب ملك صقلية دون غارسيا دو توليدو (Don Garcia de Tolledo) مجلساً للتشاور حول إرسال الدعم لفرسان مالطا لمواجهة الحصار العثماني للجزيرة، وقرر المجلس إرسال ستين سفينة حربية وخمسة عشر ألف جندي رفقة ألف وخمسمائة متطوع بقيادة ألفارو دي ساندي (Alvaro de Sande) وأسكانيو دي لاکورنيا (Ascanio de la Cornea) وتشابين فيتيلو (Chapin Vitello) لدعم فرسان مالطا، وقد التأم شمل هذه القوات في غضون خمسة عشر يوماً في ميناء صقلية ونزلت بجزيرة مالطا يوم 7 سبتمبر 1565م³.

بعد وصول أنباء الدعم الإسباني لفرسان مالطا ومن أجل الحيلولة دون وصولها للجزيرة أرسل حسن بن خير الدين القائد علج علي على رأس ثمانين

¹ De Rotalier, op-cit, p224,142، ص 142، المرجع السابق،

² Ibid, p227, 228, Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p130

³ Ibid, p130, Athenien, op-cit, p660, Heers, op-cit, p91

وحسب إيتوري روسي فإن مالطا لا تزال إلى اليوم تحتفل بالسابع من سبتمبر عيداً وطنياً لها، ينظر: روسي، ليبيا، المرجع السابق، ص 231

سفينة لمواجهة هذه السفن القادمة لدعم فرسان مالطا¹ وإن كانت بعض الكتابات الأجنبية قد اعتبرت هذه الخطوة على أنها انسحاب تدريجي من قبل العثمانيين²، هذا، ورغم وصول أنباء وصول قوات دعم فرسان مالطا فإن مصطفى باشا قد أمر بمواصلة الحصار خاصة بعدما علم أن قوات الدعم تلك ليست بالحجم الذي يكافئ القوات العثمانية³، لكن ورغم محاولتهم للاستمرار فشل العثمانيون في اقتحام الجزيرة التي استعصت عليهم خاصة أن مدة حصارهم للجزيرة قد وصلت لقراءة أربعة أشهر، زد على ذلك نفاذ الذخيرة والمعدات أمام صلابة دفاع فرسان مالطا⁴.

تنوّه بعض الكتابات الأجنبية بالدور الكبير الذي لعبه حاكم الجزائر في آخر أيام الحصار، إذ جرب حسن باشا دلولاً جديدة رافقها بعض الذكاء الحربي للاستمرار في الحملة، حيث قام بإبعاد القوارب عن الشاطئ كي لا يفر الجنود ويرغمهم على مواصلة الحصار، وقامت القوات الجزائرية بآخر الهجومات العثمانية على برّ الجزيرة⁵، إلا أن فرار الجند العثماني واضطرابهم أمام الدعم الكبير لقوات مالطا وبسبب كثرة القتلى في صفوفهم جعلت مصطفى باشا يأمر جميع القوات بالانسحاب وفك الحصار يوم 11 سبتمبر 1565م⁶.

وكان الباب العالي قد بعث إلى الجزائر رسالة تؤكد وتؤمن دور قوات إيالة الجزائر في حصار مالطا، إذ جاء في المراسلة المؤرخة بـ 23 جمادى الثاني 973هـ/فيفري 1566م:

¹ De Rotalier, op-cit, p239

² ينظر: إيفانوف، المرجع السابق، ص237، Heers, op-cit, p91

³ De Rotalier, op-cit, p240

⁴ سالم أحمد، المرجع السابق، ص141

⁵ De Rotalier, op-cit, p241

⁶ Athenien, op-cit, p660,185، المرجع السابق، ص

"حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب

لقد سبق إعلام آستانة السعادة بمعاونتك ومظاهرتك بانضمامك بسفن الجزائر إلى العساكر المنصورة المرسلّة إلى جزيرة مالطا ولقد أظهرت خصالك الحميدة وشهامتك وحميتك في ذلك كما هو معروف عنك ومأمول منك...¹ وكما يظهر بوضوح تثمين الباب العالي للمشاركة الجزائرية في حصار مالطا ففيه كذلك تأكيد لبایلرباي الجزائر على ضرورة بذل كل أنواع الإقدام والاهتمام في سبيل ضبط وحراسة البلاد وضبط وربط الرعية.²

5- استمرار اهتمام الباب العالي بأمن إيالاته المغربية بعد حصار مالطا:

رغم فشل حصار مالطا استمر الباب العالي في الاهتمام بأمن وسلامة إيالاته المغربية وهو ما يظهر من خلال ما ورد في المراسلة المذكورة آنفاً: "...وكذلك أن تظل على صلة بأمر أمراء طرابلس الغرب حتى تكونوا يدا واحدة بشأن قلع وقمع ودفع ورفع أعداء الدين المتين، وألا تغفلوا عن صيانة وحماية عرض وشرف السلطنة..."³ وكما يدل هذا الكلام على حرص الدولة العثمانية على إيالاتها المغربية فهو يدل أيضاً على ضرورة التنسيق مع حاكم إيالة طرابلس الغرب في إطار المصير المشترك لهذه الإيالات أمام التهديدات الأوروبية عامة وأمام تهديدات فرسان مالطا بشكل خاص، لاسيما وأن التنظيم الأخير ينفذ هجماته بشكل مباشر على كل من تونس وطرابلس الغرب، حيث أن العمل المشترك وتوحيد القوى بين الإيالات المغربية هو أحد عوامل الردع الأساسية لأي تهديد من قبل الأطراف الأوروبية.

1. أ.و.ج، مهمة دفترى 5، حكم 817، 23 جمادى الثاني 973هـ

2. أ.و.ج، مهمة دفترى 5، حكم 817، 23 جمادى الثاني 973هـ

3. أ.و.ج، مهمة دفترى 5، حكم 817، 23 جمادى الثاني 973هـ

ولأن الباب العالي رأى بأن الأوروبيين سيجدون في فشل الحصار العثماني على مالطا فرصة مواتية لاستعادة مدينة طرابلس وطرد العثمانيين منها وهو ما يظهر من خلال إرسالهم الجواسيس المسيحيين إلى المدينة لترقب أخبارها ونقلها إلى الأوروبيين، حيث إن الدولة العثمانية تقطنت لذلك وقامت بمراسلة حاكم طرابلس الغرب بخصوص القضية في رسالة بتاريخ 9 شوال 973 هـ/10 ماي 1566م جاء فيها: "...يتناهى إلى الأسماع مجيء بعض العلوج والكفار إلى طرابلس متكرين بزي المسلمين للتجسس على الأوضاع هناك وإخبار الأعداء عنها، وينشرون أفكارهم الفاسدة هناك، ونظرا لعدم جواز التغافل عن الأعداء أمرت: عند وصوله تكون على البصيرة بأتم وجه، وتحفظ المرافئ بالشكل اللازم وتحول دون وصول أحد من العلوج والفرنك إلى طرابلس، وتحفظ الولاية وتحرسها بحيث لا يبقى هناك أي احتمال لقيام الأعداء والعيان بالله بنشر الفساد، لأنه علم بوجود بعض المنافقين في طرابلس، إذ يأتيهم الجواسيس ويتلقون منهم الأخبار ويبعثونها إلى الأعداء، فكن على بصيرة".¹، كما سبقت هذه المراسلة مراسلة أخرى لحاكم الجزائر حول إمكانية التحاقه بالأسطول الهمايوني للمشاركة في فتح بعض الجزر في شرق المتوسط من عدمها وفيها تأكيد على ضرورة توخي الحذر من الأعداء ورصدهم وعلى ضرورة حفظ البلاد من أي تهديد أو هجوم محتمل، إذ جاء في هذه المراسلة المؤرخة في 19 رجب 973 هـ/مارس 1566: "...في حالة عدم ترقب أي ضرر من جانب الأعداء على ولايتك فعليك بملاقة أسطولي الهمايوني بسفن الجزائر... أما في حالة توقعك الخطر فعليك الحذر من الأعداء ورصدهم وفيما إذا هاجمت سفن الإسبان ولايتك فقابلهم بالمثل وا ضرب بسفنك ولاياتهم... وحاذر أن يذحق البلاد أو الولاية

¹بيات، المرجع السابق، ج3، ص322

المذكورة أي ضرر من الأعداء على حين غفلة.¹ وفي هذا الكلام دليل واضح على استمرار اهتمام الباب العالي بالأخطار الخارجية التي تهدد إيالاته المغربية وحرصها التام على ضرورة الانتباه لهذه الأخطار وصدّها، والحيلولة دون نجاح أي غزوة أوروبية محتملة خصوصا على إيالة طرابلس الغرب القريبة من مالطا.

6- نتائج وعوامل فشل حصار مالطا:

انتهى الحصار العثماني بفشل فتح جزيرة مالطا، إضافة إلى مقتل حوالي عشرين ألف جندي عثماني منهم ثمانية آلاف من القوات البحرية، أما فرسان مالطا والقوات الإسبانية فخسروا حوالي تسعة آلاف جندي وستمئة فارس²، في حين بخصوص قوات إيالة الجزائر فيذكر هايدو (Haedo) أنها تضررت بشكل كبير حيث قتل حوالي نصف الجنود الذين ذهبوا للمشاركة في الحملة رغم نجاح حسن بن خير الدين في العودة بجميع سفنه الثمانية والعشرين إلى ميناء الجزائر³.

أما بخصوص عوامل فشل حصار مالطا فتذكر المصادر التي أرّخت لهذا الحصار أن هناك بعض العوامل التي أدت إلى فشل استيلاء العثمانيين على جزيرة مالطا رغم القوات الكبيرة التي شاركت في حصار الجزيرة، ويبدو أن الاختلاف الحاصل بين مصطفى باشا وبياله باشا في بداية الحصار هو السبب الرئيسي لهذا الفشل، حيث جاء عن صاحب "المنح الرحمانية في الدولة العثمانية" أن: "...فأرسل مولانا السلطان عسكرياً لأخذها (أي جزيرة مالطا) فما أمكن لخلاف وقع بين ال سردار مصطفى باشا وبين القا بدان، وهي الآن في أيدي

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 5، حكم 967، 19 رجب 973هـ

² ينظر: روسي، المرجع السابق، ص231، كريسسي، المرجع السابق، ص185، op- De Rotalier cit, p241

³ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p130

النصارى...¹ وقد تمّت الإشارة آنفاً لفحوى هذا الخلاف وهو أن مصطفى باشا رفض انتظار قدوم قوات الإيالات وباشر بالهجوم.

السبب الثاني لفشل هذه الحملة هو الخطأ العسكري الذي قام به مصطفى باشا بأن بدأ الهجوم على حصن سان إلمو والذي لم يكن ذو أهمية عسكرية كبيرة، وقد كان طرغود باشا قد عارض بعد وصوله هذه الخطوة غير الفعالة، ضف إلى ذلك التنافس والغيرة -إن صح التعبير- التي كان يكتّنها قائدي الأسطول الهمايوني لطرغود باشا وهذا ما أشار إليه إدوارد كريسي في خضم حديثه عن حصار مالطا².

فضلا عن ذلك، فقد كان لوفاة طرغود باشا أثناء الحصار أثر سلبيّ جداً على مسار الحملة، إذ أن الأخير كان من أكبر أمراء البحر العثمانيين وكانت وفاته خسارة كبيرة للقوات العثمانية، وقد أدّت أيضا إلى اضطراب كبير في صفوف العسكر العثماني³، كما كان تأخر وصول حسن بن خير الدين حاكم الجزائر وقواته عاملاً آخر في فشل الحملة، إذ لم تصل القوات الجزائرية إلى مالطا إلا بعد ما يفوق شهرين ونصف من بداية الحصار، ولم يُحدِث وصولها المتأخر تغييرا كبيرا في مسار الحملة⁴ رغم المجهودات العسكرية الجبارة التي بذلتها بعد وصولها،

¹ المنح الرحمانية، المصدر السابق، ص114،113

² ينظر: كريسي، المرجع السابق، ص182، المنح الرحمانية، المصدر السابق، (هامش المدقق) ص115

³ حسب المؤرخ الإيطالي "إيتوري روسي" فإن فرسان مالطا قاموا فيما بعد بتشييد برج في الموضع الذي قُتل فيه طرغود أطلقوا عليه "رأس طرغود"، ويضيف ذات المرجع أن متحف مالطا لا يزال يحتفظ بخنجر ودرع يُدسبان إليه، ينظر: روسي، ليديا، المرجع السابق، ص231، وكذلك: كريسي، المرجع السابق، ص184،184، De Rotalier, op-cit,

⁴ Ibid, p219

ناهيك عن الدور الذي لعبه الدعم الإسباني لفرسان مالطا في فشل الحملة العثمانية وانسحابها بعد قرابة أربعة أشهر من حصارها للجزيرة.

أخيرا يمكننا أن نجمل القول فيما يخص التهديدات المالطية الإسبانية على إيالة طرابلس الغرب وموقف الباب العالي منها فيمايلي:

- كانت طرابلس الغرب تشكل أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة للإسبان وفرسان مالطا وللعثمانيين على حد سواء.

- نظرا للقيمة الكبيرة لطرابلس الغرب فقد حاول المالطيون والإسبان استعادتها من العثمانيين في عدة مناسبات أبرزها خلال حملة سنة 1559م.

- لعبت جزيرة مالطا وجزر الجنوب الإيطالي دورا استراتيجيا كبيرا في الصراع العثماني الإسباني على طرابلس الغرب، وكذلك كان الحال بالنسبة لجزيرة جربة التونسية التي كان مصيرها مشتركا مع طرابلس الغرب.

- كان الاهتمام العثماني بطرابلس الغرب كبيرا جدا، لدرجة أن الباب العالي كان على علم بكل التحركات المالطية الإسبانية عليها وهو ما جاء في مراسلات الباب العالي لحكام الإيالات المغربية.

- نظرا للقيمة الكبيرة التي توليها الدولة العثمانية لإيالاتها المغربية فقد وجّهت عدة رسائل لكل من حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وكذا لأهالي مدينة طرابلس بضرورة الاتحاد مع القوات العثمانية والعمل على ردع أي تهديد من جانب القوى الأوروبية الغازية.

- تظهر بوضوح القيمة السياسية والعسكرية لإيالة الجزائر والمسؤولية الكبيرة التي يضعها الباب العالي على عاتق حكام الجزائر في التصدي للتهديدات الأوروبية على باقي الإيالات المغربية، وكذا في المشاركة في العمليات العسكرية الكبرى في حوض البحر المتوسط ضد القوى الأوروبية.

- لم يكتف العثمانيون بالموقف الدفاعي أمام التهديدات الإسبانية المالطية على إيالة طرابلس الغرب، حيث نظم الباب العالي حملة عسكرية كبرى على جزيرة مالطا لوقف تهديداتها على هذه الإيالة، ورغم كونها لم تكمل بالذجاح إلا أنها عبرت بوضوح عن الموقف الحازم للدولة العثمانية في الدفاع عن إيالاتها المغربية وفي قطع دابر كل المحاولات التي تهدد أمنها ومصالحها.

المبحث الثاني: سياسة الباب العالي تجاه الوجود الإسباني في تونس (1568-1570م):

تحدثنا في الفصل الأول عن الفتح العثماني الأول لتونس، والذي كان سنة 1534م على يد بايلرباي الجزائر خير الدين بربروس، غير أن هذا الفتح لم يدم طويلا نظرا لتمكن الإسبان أثناء غزوة الإمبراطور شارلكان من استعادة سيطرتهم على تونس سنة 1535م وتتصيب الحسن الحفصي حاكما للبلاد باسم الحكومة الإسبانية، وتجدر الإشارة إلى أن الإسبان قد قاموا -بعد استعادتهم لتونس خلال هذه الحملة- بتشييد حصن عسكري بميناء حلق الوادي قرب العاصمة تونس من أجل حماية القوات الإسبانية فيها وكذا لمراقبة تحركات الدولة العثمانية وإيالة الجزائر في المنطقة.

وقبل أن نتحدث عن موقف الباب العالي من الوجود الإسباني في تونس، من الجدير أن نشير أولا إلى أن النفوذ العثماني في البلاد التونسية -باستثناء تونس العاصمة وحلق الوادي- كان قد تأسس منذ خمسينات القرن السادس عشر على يد طرغود باشا حاكم إيالة طرابلس الغرب، هذا الأخير الذي تمكن من إخضاع وسط وجنوب البلاد التونسية وضمها لإيالة طرابلس الغرب، إضافة إلى تملكه لمعظم المدن والأقاليم الساحلية التونسية مثل بنزرت وسوسة وجزيرة جربة وكان ذلك في الفترة ما بين 1551-1559م¹. وبالتالي لم يبق خارج السيطرة العثمانية من البلاد التونسية سنة 1569م سوى العاصمة تونس وقلعة حلق الوادي حيث تتمركز القوات الإسبانية.

¹ ينظر: إيفانوف، المرجع السابق، ص 230-235

أولاً: استغلال ود عم ثورة المورييسكيين ضد الحكومة الإسبانية (1568-1570م)

وقّرت ثورة المورييسكيين في غرناطة ظرفاً سياسياً وعسكرياً مهماً بالنسبة للدولة العثمانية وإيالة الجزائر من أجل ضرب المصالح الإسبانية في غرب البحر المتوسط وفي تونس تحديداً¹، إذ وكما خلقت هذه الثورة عاملاً للتدخل العثماني في الشأن السياسي الداخلي الإسباني واستغلال انشغاله بها، ساهمت كذلك في خلق ظروف مواتية لاستيلاء الدولة العثمانية على تونس وتحريرها من التبعية للإمبراطورية الإسبانية التي دامت منذ سنة 1535م.

1- اتصال مسلمي الأندلس بالدولة العثمانية:

كان إقليم غرناطة جنوب إسبانيا من أبرز المناطق التي بقيت رافضة للاضطهاد والقمع الإسباني بعد نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس رسمياً سنة 1492م، حيث سبق لمسلمي غرناطة الذين بقوا في المدينة بعد سقوطها أن قاموا بعدة انتفاضات ضد الحكومة الإسبانية أبرزها انتفاضة عام 1501م والتي جاءت كرد فعل على إصدار السلطات الإسبانية لقوانين تجبر المسلمين على التنصّر، وانتهت هذه الانتفاضة بإصدار قرار طرد مسلمي غرناطة من البلاد².

¹ حول تأثير قضية المورييسكيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية ينظر: الميلى عبد القادر، تأثير ثورات المورييسكيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية 1492-1609م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، الجزائر، 2012-2013

² حول هذه الانتفاضة ينظر: حتامله، التهجير القسري في عهد الملكين الكاثوليكين، المرجع السابق، ص81، لي هنري، المرجع السابق، ص52-55، آرينال، المرجع السابق، ص39، وللمزيد حول ثورات المورييسكيين وانتفاضاتهم على الحكومة الإسبانية من سقوط غرناطة حتى الطرد المورييسكي ينظر:

وانطلاقاً مما يتوافق مع دراستنا وهو التدخل العثماني في إسبانيا، فقد اتصل الموريسكيون بالدولة العثمانية وطلبوا تدخلها عدة مرات، أولها تلك الرسالة التي بعث بها علماء وأعيان غرناطة لاسلطان العثماني بايزيد الأول حوالي سنة 1505م¹، غير أن الدولة العثمانية آنذاك لم تدخل بعد في صراع سياسي وعسكري مع المملكة الإسبانية وبالتالي لم يكن في صالحها أو على الأقل من أولوياتها التدخل في الأندلس، ومنه فقد اكتفى السلطان بايزيد الثاني بإرسال بعض السفن ناحية غرب البحر المتوسط بقيادة كمال راييس للاتصال بمن أمكن من الموريسكيين لكي ينقلهم إلى البلدان الإسلامية في شمال أفريقيا وهو ما قد تطرقنا إليه في الفصل الأول.

بعد تأسيس إيالة الجزائر العثمانية سنة 1519م زاد اهتمام حكامها بمسألة الأندلسيين المهاجرين أو الموريسكيين على حد سواء، ففي سنة 1529م قام خير الدين بربروس بأكبر عملية ترحيل وإنقاذ لمسلمي الأندلس، حيث تمكّن من ترحيل ما يقارب سبعين ألف أندلسي على عدة دفعات، وقد كان صالح راييس وآيدن راييس² من أهم رياس البحر الذين ولّاهم خير الدين بربروس للإشراف على هذه العمليات³.

دوبالي خديجة، حركة الجهاد الإسلامي في إسبانيا خلال الفترة الممتدة من 1499م وإلى غاية سنة

1609م؛ الآليات والدوافع، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، الجزائر، مج11، ع1، 2021

¹ بخصوص رسالة مسلمي غرناطة إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني ينظر: أم.و.ج، مخطوط رقم

1620، أو: المقرئ، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص108-115

² آيدن راييس: كان بحارا في خدمة الأسطول المملوكي، رافق الإخوة بربروس إلى غرب البحر المتوسط،

وكان له دور كبير في المعارك البحرية ضد مملكة إسبانيا وفي إنقاذ الموريسكيين، توفي سنة 1535م.

ينظر: أوزتونا، المرجع السابق، ج2، ص422

³ ينظر: التميمي عبد الجليل، رسالة من مسلمي غرناطة، المرجع السابق، ص39

وقد استمر اتصال الموريسكيين بالدولة العثمانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، ففي سنة 1541م بعث مسلمو غرناطة برسالة إلى السلطان سليمان القانوني يَرجون فيها تدخله لإزقاذهم من ظلم واضطهاد السلطات الإسبانية، إذ جاء في هذه الرسالة: "...وبعد، فإنَّ عبدك الفقراء والمساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس...رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين..."¹، غير أن الباب العالي لم يُقْم بأي تدخل يذكر في إسبانيا في الفترة التي لحقت هذه الرسالة، إذا استثنينا تلك الحملات الخاطفة التي كانت تقوم بها سفن إيالة الجزائر على السواحل الإسبانية لإغاثة الموريسكيين.

2- إندلاع ثورة الموريسكيين بغرناطة سنة 1568م:

2-1- أسبابها:

منذ اعتلاء فيليب الثاني (Philippe 2) عرش الامبراطورية الإسبانية خلفا لوالده الإمبراطور شارلكان زاد تعرض السلطات الإسبانية واضطهادها للموريسكيين، إذ أن فيليب الثاني كان شخصا متدينا متعصبا للكاتوليكية، كما أنه كان من الأمراء الذين قادوا الحروب الدينية ضد البروتستانت في الأقاليم التابعة للامبراطورية الإسبانية في ألمانيا والأراضي المنخفضة، وبالتالي فإن هذه التشنئة التي شب عليها فيليب الثاني والحروب الدينية التي خاضها قد ساهمت بشكل كبير في بلورة سياسته تجاه الموريسكيين في غرناطة²، خاصة وأن الكنيسة الكاثوليكية كانت

¹ التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة، المرجع السابق، ص43 وما بعدها

² إي غافيريا مينيوت خوزي، تاريخ ثورة الموريسكيين، تر، عبد العزيز السعود، ط1، منشورات ليتوغراف،

طنجة، 2010، ص98

تعتبر الموريسكيين المتمسكين بالشرائع الإسلامية مهرطقين وزنادقة وبالتالي وجب القضاء عليهم أو تنصيرهم بالقوة، وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنه قد روي عن فيليب الثاني قوله: "...إنني أفضل أن أفقد كل ممالكي وأن أفقد حياتي مئة مرة لو استطعت على أن يلحق أي أذى بدين الله الحقيقي، فأنا لن أكون يوماً حاكماً لزنادقة..."¹، وقد ساهمت هذه النظرة الملكية والكنسية تجاه الموريسكيين في إكفاء النزعة القومية الدينية النصرانية ورهاب الأجانب داخل حدود إسبانيا².

وإذا أردنا أن نبحث عن أسباب أخرى لاضطهاد الموريسكيين فيمكننا إضافة عامل آخر ألا وهو تلك النظرة التي ترسخت عند المسؤولين الإسبان بأن الموريسكيين يمثلون خطراً داخلياً له صلات بأعداء إسبانيا في الخارج، وهذا ما جعل منهم في نظر السلطات الإسبانية تهديداً محتملاً لأمن الدولة³.

وانطلاقاً من نظرة الريب التي كان يرى بها الإسبان الموريسكيين في غرناطة فقد عملت السلطات الإسبانية على إصدار مجموعة من القوانين التي تستعبد الموريسكيين وتقيّد من حرياتهم، من ذلك القرار الذي أصدرته محكمة تفتيش أراغون سنة 1559م والذي يقضي بمنع الموريسكيين من حمل أو استعمال السلاح⁴، وكذا القرار الذي أصدره فيليب الثاني في 7 نوفمبر 1566م والذي يقضي بضرورة هجر الموريسكيين للغة والعادات والملابس العربية، مما يكرّس سياسة التنصير، ورغم أن كبراء غرناطة قدّموا احتجاجهم على هذا القرار للملك

¹ كار ماثيو، الدين والدم، إبادة شعب الأندلس، تر، مصطفى قاسم، ط1، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة،

أبوظبي، 2013، ص 250

² المرجع نفسه، ص 250

³ المرجع نفسه، ص 261

⁴ ينظر نص القرار لدى: آرينال، المرجع السابق، ص 207

فيليب الثاني إلا أن السلطات الإسبانية أكدت أن القرار لا رجعة فيه، حيث تم الإعلان عنه رسمياً في 1 جانفي 1567م، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا القرار لم يكن سوى تفعيلاً للقرار الذي صدر في حق الموريسكيين في عهد الملك شارل الخامس سنة 1526م الذي لم يُفعل حينئذٍ والذي تمثلت بنوذه في:

- يُمنع استخدام العربية كتابة أو كلاماً سرا أو علناً.
 - يُرغم المسلمون على تعلم الإسبانية كلاماً وكتابة ويُفرض عليهم تسليم ما عندهم من الوثائق والنصوص العربية لرئيس المحكمة.
 - وجوب اجتناب المسلمين نهائياً لعقائدهم وعباداتهم وذيابهم التقليدية وأسمائهم العربية.
 - تُهدم كل الحمامات العامة.
 - تبقى أبواب الموريسكيين مفتوحة دائماً.
 - تُلزم الموريسكيات بالسفور دون حُمر أثناء سيرهن في الطرق العامة.¹
- وقد كان الإعلان الأخير عن هذا القرار الملكي رفقة الاضطهادات الكثيرة التي تعرض لها الموريسكيون سبباً في تأجج الأوضاع وبداية الاحتجاجات في إقليم غرناطة².

وعن أسباب أخرى؛ ترى الباحثة ليلي الصباغ في دراستها "ثورة مسلمي غرناطة عام 978هـ أوأخر 1568م والدولة العثمانية" أن العامل الديني بمفهومه الحضاري لا العقدي فدسب كان هو المفجّر الأكبر للثورة، غير أن الباحثة لم

¹ حتاملة، التهجير القسري في عهد الملك فيليب، المرجع السابق، ص31

² لي هنري، المرجع السابق، ص78، 79

تُهمل البحث في العوامل الأخرى، كالعاملين الاقتصادي والاجتماعي، فاقتصاديًا -حسب الباحثة المذكورة- كان استحواد السلطات الإسبانية على أراضي وأملاك المزارعين الموريسكيين وتسليمها للمسيحيين بعد طرد الموريسكيين منها كما حدث سنة 1559م وكذا فرض الحكومة الإسبانية على الحرفيين والصناع الكثير من الضرائب وفرضها عليهم الإقامة في أدياء خاصة تحت حراسة وسطوة الحاميات الإسبانية¹ من أسباب اندلاع الثورة، أما اجتماعيا فقد كانت السلطات الإسبانية الرسمية والدينية تقوم بالتعدي المستمر على الموريسكيين، ففي إحدى الرسائل التي وجهها سفير فرنسا إلى سلطات بلاده أقر الأخير بأن المسيحيين هم الذين يدفعون الموريسكيين إلى الثورة بعنجهيتهم وسرقاتهم وبالوقاحة التي كانوا يعتدون بها على ذسائهم، وقد كان الإسبان في كل يوم يقومون باغتيالات وسرقات ومظالم وإعدامات جماعية في حق المجتمع الموريسكي².

2-2- التحضير للثورة:

في أبريل من سنة 1568م أُعدت الترتيبات للقيام بالثورة³ وبدأت الاتصالات بالقوى الإسلامية في غرب البحر المتوسط وعلى رأسها إيالة الجزائر، حيث وجدت السلطات الإسبانية لدى تاجر موريسكي يدعى محمد بن داوود مجموعة من الرسائل الموجهة لحاكم إيالة الجزائر تُبين بالتفصيل الإساءات التي يتعرض لها المسلمون في غرناطة ودمج الاضطهادات من قبل السلطات الإسبانية، وقد

¹الصباغ ليلي، ثورة مسلمي غرناطة عام 978هـ (أواخر 1568م) والدولة العثمانية، مجلة الأصالة، الجزائر، ع27، 1975، ص127

²الصباغ، المرجع السابق، ص128-131

³كان أول من قاد ثورة الموريسكيين رجلاً يدعى فرج بن فرج وهو سليل أسرة بني سراج العريقة في الأندلس. ينظر: إي غافيريا، المرجع السابق، ص103

تضمنت هذه الرسائل وصفاً لما يعانیه الموريسكيون من ظلم وتعسف إذ جاء فيها: "...كل يوم نُسام سوء العذاب، ولا حيلة لنا سوى المصانعة حتى يذقنا الموت مما هو أشد وأدهى... وقد حكّموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمام... وفي كل يوم يبذثون عن ضلالات وأكاذيب و خدع وانتقامات جديدة... ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية، وعبادة الصور وهي مسخ للواحد القهار..."¹ وقد كانت هذا الرسائل أول عرضٍ حال لوضع الموريسكيين وطلبهم الدعم من العثمانيين في الجزائر ضد الحكومة الإسبانية، غير أن اكتشاف هذه الرسائل وبالتالي اكتشاف أمر مخطط الثورة أدى لتأجيلها إلى موعد آخر.

كان شهر ديسمبر سنة 1568م هو ذلك الموعد، حيث أعيد ترتيب أمور الثورة من جديد وعيّن محمد بن أمية² قائدا لها في بلدة "الصغيرة" قرب غرناطة³.

وكانت أهداف ثورة الموريسكيين بغرناطة تتمثل حسب "هنري لي" في ثلاث نقاط أساسية هي القيام برد عنيف على الظلم الإسباني، والضغط على الملك فيليب الثاني لإبطال مرسوم 1566م، فضلا عن محاولة تأسيس جيب إسلامي مستقل في غرناطة.⁴

أما رد فعل السلطات الإسبانية على استعدادات الثورة الموريسكية فتمثل في تعيين الملك فيليب الثاني أخاه غير الشقيق دون خوان النمساوي (Don Juan D'Autriche) من أجل القضاء على الثورة، حيث وصل الأخير إلى غرناطة في

¹الصباغ، المرجع السابق، ص131

²محمد بن أمية واسمه النصراني "فرناندو دي بلور وقرطبة"، ينظر: إي غافيريا، المرجع السابق، ص108

³لي هنري، المرجع السابق، ص83، 84، كار، المرجع السابق، ص281

⁴المرجع نفسه، ص284

13 أبريل 1569م على رأس قوات بلغ تعدادها عشرة آلاف مقاتل¹، في حين أن عدد الثوار الغرناطيين كان يتراوح مابين خمسة وعشرين ألف كحد أدنى وأربعين ألف مقاتل كحد أقصى خلال كل أطوار الثورة².

3- التدخل العثماني في ثورة الموريسكيين:

حول علاقة ثورة الموريسكيين بالدعم العثماني نجد عند الباحثة ليلى الصباغ في دراستها المشار إليها أنفا تساؤلا جوهريا حول القضية هو كالتالي: هل كانت أماني مسلمي غرناطة في دعم واحتضان ثورتهم من قبل الدولة العثمانية هو الدافع الذي جعلهم يعلنون الثورة سنة 1569م؟ أم أنهم فعلا وُعدوا بتأييد مادي قوي من قبل الباب العالي من أجل حلقة فتح إسلامي جديدة لإسبانيا يكونون هم في طبيعته وتكون هي بطلته³؟ وحسب الباحثة نفسها فقد كان هناك من المؤشرات ما يدل على صحة كلا التساؤلين، منها تنامي قوة الأسطول العثماني ونشاطاته في غرب البحر المتوسط، إضافة إلى انتشار الكثير من الدعايات التي تقول باستعداد الدولة العثمانية لمساعدة الموريسكيين منها ما أنبئ به الملك الإسباني فيليب الثاني سنة 1559م، كما جاء في إحدى مراسلات السفير الفرنسي في إسبانيا فوركوفو (Fourquevaux) بتاريخ 5 نوفمبر 1565م أن أحد الموريسكيين قد اعترف بوجود اتفاقات بينه وبين إخوته في الدين وبين الأتراك⁴، ونضيف إلى ذلك تلك النبوءات التي ظهرت في إسبانيا بين الموريسكيين خلال القرن السادس

¹ إي غافيريا، المرجع السابق، ص117

² كار، المرجع السابق، ص299

³ الصباغ، المرجع السابق، ص143

⁴ المرجع نفسه، ص144

عشر والتي تقول بأن النصر الإسلامي سيتحقق على المسيحيين، وأن هذا النصر سيأتي على يد العثمانيين أو مسلمي شمال أفريقيا¹.

على أية حال وكما ذكرنا آنفا فإن أول اتصال بين ثورة الموريسكيين وإيالة الجزائر كانت تلك الرسائل التي بعث بها محمد بن داوود إلى علي حاكم الجزائر في أبريل 1568م، ومن هنا بدأت المحاولات العثمانية ممثلة بإيالة الجزائر لمساعدة الموريسكيين في إسبانيا.

في صيف 1568م ومن أجل تشتيت جهود السلطات الإسبانية وإرباك قواتهم قام علي بمحاولة لمهاجمة الحامية الإسبانية في وهران، حيث أرسل أربعة عشر ألف جندي إنكشاري وستين ألف جندي محلي وأعداد كبيرة من السلاح والمدفعية إلى مستغانم ومزهران²، ومن أجل ذات الهدف أرسل أربعين سفينة إلى سواحل ألميرية الإسبانية لحماية الثوار الأندلسيين، وكذلك للقيام بمناورات تسمح بتشتيت القوات الإسبانية عن الثوار، غير أن انكشاف أمر الثورة الموريسكية والاستيلاء على مخازن أسلحة الموريسكيين حالت دون نزول القوات الجزائرية إلى البر الإسباني، كما أدى ذلك إلى تأجيل إعلان وتفجير الثورة إلى موعد آخر³.

وحسب المؤرخ التركي سامح إتر فإن إيالة الجزائر كانت من أكثر المناطق تحمسا واستعدادا لمساعدة الموريسكيين، وأن علي فعل كل ما يستطيع لدعمهم لدرجة أنه طلب من الباب العالي وباسترحام شديد مساعدة المسلمين

¹ وُجِدَتْ إحدى هذه الذبوعات لدى الموريسكيين في غرناطة وتمت مصادرتها من قبل محكمة التفتيش بالمدينة، وقد أدرجتها الباحثة مارسيديث غارسيا آرينال في كتابها "الموريسكيون" والتي تعتبرها الباحثة إحدى أسباب قوة واستمرار ثورة البشارت بغرناطة، ينظر: آرينال، المرجع السابق، ص 63 وما بعدها

² فكايير، المرجع السابق، ص 351

³ إتر، المرجع السابق، ص 226

الأندلسيين، كما أنه -أي علق علي- أيّد جميع الرسائل التي كان يبعث بها الثوار الموريسكيون إلى البلاط العثماني¹ وهو ما تُبَيِّنُه الرسالة التي بعثها الباب العالي إلى علق علي في أبريل سنة 1569م والتي جاء فيها:

" حُكْم إلى علي باشا أمير أمراء جزائر الغرب

وصل إلى بابنا المعلا خطابك الذي علمنا من خلاله... وأن الهلع قد حل بالكفار منذ أن رفع أهال الأندلس هاماتهم وتمكنهم من صد هجماتهم والانتصار عليهم وأنتك عاونتهم بإرسال العتاد والرجال وعلمنا بأن الإغارة على ولايات الكفار أصابهم الدمار غير منقطعة..."².

أما الباب العالي فبعد علمه بما يجري في الأندلس عن طريق بايلرباي الجزائر فقد أمر الأخير بمواصلة مساعدة الموريسكيين وتقديم الدعم لهم، حيث جاء في ذات الرسالة: "...عليك بتنفيذ ما جاء في هذا الأمر حال وصوله، وأن تعاون وتظاهر أهل الإسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار غير جائزة.. ولا تتوانى في إعلامنا بأحوال وأوضاع تلك الديار."³.

وقد جاء في إحدى رسائل الباب العالي إلى أهالي الأندلس ما يؤكد طلب الثوار الموريسكيين الدعم من الباب العالي وأنهم قد أحاطوا بالسلطان العثماني بكل الحثيات المتعلقة بثورتهم، إذ ورد في رد عثماني على الموريسكيين: "...لقد أرسلتم إلى سدة سعادتنا عرض حالكم وكيف أن الكفار الضالين ذوي الشعارات المضللة يتآمرون على المسلمين ويمدعونهم من التخاطب باللغة العربية ويكلفون

¹التر، المرجع السابق، ص 226

²أ.و.ج، مهمة دفترى 9، حكم 204، 23 شوال 977هـ

³أ.و.ج، مهمة دفترى 9، حكم 204، 23 شوال 977هـ

زوجاتهم بما يخالف الشرع الحنيف، مقترفين الظلم والاعتداء تجاههم، ويوجد الآن عشرين ألفاً من الرجال غير أن عدد الأشخاص الذين لا سلاح لهم وصل مائة ألف كما هو مقرر وثابت... وكل ما حدث ذكرتموه وقررتموه في عرض حالكم مفصلاً، وقد وصل إلى علم سيادتنا...¹، وفي هذا النص ما يؤكد فعلاً اتصال ثوار غرناطة بالباب العالي وطلبهم المساعدة من إيالة الجزائر ومن الدولة العثمانية على حد سواء، كما فيه عرض حال لعدد الثوار الموريسكيين المسلحين وعدد الأهالي الذين لا يملكون سلاحاً للمقاومة، وبالتالي فهم يطلبون من الباب العالي تسليح كامل الثوار من أجل نجاح الثورة الموريسكية على السلطات الإسبانية.

غير أن الباب العالي ورغم اهتمامه بثورة الموريسكيين واتصاله بمأساتهم في إسبانيا إلا أنه اعتذر عن مساعدتهم عن طريق الأسطول العثماني أي أنه اعتذر عن التدخل المباشر بدرجة أنه يستعد بكامل قواته لفتح جزيرة قبرص، وبالتالي فالدولة العثمانية غير مستعدة في الوقت الراهن للتدخل في إسبانيا وهو ما نجده في نفس الرسالة المذكورة أعلاه حيث جاء فيها بهذا الخصوص: "...إلا أنه في هذا الظرف بالذات وبالقرب من ممالكي تقع جزيرة قبرص... وفي الربيع السعيد نتيجة لتلك الآثار عزم سلطاني وقرر الاستيلاء وفتح الجزيرة المذكورة... وإذا تيسر فتح الجزيرة المذكورة بسهولة... هيأنا عدداً من السفن الضخمة والعساكر المنصورة ووجهناها إلى الجزيرة المذكورة² بدون تأخير...³، ورغم أن الباب العالي اعتذر عن التدخل المباشر لدعم الثورة في الأندلس، إلا أنه قد اتصل

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 9، حكم 231، 24شوال 977هـ

² يقصد بها جزيرة الأندلس.

³ أ.و.ج، مهمة دفترى 9، حكم 231، 24شوال 977هـ

بحاكم الجزائر علق علي وطالبه بتقديم الدعم الممكن للثوار الموريسكيين وهو ما نجده في باقي الرسالة: "...وقد وجهت أمرا همايونيا مؤكدا إلى بيلرباي الجزائر ليرسل إليكم كل المساعدات سواء كانت بالجيش المظفرة أو بإرسال سائر الأسلحة والمؤونة وأنه على ضوء أمري الشريف إلى بيلرباي الجزائر فسيقوم هذا الأخير بتقديم جميع المساعدات والإعانات إليكم لما أظهرتموه من همة إسلامية وغيرة في الدفاع على الدين..."¹، واتفق ذلك مع أن أعاد الثوار الموريسكيون الاتصال بإيالة الجزائر طالبين الدعم والمدد لثورتهم، ففي ربيع سنة 1569م وبعد وصول دون خوان النمساوي إلى غرناطة للقضاء على ثورة الموريسكيين، بعث محمد بن أمية أخاه عبد الله إلى الجزائر لطلب العون والنجدة من سلطات إيالة التي أرسلت معه في شهر أفريل من نفس العام مجموعة من السفن محملة بالأسلحة والمتطوعين بقيادة بحار عثماني يسمى حسين، وقد نزلت هذه القوات في منطقة أجيجر (Agijer) قرب البشارت في غرناطة وانضمت إلى محمد بن أمية²، ويبدو أن السلطات الإسبانية كانت تعلم جيدا بخصوص هذا الدعم، إذ أنه في 12 مارس 1569م وصل إلى لبلاط الإسباني تقرير استخباراتي³ من مدينة الجزائر من طرف أحد الجواسيس¹ يتضمن معلومات حول

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 9، حكم 231، 24شوال977هـ

² حتامله، التهجير القسري في عهد الملك فيليب، المرجع السابق، ص56، إي غافيريا، المرجع السابق، ص118

³ كان النشاط الاستخباراتي منتشرًا وكثيفًا في الجزائر خلال القرن السادس عشر وخلال العهد العثماني بشكل عام، وقد كانت كل الأطراف المتصارعة في حوض المتوسط تمتلك شبكات استخباراتية في كامل المنطقة، وحول الاستخبارات الجزائرية ونشاطاتها خلال العهد العثماني ينظر: شوقي عبد الكريم، الاستخبارات الجزائرية (1492-1830م)، أطروحة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر،

استعداد إيالة الجزائر لتقديم الدعم العسكري للثوار الموريسكيين²، وكذلك من خلال جاء في إحدى الرسائل التي وجهها سفير فرنسا لدى إسبانيا إلى زوجة ملك فرنسا هنري الثاني (Henri 8) ووصية العرش الفرنسي بتاريخ 6 جانفي 1569م أنه يوجد رفق محمد بن أمية أمير غرناطة مابين أربعمئة وخمسمئة تركي ومن أجل أن يوحي الأخير بكثرتهم فقد عمل على ارتداء بعض الرجال العرب الزي التركي ترهيبا للسلطات الإسبانية³، ومن سياق الجملة الأخيرة في رسالة السفير الفرنسي نفهم جيدا القيمة المعنوية الكبيرة للجُند العثماني ومدى هيبة الدولة العثمانية في نظر السلطات الإسبانية.

استمرت الاتصالات بين الموريسكيين وإيالة الجزائر، ففي أوت 1569م وصل الثائر الموريسكي "هرناندو الحبقي" إلى الجزائر وتواصل مع علج علي الذي منحه مئات من المتطوعين عاد بهم إلى غرناطة⁴، وقد اتفق علج علي مع الثوار الموريسكيين بأن يقوموا بانتفاضة عارمة في الوقت الذي تصل فيه قوات الدعم

¹كان الجواسيس الإسبان في مدينة الجزائر يبلغون البلاط الإسباني بكل التحركات في إيالة الجزائر، من ذلك التقرير الذي أرسله أحد الجواسيس للبلاط الإسباني بتاريخ 30 جانفي 1569م والذي يخبره فيه بإقالة والي الجزائر (محمد باشا بن صالح رايس)، ينظر: OSUNA,C.419,D.142

كما أن السلطات الإسبانية كانت حريصة بشدة على تأسيس شبكة استخباراتية من بعض الجواسيس في مدينة الجزائر وهو ما يظهر من خلال التقرير الذي تضمن أمرا من السلطات الإسبانية بإرسال جاسوس إلى مدينة الجزائر والمؤرخ في 14 ديسمبر 1569م، ينظر: OSUNA,C.419,D.226 (الملاحق رقم 14)

²ينظر: A.G.S, LEST, LEG, 1398, 160 (الملحق رقم 12)

³التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، المرجع السابق، ص 20

⁴كار، المرجع السابق، ص 299

الجزائرية¹، وحسب عبد الجليل التميمي فإن حاكم الجزائر قد بعث بست سفن رست بسواحل ألميرية محملة بالذخيرة والأسلحة والمدد في حين أن اثنين وثلاثين سفينة أخرى محملة بالجند من إيالة الجزائر كانت قد تشتت بسبب عاصفة بحرية هوجاء، غير أنه في شهر أكتوبر 1569م نجحت الجزائر في تقديم أربعمئة بندقية وعدد من الذخائر فضلا عن مئات من قدامى الإنكشارية ليكونوا أعوانا وقادة للثوار الموريسكيين²، ومجملا فقد بلغ عدد الرجال الذين وصلوا إلى غرناطة من إيالة الجزائر لدعم ثورة الموريسكيين خلال كل أطوار الثورة سواء من الجند أو المتطوعين حوالي أربعة آلاف رجل³.

بعد وصولها أنباء اتصال ثوار الموريسكيين بالدعم العثماني عاشت السلطات الإسبانية على مدار شتاء سنة 1569م تترقب الهجومات العثمانية على إقليم غرناطة، وذكر "ماثيو كار" في كتابه "الدين والدم" أن فيليب الثاني ووزراءه قد قضوا هذه الفترة مرعوبين من غزو عثماني محتمل لإسبانيا نصرة للموريسكيين، ويضيف الكاتب ذاته أن الملك فيليب الثاني قد حذر سفير البابا في أكتوبر من نفس السنة من أن التحالف العثماني الموريسكي سيؤدي حتما إلى هزيمة إسبانيا في هذه الثورة، في الوقت الذي دعى فيه الملك الإسباني رجال الدين أن يتضرعوا للإله بالآ يساعده الأسطول العثماني الثوار الموريسكيين في غرناطة⁴، وقد عملت السلطات الإسبانية، علاوة على ذلك، على إنشاء ميليشيات خاصة لرد أي هجوم

¹رضوان نبيل عبد الحي، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1987، ص 272

²التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، المرجع السابق، ص 19، 20

³كار، المرجع السابق، ص 299

⁴المرجع نفسه، ص 309

محتمل من العثمانيين أو المغاربة، فضلا عن كونها قامت بتشديد حراسة السواحل وأفرغت السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية من الميرية إلى جبل طارق لمنع أي اتصال بين الموريسكيين والعثمانيين في بلاد المغرب¹.

تواصل اهتمام إيالة الجزائر بأحداث ثورة الموريسكيين حتى أواخر أطورهاها، فبعد اغتيال محمد بن أمية من طرف الثائر الموريسكي ديدغو لوبيث (Diego Lopez) المدعو "ابن عبّو" بمباركة من حسين القائد العثماني في غرناطة فقد تم انتخاب "ابن عبّو" قائدا جديدا لثورة الموريسكيين² بموافقة من عالج علي حاكم الجزائر والذي أرسله له بعض التعزيزات مطلع سنة 1570م³.

في ربيع 1570م كانت الثورة الموريسكية قد أشرفت على نهايتها، ففي مارس من العام المذكور قام الثائر سابق الذكر "الحبقي" بتنظيم مفاوضات بين القائد ابن عبّو والدون خوان لإنهاء الثورة وإعلان السلم وفق شروط ترضي الطرفين، غير أن تقلب أهواء ابن عبّو ورفضه قرارات التفاوض وكذا اغتياله للحبقي جعلت الدون خوان يقرر القضاء على الثورة عسكريا حيث جهز حملة واسعة على غرناطة. انتهت بقتل الآلاف من الثوار والأهالي وإحراق المدينة⁴، وهكذا انتهت الحرب بفشل ثورة الموريسكيين وإصدار السلطات الإسبانية مرسوم طرد المسلمين من

¹الصباغ، المرجع السابق، ص139

²إي غافيريا، المرجع السابق، ص122

³رضوان نبيل، المرجع السابق، ص274، حتامله، التهجير القسري في عهد الملك فيليب، المرجع السابق، ص69، غير أن ما جاء في الرسائل العثمانية لاثوار الموريسكيين يفند ذلك، إذ حسب هذه الرسائل فإن القائد المذكور حسين قد قام باغتيال محمد بن أمية قائد الثورة الموريسكية وقام بالتعدي على أملاك وأسلحة الموريسكيين، وهو ما جعل الباب العالي يعطي أمرا بالقبض عليه وتأديبه. ينظر: أ.و.ج، مهمة دفترتي 14، حكم 283، 3 محرم 979هـ

⁴حتامله، التهجير القسري في عهد الملك فيليب، المرجع السابق، ص76-78

غرناطة في 19 مارس 1570م، وفي 28 أكتوبر من نفس العام بدأت عمليات الطرد الفعلي لموريسكيي المدينة إلى مختلف أرجاء إسبانيا¹.

هذا، وجاء في إحدى رسائل الباب العالي مايبين أن بايلرباي الجزائر عالج علي كان جدُّ مهتم بالأوضاع في الأندلس وأنه كان يرسل الدولة العثمانية لكي يحيطها بشتى الأخبار المتعلقة بثورة الموريسكيين إذ نجد في هذه الرسالة: "...كذلك فقد وصل إلى عتبتنا العلية خطاب المشار إليه علي دام إقباله... كما علمنا من خطابه أن مسلمي الأندلس لم يتوقفوا عن الحرب والجدال مع زمرة المشركين حتى الآن، إلا أن سكان السواحل منهم قد طلبوا الأمان خشية عاقبة المجاعة وديث أنهم أصبحوا منهكي القوى، على حين أن قلة سكان الجبال منهم لا يزالون على الحرب والقتال..."²، وكما أننا نجد في هذه الرسالة ما يؤكد اهتمام إيالة الجزائر وحاكمها عالج علي بالقضية الموريسكية فإننا نعرف كذلك من خلالها أن ثورة الموريسكيين كانت مع حلول سنة 1571م قد آلت إلى نهايتها بعد سحقها من قبل الدون خوان كما تمت الإشارة إليه، وأنه لم يبق إلا بعض المتمردين المنعزلين في جبال غرناطة مثلما هو موضح في الرسالة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدولة العثمانية قد كانت منشغلة بحروبها في شرق البحر المتوسط أثناء ثورة الموريسكيين، غير أنها رغم ذلك بقيت مهتمة بالقضية الأندلسية وهو ما نجده في الرسالة التي رد بها الباب العالي على أهالي الأندلس والتي بين فيها اهتمامه بالثورة الموريسكية وسعيه لدعمها عسكرياً إذ جاء في هذه الرسالة:

¹ إي غافيريا، المرجع السابق، ص 125-127

² أ.و.ج، مهمة دفترى 10، حكم 14، 2 محرم 979هـ

"حُكم إلى أعيان مندجل¹

...ولقد أحاط علمنا الشريف بكل ما ذكرتموه وأن أنظار عنايتنا منذ صرفة تجاهكم..وقد أرسل حكم همايوني إلى علي دام إقباله أمير أمراء الجزائر بشأن توجيهه إلى طرفكم على رأس بضع قطع من أسطولي الهمايوني لمعاونتكم إذا سنحت الظروف...²، كما شدّد الباب العالي على ضرورة الاتحاد واستمرار المقاومة الموريسكية ضد السلطات الإسبانية، حيث جاء في ذات الرسالة تأكيد على ضرورة الاتفاق والاتحاد وتوحيد الكلمة والوجهة لصد غارات الكفار أصابهم الدمار³، وقد ألحّت الدولة العثمانية على الموريسكيين بوجوب استمرار التواصل معها، إذ جاء في ذات الرسالة كذلك "...ولا تتوانوا عن إعلامنا بأوضاعكم وابعثوا لنا بأخبار الكفار أصابهم الدمار وبسائر الأخبار الصحيحة التي تردكم"⁴ وهو ما يؤكد اهتمام الدولة العثمانية بالثورة الموريسكية وحرصها على دعمها ونصرتها وكذا على مراقبة الأوضاع في إسبانيا وفي غرب البحر المتوسط عامةً.

ولتنفيذ ما جاء في الرسالة الموجهة للثوار الموريسكيين، بعث الباب العالي برسالة أخرى لعلي حاكم الجزائر يأمره فيها بتقديم المدد والدعم العسكري اللازم لهم جاء فيها:

"حُكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب

أرسل أعيان مندجل بخطاب إلى سدة سعادتنا... والآن ينبغي عليك أن تظل عينا ساهرة وأذنا صاغية تجاه ذلك الجانب، وأمرت: حال وصوله، عليك الاهتمام

¹مندجل: يُقصد بهم المدجنون أو الموريسكيون

²أ.و.ج، مهمة دفترى 14، حكم 283، 3 محرم 979هـ

³أ.و.ج، مهمة دفترى 14، حكم 283، 3 محرم 979هـ

⁴أ.و.ج، مهمة دفترى 14، حكم 283، 3 محرم 979هـ

بهذا الموضوع...وعليك ببذل أنواع سعيك وإقدامك في سبب دفع ورفع ضرر وفساد الأعداء عن المسلمين..."¹، لكن عالج علي لم يستطع الذهاب لنصرة المسلمين في الأندلس وذلك نظرا لارتباطه بالمشاركة رفقة الأسطول العثماني في معركة ليبانتو خاصة وأن الباب العالي قد اشترط على عالج علي ألا يتحرك تجاه الأندلس في حال تأكد تحالف الأوروبيين ضد الدولة العثمانية في معركة ليبانتو المرتقبة² وهو ما حدث فعلا³ وبالتالي عدم توجه عالج علي لدعم الموريسكيين.

ومن هنا يمكن اعتبار أن التدخل العثماني المباشر أي دون واسطة إيالة الجزائر لم يكن يشكل أولوية للدولة العثمانية خاصة وأنها كانت تخوض في هذه الفترة بالذات حربا ضروسا ضد الأوروبيين في معركة ليبانتو سنة 1571م وقبلها أثناء حملة فتح قبرص سنة 1570م.

أما عن دور إيالة الجزائر في تهجير الموريسكيين فنشير إلى أنه في سنة 1569م ومع بداية الثورة قامت السفن الجزائرية مستغلة انشغال السلطات الإسبانية بإخمادها وقامت بنقل ألف وخمسمائة موريسكي من بلسنية، وبعد فشل الثورة وخوفا من انتقام شامل من السلطات الإسبانية ارتحل إلى الجزائر سنة 1570م حوالي ثلاثين ألف موريسكي من غرناطة وقد كان هذا ضمن الاتفاق سالف الذكر الذي عُقد بين القائد الحبقي والدون خوان في مارس 1570م⁴.

¹أ.و.ج، مهمة دفترى 14، حكم 284، 3 صفر 979هـ

²أ.و.ج، مهمة دفترى 14، حكم 284، 3 صفر 979هـ

³ينظر المبحث التالي المتعلق بمعركة ليبانتو.

⁴ينظر: هلايلي حنيفي، القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء الفرمانات العثمانية

1492-1609م، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ع6، 2014، ص15

4- علاقة ثورة الموريسكيين بالوجود الإسباني في تونس بالنسبة للباب العالي:

يمكننا القول بأن الباب العالي وجد في ثورة الموريسكيين في غرناطة فرصة جيدة على الصعيدين السياسي والعسكري ضد إسبانيا، فدعم هذه الثورة سيعزز النفوذ العثماني في غرب البحر المتوسط كما سيوقف ولو مؤقتا التهديدات الإسبانية على الإيالات المغربية العثمانية.

كذلك فقد استغل العثمانيون بشكل جيد انشغال السلطات الإسبانية بثورة الموريسكيين وقاموا بالاستيلاء على تونس بقيادة عالج علي الذي دخل المدينة فاتحا في جانفي سنة 1570م وأنهى بذلك سيطرة إسبانيا عليها منذ سنة 1535م¹، ودسب "جون وولف" فإن ثورة الموريسكيين كانت مفيدة لبايلر باي أفريقية (عالج علي) لأنها جمّدت القوات الإسبانية وعملياتها في حوض البحر المتوسط، إضافة إلى ذلك فإنها منحته فرصة ذهبية لمدّ سيطرة إيالة الجزائر على كافة سواحل بلاد المغرب وللاستيلاء على تونس عام 1570م²، ويمكننا القول كذلك إن الباب العالي استغلّ هذه الثورة وقام بالاستيلاء على جزيرة قبرص سنة 1570م مستغلا ضعف قوات إمارة البندقية وعدم إمكانية حصولها على مساعدات من إسبانيا المنشغلة بثورتها الداخلية.

أما بخصوص الدعم العثماني لثورة الموريسكيين فيمكننا القول إنه لم يكن كافيا لانتصار الثوار على السلطات الإسبانية وتحقيق أهداف الثورة التي حددناها سابقا، فالدعم العثماني تمثل فقط في إرسال (إيالة الجزائر) بعض السفن المحملة بالجنود والأسلحة إلى الثوار الموريسكيين والتي لم تكن كافية لتحقيق انتصار على

¹ ينظر المبحث الموالي

² وولف، المرجع السابق، ص 85

السلطات الإسبانية، وقد رأينا كيف اعتذر الباب العالي عن التدخل بالأسطول العثماني في إسبانيا محتجا باستعداده لفتح قبرص سنة 1570م، وبالتالي فإن دُصرة الموريسكيين لم تكن ذات أهمية أو فلنقل ذات أولوية بالنسبة للدولة العثمانية، فبالنسبة للأخيرة فإن الاستيلاء على تونس وعلى قبرص وتأمين المنافذ البحرية والتضييق على الإمارات الإيطالية في وسط وشرق البحر المتوسط وكذا الاستعداد لمواجهة الحلف المسيحي المقدس الذي تأسس سنة 1570م والذي استخوض ضده معركة ليدانتو سنة 1571م، كل هذه الموازنات كانت تكتسب أهمية أكبر لدى الباب العالي من التدخل في إسبانيا لدعم الموريسكيين، خاصة وأن نتائج هذا التدخل لم تكن مضمونة بالنسبة للعثمانيين، ولهذا اكتفى فقط بإعطاء الأوامر لإيالة الجزائر بإرسال الجند والعتاد لدعم هذه الثورة.

لكن في المقابل، يمكننا القول بأن التدخل العثماني ولو غير المباشر -أي عن طريق إيالة الجزائر- قد مكّن الدولة العثمانية من إشغال الإسبان عن تونس والاستيلاء عليها في الوقت الذي كانت فيه السلطات الإسبانية مهتمة بثورة الموريسكيين وباحتمالية تدخل العثمانيين في غرناطة مما جعلها تُرخي قبضتها عن تونس وتركز اهتمامها على شأنها الداخلي المتمثل في الثورة الموريسكية، إذ إن علع علي حاكم الجزائر قد نجح تماما في إلهاء الإسبان بالقضية الموريسكية عن طريق إرسال الدعم والتمدد للثوار الموريسكيين - وهو ماتمت الإشارة إليه- وكذا بقيامه بمناورات عسكرية بحرية على وهران أين تتمركز القوات الإسبانية، وأمام هذا الارتباك الإسباني الذي سببته ثورة الموريسكيين ودعم إيالة الجزائر لها تمكن علع علي من الاستيلاء على تونس وفرض السيطرة العثمانية عليها مطلع سنة 1570م وهو ما سنتطرق إليه في العنصر التالي.

ثانيا: استعادة السيطرة العثمانية على تونس (1569-1570م):

كما كان الوجود الإسباني في حلق الواد والتبعية الحفصية للحكومة الإسبانية يكرّس سيطرة هذه الأخيرة على البلاد التونسية فقد كان في المقابل يمثل تهديدا للوجود العثماني في بلاد المغرب، ويهدد كذلك مصالحه التجارية في البحر المتوسط، فضلا عن أنه يقوّض عملية الاتصال بين إيالة الجزائر بشكل خاص وبين عاصمة الدولة العثمانية وأقاليمها في شرق المتوسط، وقد بقي الحال كذلك إلى أن جاءت الفرصة المناسبة لاستعادة تونس وضمها للحكم العثماني، وقد كان ذلك في فترة تولي عرج علي باشا حكم إيالة الجزائر¹.

مُستغلا ثورة الموريسكيين في غرناطة سنة 1569م وتعدد جبهات المواجهة التي كانت تخوضها الحكومة الإسبانية، قرر عرج علي بايلرباي الجزائر القيام بحملة لفتح تونس وإنهاء السيطرة الإسبانية عليها²، إذ إن عرج علي - حسب المؤرخ فاضل بيات - كان يُقدّر جدا أهمية تمركز الإسبان في تونس على اعتبار أنّ مثلث: (صقلية، مالطا، حلق الوادي) يشكل همزة وصل بين شرق وغرب البحر المتوسط³، وبالتالي المنطقة التي تتحكم في الطرق التجارية المتوسطية وكذا في ربط الإيالات العثمانية بمركز الدولة العثمانية، ومنه فإن وجود الإسبان في تونس

¹ في شهر محرم 976هـ / 1568م صدر فرمان سلطاني بنقل عرج علي من حكم إيالة طرابلس الغرب إلى حكم إيالة الجزائر، ينظر: إتر، المرجع السابق، ص223

² حول دور إيالة الجزائر في ضم البلاد التونسية للحكم العثماني، ينظر: قروود لحسن، دور الجزائر في

تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال القرن 16م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 2، 2017-2018

³ بيات فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي (دراسة تاريخية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا، مطلع العهد العثماني-أواسط القرن 19م)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007،

يشكل تهديدا صارخا للمصالح الاقتصادية والاستراتيجية للدولة العثمانية وإيالاتها في غرب البحر المتوسط.

كانت تونس في ستينات القرن السادس عشر تعاني من أزمت داخلية حادة، أولها الصراع على العرش داخل الأسرة الحفصية بين السلطان حسن وولده أحمد والذي انتهى بتملك الأخير للسلطة في تونس بعد نجاحه في إبعاد وسجن والده¹، ضف إلى ذلك أن الدولة الحفصية كانت خاضعة -باستثناء العاصمة تونس- إلى حكم الزعامات المحلية التي كانت تميل إلى السلطة أو تتمرد عليها وفق ما تقتضيه المصلحة الاقتصادية والقبلية للقبائل التونسية²، ونظرا لسوء علاقة الأخيرة بالسلطان أحمد الحفصي فقد قرر بعض القادة المحليين الاتصال بحاكم الجزائر ع ل ج ع لي و طالبوه بالتدخل لأخذ تونس من صاحبها الحفصي، ود سب هايدو (Haedo) فقد كان هؤلاء القادة هم "القايد بن الطيب"³ و"القايد بن جيبارة" و"القايد الخضار"⁴، وفي هذا الشأن يذكر ابن أبي دينار أن السلطان الحفصي قد عبّر في إحدى المرات للقايد الطيب بأنه لا قدرة له على مواجهة جيش إيالة الجزائر إن قرر حاكمها الاستيلاء على تونس، وقد كان هذا الاعتراف هو "الباعث لأبي الطيب إلى أن كاتب علي باشا وهو بمدينة الجزائر وحرضه على

¹ ينظر: ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 155-158

² سي يوسف، المرجع السابق، ص 87، قرود، المرجع السابق، ص 235

³ محمد بن أبي الطيب زعيم قبائل الشايبين والحاكم المحلي للقيروان، كان بينه وبين الحسن الحفصي ثم بينه وبين ابنه أحمد الحفصي صراعات وتوترات، في عهده استولى طرغود باشا على القيروان والأقاليم المجاورة لها سنة 1557م، ينظر: ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 152، إيفانوف، المرجع السابق، ص 232

⁴ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p141

القديم لـ **تونس**¹، كما أن القايد الطيب كان قد وعد عالج علي بتقديم العون والمساعدات لجيش إيالة الجزائر إن أراد حاكمها قبول المهمة².

نظرا لارتباطات إيالاته الرسمية بالباب العالي فقد استشار عالج علي المصدر الأعظم محمد صوقلي باشا حول هذه المهمة³، خاصة وأن فتح تونس واستعادتها كان حسب ميكزانج (Mexange) مشروعا قديما بالنسبة للدولة العثمانية⁴، ولهذا فإن المصدر الأعظم قد أعطى الموافقة لعلاج علي الذي راح يستعد لفتح تونس "واشتغل بجمع آلة الحرب، وجعل الهدنة مع العرب شرقا وغربا"⁵ قبل أن يتحرك تجاه تونس تجنباً لحدوث أي اضطراب داخل الإيالة أثناء هذه الحملة.

وفي أكتوبر من عام 1569م تحرك عالج علي برا نحو تونس بجيش قوامه خمسة آلاف جندي إنكشاري ومثلهم من فرسان إمارة كوكو، وأثناء مروره على قسنطينة وبونة انضم إليه ما يقارب مائة مقاتل آخرون⁶، ويبدو أن اختيار عالج علي السير برا إلى تونس على حساب الطريق البحري كان بقصد تجنب القوات

¹ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص162، 163، ولكي لا نقع في التناقضات التاريخية يجب الإشارة إلى أن أبي الطيب المذكور وبعد التوترات التي عاشها مع السلطان أحمد الحفصي قرر الطرفان عقد هدنة واتفاق سلام بينهما مما جعل أبي الطيب يلتقي بالسلطان أبي الحسن في قسبة حكمه ويشارك في جلساته، وهذا ما جعل الباجي المسعودي -رغم أنه يجعل من أبي الطيب والقايد الخضار شخصية واحدة- يقول بأن أبي الطيب كان أحد وزراء السلطان أحمد. ينظر: ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص162،

163، الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص206

² المصدر نفسه، ص206

³ بيانات، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص579

⁴ Mexange, op-cit, p116

⁵ ابن المفتي، المصدر السابق، ص41

⁶ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p141, Mexange, op-cit, p116

الإسبانية في حلق الوادي والتي يمكنها أن تحول دون الاستيلاء على مدينة تونس، وقد ترك علق علي الرايس مامي قورصو¹ نائباً له على الجزائر².

أما بالنسبة للطرف الإسباني فلم تفتت أخبار الحملة الجزائرية على تونس، إذ علمت السلطات الإسبانية عن هذه الحملة من أحد الأسرى الإسبان في مدينة الجزائر المدعو هيرنونيمو دي ميندوزا (Hernonimo De Mendosa)، مما دفع الملك فيليب الثاني لإعطاء تعليماته للقوات الإسبانية في حلق الوادي بأخذ الحيطة والحذر وترقب أي هجوم محتمل من القوات الجزائرية³، ويبدو أن الملك الإسباني لم يكن بمقدوره إرسال قوات إلى تونس أو حلق الوادي نظراً لانشغاله بإخماد ثورة الموريسكيين في غرناطة.

في أكتوبر سنة 1569م وصلت القوات الجزائرية إلى مدينة باجة القريبة من العاصمة تونس، و"لما سمع أحمد بمجيء أهل الجزائر خرج ليصدهم عن الوطن والتقى معهم على بلد باجة"⁴ وقد كان رفقة السلطان أحمد الحفصي ثلاثون ألف مقاتل من الجند والفرسان حسب هايدو⁵، أما ابن أبي دينار فيذكر أنه كان معه فقط ألف وستمئة فارس من فرقة الزمازمية الذين لم يُغنوا عنه شيئاً حسبما جاء عن الأخير⁶، ومع بداية المعركة بين الطرفين انضمت بعض الفرق من الجيش

¹ مامي قورصو أو الرايس مامي: بحار عثماني من أصل كورسيكي، تولى منصب نقيب سفن البحارة المتطوعين والرياس الخاصين في إيالة الجزائر، ينظر: أ.و.ج، مهمة دفتري 24، حكم 198، كذو الحجة 981هـ، أ.و.ج، مهمة دفتري 24، حكم 222، 982هـ، Kavaz, op-cit, p27

² Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p141

³ قرود، المرجع السابق، ص236، فكاير، المرجع السابق، ص315

⁴ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص163

⁵ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p141

⁶ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص163

الحفصي إلى قوات عرج علي وقد كان ذلك ضمن الاتفاق الذي ذكرناه آنفا والذي عُقد بين القادة المحليين التونسيين وعرج علي، وهنا ارتأى أحمد الحفصي الذي لم تبق معه سوى فرق الزمازمية المذكورة أن ينسحب عائدا نحو تونس العاصمة، غير أن القوات الجزائرية تمكنت من ملاحقته أين واجهته في معركة ثانية في منطقة سيدي الحطّاب وتمكنت من هزيمته مرة أخرى، وأمام توالي هزائمه، قرر أحمد الحفصي العودة إلى تونس العاصمة غير أنه وجد أبوابها موصدة أمامه من قبل الأهالي فاضطر إلى اللجوء إلى الإسبان في قاعدة حلق الوادي.¹

تقدمت القوات الجزائرية نحو العاصمة تونس دون مقاومة تذكر إذ أنه "لم يكن لأهلها قبل بمدافعة الأتراك"² ودخلت المدينة بعد أن فُتحت لهم من قبل الأهالي الذين رحّبوا بعرج علي وبالفتح العثماني لمدينتهم خاصة وأنهم كانوا ناقمين جدا على سلطانهم أحمد الحفصي الذي فر رفقة ذويه وثرواته إلى الإسبان في حلق الوادي.³

دخل عرج علي مدينة تونس فاتحا مُعلنا خضوعها للحكم العثماني في أواخر شهر ديسمبر 1569م⁴، فيما أتى إليه كُبراء المدينة وأعيانها وكذلك شيوخ القبائل المجاورة وأعلنوا الاستسلام والخضوع لعرج علي الذي أخذ عنهم البيعة للسلطان العثماني⁵، وقد بقي عرج علي في تونس مدة أربعة أشهر يهدّن البلاد التونسية ويخضع الأقاليم والدنواحي قبل أن يقرر العودة إلى إيالة الجزائر في ربيع عام

¹الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص206، صحابات، المرجع السابق، ص148، فكاير، المرجع السابق، ص316

² ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص164

³ ينظر: الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص206، Haedo, Rois, op-cit, p141

⁴ Haedo, Rois, op-cit, p141

⁵القرماني، المصدر السابق، ج2، ص418، ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص164

1570م¹، وعند عودة عرج علي إلى الجزائر "خلف على البلاد نوبة من الأتراك وزاوة لصيانتها، وخلف قائده رمضان حاكما في البلاد، وعدد الأتراك الذين خلفهم ثمانمائة ومثلهم من زاوة"².

وهكذا خضعت تونس للحكم العثماني لأول مرة بعد أن فتحها خير الدين بربروس سنة 1534م ثم استعادها الإسبان بعد غزوة شارلكان سنة 1535م كما أشرنا سابقا.

بعد خضوع تونس للحكم العثماني طالب أعيانها في إحدى رسائلهم إلى السلطان العثماني بتحويلها إلى إيالة عثمانية³، إلا أن الباب العالي رفض هذا الاقتراح وقرر إبقاء تونس سنجقا⁴ تابعا لإيالة الجزائر تحت حكم القائد رمضان باشا⁵، وذلك حسبما جاء في رسالة موجهة من الباب العالي لعلماء وصلحاء

¹إلتر، المرجع السابق، ص 229

²ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 164، الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص 206، فيما جاء عن هايدو (Haedo) أن القوات العثمانية التي بقيت في تونس تحت حكم رمضان باشا وقد كان قوامها ثلاثة آلاف من الانكشارية فقط، Haedo, Rois, op-cit, p142

³بيات، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 580

⁴السنجق (Sancak): وتعني لغة العلام أو اللواء، وتعني اصطلاحا القسم الإداري من أقسام الدولة المسمى "لواء"، حاكمه يسمى سنجق بكي أي أمير اللواء، وتجدر الإشارة إلى أن الأقسام الإدارية في الدولة العثمانية كانت تترتب على هذا النحو: ناحية، قضاء، سنجق ثم الولاية. كما قد يعني السنجق المقاطعة العسكرية، وقد يضم السنجق كذلك عدة ألوية، للمزيد ينظر: صابان، المرجع السابق، ص 136

⁵رمضان باشا: من أصل سرديني، نشأ خادما لتاجر تركي تولى تربيته وتعليمه، تولى مناصب إدارية عديدة في الدولة العثمانية كما اشتهر بالعدل والاستقامة والحلم، تولى حكم الجزائر ما بين 1574-1577م، ولأه عرج علي على تونس سنة 1570م، شارك في تحرير تونس سنة 1574م وغزا المغرب الأقصى بصفته حاكما للجزائر سنة 1575م لتتصيب عبد الملك السعدي على عرش الدولة السعدية، ينظر: ابن المفتي، المصدر السابق، ص 43، 42، سيلفاتور بونو، العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال

وسادات تونس وملحقاتها في شوال سنة 979هـ/فيفري 1572م¹، كما أمر الباب العالي حاكم الجزائر بالنيابة الباشا عَرَب أحمد بمساعدة رمضان باشا حاكم تونس في حال تم الاعتداء عليه أو تعرضه لأي تهديد².

وبفتح مدينة تونس دانت البلاد التونسية للحكم العثماني، ولم يبق للإسبان فيها سوى حصن حلق الوادي الذي بقي يمثل الوجود والتهديد الإسباني في الإيالة التونسية، ومنه فتحرير حلق الوادي من سيطرة الإسبان سيشكل تحديا آخر أمام سياسة الباب العالي في القضاء على التهديدات الخارجية على إيالاتها المغربية، وهذا ما جعل الباب العالي يتحرك من أجل التحرير النهائي للبلاد التونسية من الاحتلال الإسباني وهو ما سيتحقق أخيرا سنة 1574م والذي سنتطرق إليه في المبحث التالي.

أخيرا، يمكننا أن نجمل القول بخصوص الموقف العثماني من الوجود الإسباني في تونس في النقاط التالية:

- كانت تونس (العاصمة وضواحيها) آخر المعاقل غير المنضوية تحت الحكم العثماني الفعلي في الإيالات المغربية وبالتالي فقد كان الاستيلاء عليها يحظى بأهمية كبيرة لدى الباب العالي.

العهد التركي، مجلة الأصالة، الجزائر، ع6، 1972، ص101، Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p158

¹ إبيات، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص580، وكذلك ينظر: أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 1037، شوال 979هـ

² أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 1074، شوال 979هـ

- استغل العثمانيون مجموعة من الظروف الداخلية الملائمة للسيطرة على تونس أهمها التمردات الداخلية على السلطة الحفصية واستعانة الزعماء المحليين بحكام إيالة الجزائر.

- وقرت ثورة الموريسكيين في غرناطة ظرفا ملائما لحكام الجزائر العثمانيين من أجل إنهاء السيطرة العثمانية على تونس، إذ أنها سببت ارتباك السلطات الإسبانية وانشغالها بإخماد هذه الثورة عن تحركات العثمانيين في البلاد التونسية.

- رغم أن الاستيلاء على تونس نتج عنه تأسيس الحكم العثماني الفعلي والرسمي في البلاد التونسية وخاصة بعد مبايعة أهالي المدينة لاسطان العثماني وتعيين رمضان باشا حاكما عليها، إلا أن استمرار القوات الإسبانية في حلق الوادي بقي يشكل تهديدا للوجود العثماني في الإيالة التونسية، وبالتالي لابد من تحرير نهائي لقلعة حلق الوادي وطرد الإسبان نهائيا من البلاد التونسية، وهو ما سنسلط الضوء عليه في المبحث الموالي.

المبحث الثالث: استراتيجية الباب العالي تجاه الحلف الأوروبي المقدس والقواعد الإسبانية في تونس (1571م-1574م)

شكّل الوجود العثماني في غرب البحر المتوسط وشمال أفريقيا منذ تأسيس إيالة الجزائر سنة 1519م تهديدا صارخا للمصالح الاستعمارية الإسبانية والأوروبية في المنطقة، كما ساهمت الانتصارات العثمانية في حوض البحر المتوسط والبلاد المغربية -والمتمثلة في امتداد النفوذ العثماني إلى تونس وطرابلس الغرب ثم حصار مالطا سنة 1565م والتدخل العثماني في إسبانيا لدعم ثورة الموريسكيين ثم الاستيلاء على تونس وقبرص سنة 1570م- في جعل القوى الأوروبية تفكر بشكل جدي في ضرورة تأسيس تحالفات عسكرية ذات صبغة دينية لمجابهة القوة الإسلامية العثمانية ونفوذها الذي أصبح يهدد الوجود الأوروبي المسيحي في حوض البحر المتوسط وشمال أفريقيا.

ولأن الصراع مع الدولة العثمانية كما هو صراع سياسي وعسكري فهو كذلك صراع حضاري بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي فقد أدركت القوى الأوروبية وجوب اللجوء إلى تشكيل حلف عسكري يحقق النصر لأوروبا المسيحية ويعيد لها مكانتها السياسية ويبعث ازدهارها الحضاري من جديد خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، وهو ما سيتجلى في الصراع العثماني الأوروبي خلال معركة ليبانتو في قلب حوض البحر المتوسط، ثم في الصراع بين الطرفين على حلق الوادي التي تشكل -على غرار وهران والمرسى الكبير- آخر مناطق النفوذ الإسباني والأوروبي داخل أراضي الإيالات العثمانية المغربية.

أولاً: الباب العالي في مواجهة الحلف الأوروبي المقدس (معركة لي باننتو 1571م):

1- أسباب تأسيس الحلف الأوروبي المقدس:

تُجمع الدراسات السابقة التي تطرقت لمعركة لي باننتو (La Bataille de Lépante) أن الفتح العثماني لقبرص سنة 1570م² هو السبب الرئيسي والمحرك الأساسي للأوروبيين لتشكيل الحلف المقدس وخوض معركة لي باننتو³، وبما أن جزيرة قبرص كانت تحتل موقعا استراتيجيا هاما شرق البحر المتوسط فإن استيلاء العثمانيين عليها قد أشعر الأوروبيين بضرورة الاتحاد لوقف امتداد النفوذ العثماني في حوض البحر المتوسط .

غير أنه لا يمكننا الاكتفاء بالفتح العثماني لقبرص كعامل دفع بالأوروبيين لتشكيل تحالف عسكري ضخم ضد الدولة العثمانية، إذ أن الدواعي العسكرية والاستراتيجية المتعددة في البحر المتوسط كانت كفيلة لتجعل الأوروبيين يخططون لمثل هذا التحالف ضد الدولة العثمانية، خاصة بعد نجاح العثمانيين في ضم تونس إلى الحكم العثماني والقضاء على السيطرة الإسبانية فيها مطلع سنة 1570م.

¹ لي باننتو (Lépante): ميناء عثماني وسط الأرخبيل اليوناني على خليجي "باتراس" و"كورنث"، ينظر: أوزتونا، المرجع السابق، ج2، ص372

² حول الفتح العثماني لقبرص ينظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ص153-155، مقديش، المصدر السابق، ج2، ص59-61، المحامي، المرجع السابق، ص255

³ ينظر: سي يوسف، المرجع السابق، ص114، فكاير عبد القادر، دور الأسطول الجزائري في معركة لي باننتو سنة 1571م، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجمع والتاريخ، جامعة معسكر، الجزائر، ع9، 2014، ص416

إن استيلاء علي علي على تونس سنة 1570م وقبلة هزيمة الإسبان والمالطيين في جربة وطرابلس الغرب سنة 1560م ثم الحصار العثماني لجزيرة مالطا سنة 1565م، كل هذه العمليات جعلت الأوروبيين بقيادة الامبراطورية الإسبانية يتحسسون جيدا التهديد العثماني لمصالحهم الاقتصادية والاستراتيجية في البحر المتوسط، إذ إن السيطرة العثمانية على أهم الممرات الاستراتيجية والجزر الحيوية والمدن الهامة في جنوب وشرق المتوسط جعلت الأطراف الأوروبية تعمل بشدة من أجل إنهاء السيطرة العثمانية وانتصاراتها المتتالية في المنطقة من قيام إيالة الجزائر سنة 1519م وإلى غاية الاستيلاء على تونس سنة 1570م، كما يمكننا أن نضيف التدخل العثماني ممثلا بإيالة الجزائر لدعم ثورة الموريسكيين في غرناطة سنة 1569م -والذي اعتُبر من قبل السلطات الإسبانية تدخلا مباشرا في الشأن الداخلي الإسباني ومقوّضا لمشاريعها التوسعية خاصة في غرب البحر المتوسط- سبباً آخر لعزم الأوروبيين على تشكيل حلف عسكري ضد الدولة العثمانية ، ولم يكن فتح قبرص سنة 1570م من طرف العثمانيين إلا القطرة التي أفاضت الكأس وعجّلت بالدول الأوروبية بقيادة الإمبراطورية الإسبانية إلى وضع حد لسيطرة الدولة العثمانية وإيالاتها المغربية على الأوضاع السياسية في المنطقة.

2- تشكيل الحلف المقدس والاستعداد لمعركة ليبانتو:

2-1- تأسيس الحلف المقدس:

على اعتبار أن جزيرة قبرص كانت خاضعة لجمهورية البندقية فقد سارعت الأخيرة إلى طلب النجدة من الدول المسيحية التي أسرعت لتلبية نداء البندقية خوفا من امتداد الزحف العثماني نحو إيطاليا، وقد ساهم البابا بيوس الخامس

(Pie 5) بدور كبير في جمع كلمة المسيحيين وتوحيدهم لتشكيل الحلف وخوض معركة ليدانتو، كما سارع الأخير إلى وضع أسطوله تحت قيادة مارك أنطوان كولونا (Antoine Colonna) الدعم البندقية¹ وبعث بالوفود إلى الممالك المسيحية ودعاهم إلى ضرورة تحالفهم لمساندة البندقية في معركة فاصلة، كما بين لهم أن الخطر لا يهدد مملكة قبرص والبندقية فقط، وإنما كل الممالك الغربية، ودعا إلى تشكيل تحالف ضد العثمانيين وإلى ضرورة الدفاع المشترك عن المسيحية، حيث وجّه البابا المذكور رسالة إلى ملك إسبانيا فيليب الثاني (Philippe 2) في 8 مارس 1570م جاء فيها: "...لا توجد في العالم المسيحي أية دولة يمكنها أن تقف لوحدها في وجه الدولة العثمانية... وبناء على ذلك يجب على كافة الدول المسيحية أن تتحد لتكسر الغزو التركي..."²، وقد أسفرت هذه الدعاوى في الأخير عن توقيع "الحلف المقدس" في 25 ماي 1571م والذي شاركت فيه كل من إسبانيا والبندقية وقوات البابا³، وللحفاظ على العلاقات الجيدة بين أعضاء التحالف وكذا لإضفاء الصبغة الدينية والقداسة عليه عُين البابا رئيساً شرفياً له، كما تم تعيين دون خوان النمساوي⁴ (Don Juan D'Autriche) قائداً عاماً لقواته الحربية.¹

¹ رايت لويس وماكليود جوليا، الحملات الأمريكية على شمالي إفريقيا في القرن الثامن عشر، تر، البعلبكي محمد روجي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص27، كريسي، المرجع السابق، ص 213، فكاير، دور الأسطول، المرجع السابق، ص416،417

² أوزتونا، المرجع السابق، ج2، ص371

³ سي يوسف، المرجع السابق، ص116، Courdier Zoe, Les Batailles entre chrétiens et Ottomans dans La Méditerranée du 16^{eme} siècle 1535-1575, Diplôme National du Master, Université de Lyon, France, 2013, p63

⁴ دون خوان النمساوي (Don Juan D'Autriche): 1547-1578م: هو الابن غير الشرعي للملك الإسباني شارلكان والأخ غير الشقيق للملك فيليب الثاني، والدته باربارا بلومبرغ (Barbara Blomberg)

ويهمُّنا هنا بشكل مباشر أن نذكر بأنه " كان من أسس الاتفاق المؤسَّس لهذا التحالف أن يدوم إثني عشر سنة وأن يطبَّق سواء في الهجوم أو الدفاع وأن يوجِّه ضد الأتراك وضد البلدان الخاضعة لهم كطرابلس وتونس والجزائر"²، وبالتالي فإن تكوين الحلف المسيحي المقدس والتحصير لمعركة ليبانتو سيشكلان حتما تهديدا كبيرا على الإيالات المغربية ولا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نعتبر -انطلاقا مما ورد في هذا النص- أن معركة ليبانتو لا تشكل مهما كانت نتيجتها تهديدا لهذه الإيالات أو أنها تخص بشكل مباشر الدولة العثمانية وأقاليمها في شرق البحر المتوسط، خاصة وأن القوى الأوروبية وعلى رأسها الإمبراطورية الإسبانية قد بدأت منذ أفريل 1570م في استعداداتها لكسر النفوذ العثماني في غرب البحر المتوسط واستعادة سيطرتها على الإيالات المغربية وهو ما يظهر من خلال الرسالة التي بعث بها أندري دوريو إلى الملك فيليب الثاني بتاريخ 9 أفريل 1570م حول الاستعدادات المتخذة للقيام بحملة عسكرية بحرية ضد كل من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس³.

2-2- استعداد القوى الأوروبية لمعركة ليبانتو:

في سبتمبر 1571م اجتمعت قوات الحلف المسيحي بميناء ميسينا في جزيرة صقلية، وقد كانت تتكون حسب حاجي خليفة من:

من عائلة أرستقراطية ألمانية، قضى على ثورة الموريسكيين في الأندلس 1568-1569م وانتصر على العثمانيين في معركة ليبانتو عام 1571م، ينظر: Athenien, op-cit, p707, Mexange, op-cit, p130

¹ المرجع السابق، ص116، كار ماثيو، المرجع السابق، ص322،325، Christian, op-cit,

² القدوري عبد المجيد، المغرب وأوروبا مابين القرنين الخامس عشر والثامن عشر مسألة التجاوز، ط2،

المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2012، ص168

³ ينظر: A.G.S, LEST, LEG, 1400, 47 (الملحق رقم15)

- 100 سفينة للبندقية
 - 12 سفينة من سفن البابا
 - 12 سفينة من صقلية
 - 04 سفن لمالطا و10 سفن لجنوة
 - 04 سفن لنابولي، و04 سفن من البرتغال
- ويضيف المصدر نفسه أن المقاتلين الذين تحملهم هذه السفن بلغوا حوالي خمسين ألف رجل¹، هذا كما جاء في إحدى المراسلات العثمانية إلى حاكم الجزائر ذكرٌ لعدد القوات الأوروبية ومكان تجمعها تحضيرا لمعركة لياننتو، حيث جاء في هذه المراسلة المؤرخة في 20 جمادى الأولى 979هـ/أكتوبر 1571م: "...وأن تلك الغاليطات تمكنت من أخذ بعض الأسرى من أسطول الكفار.. وبعد استجوابهم الأسرى، فقد أقروا بأن سفن وقادرات² الكفار البندقانيين بما في ذلك سفن إسبانيا المرابطة في كريت بلغ عددها مائتين وثلاثين قادرغة وسبعين فرقية وثمانية وعشرين بارجة، وأن شقيق ملك إسبانيا المدعو دون جوان -الخائب- اقد نُصب قائدا عاما عليها وأنه قد جهز تلك السفن وأعدّها للإبحار باتجاه كورفوس..."³، وكما يوضح لنا هذا النص عدد

¹حاجي خليفة، المصدر السابق، ص160. وقارن عدد القوات المسيحية مع: المحامي، المرجع السابق، ص257، سي يوسف، المرجع السابق، ص120، كريس، المرجع السابق، ص213 وكذلك Mexange, op-cit, p129

²قادرغة: هي نفسها القاليرا.

³أ.و.ج، مهمة دفترى 16، حكم 40، 20 جمادى الأولى 979هـ/1571م، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الرسالة وصلت متأخرة نوعا ما، على أساس أن المعركة قد انطلقت يوم 17 أو 18 جمادى الأولى كما سنورده فيمايلي، وهذا يدل -من جهتنا- على أن الأوضاع كانت مضطربة جدا قبيل المعركة مما صعب من مهمة التنسيق بين الباب العالي وقادة الأسطول الهمايوني، كما يدل أيضا على أن الكثير من

القوات الأوروبية المجهزة لخوض معركة ليبانتو فهو كذلك يبين علم الباب العالي للتحركات الأوروبية في البحر المتوسط.

هذا، ويصف المؤرخ الإنجليزي "إدوارد كريسي" تجمع للقوات المسيحية هذا بقوله: "...وقد أولى جميع الحلفاء عناية بالغة للالتقاء الملائم لطواقمهم ومعدات سفنهم، وقد توافد المتطوعون الذنبلاء معا من كل العالم الروماني المسيحي الكاثوليكي للخدمة تحت إمرة دون خوان وللمشاركة في مثل هذا العمل المشرف، هكذا أبحر الأسطول الصليبي في أعلى حالة من الكفاءة تجاه الشرق في الخليج الأيوني للبحث عن أعدائه"¹، ورغم ضخامة القوات المسيحية المشكّلة للحلف المقدس تجدر الإشارة إلى أنه قد تردّد أمراء كل من جنوة والصقليتين وفلورنسا في تقديم الدعم الذي طلبه البابا غريغوري الثالث عشر (Gregori 13) خوفاً من أن ذلك سيعرضهم للغزو من طرف العثمانيين إن حقق هؤلاء النصر في تونس، وكذلك خوفاً من مقتل قواتهم في تونس وبالتالي لن يجدوا قوات لحمايتهم عندما يأتيهم الغزو العثماني، وقد رفض وصي نابولي الكاردينال غرانويل (Cardinal Granvelle) على وجه الخصوص طلب البابا مُعزياً ذلك إلى أن قواته تكفي فقط لحماية أراضيه².

المراسلات العثمانية لحكومة الجزائر كانت تصل متأخرة أي بعد حدوث المسألة التي تتطرق إليها الرسالة وهو ما يجب أن يتقطن إليه الباحث كي يحلل الوثائق بشكل يتماشى بشكل سليم مع الأحداث التاريخية.

¹ كريسي، المرجع السابق، ص 213

² Kavas, op-cit, p19

3-1- الاستعدادات العثمانية لمواجهة الحلف المقدس:

كانت القوات العثمانية تتكون من حوالي ثلاثمائة سفينة تحمل خمساً وعشرين ألف مقاتل منهم ألفين وخمسمائة إنكشاري، وقد بدأت تتجمع هي الأخرى منذ أواخر سبتمبر عند خليج ليبان¹، وقد كانت القوات العثمانية تحت قيادة خيرة القادة وأمراء البحر العثمانيين، حيث اجتمع في هذه الحملة كل من "برتو باشا" و"مؤذن زاده علي باشا" وحاكم الجزائر عالج علي باشا، إضافة إلى حسن باشا بن خير الدين² ومحمد بن صالح راييس حاكم الجزائر الأسبق وجعفر باشا حاكم إيالة طرابلس الغرب، ناهيك عن حكام خمس عشرة محافظة من الأناضول وكبار قادة الجند العثماني³.

نظراً لعلم الدولة العثمانية وقناعتها بأن الأوروبيين سيقومون بردة فعل على فتح قبرص وأنهم سيبدأون التحضيرات لخوض معركة فاصلة ضد الدولة العثمانية في البحر المتوسط فقد باشر الباب العالي بإرسال رسائله لقيادة أسطوله وكذا لحكام الإيالات المغربية بالاستعداد للمشاركة رفقة الأسطول الهمايوني في هذه الواقعة الفاصلة، حيث كانت أولى الرسائل التي وصلت إيالة الجزائر بعد فتح قبرص بتاريخ 22 جمادى الأولى 978هـ/ديسمبر 1570م والتي طلب فيها الباب العالي من بايلرباي الجزائر الاستعداد للانضمام للأسطول الهمايوني المتواجد في خليج البندقية وضرورة إرسال سفن الأسطول الجزائري إلى نواحي حلق الوادي⁴، غير أن

¹فكاير، دور الأسطول، المرجع السابق، ص 418، 137، 136، op-cit، Mexange¹

²حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 161

³المصدر نفسه، ص 161، وكذلك ينظر: Christian، op-cit، p258، De Rotalier، op-cit، p325

⁴أ.و.ج، مهمة دفترتي 14، حكم 603، 22 جمادى الأولى 978هـ، أ.و.ج، مهمة دفترتي 14، حكم 611، 22 جمادى الأولى 978هـ

هذه الرسائل كانت لاتتحدث بشكل خاص عن معركة ليدانتو ومواجهة الحلف المسيحي بقدر ما كانت تعبر عن تدسيق عسكري بين الباب العالي وحكومة الجزائر حول احتمالية وقوع رد فعل أوروبي بعد فتح قبرص وحول ضرورة حماية إيالات المغربية ودعم الأسطول العثماني في حروبه ضد الإمارات الإيطالية المدعومة من المملكة الإسبانية.

غير أن أولى المراسلات العثمانية والمتعلقة خصوصا بمعركة ليدانتو قد وصلت إيالة الجزائر بتاريخ 2 ذو القعدة 978هـ/أفريل 1571م وقد طلب فيها من الباييرباي عالج علي الاستعداد للانضمام للأسطول العثماني الذي سيشارك في المعركة، وقد ورد فيها:

"...بعد التوكل والاعتماد على علو عنايته الحق جل وعلا...فقد تقرر في هذه السنة الخيرة غزو الكفار من البر والبحر والإغارة وإلحاق الخسائر بجزره المعادية وأسطوله هزمه الله...ونظرا لاعتماد الهمايوني على حسن فراستك وكياستك ووفور شجاعتك وشهامتك، فإني أمرك ومن معك من السفن والغاليطات بكامل أسلحتها بالتوجه عاجلا لملاقاة المشار إليه الوزير برتو باشا..."¹، ومع وصول هذه المراسلة إلى الجزائر بدأ عالج علي فوراً في تجهيز أسطوله والإعداد لهذه الملحمة الهامة وهو ما ورد في المراسلة التي بعث بها الباب العالي لبرتو باشا والتي جاء فيها بأن عالج علي قد بعث: "...إلى سدة سعادتنا بخطاب يُعرب فيه عن استلامه لحكمنا الهمايوني بشأن الاستعداد للحرب وذكر بأنه هو والسفن المنصورة التي بحوزته على أهبة الاستعداد..."².

¹أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 367، 2 ذو القعدة 978هـ

²أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 518، 17 ذو الحجة 978هـ

وبحكم القيمة الكبيرة لهذه المعركة التي اجتمعت فيها كل أمم أوروبا المسيحية ضد العالم الإسلامي العثماني فإن الباب العالي ما فتئ يرسل قياداته وحكام إيالاته ويستخبر منهم كل ما هو متعلق بالمعركة، إذ جاء في المراسلة المذكورة أخيرا والموجهة إلى برتو باشا: "...فما هي الأخبار التي وصلتكم عن الكفار أصابهم الدمار وماهي أحوالهم جعل الشقاء مآلهم وماهي أوضاعهم وأطوارهم خبيثة الآثار وإلى أين تتجه حركتهم عديمة البركة وإجمالا فما هو فكرهم الفاسد وخيالهم الكاسد..."¹، وكما استفسر الباب العالي عن أحوال الأعداء الأوروبيين فقد استفسر أيضا عن قوات الدولة العثمانية واستراتيجية أسطولها وقيادته في هذه المعركة إذ ورد فيها كذلك: "...وهل حضرت سفن الأسطول الهمايوني القادمة من جزيرة قبرص لملاقاتكم وفي أي يوم ومكان لقاءكم بهم وما هي أحوال الجذافين وإلى أين تقرر توجهكم وماهي آراؤكم الصائبة وأفكاركم الثاقبة بشأن الهجوم بإذن الله تعالى على أسطول وجزر الكفار..."².

ونظرا لأهمية المعركة أرسل الباب العالي برسالة أخرى مطلع سنة 979هـ/ماي 1571م لكل من برتو باشا وعلج علي مؤكدا على سعي الدولة العثمانية لمواجهة الدلف المقدس إذ جاء فيها: "...عليكم بك مال البصيرة والانتباه، وأن أُمري الشريف الصادر بشأن الإغارة على أسطول وجزر الكفرة وتدميرها لا يزال مقرا كما كان عليه...فليكن جدكم وسعيكم في سبيل إلحاق الضرر والخسارة بكافة مواقع وجزر العدو..."³، هذا كما ورد في نفس الخطاب إشارة إلى القوات التي خرج بها كل من بايلرباي الجزائر وحاكم طرابلس الغرب لملاقاة الأسطول العثماني

أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 518، 17 ذو الحجة 978هـ

أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 518، 17 ذو الحجة 978هـ

أ.و.ج، مهمة دفترتي 10، حكم 14، 2 محرم 979هـ، وحول نفس القضية ينظر كذلك: أ.و.ج، مهمة دفترتي 10، حكم 22، 2 محرم 979هـ

في لبيانتو إذ جاء فيها: "...وأن أمير جزائر الغرب عرج علي دام إقباله قد حضر لملاقاتكم على رأس ستة بارستادات وقادرغة واحدة وإحدى عشر غاليطة.. كما علمنا بحضور أمير أمراء طرابلس الغرب جعفر دام إقباله لملاقاتك مع المشار إليه علي باشا وبصحبته قادرغة وغاليطة..."¹، ويبدو أن التنسيق بين الباب العالي وإيالاته المغربية كان كبيرا فيما يتعلق بمعركة لبيانتو، فضلا على ماتم ذكره فإننا نجد في المراسلة الموجهة لحاكم طرابلس الغرب بتاريخ 2م حرم 979هـ/ماي 1571م:

حُكم إلى أمير أمراء طرابلس الغرب

ورد إلى سدة سعادتنا خطابك الذي تُعلم فيه بأن الكفار قد حشدوا حشودا عظيمة وأذهم على اتصال واتحاد بالكفرة المجاورين لهم من الجهات الأربع وبناء عليه تُعلم بوجوب سرعة وصول الأسطول الهمايوني... أن الأسطول المقهور التابع للكفار أصابهم الدمار مرابط على أهبة الاستعداد وبكامل معداته في مدينة بارقة تحت إمرة شقيق ملك إسبانيا الملعون...² وهذا مايبين مدى تبادل المعلومات وتتبع خطوات وأخبار الأوروبيين وتنسيق الخطوات العسكرية لمواجهة الحلف المسيحي المقدس.

3-2- الباب العالي ومسألة حماية الإيالات المغربية خلال معركة لبيانتو:

بما أن موضوع دراستنا يتمحور أساسا حول الموقف العثماني من التهديدات الخارجية على الإيالات المغربية، ونظرا لأهمية إيالتي الجزائر وتونس في الصراع العثماني الأوروبي في البحر المتوسط فإننا نعرض هنا بعض ما جاء في

¹ أ.و.ج، مهمة دفترتي 10، حكم 14، 2م حرم 979هـ

² أ.و.ج، مهمة دفترتي 10، حكم 06، 2م حرم 979هـ

المراسلات العثمانية المتعلقة بضرورة حفظ هذه الإيالات وتأمينها من أي تهديد إسباني محتمل.

لقد أكد الباب العالي لقياداته ولدكام إيالاته على ضرورة حفظ الإيالات المغربية والوقوف أمام أي تهديد خارجي عليها خاصة في ظل مشاركة قواتها (وخاصة إيالة الجزائر) في معركة ليبانتو، حيث ورد في الخطاب الهمايوني المؤرخ في 2 محرم 979هـ/ماي 1571م: "...ونظرا لانضمام المشار إليه¹ إلى أسطولي الهمايوني فإن العدو الحسود اللدود سيحاول اغتنام فرصة خلو تلك الجوانب وأن احتمال مداهمة سفن ملك إسبانيا للجزائر وتونس وإلحاق الضرر والخسارة بهما سيصبح في حكم المؤكد، وبناء عليه فإن حماية تلك الأطراف أصبحت مهمة واجبة..."² وفي نفس الخطاب نجد تأكيدا من الباب العالي على ضرورة حفظ إيالتي الجزائر وتونس من التهديدات المحتملة، إذ جاء فيه: "...ولتكونوا عينا ساهرة وأذنا صاغية تجاه الجزائر وتونس وحال سماع أي خبر مؤكد عن مهاجمة سفن الإسبان لتلك الأطراف... فلا تتوانى عن إرسال أمير أمراء الكرام علي دام إقباله إلى هناك وإذا اقتضى الأمر معاونته..."³، ويبدو أن اهتمام الدولة العثمانية بالتهديد المحتمل الذي قد تتعرض له الإيالات المغربية من قبل الإسبان أثناء انضمام قواتها للمشاركة في معركة ليبانتو قد جعل الباب العالي يُلح على ضرورة حماية الإيالات العثمانية المغربية وهو ما نجده في رسالة أخرى موجهة إلى القائد العام للأسطول العثماني مؤذن زاده علي باشا والتي جاء فيها:

¹المقصود عالج علي بايلرباي الجزائر.

²أ.و.ج، مهمة دفترتي 10، حكم 14، 2 محرم 979هـ

³أ.و.ج، مهمة دفترتي 10، حكم 14، 2 محرم 979هـ

حُكم إلى القبودان علي باشا

...وبناءً على ورود خبر من أمراء دوبرونيك... عن تأهب إسبانيا أقرنها الله بالهزيمة على جزائر الغرب وتونس فإن حماية تلك الجوانب أصبح من أهم الأمور، وأمرت:

حال و صوله (الحكم) أن تكون أذنا صاغية وعينا ساهرة تجاه تلك الأطراف... سواء بإرسالك ما يفي من قطع الأسطول إلى أمير أمراء الجزائر أو بذهابك شخصياً إلى هناك...¹، وإننا لنجد في هذا النص ما يبين الأهمية الشديدة للإيالات المغربية لدى الباب العالي وحرص الأخير على ردع كل التهديدات التي تواجهها، ولم يخلُ هذا الخطاب الأخير من تأكيد على ضرورة التنسيق بين قيادة البحرية والجيش العثمانيين وبين حاكم الجزائر إذ ورد فيها كذلك: "...وعليك أيضاً بالتشاور بالأمر مع الدستور المكرم وزير برتو باشا... وفيما إذا اقتضى ذهابك شخصياً فعليك بالاتحاد مع أمير الأمراء علي باشا... وكونوا على بصيرة وانتباه..."².

وفي نفس السياق وحول أمن الإيالات المغربية وضرورة حفظها أثناء حملة ليبيا نتوجه إلى قائد القوات البرية في الجيش العثماني بتاريخ محرم 979هـ/ماي 1571م جاء فيه:

"حُكم إلى الوزير برتو باشا،

حال سماع الكفار بتوجه أسطولي الهمايوني إلى جوانب كورفوس، فإن احتمال هجوم سفن اللعناء الإسبان على الجزائر وتونس يصبح أمراً مؤكداً، لذا فإن

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 10، حكم 22، 2 محرم 979هـ

² أ.و.ج، مهمة دفترى 10، حكم 22، 2 محرم 979هـ

حراسة وحفظ تلك الأطراف غذا من أهم الأمور، وقد سبق إرسال حكومي بشأن التعاون ودفع المضرة والبقاء عينا ساهرة وأدنا واعية تجاه تلك الأطراف...¹.

ونظرا للتهديد الكبير الذي قد يلحق بالإيالات المغربية جراء التحاق قواتها بالأسطول العثماني في ليباننتو بعث الباب العالي برسالة أخرى لوزيره برتو باشا وكذا كافة حكام الإيالات المغربية بضرورة الانتباه لحتمية غزو الإسبان للسواحل التونسية والجزائرية وذلك في خطاب مؤرخ في غرة صفر 979هـ/جوان 1571م جاء فيه: "...ولهذا عليكم التفتن وأخذ الحيطة والحذر من أجل حفظ الأمن والأمان في كل من إيالة تونس والجزائر، كما عليكم إعلامي بأي أخبار تردكم عن العدو..."² كما سمح الباب العالي لبایلرباي الجزائر عالج علي بالعودة إلى إيالة الجزائر إذا استدعت الضرورة من أجل حمايتها من حملات مفاجئة من قبل الإسبان، شريطة أن يعود بعد ذلك للمشاركة في معركة ليباننتو وهو ما جاء في المراسلة سالفة الذكر بتاريخ 20 جمادى الأولى 979هـ/أكتوبر 1571م: "...فإذا كان هناك ثمة ما يدعو للحذر في أطراف الغرب، فإنني أمرك بالإسراع إلى الوصول إلى هناك والعودة لملاقة أسطولي الهمايوني في الربيع المبارك، وأمرت:

...وإذا ما وقفت واطلعت على أخبار ولاية الغرب، واقتضى الأمر ذهابك إلى هناك، فلا تتأخر ولا تتوقف للحظة، وعليك القيام بما يجب عمله بمقتضى فرماني الجليل القدر، ومن تم يجب عليك العودة في الربيع الخير للتواجد في

¹أ.و.ج، مهمة دفتري 10، حكم 19، 12 محرم 979هـ

²أ.و.ج، مهمة دفتري 14، حكم 48، 1 صفر 979هـ

أسطولي الهمايوني وعليك ببذل وإظهار مساعيك الجميلة في سبيل الأمور المتعلقة بالدين الحنيف ودولتي الأبدية.¹

وبخصوص إيالة طرابلس الغرب أكد الباب العالي كذلك على ضرورة حفظها وتشديد حراستها وهو مانجده في المراسلة السابقة الموجهة لحاكم طرابلس الغرب والتي ورد فيها: "...أن تستعد حال وصول الحكم، وأن تجد وتسعى افي حفظ وحراسة الولاية وأن تقوم بتعمير وترميم القلاع...وبتجهيز المدافع...وتهيئة كافة الأسلحة والبارود وسائر المعدات...".²

ولم يكتف الباب العالي بمراسلة حكام الإيالات المغربية فحسب استعدادا لهذه الحملة ولكنه خاطب أيضا العنصر المحلي وحثه على ضرورة الانتباه والاستعداد اللازم لرد عدوان الأوروبيين، وهو ما نجده في الخطاب المرسل إلى أعيان تونس بتاريخ 21 محرم 979هـ/أفريل 1571م والذي ورد فيه:

"حُكم إلى أعيان تونس

...وقد بلغنا أنباء عن احتمال هجوم سفن الإسبان اللعناء على دياركم أثناء تواجد أسطولنا في أنحاء البندقية، فعليكم بالتنبيه والتأكيد على بعضكم بعضا لإعداد وتجهيز القلاع بالعتاد والاسلح وسائر اللوازم والمهمات للوقوف على أهبة الاستعداد كي تتمكنوا من معاونة أسطولي الهمايوني حال وصوله إلى طرفكم وكي تدفعوا ضرر وفساد الأعداء...".³

¹أ.و.ج، مهمة دفترى 16، حكم 40، 20 جمادى الأولى 979هـ

²أ.و.ج، مهمة دفترى 10، حكم 06، 2 محرم 979هـ

³أ.و.ج، مهمة دفترى 17، حكم 06، 21 محرم 979هـ

إذاً، ومن خلال هذه المراسلات الموجهة من الباب العالي لحكام الإيالات المغربية وكذا للعنصر المحلي والقيادات الداخلية فيها يتبين لنا مدى حرص الدولة العثمانية على أمن وسلامة الإيالات المغربية وعلى ضرورة التنسيق بين المشاركة في معركة ليباننو وحماية هذه الإيالات من أي هجوم محتمل من قبل الأوروبيين الذين لن يضيعوا مثل هذه الفرصة للإغارة على سواحل الإيالات المغربية، كما نخلص من خلال قراءتنا لهذه المراسلات أن معركة ليباننو كانت -رغم بعدها الجغرافي نوعاً ما خاصة عن الجزائر- تشكل تهديداً حقيقياً لأمن الإيالات المغربية وعلى أساس ذلك اقتضت السياسة العثمانية توجيه الأوامر والتعليمات للأطراف المذكورة بوجوب اليقظة والانتباه من أجل الوقوف في وجه هذا التهديد.

4- سير المعركة:

قبل بداية المعركة عقد قادة الأسطول العثماني المذكورين آنفاً اجتماعاً حربياً شهد اختلافاً كبيراً بينهم في وجهات النظر والاستراتيجية العسكرية التي يجب أن تعتمد في هذه المعركة، فهذا علج علي بايلرباي الجزائري رفض مسبقاً خوض المعركة في هذا التوقيت مبيناً موقفه بأن السفن (الأسطول الجزائري) سارت مدة طويلة في البحر قاربت الستة أشهر وهي غير قادرة على الدخول في المعركة في هذا الوقت، كما أن العديد من الجند قد غادروا الأسطول بعد تسريحهم عقب فتح قبرص وبالتالي فهو ناقص من المقاتلين¹.

رغم أن وجهة نظر علج علي لقيت استحساناً من برتو باشا قائد القوات البرية للجيش العثماني غير أن القائد العام للأسطول مؤذن زاده علي باشا لم يصنع لكلام علج علي وقرر أن يباشر المعركة معتبراً أن عدم خوضها يعتبر طعناً لحمية

¹ ينظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، 161، أوزتونا، المرجع السابق، ج2، ص372

الإسلام وشرف السلطان، كما اعتبر بأن غياب خمسة أو عشرة آلاف مقاتل ليس بالشيء المؤثر حسبما أورده حاجي خليفة الذي أقرّ بوجود انقسام بين قادة الأسطول العثماني¹، وقد جاء عن "القرماني" في كتابه "أخبار الدول وآثار الأول" نصاً حول هذا الاجتماع جاء فيه: "...فتشاور المسلمون بعضهم مع بعض، فكان رأي الوزير الأعظم برتو باشا في ذلك أن لا يقابلهم ولا يقاتلهم... وكان ما رآه هو الأنسب بمقتضى الحال، وخالفه كاشف البحر علي باشا في ذلك فقال: لابد من لقاء الكفار... ولو سارت أغربة سفننا وهي خالية من عسكر الإسلام لكفت قبائل الكفار... فلم يزل يناظرهم حتى غلب على رأيهم، فاتفق الجميع على لقاء العدو..."² ويبدو هنا أن قائد القوات البحرية كان متهوراً -إن صحَّ هذا الوصف- في اتخاذ قراراته حيث رأى بأن القوات العثمانية ستنتصر في المعركة ولو كانت ناقصة العدد والعدة، كما نستشف من هذا النص مدى الخلاف الذي كان عليه القادة العثمانيون قبيل المعركة والذي سيؤثر لاحقاً في نتائجها بدون شك سلبا على العثمانيين.

وعلى عكس القادة العثمانيين فقد كان قادة الحلف الأوروبي المقدس حريصين جداً على التنسيق فيما بينهم، وهو ما يتجلى من خلال التقرير الذي أرسله الدون خوان إلى أخيه الملك فيليب الثاني بتاريخ 17 سبتمبر 1571م حول أماكن تواجد السفن وقياداتها وعن حالة أسطول الحلف المقدس بصفة عامة قبيل المعركة³،

¹ حاجي خليفة، المصدر نفسه، ص161، وقد كان حسن بن خير الدين من بين القادة الذين دعموا فكرة البدء في الخروج للحرب، ينظر: سي يوسف، المرجع السابق، ص124، De Rotalier, op-cit, p260

²القرماني، المصدر السابق، ج3، ص69

³ A.G.S, LEST, LEG, 3631, 64 (الملحق رقم16)

وقد كانت القوات الصليبية قد وصلت في 26 سبتمبر إلى خليج باتراس بالقرب من خليج ليباننو واستقرت به استعدادا لبداية المعركة¹.

في 17 جمادى الأولى 979هـ / 7 أكتوبر 1571م انطلقت المعركة، حيث خرجت القوات العثمانية من خليج ليباننو لمهاجمة القوات المسيحية التي انطلقت من خليج باتراس والتقى الطرفان بين ليباننو وباتراس²، وقد كانت القوات العثمانية تتألف من جناحين وقلب، حيث كانت اليمين تحت قيادة محمد شولوك باي الإسكندرية والميسرة بقيادة علق علي بايلرباي الجزائر، فيما كان القلب تحت قيادة برتو باشا ومؤذن زاده علي باشا³، أما القوات الصليبية فكانت بالتقسيم نفسه حيث تولى الدون خوان القلب، في حين كانت الميسرة تحت قيادة الشهير أندري دوريا، أما اليمين فتولاها القائد أوغستين بارباريغو (Augustin Barbarigo) قائد أسطول البندقية⁴.

باشرت القوات العثمانية بالهجوم ولم يمض وقت طويل حتى انهزم جناح اليمين والقلب من الأسطول العثماني وقُتل كل من القائد محمد شولوك باي ومؤذن زاده علي باشا القائد العام للأسطول⁵، وكان هذا الانهزام الأولي والمفاجئ بسبب الخطة المحكمة التي وضعها الدون خوان إذ أنه قام بإخفاء بعض القطع من الأسطول المسيحي في الخليج خلف الصف الرئيسي المبادر بالهجوم ولم

¹ فكاير، دور الأسطول، المرجع السابق، ص418

² De Rotalier, op-cit, p261, 418، المرجع نفسه، ص

³ المرجع نفسه ، ص419

⁴ Athenien, op-cit, p708, 213,214، المرجع السابق، ص

⁵ حاجي خليفة، المصدر السابق، ص163،162، فكاير، دور الأسطول، ص419

تظهر إلا بعد بداية الالتحام مما مكنها من مباغثة القوات العثمانية وهزيمة ميمنة وقلب الأسطول العثماني¹.

5- دور بايلرباي الجزائر في معركة ليبانتو:

في هذا الوقت من المعركة كان علق علي بايلرباي الجزائر وقائد أسطولها في ليبانتو يُسير المعركة بذهاء وحذكة كبيرتين، حيث تمكن من هزيمة قوات مالطا بعد استيلائه على سفينة مالطية تحت قيادة جيستيانى (Gistiani) كما تمكن من هزيمة سُفن البابا التي كانت تحت قيادة دي كوردوبا (De Cordoba) والقضاء على معظم قواتها البالغة خمسمائة رجل منهم ثمانية ضباط ينتمون إلى أسر النبلاء الإسبان².

بعد أن علم علق علي بمقتل القائد العام للأسطول وهزيمة قلب الأسطول وميمنته، عرف بايلرباي الجزائر أنه استحال أمر مواصلة المعركة وأن الهزيمة فيها صارت وشيكة، فقام بسحب القوات التي تحت قيادته³ خارج المعركة وتمكن من إنقاذ قواته وسفنه الحربية وسار بها إلى جزيرة سانتا مورا (Santa Mora)

¹حاجي خليفة، المصدر السابق، ص162، كريسى، المرجع السابق، ص 213، 214، وللاطلاع على خطة وتركيبه قوات الحلف المسيحي في هذه المعركة ينظر: A.G.S, LEST, LEG, 1134, 88 (الملحق رقم 18)

² سحابات زهيرة، المرجع السابق ص 144، فكاير، دور الأسطول، المرجع السابق، ص 419
³ شارك العديد من رياس البحر والمتطوعين من العنصر المحلي الجزائري في معركة ليبانتو، ويظهر هذا من خلال الرسائل الهمايونية الموجهة لحكومة الجزائر والتي تنص على منح مكافآت لهاته الشخصيات نظير خدماتها في هذه المعركة. ينظر: أ.و.ج، مهمة دفترى 13، حكم 4، 979هـ، أ.و.ج، مهمة دفترى 13، الأحكام 63، 65، 66، 67، 68، 69، سنة 980هـ

أين عمل على جمع ما تبقى من الأسطول العثماني المنهزم وعاد به إلى إسطنبول¹.

6- نتائج المعركة:

6-1- النتائج العسكرية:

خسر العثمانيون معركة ليبانتو²، وخسروا فيها مائة وثلاثين سفينة غنمها المسيحيون، كما أُحرقت وأُغرقت أربع وتسعون أخريات، إضافة إلى ثلاثمائة مدفع، كما قُتل في هذه المعركة حوالي ثلاثين ألفاً من جند المسلمين فيما سيق إلى الأسر ما يقارب الأربعة آلاف، هذا واستطاع المسيحيون تحرير ما يقارب ألفين أسير نصراني، أما من الطرف الأوروبي فقد قُتل حوالي ثمانية آلاف رجل وأصيب عشرة آلاف آخرون³.

وبالنسبة لإيالة الجزائر فقد تم ترقية حاكمها الباييرباي علج من طرف السلطان سليم الثاني⁴ وعين في رتبة قبودان باشا أي القائد العام للأساطيل

¹ سيلفاتور بونو، المرجع السابق، ص 102، سي يوسف، المرجع السابق، ص 127
² يعتبر المؤرخ التركي المعاصر أحمد قواش (Ahmet Kavas) أن الوزير أحمد صوقلي باشا كان سبب الهزيمة في معركة ليبانتو لأنه أسند مهمة قيادتها إلى قائدين في الجيش البري لا يملكان الخبرة الكافية في الحروب البحرية، كما يضيف أن من أسباب الخسارة في هذه المعركة تصديق العثمانيين "البروباغاندا" الإسبانية التي روجت إلى أن حملتها العسكرية كانت موجهة للجزائر أو إلى تونس مما جعل العثمانيون يندفعون ولا يتوقعون توجه القوات الإسبانية إلى ليبانتو خاصة وأن القوات العثمانية كانت منهكة وغير مستعدة بعد حملة فتح قبرص، ينظر: Kavas, op-cit, p19,20

³ لمزيد حول نتائج المعركة بالنسبة لكلا الطرفين ينظر: الم حامي، المرجع السابق، ص 257،

Mexange, op-cit, p145

⁴ السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني، حكم الدولة العثمانية ما بين 1566-1574، في عهده تم انهزام البحرية العثمانية في معركة ليبانتو، وتم للدولة العثمانية فتح قبرص، وكذا تحرير تونس وحلق

العثمانية وقد ورد هذا التعيين في رسالة بتاريخ 7 رمضان 979هـ/ديسمبر 1571م جاء فيها: "...بناء على مشاهدتنا لما بذله قليج علي أمير أمراء جزائر الغرب السابق من بسالة ومشاركة حقة في أداء خدماتنا المبرورة في سبيل الغزو والجهاد، فقد استجلب بذلك مزيد عنايتنا، واستحق بذلك تقليده قيادة الأسطول لدى بابنا المعلا إلى جانب إمرة ولاية الجزائر..."¹، وذلك نظير جهوده العظيمة في تسيير المعركة وكذلك لكفاءته الحربية وخبرته البحرية الطويلة في الحروب العثمانية الأوروبية في حوض البحر المتوسط².

هذا، وقد كان الباب العالي قد قام بإصدار قرار بإعادة تنصيب حسن باشا بن خير الدين حاكما على الجزائر خلفا لعلي الذي ارتقى لقيادة الأسطول العثماني³ وأرسل بخصوص ذلك خطأ بالهالي الجزائر بتاريخ شعبان 979هـ/ديسمبر 1571م يتضمن الإشارة إلى تعيين علي أميرا للبحر وتولية حسن بن خير الدين خلفا له⁴.

ورغم تخوف الباب العالي من عدم قبول حسن بن خير الدين مهمة تولي حكم إيالة الجزائر من جديد بداعي أنه قد عُزل منها سابقا إلا أن الأخير قد قبل عرض

الوادي نهائيا من الوجود الإسباني. للمزيد حوله ينظر: المنح الرحمانية، المصدر السابق، ص 185-202، مقديش، المصدر السابق، ص 58-62، شذرات الذهب، المصدر السابق، ج 10، ص 570،

Athenien, op-cit, p675.571

¹أ.و.ج، مهمة دفترى 12، حكم 1088،7 رمضان 979هـ

²حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 163

³أ.و.ج، مهمة دفترى 16، حكم 555، شعبان 979هـ

⁴أ.و.ج، مهمة دفترى 16، حكم 347، شعبان 979هـ

السلطان العثماني وقرر التوجه إلى الجزائر¹، فيما قرر الباب العالي إرسال ألف جندي متطوع وسفينتين رفقة حسن بن خير الدين إلى الجزائر حسب الطلب الذي قدمه الأخير للسلطان العثماني وذلك كما جاء في الخطاب السلطاني المؤرخ في شعبان 979هـ²، غير أن حسن باشا لم يتمكن بالالتحاق بمنصبه بداعي المرض الذي توفي على إثره في شوال 979هـ/فيفري 1572م³، مما جعل الباب العالي يُدقي حكم إيالة الجزائر لعلي رفقة احتفاظه برتبة القائد العام للأسطول العثماني كما ورد في نص الرسالة السابقة.

6-2- النتائج الجيوستراتيجية⁴:

اعتُبرت معركة ليبانتو من أهم الوقائع البحرية وأعظمها أثرا في البحر المتوسط وذلك نظير النتائج الجيوستراتيجية التي أفرزتها، فهذا شمس الدين الكيلاني في

¹إلتر، المرجع السابق، ص232، وقد بعث الباب العالي برسالة لعلي من أجل البحث عن حسن بن خير الدين ليتولى منصبه الجديد كحاكم لإيالة الجزائر. ينظر: أ.و.ج، مهمة دفترتي 10، حكم157، 979هـ

²أ.و.ج، مهمة دفترتي 16، حكم 632، شعبان 979هـ، وقد أمر الباب العالي علي بإرسال هذه السفن إلى حسن خير الدين ليتوجه رفقتها إلى الجزائر. ينظر: أ.و.ج، مهمة دفترتي 10، حكم 338، 979هـ، وحول ذات المسألة ينظر: أ.و.ج، مهمة دفترتي 18، حكم 280، 979هـ

³إلتر، المرجع السابق، ص232، سي يوسف، المرجع السابق، ص130، 131

⁴رغم أن مصطلح "الجيوستراتيجية" معاصر نوعا ما إلا أننا فضلنا استعماله لأنه يتناسب بشكل جيد مع هذا العنصر من الدراسة تحديدا، إذ أن الجيوستراتيجية تُعنى بدراسة موقع الدولة أو المنطقة الإقليمية ومدى تأثيره على العلاقات السلمية والحربية وكذا تحديد موقع الدولة بالأحلاف العسكرية، إضافة إلى مساهمة الانتصارات أو الهزائم العسكرية في إعادة رسم طرق التجارة والحدود السياسية للدول، وبالتالي فهو يتماشى مع نتائج معركة ليبانتو. حول هذا المصطلح ينظر: نوار جليل هاشم، محمد كاظم المعيني، مابين الجيوبوليتيك والجيوستراتيجية؛ دراسة في اختلاف المفاهيم، المجلة الأكاديمية للبحوث القانونية والسياسية، جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر، مج4، ع2، 2020

كتابه "الإسلام وأوروبا المسيحية" يقول عن المعركة بأنها أهم المعارك البحرية في التاريخ فصلاً، ويضيف بأن العثمانيين فقدوا-بعد الهزيمة في ليبانتو- زمام المبادرة في المتوسط وفقدت بحريتهم مكانتها الاستراتيجية¹، ويدعم رأيه المؤرخ "بول كولز" بقوله أن النصر المسيحي في ليبانتو هو التحول الفاصل في ميزان القوى في البحر المتوسط، وبأن هذه المعركة أنهت مرحلة العمليات الكبرى والطموحة في المتوسط بالنسبة للمسلمين والمسيحيين على السواء²، أما المؤرخ "يلماز أوزتونا" فيقول بأن الخسارة الحقيقية في هذه المعركة لم تكن مادية بل معنوية، إذ زالت شهرة الدولة العثمانية بكونها دولة لا تُقهر وثبتت فعلياً إمكانية قهرها³، كما أن هناك من اعتبر أن الخسارة في ليبانتو كانت كارثة هزّت الدولة العثمانية لدرجة أنها أنست انتصارات سابقة⁴، في حين ورد في كتاب "المغرب وأوروبا" لعبد المجيد القدوري أن معركة ليبانتو كانت أهم حدث عسكري عرفه القرن السادس عشر، وأن الانتصار المسيحي في ليبانتو قضى على أسطورة سيطرة الأسطول العثماني على البحر المتوسط، كما أن إسبانيا-حسب القدوري- قد شجعت بعد هذا الانتصار الكبير القرصنة المسيحية وجعلتها أداة لضرب مصالح العثمانيين وعرقلة اتصالاتهم مع إيالاتهم في شمال أفريقيا⁵.

وإضافة إلى ذلك فقد عمل قادة الحلف المسيحي تحت إشراف البابا من أجل إلحاق خسائر جيوسراتيجية أكبر بالدولة العثمانية وذلك من خلال فتح جبهات حربٍ عديدة على العثمانيين بحيث دعموا الصفويين على ضرب الحدود الغربية

¹ الكيلاني، المرجع السابق، ص 137

² كولز بول، المرجع السابق، ص 95

³ أوزتونا، المرجع السابق، ص 374

⁴ Kavas, op-cit, p3

⁵ القدوري، المرجع السابق، ص 168-170

العثمانية، فيما أرسل البابا مبعوثين إلى كل من ملك أثيوبيا والشريف المطهر حاكم الجزيرة العربية محاولاً توحيدهما لضرب العثمانيين جنوب البحر الأحمر¹.

من جهتنا، يمكن القول أن الحكم بأن الأسطول العثماني قد فقد سيطرته على المبادرة في البحر المتوسط وبأن الدولة العثمانية فقدت مكانتها الاستراتيجية في المنطقة بعد هزيمة ليبانتيو يبدو مبالغاً فيه نوعاً ما على اعتبار أننا سنرى بأن العثمانيين سيتمكنون بعد ما لا يزيد عن سنتين من هذه الهزيمة من الانتصار في معركة أخرى حاسمة حول النفوذ في البحر المتوسط وسيتمكنون من هزيمة الإمبراطورية الإسبانية في معركة حلق الوادي سنة 1574م والتي سيطرُدُ فيها العثمانيون نظراءهم الإسبان من تونس ويضمونها إلى الدولة العثمانية بشكل نهائي، لتصبح بذلك كافة الضفة الجنوبية للبحر المتوسط - باستثناء وهران والمرسى الكبير - تحت النفوذ والسيطرة العثمانية، وربما يتفق معنا في هذا الطرح الباحث أحمد قواش الذي يذكر بأنه رغم كل ما قيل عن أن البحرية العثمانية لن تتعافى أبداً بعد ليبانتيو إلا أنها قامت بأسرع وأقوى الاستعدادات في تاريخها وتوجهت نحو تونس². وبالتالي فإن الخسارة في ليبانتيو لم تُنه مطلقاً استمرار العثمانيين في عملياتهم العسكرية وبسط نفوذهم في غرب البحر المتوسط ودحر الإسبان من المنطقة في المقابل، خاصة إذا أضفنا لفتح تونس نجاح العثمانيين في إيصال عبد الملك السعدي - حليف الباب العالي - إلى عرش المغرب الأقصى سنة 1576م ثم دعمه لردع وهزيمة حملة ملك البرتغال دون سيباستيان (Don Sébastian) سنة 1578م مما سيقوّض أيضاً من النفوذ الإسباني والأوروبي عامةً في جنوب غرب المتوسط.

¹ بوحمشوش، التضامن، المرجع السابق، ص112

² Kavas, op-cit, p20

ثانيا: تصفية القواعد الإسبانية في تونس (تحرير تونس وحلق الوادي 1573-1574):

1- حملة دون خوان النمساوي (Don Juan D'Autriche) على تونس سنة 1573م:

بدايةً؛ وعن الوضع في تونس تجدر الإشارة إلى أن السلطان الحفصي أبو العباس أحمد كان قد فرّ لاجئاً سنة 1570م إلى القاعة الإسبانية بحلق الوادي¹ مستجداً بالسلطات الإسبانية وطالبا منها التدخل لحمايته من العثمانيين والقبائل المتمردة ضد حكمه بعد تحرير تونس من قبل عالج علي كما أشرنا إلى ذلك في المبحث السابق، ويقول ابن أبي دينار عن تونس في هذا الصدد: "ومكثت في أيدي أهل الجزائر ثلاث سنين إلى أن جاءت العمارة من الإمبراطور بإذن السلطان أحمد.."، أي أن الإسبان لم يقوموا بنجدة السلطان الحفصي ولم يتدخلوا في تونس إلا سنة 1573م، أي بعدما تفوقوا في هذه الفترة على العثمانيين في معركة ليبانتو، وعلى إثر ذلك قرر الملك الإسباني التحرك لاستعادة تونس وطرد العثمانيين بشكل نهائي منها وكذا لبسط نفوذ امبراطوريته على كامل البلاد التونسية بدل إبقاء حاميات عسكرية معرضة دائماً لضربات العثمانيين².

إذاً، بعد انتصارهم في معركة ليبانتو على القوات العثمانية واستغلالاً منهم لهذا النصر العسكري والمعنوي الكبير سعى الإسبان لتجهيز حملة جديدة على مدينة تونس (التي فتحها عالج علي مطلع سنة 1570م كما تمت الإشارة إليه سابقاً)

¹ كان حصن حلق الوادي قاعدة للقوات الإسبانية بتونس منذ سنة 1535م، ولم يستطع عالج علي أن يتمكن من طرد الإسبان منه رغم استيلاءه على تونس العاصمة سنة 1570م.

² قرود، المرجع السابق، ص 250

لا استعادتها وطرده العثمانيين منها وتثبيت النفوذ الإسباني من جديد في بلاد المغرب.

كان الباب العالي -عقب الخسارة في ليبانتو مباشرة- على دراية بأن الإسبان سيقومون بعملية عسكرية كبيرة في بلاد المغرب، ولهذا وفور نهاية المعركة بقي الباب العالي مهتماً بتحركات الحلف المسيحي المقدس وراح يرسل بايلر باي الجزائر مستخبراً إياه عن حالة الأسطول العثماني وحثاً إياه على ضرورة تتبع أخبار وتحركات القوات الإسبانية وإرسالها إلى الأستانة وذلك حسبما جاء في مراسلة مؤرخة في 1 جمادى الثانية 979هـ/أكتوبر 1571م جاء فيها:

"حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب

أرسلت إلى سدة سعادتنا خطاباً تعرب فيه عن حالة الأسطول الهمايوني... ولقد سبقت إرادة الله، وآلت أوضاع الأسطول الهمايوني، على كل حال فالحرب سجال... ولكن فما هي أوضاع ما تبقى من السفن؟ وما هي أحوال الكفار؟ وأين يتواجدون بالضبط؟... وابعث لنا عاجلاً عن كل ذلك وعمماً يردك من أخبار صحيحة.¹، ومنه فإن الباب العالي قد بقي على اهتمام بتحركات القوات المسيحية ومتخوفاً من تنفيذها عمليات عسكرية جديدة ضد الأقاليم العثمانية وخاصة الإيالات المغربية.

الم تخطئ توقعات الباب العالي بشأن تحركات الأطراف المسيحية بقيادة المملكة الإسبانية، ففي مطلع عام 1573م وقع الملك فيليب الثاني قراراً ملكياً يقضي بتجهيز حملة عسكرية على تونس، وقد تم إسناد مهمة قيادتها إلى أخيه

¹سي يوسف، المرجع السابق، ص 248

غير الشقيق دون خوان النمساوي¹ المنتصر في لياننتو على القوات العثمانية، غير أن الباب العالي كان قد قرأ جيدا حسابات السلطات الإسبانية وأنه من الممكن أن تقوم بتجهيز حملة عسكرية على تونس ولهذا فقد بعث برسالة لقائد الأسطول العثماني وبايلرلرباي الجزائر عالج علي في شوال 979هـ/فيفري 1572م طالبا منه ضرورة حفظ السواحل والبلاد التونسية من الغزو الإسباني المحتمل لها على حين غفلة².

وكما وضع الباب العالي ثقته في عالج علي من أجل حماية الإيالات المغربية اهتمت الاستخبارات الإسبانية في البحر المتوسط بتحركات هذا الأخير حيث وصل إلى البلاط الإسباني تقرير استخباراتي مرسل من كورفو باليونان تضمن معلومات محصّل عليها من القسطنطينية وسواحل بلاد الشام حول تحركات عالج علي في البحر المتوسط ما بين 31 ماي و1 جوان 1572م³.

حسب التقارير الإسبانية فإن قوات الحلف المسيحي المقدس بقيادة الدون خوان قد بدأت تجتمع وتستعد في ميناء ميسينا بصقلية منذ صيف سنة 1572م من أجل شنّ حملتها العسكرية على تونس⁴، ويبدو أن هذه الاستعدادات قد استغرقت عدة شهور، حيث أن هذه القوات لم تتحرك نحو تونس إلا في خريف السنة

¹ De Rotalier, op-cit, p266

² أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 1003، 1004، 23شوال 979هـ

³ A.G.S, LEST, LEG, 1401, 41

⁴ في 31جويلية 1572م وصلت إلى الملك الإسباني فيليب الثاني رسالة من أندري دوريا يعلمه فيها الأخير بوصوله رفقة قواته إلى ميناء ميسينا، ينظر: A.G.S, LEST, LEG, 1402, 91، وفي 23 أوت من نفس السنة بعث أندري دوريا برسالة ثانية إلى الملك الإسباني يخبره فيها بوصوله وقواته إلى ميسينا ويبيّن فيها رأيه بخصوص قوات الحلف المقدس التي تستعد لشنّ حملة على تونس. ينظر:

A.G.S, LEST, LEG, 1402, 93 (الملحق رقم 17)

الموالية، ففي 7 أكتوبر 1573م خرجت قوات الحلف المقدس بقيادة الدون خوان متجهة نحو تونس مكوّنة من مائة وثمانية سفن منها ثمانية عشر سفينة حربية تحمل اثنين وعشرين ألف جندي من إيطاليا وإسبانيا وألمانيا¹، وحسب التقرير الذي أورده (De la Primaudaie) فإن الأسطول الذي قاده الدون خوان إلى تونس كان مكوّنا ممايلي:

- 107 سفينة من نوع غاليرا
- 31 سفينة
- سفينة من نوع غليون لدوق توسكانا
- عدد كبير من سفن النقل الخاصة والفرقاطات والسفن الأخرى
- أما الجيش فقد كان مكونا كالتالي:
- 13 ألف جندي إيطالي، 9000 جندي إسباني، 5000 جندي ألماني، و500 من الفرسان، مما مجموعهم 27500 جندي².

لكن وكما كان متوقعا، وبما أنّ الباب العالي كان على دراية تامة بالحملة التي سيقودها الدون خوان لاسترداد تونس³ وتكريس السيطرة الإسبانية عليها فقد تم مراسلة بايلرباي الجزائر وإخباره بالحملة الإسبانية، مع التأكيد على الأخير بضرورة

¹ تومي طاهر، المرجع السابق، ص 294، 295، 266، De Rotalier, op-cit,

² De la Primaudaie Elie, Documents inedits sur l'histoire de l'Occupation Espagnol en Afrique 1505-1574, A. Jourdan Libraire Editeur, Alger, 1875, p285

³ وصلت المعلومات إلى الأستانة حول هذه الحملة من قبل لوردات دوبرونفيك (مدينة على سواحل البلقان، تابعة لجمهورية كرواتيا حالياً) التي أخبرت الباب العالي بأن الإسبان يجهزون حوالي مائة وخمسين سفينة ويستعدون لغزو تونس، ينظر: Kavaz, op-cit, p21

الاستعداد التام لها، حيث جاء في المراسلة المؤرخة بـ4 صفر 980 هـ / جوان 1572م:

"حُكْم إلى أمير أمراء جزائر الغرب

...وأن الرئيس قرة حسن قد أخذ أسيرين من جزيرة مالطا وعلم منهما بأن أساطيل الكفار تعد عدتها في ميسينا... وأمرت... عليك بالتقيد في هذا الصدد وإعداد السفن التي بحوزتك بكامل أسلحتها ومعداتها ولوازمها... كي تقوم بالإغارة على سفن الأعداء دمرها الله وضربها حال تحركها وفي الوقت المناسب"¹، ولم يكتف الباب العالي في موقفه تجاه هذا التهديد الجديد على تونس بإخبار بايلرباي الجزائر بشأنه فقط بل راح يتواصل مع حاكم تونس رمضان باشا حول هذه الحملة خاصة وأنها موجهة بشكل مباشر لاستعادة تونس، حيث نجد في المراسلة المؤرخة في 21 ذو القعدة من سنة 980 هـ / مارس 1573م إخبار الباب العالي لرمضان باشا بنية الدولة العثمانية إرسال أسطولها الهمايوني إلى تونس من أجل تحرير حلق الوادي وفيها أيضا توصيات لحاكم تونس حول ضرورة توفير الدخيرة والعتاد الحربي وسائر المعدات اللازمة للمشاركة في هذه العملية².

هذا، كما راسل الباب العالي حاكم الجزائر عَرَب أحمد في مراسلتين تحملان نفس التاريخ السابق حول ضرورة التوجه لتونس لردع الأعداء ومناصرة الأسطول الهمايوني، إذ جاء في المراسلة الأولى والتي وجهت نسخة منها أيضا لحاكم طرابلس الغرب:

¹أ.و.ج، مهمة دفترتي 19، حكم 255، 4 صفر 980 هـ

²أ.و.ج، مهمة دفترتي 21، حكم 517، 21 ذو القعدة 980 هـ، وكذلك: أ.و.ج، مهمة دفترتي 21، حكم 540، 21 ذو القعدة 980 هـ

حُكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب

بمناسبة الغزو والجهاد في البحر فإن الأمر يقضي تواجد ما في حوزتك من قارذ غات وغاليدات في أسطولي الهمايوني...وعليك بتجهيز كافة المحاربين والسفن بكل معداتها وأسلحتها...¹، أما المراسلة الثانية والموجهة خصيصا لحاكم الجزائر عَرَب أحمد ف جاء فيها:

"...بمشيئة الله الملك المتعال فقد تقرر إرسال أسطولي الهمايوني المنصور بالعساكر المظفرة إلى تلك الأطراف في هذا العام للغزو والجهاد...وقد أرسل حكم آخر في هذا الصدد لأمير أمراء طرابلس...و صدر أمرنا بالحضور لملاقاتك بع ساكره وأمرنا أن تستعد للو صول إلى تونس أولا لانتظار الأسطول الهمايوني...²، ورغم تأكيد الدولة العثمانية على ضرورة مشاركة القوات الجزائرية في هذه الحملة الوشيكة على تونس فإن الباب العالي وكما في كل مرة أكد على ضرورة تأمين إيالة الجزائر قبل التوجه والانضمام للأسطول الهمايوني، حيث جاء في هذه المراسلة الأخيرة:"...وكذلك بعد تعيين قدر كاف من الرجال الأكفاء على أطراف وجوانب البلاد لحفظها وحراستها...³، هذا، كما لم يهمل الباب العالي ضرورة التنسيق بين قيادة البحرية العثمانية -والتي أصبح يتولاها عالج علي بايلرباي الجزائر منذ معركة ليبانتو أكتوبر 1571م- وبين حكام الإيالات المغربية

¹أ.و.ج، مهمة دفترتي 21، حكم 503، 21 ذو القعدة 980هـ

²أ.و.ج، مهمة دفترتي 21، حكم 526، 527، 21 ذو القعدة 980هـ. كما تتناول الوثيقة: أ.و.ج، مهمة دفترتي 21، حكم 637، 16 ذو الحجة 980هـ نفس الأوامر المتعلقة بإعداد القوات الجزائرية للانضمام إلى الأسطول الهمايوني وبضرورة تأمين إيالة الجزائر أثناء ذلك.

³مهمة دفترتي 21، حكم 526، 527، 21 ذو القعدة 980هـ

وهو ما نجده في المراسلة الموجهة للقبودان علع علي والتي تعتبر ردا على طلبٍ للأخير حول ما يتعلق بضرورة التنسيق بين القيادات المذكورة، إذ ورد فيها:

"حُكم إلى القبودان

أرسلت خطابا تعرب فيه عن ضرورة إرسال رجل عن جانب كل من أمير أمراء الجزائر وتونس وأمير أمراء طرابلس الغرب قبيل التحاق المذكورين بسفنهما بأسطولي الهمايوني.

وبناء عليه فقد سطرت أحكام شريفة لكل منهما كي يكونا على أعبء الاستعداد للالتحاق بأسطولي الهمايوني...¹، ويبدو أن علع علي أراد من هذه الخطوة أن ينسّق مع قيادات الإيالات المغربية مسبقا بما يضمن له جمع المعلومات والأخبار عن أساطيل الإيالات المغربية قبل التحاقها بالأسطول الهمايوني مما يجعله يضع خطته الحربية وفق ماسيتوفر بين يديه من معلومات وأخبار.

هذا، ولم ينس الباب العالي العنصر المحلي وضرورة مشاركته في الحملة الوشيكة على تونس، إذ جاء في المراسلة المؤرخة بـ16 ذو الحجة 980هـ/أفريل 1573م إلى حاكم الجزائر وإلى أمرائها وسائر أعيانها: "...وأن كل من سيشارك ويدبل خدماته في سبيل الجهاد سيُحف بأنواع عنايتنا ولطفنا...وعليه يجب ترغيب واستمالة أبطال الجزائر الشجعان وتحريضهم على القتال..."².

أما عن القوات الإسبانية وخُطّتها التي أُعدّت لهذه الحملة فقد كان للدولة العثمانية علم بكل حيثياتها وهو ما نجده في المراسلة التحذيرية لحاكم تونس حيدر باشا والتي كانت قبل شهرين من وصول الحملة إلى تونس والتي جاء فيها:

¹ مهمة دفترى 21، حكم 509، 21 ذو القعدة 980هـ

² مهمة دفترى 21، حكم 637، 16 ذو الحجة 980هـ

"حكم إلى حيدر¹ أمير أمراء تونس

بعد استجواب الأسرى الذين أخذوا من الكفار... فقد أقروا بأن قائد أسطول الإسبان الملعون يعد عدته وأن فكره الفاسد وخياله الكاسد ينصب على زج مائة وخمسين سفينة باتجاه تونس...²، وتضمنت المراسلة ذاتها أن الباب العالي أعطى الأوامر لعرب أحمد حاكم الجزائر بإمداد حاكم تونس بقوات إيالة الجزائر، وأكدت المراسلة كما هو الحال في كل مرة على ضرورة التنسيق بين حاكمي الجزائر وتونس من أجل مواجهة التهديد الإسباني³، وعلى غرار المراسلة الموجهة لحيدر باشا راسل الباب العالي في هذا التاريخ كذلك كل من حاكم الجزائر وحاكم طرابلس الغرب حول الهجمة المحتملة من قبل الإسبان وضرورة توحيد الجهود وتنسيق الخطوات لردعها ومواجهتها⁴.

على هذا الأساس، وانطلاقاً من جميع هذه المراسلات التي بُعثت لأطراف عدّة في الإيالات المغربية، من حكام وأمراء محليين وأعيان، يتبين مدى حرص الباب العالي على ضرورة حماية الإيالة التونسية من التهديد الإسباني المحتمل عليها وعلى موقفه الثابت والحازم من أجل حماية وحفظ وتأمين الإيالات المغربية بشكل عام، كما أن في هذه المراسلات ما يؤكد حرص الباب العالي على وجوب اتحاد

¹ حيدر باشا كان حاكم القيروان، في حين كان القائد رمضان (رمضان باشا) حاكم تونس، إلا أنه في 15 ماي 1573م/15 محرم 981 هـ تم تعيين حيدر باشا حاكماً على تونس مكان رمضان باشا الذي

سيلتحق بمنصب حاكم إيالة الجزائر، ينظر: Kavaz, op-cit, s21

² أ.و.ج، مهمة دفترتي 22، حكم 419، 4 جمادى الأولى 981 هـ

³ أ.و.ج، مهمة دفترتي 22، حكم 419، 4 جمادى الأولى 981 هـ

⁴ أ.و.ج، مهمة دفترتي 22، حكم 418، 4 جمادى الأولى 981 هـ، أ.و.ج، مهمة دفترتي 22، حكم 430،

4 جمادى الأولى 981 هـ

الإيالات المغربية فيما بينها وضرورة تنسيقها مع الباب العالي لردع أي عدوان خارجي.

أما بالنسبة للحملة الإسبانية والتي كانت متأهبة في ميسينا بجزيرة صقلية فقد انطلقت يوم 7 سبتمبر 1573م ووصلت إلى ميناء حلق الوادي بتونس في 10 أكتوبر 1573م¹ أين انضمت إليها هناك تسع وتسعون سفينة من إسبانيا كانت قد وصلت إلى القاعدة الإسبانية في حلق الوادي²، وكان الإسبان قد اشترطوا على السلطان أحمد الحفصي شروطاً مقابل إعانته على استعادة العرش الحفصي في تونس تمثلت أهمها في أن تكون الأخيرة محمية إسبانية يحكمها السلطان الحفصي باسم ملك إسبانيا، غير أن أبو العباس أحمد رفض ذلك فتمّ عزله من طرف الدون خوان وولّى مكانه أخاه محمد -الذي وافق على شروط الإسبان- سلطاناً على تونس يحكمها باسم ملك إسبانيا³.

توجهت القوات الإسبانية بعد نزولها في حلق الوادي باتجاه العاصمة تونس التي كانت تحت حكم القوات العثمانية بقيادة رمضان باشا الذي أدرك أنه لا يستطيع مقاومة الإسبان على اعتبار أن تعداد الحامية العثمانية لا يقوى على الوقوف أمام القوات الإسبانية الضخمة فتراجعت الحامية العثمانية من تونس نحو القيروان فيما استولت القوات الإسبانية بمعونة السلطان الجديد محمد الحفصي على العاصمة تونس دون مقاومة تذكر، وهنا يقول بن أبي دينار: "...وأما الترك فلما

¹ الموافق لـ جمادى الثاني 981هـ.

² تومي الطاهر، المرجع السابق، ص294، قرود، المرجع السابق، ص250

³ في حين فرّ السلطان أحمد إلى جزيرة صقلية واستقر بمدينة باليرمو (Palermo) إلى أن توفي بها. ينظر: ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص165، الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص206، إلتز، المرجع السابق، ص242

داهمتهم النصارى ورأوا أن الأمر فوق طاقتهم خرجوا لناحية الحمامات فما فتحوا لهم بابا إلا وأغلقتهم في وجوههم فأجمعوا رأيهم أن يكون ذهابهم إلى القيروان... وتفتت شوكة النصارى بتونس...¹، أما الباجي المسعودي فيصف دخول القوات الإسبانية إلى العاصمة تونس قائلا: "...فدخل أخوه محمد القصبة وجالسه شريكه النصراني وانتهت البلاد وأهين الدين وعم الخراب وتكرر المشرب وتفرق الجمع... وورسم الكفار قلعة خارج باب البحر سموها البستيون... ولاقى الناس من جورهم وعتوهم ما لا يوصف..."²، وحسب الباحث أحمد قواش (Ahmet Kavas) فإن انتصار حملة الدون خوان على تونس يُعزى إلى التنظيم الجيد للقوات الإسبانية وإلى استغلال الظرف العسكري الهام والمتمثل في عدم إمكانية تدخل الاب العالي عسكريا خاصة مع تضعف الأسطول والقوات العثمانية بعد الهزيمة في ليبانتو.³

بعد انتصاره في تونس أراد الدون خوان أن يقيم في المدينة ويؤسس فيها مملكة ينفرد بحكمها عن المملكة الإسبانية مما أثار غضب الملك فليب الثاني الذي طلب منه الانسحاب من تونس والعودة لإسبانيا، حيث أن الملك الإسباني أراد أن يُبقي تونس تحت حكم الأسرة الحفصية التابعة له لا أن يقيم بها حكما استعماريًا مباشرًا⁴، وعلى هذا الأساس اضطر الدون خوان إلى مغادرة تونس تاركًا فيها

¹ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 167

² الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص 207

³ Kavas, op-cit, p21

⁴ إلتز، المرجع السابق، ص 242

حوالي اثنين وعشرين فيلقا عسكريا مكونا من ثمانية آلاف جندي من الإسبان والإيطاليين تحت قيادة الحاكم العسكري سيربيلوني (Serbellone).¹

2- الحملة العثمانية الكبرى لتحرير تونس وحلق الوادي سنة 1574م:

كانت تونس تحظى باهتمام كبير من قبل الباب العالي كما من قبل المملكة الإسبانية، فبالنسبة للأخيرة فإن الاستيلاء على تونس يمكّنها من الحفاظ على النفوذ الإسباني في بلاد المغرب والذي ابتداء منذ مطلع القرن السادس عشر، خاصة أن تونس بقيت المنطقة الوحيدة من وهران غربا إلى طرابلس الغرب شرقا الخاضعة للحكم الإسباني بعد موجة التحرير العثماني التي شهدتها المنطقة، كما أن الحفاظ على تونس والحامية الإسبانية في حلق الوادي يضمن للمملكة الإسبانية التحكم في مضيق صقلية والطريق التجاري الرابط بين شرق وغرب البحر المتوسط، ضف إلى ذلك أن بقاء القوات الإسبانية في تونس سوف يسمح للإسبان بمراقبة كافة تحركات الدولة العثمانية وإيالاتها المغربية في حوض المتوسط وبالتالي الحيلولة دون تهديد هذه الأخيرة للجزر والسواحل الجنوبية الأوروبية.

أما بالنسبة للدولة العثمانية فإن استرداد تونس وتحرير حلق الوادي كان وراءه عدة أهداف أهمها:

- رد الاعتبار للأسطول العثماني وهيبة الدولة العثمانية بعد الهزيمة المدوية في ليبانتو.
- إنهاء الوجود الإسباني في بلاد المغرب.

¹ إلتز ، المرجع السابق، ص242، 266، De Rotalier, op-cit, p266

- حماية إيالتي الجزائر و طرابلس الغرب من الغارات والدملات الإسبانية المتكررة.

- تأمين الطرق البحرية الرابطة بين الإيالات المغربية والقسطنطينية.

- تأكيد ضم كامل البلاد التونسية كاملة للحكم العثماني.

إذاً، فبعد أن وصلت إلى السلطان سليم الثاني أنباء احتلال إسبانيا لتونس من جديد بقيادة الدون خوان قرر السلطان العثماني أن يجهز حملة عسكرية بحرية كبيرة لاستردادها بشكل نهائي وتخليصها من الوجود الإسباني، حيث جاء عن صاحب "البرق اليماني في الفتح العثماني": "...فوصلت هذه الأخبار الموحشة والأنباء المهشة إلى مسامع سلطان سلاطين الإسلام... السلطان سليم خان... فلما طرق إلى مسامع المرحوم ما وقع لأهل الإسلام من هذه المصائب العظام.. خاطب وزراءه العظام و بكلرباياته الفخام بتجريد العسكر المنصورة لخدمة الإسلام ولإذلال عباد الصليب من الكفرة اللئام..."¹، وبعد أن اجتمع السلطان بأرباب الدولة من الوزراء والقادة قرر أن يرسل حملة عسكرية بحرية بقيادة سنان باشا وأمر عرج علي قائد الأسطول العثماني بمرافقة سنان باشا في تسيير الحملة والإعداد لها بما في ذلك إعطاء الأمر لأمرأ السناجق من ذوي الخبرة والكفاءة للانضمام إليها والمشاركة فيها².

كانت أولى المراسلات العثمانية بخصوص استعادة تونس وتحريرها الكامل من الإسبان تلك التي وصلت لرمضان باشا حاكم تونس بتاريخ 23 شوال 981هـ/فيفري 1574م أي بُعيد أشهر قليلة من سقوط تونس في أيدي الدون خوان

¹ النهروالي قطب الدين محمد، البرق اليماني في الفتح العثماني، إيش، حمد الجابر، ط1، دار اليمامة، الرياض، 1968، ص465

² مقديش، المصدر السابق، ج2، ص71

وقواته، حيث تم فيها إعلام حاكم تونس بنية الدولة العثمانية تجهيز الأسطول الهمايوني من أجل تحرير تونس وحلق الوادي، وقد أعطيت فيها الأوامر لرمضان باشا بضرورة تقديم الخدمات للأسطول الهمايوني وبذل جهوده في سبيل الدين والدولة¹، وبعدها بشهرين توالى المراسلات العثمانية إلى حكام الإيالات المغربية وخاصة لحاكم الجزائر² بضرورة التأهب للمشاركة مع الأسطول الهمايوني في تحرير تونس وحلق الوادي.

وقد كانت المراسلة سابقة الذكر والموجهة إلى حاكم تونس عبارة على رد من الباب العالي على الخطاب الذي بعثه المذكور للأستانة بعد سقوطها في أيدي اقوات الدون خوان حيث ورد فيها أن: "...أرسلت خطابا تبليغ فيه عن استيلاء الكفار أصابهم الدمار على تونس وبنزرت..."³، وقد جاء فيها كذلك الإشادة "بكفاءة القائد رمضان"⁴ في التصدي للقوات الإسبانية أثناء الحملة المشار إليها. هذا، كما ورد في المراسلة ذاتها إعلام حاكم تونس بتجهيز الدولة العثمانية لأسطولها الهمايوني وتأهبها للتحرك من أجل تحرير تونس وحلق الوادي: "...ولقد تم تجهيز وإعداد ثلاثة مائة مركب لأجل الفتح وتسخير قلعة الواد بعناية الله وقد ألقنا تلك المراكب بعساكر مؤمنين وبجنود موحدين وعينا وزيرنا سنان باشا قائدا عاما (سردار) عليهم، وصدر أمرنا إلى قبوداننا وأمراننا وعساكر بادننا

¹أ.و.ج، مهمة دفترى 23، حكم 634، 23شوال 981هـ

²يحتوي رصيد مهمة دفترى رقم 23 ورقم 24 على المراسلات (الأحكام) المرسله لحكام الإيالات المغربية وخاصة لحاكم إيالة الجزائر والمتعلقة بالمشاركة مع الأسطول العثماني في تحرير تونس وحلق الوادي وهي الأحكام: 634 و783، من مهمة دفترى رقم 23، والأحكام 166، 167، 168، 198، 246 من مهمة دفترى رقم 24.

³أ.و.ج، مهمة دفترى 24، حكم 166، 5ذو الحجة 981هـ

⁴أ.و.ج، مهمة دفترى 24، حكم 166، 5ذو الحجة 981هـ

المعلا... وإلى الإنكشارية وأرباب التيمار والمتطوعين المتسلحين بالتوجه إلى هناك..."¹، وكما يمثل هذا الخطاب إعلماً لحاكم تونس بالتحرك العثماني فهو أيضاً يبين لنا مدى التجهيزات الكبيرة والاستعدادات التي يُعدّها الباب العالي من أجل تحرير تونس وحلق الوادي.

ومثلما هو الحال دائماً حرص الباب العالي على ضرورة الاتحاد والتنسيق بين قادة وحاكم الإيالات المغربية أثناء مواجهة الحملات الأوروبية، إذ ورد في الخطاب ذاته: "...واستشيروا مع أمراء الأمراء المشار إليهم لتحديد المكان الأنسب للهجوم (تونس أو بنزرت) وبعد تقرير ذلك ينبغي عليكم حسن الاتحاد والاتفاق وتوحيد القلوب والسُّبل..."²، وبما أن الباب العالي قد أكد على ضرورة التنسيق بين قادة قوات إيالاته المغربية فقد أعطى الأمر بإرسال صورة من هذا الخطاب لحاكم طرابلس الغرب مصطفى باشا³.

أما المراسلة الثانية فهي موجهة إلى باشا الجزائر عَرَب أحمد تخبره بتعيين رمضان باشا حاكماً جديداً على الجزائر بدلاً عنه وتأمراً بضرورة تجهيز العساكر والالتحاق بالأسطول الهمايوني لتحرير تونس وحلق الوادي⁴، في حين كانت المراسلة الثالثة والموجهة إلى حاكم الجزائر الجديد رمضان باشا والتي تحمل نفس التاريخ سابقتها (5 ذو الحجة 981هـ/أفريل 1574م) عبارة عن تقرير من الباب

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 24، حكم 166، 5 ذو الحجة 981هـ

² أ.و.ج، مهمة دفترى 24، حكم 166، 5 ذو الحجة 981هـ

³ أ.و.ج، مهمة دفترى 24، حكم 166، 5 ذو الحجة 981هـ

⁴ سي يوسف، المرجع السابق، ص 152. كما جاء ذكر هذا التعيين في المراسلة سابقة الذكر: "...وقد أنعمنا على القائد رمضان بإمرة ولاية الجزائر"، ينظر: أ.و.ج، مهمة دفترى 24، حكم 166، 981هـ

العالي للحاكم الجديد بحجم قوات الأسطول العثماني القادم لتحرير تونس وحلق الوادي وبتاريخ تحرك الحملة وبجميع التفاصيل المتعلقة بها إذ ذكر فيها:

"حُكم إلى رمضان باشا أمير أمراء الجزائر

لقد جهزنا ثلاثمائة قادرغة بكامل معداتها وذلك بهدف فتح وتسخير قلعة حلق الواد وذلك في أوائل محرم الحرام لسنة 982 إن شاء الله وقد ألحقنا تلك القادرغات بأمرائنا وعساكرنا... وإن وزيرنا سنان باشا أدام الله معاليه القائد العام لأسطولنا وقبوداننا أمير أمراء الجزائر (بحر سفيد) ومعهم رؤساء القراصنة وقادة الرؤساء المتطوعين يوشكون على الإبحار...¹، كما أمر الباب العالي رمضان باشا في هذا الخطاب بضرورة "الاتحاد مع المذكورين فور وصولهم وكذلك بالاتحاد مع أحمد باشا أمير الأمراء السابق وأمرأه طرابلس وتونس..."² وهذا ما يبين كما في كل المراسلات تأكيد الباب العالي وحرصه على حتمية التنسيق والاتحاد بين قيادة الإيالات المغربية فيما بينهم ومع قادة الأسطول العثماني في الوقت ذاته.

علاوة على ذلك، وكما نلاحظ في هذا الخطاب، فقد تمت الإشارة إلى الرياس القراصنة والمتطوعين، والذين يشكلون جزءا من القوات العثمانية المتجهة نحو تونس، وقد كان الباب العالي قد اهتم بقضية المتطوعين بشكل منفصل حيث أرسل بخصوصها مراسلة تضمنت مايلي:

"حُكم إلى جميع الأمراء والقضاة في سواحل البحر الأبيض

¹أ.و.ج، مهمة دفتري 24، حكم 168، 5 ذو الحجة 981هـ

²أ.و.ج، مهمة دفتري 24، حكم 168، 5 ذو الحجة 981هـ

لقد تم إرسال قذوة الأماجد والأكارم ممي...قبودان الرؤساء الخاصين في الجزائر بغرض جمع المتطوعين والراغبين في الجهاد...بهدف إلحاقهم مع قالياتهم إلى وزيرنا سنان باشا...وعليه فقد أمرنا:

بالعمل فور وصول هذا الحكم على ترغيب واستمالة كل متطوع شجاع مسلح في حكوماتكم ممن ينوي ويرغب في الجهاد في سبيل الله تعالى...كي يكونوا جميعا على أهبة الاستعداد لنقلهم بسفن المتطوعين المجهزة إلى حلق الواد التي عقدنا العزم على فتحها...¹.

ونظرا لأهمية الحملة فقد تضمنت الأحكام العثمانية عقوبات شديدة للغاية لكل الم تراخين أو المهم لين والمتساهلين مع الأوامر السلطانية بخصوص تجنيد المتطوعين والاستعداد لحملة استرداد تونس، كما تم توجيه إنذارات قاسية بهذا الخصوص حيث أن قضاة السناجق المهملين الذين لم يقوموا بجمع المتطوعين قد أمر السلطان سليم الثاني بطردهم وحرمانهم من أي منصب حكومي آخر في وقت لاحق².

وعلى هذا الأساس فإن الدولة العثمانية قد كانت حريصة بشدة على نجاح الحملة على تونس وهذا ما جعلها تُجنّد كل الفئات والعناصر القابلة للتسلح والقادرة على خوض غمار الحرب، وهو ما نراه حتى بالنسبة للعنصر المحلي في إيالة الجزائر، إذ ورد في ذات الخطاب السابق أمرٌ من الباب العالي لحاكم إيالة بإشراك العنصر المحلي وفرسان الإمارات المحلية رفقة جيش إيالة في هذه الحملة "...ومعك عساكر الجزائر من فرسان ومشاة وكذلك الأعراب التابعين

¹أ.و.ج، مهمة دفتري 24، حكم 198، 5 ذو الحجة 981هـ

² Kavas, op-cit, p28

للجزائر بكافة أسلحتهم"¹، وعلى ذكر العنصر المحلي فقد وصلت مراسلة أخرى وهي الرابعة لحاكم الجزائر بشأن تحرير تونس وحلق الوادي والتي يحدد فيها الباب العالي بدقة عدد وموطن القوات المحلية الجزائرية التي يتعين إشراكها رفقة جيش الإيالة في حملة تونس إذ ورد فيها أمرٌ بإعداد وتجهيز :

"...60 فارس من لواء تنس، 100 فارس من لواء معلعامة (كذا)، 20 فارس من منطقة سلسل²، 80 فارس من لواء مدية... 400 من فارس من قسنطينة، 80 فارس من بسكرة، 60 فارس من بلد عباس، 1000 فارس من الإنكشارية."³ كما خصّ الباب العالي إمارة كوكو المحلية بخطاب يطلب فيه من أميرها مساعدة ومشاركة قوات إيالة الجزائر في الحملة الموجهة لتحرير تونس:

"حُكم إلى أمير فوق في ولاية جزائر الغرب

...عليك ببذل المقدور في كافة الأمور التي يراها المشار إليه مناسبة فيما يتعلق بالمحافظة على البلاد، ونظرا لاستيلاء الكفار خذلهم الله على مدينة تونس فقد تقرر إرسال أسطولنا في الربيع الخيّر.

وبناء عليه يجب تأمين القدر الكافي من الذخيرة للعساكر المنصورة، كذلك ينبغي إعداد ما يمكن قدره من العساكر لأجل التحاقك بأسطولنا الهمايوني..."⁴، وعلى غرار أمير كوكو أرسلت خطابات لبعض قادة الزعامات المحلية في تونس

أ.و.ج، مهمة دفترى 24، حكم 168، 5 ذو الحجة 981هـ

²ربما المقصود: جيجل

أ.و.ج، مهمة دفترى 24، حكم 246، 5 ذو الحجة 981هـ

أ.و.ج، مهمة دفترى 23، حكم 783، 18 ذو الحجة 981هـ

مثل الشيخ محمد القيرواني والشيخ علي بن عمر لمساعدة القوات العثمانية وكان ذلك في المراسلة المؤرخة في 22 شوال 981هـ/14 فيفري 1574م¹.

خرج الأسطول العثماني قاصدا تونس، كما جاء في رسالة الباب العالي، في غرة محرم 982هـ/15 ماي 1574م مكونا من ثلاثمائة سفينة³ - كما ورد في الخطاب المذكور أعلاه والموجه لرمضان باشا - ترافقها العديد من سفن الشحن والدخيرة تحمل على متنها أربعين ألف جندي⁴، ويورد صاحب "البرق اليماني" نصا حول التجهيزات العسكرية لهذه الحملة جاء فيه: "... وبرزت الأوامر الشريفة بتجهيز مائتي غراب وعدة من المؤونات الكبار لحمل الأثقال والأسباب وملاها من العساكر المنصورة والمدافع الكبار لفتح الثغور وهدم السور والجسور، و آلات الحرب والجهاد وما يحتاج إليه من المؤمن والأزواد..."⁵، ويعطينا المصدر ذاته وصفا دقيقا عن عظمة هذه الحملة والقدر والإهلال الكبير اللذان مُنحا لها حيث يقول: "... وتقدم إلى الركوب في تلك السفائن حضرة الوزير الأعظم سنان،

¹ Kavas, op-cit, p32

² تتضارب الروايات التاريخية المبكرة في تاريخ انطلاق الحملة العثمانية على تونس، فالقرماني والنهروالي (مصدرين مشرقيين) يعتبران أنها كانت سنة 982هـ رغم اختلافهما في الشهر المحدد، في حين جاء عن ابن أبي دينار والباقي المسعودي ومحفوظ مقديش (مصادر تونسية) أن الحملة انطلقت في مطلع جمادى الأول من سنة 981هـ، ينظر: القرماني، المصدر السابق، ج2، ص418، النهروالي، المصدر السابق، ص467، ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص169، الباجي، المصدر السابق، ص207، مقديش، المصدر السابق، ج2، ص71، وكذلك: De Rotalier, op-ct, 268, Mexange, op-cit, p151

³ في حين يذكر كل من ابن أبي دينار ومقديش أن عدد السفن بلغ حوالي ألف وخمسمائة سفينة وهو يبدو رقما مبالغا فيه ومخالفا لبقية الروايات. ينظر: مقديش، المصدر السابق، ج2، ص71، ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص169

⁴ De Rotalier, op-ct, 268, Mexange, op-cit, p151

⁵ النهروالي، المصدر السابق، ص466

وحضرة أمير الأمراء القبودان، وقد حضر الوزير الأعظم، وجميع الوزراء، وأركان الدولة الكبرى، وكان يوما عظيما مشهودا... وكان جمعا مباركا مشهودا وجنودا مؤيدة من عند الله تأييدا وفرسانا يعدون فيعدون ليوثا وأسودا...¹، وهو ما يبين تما ما مدى أهمية استعادة تونس بالنسبة للباب العالي ومدى التضحيات والاستعدادات التي خصصتها الدولة العثمانية لهذه الحملة الهامة، كما جاء في كتاب "تاريخ سيلانيكي": "...عُيّن حاضرة الوزير المكرم سنان باشا قائدا على الأسطول الهمايوني، وألحق بخدمه باه عسكر لا حصر له من الييني جري، وأمراء السناجق الساعين لآداء الخدمة في معية حاضرة القبطان قليج علي باشا... وأيضاً كثير من الأمراء المشهورين وجيش الأكراد ورؤساء القراصنة الماهرين... وخدام السفن الذين عاقبتهم الظفر، وقد صار هؤلاء جميعا رفاقا ومتراحمين في ما بينهم...²، ومن هذا النص أيضا الذي يخبرنا بجد الاستعدادات العثمانية وبشمولية الفئات العسكرية المشاركة في هذه الحملة نستشف مدى اهتمام الباب العالي وحرصه على ضرورة نجاح الحملة وتحقيق فتح حلق الوادي.

اجتمع الأسطول العثماني في خليج نافارين بالأرخبيل اليوناني قبل أن يواصل المسير إلى تونس، وكان الأسطول العثماني قد قام بالعديد من الغارات على الجزر الإيطالية والقواعد المسيحية في البحر المتوسط، كما قصفت القوات

¹ المصدر نفسه، ص 466

² سلانيكي مصطفى أفندي، تاريخ سيلانيكي، تر، تح، أحمد حنفي عبد الرحيم، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، 2021، ص 223

العثمانية في طريقها ميناء ميسينا وجزيرة صقلية تاركة وراءها العديد من القتلى وتمكنت من أسر أعداد كبيرة من النساء والصبيان¹.

وصلت القوات العثمانية قبالة ميناء حلق الوادي يوم 24 ربيع الأول 982هـ/ 13 جويلية 1574م²، واقد رافق وصولها مبادرة العلماء والأعيان بالاتصال بقيادة الحملة الذين أخبروهم أنهم أتوا من قبل السلطان العثماني لتحرير تونس، ومن جهتهم استفسر القادة العثمانيون عن الوضع السياسي والعسكري القائم في البلاد فأخبرهم أعيان تونس بموضع الحاميات الإسبانية وأماكن تواجدها، ثم عادوا إلى الحاميات العثمانية في دواخل البلاد التونسية وأعلموها بمجيء القوات العثمانية وبكيفية التنسيق معها من ناحية البر لطرد القوات الإسبانية³.

إضافة إلى ذلك وحسب تقارير القائد سيربيلوني فإنه في أواخر شهر جوان وصل نائب حاكم إيالة طرابلس الغرب على رأس أربعة آلاف جندي رفقة ستة آلاف فارس من قوات قبائل جربة والقيروان، ووصل في نفس الوقت إلى ضواحي تونس حوالي ألفي مقاتل من قسنطينة وبونة من إيالة الجزائر⁴.

بدأ الهجوم العثماني البحري على قاعدة حلق الوادي يوم 17 جويلية، وقد جاء عن مدفوز مقديش في وصف هذا الهجوم: "...ونزلت العساكر المنصورة... وأنزلوا المدافع الكبار⁵، وشرعوا يتقربون قليلا قليلا إلى القلعة، ويحفرّون الخنادق فينزلون فيها فلا تصيبهم المدافع، فيتقدمون إلى القلعة على هذا

¹ المصدر نفسه، ص226، مقديش، المصدر السابق، ج2، ص71

² De Rotalier, op-cit, 268, Mexange, op-cit, p151

³ ينظر: ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص168

⁴ De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p288

⁵ تتوافق هذه الرواية مع ما جاء في تقرير القائد "سيربيلوني"، ينظر: Ibid, p288

الأسلوب إلى أن وصلت العساكر المنصورة إلى القلعة...¹، ومنه فإن العثمانيين قد نوعوا في الطرق العسكرية مستعملين أساليب مختلفة لقصص الحصون الإسبانية وهدم استحكاماتها مما يسهل دخول القوات العثمانية إليها، وقد ذكر القائد سيربيلوني أنّ "الأتراك لم يفوتوا منذ نزولهم لحظة واحدة وانشغلوا بحفر الخنادق من أجل الاقتراب من الحصن"².

فضلا عن ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه أثناء الحصار وصلت قوات إيالة الجزائر المكونة من خمسة آلاف جندي يوم 13 أوت بقيادة عرب أحمد باشا لدعم القوات العثمانية³، وبعد حوالي شهر من الحصار والقصف البحري تمكنت القوات العثمانية من دخول القلعة وتحرير حلق الوادي في 24 أوت خلفاً عددا كبيرا من القتلى وأسر ثلاثمائة جندي من الإسبان، وغنم العثمانيون حوالي مائتين من المدافع الإسبانية في القلعة⁴.

¹ مقديش، المصدر السابق، ج2، ص73

² De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p289

³ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p150, De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p291,

غير أن De La Primaudaie يعتبر أن هذا المدد القادم من إيالة الجزائر كان تحت قيادة رمضان باشا.

⁴ تومي طاهر، المرجع السابق، ص307، ونشير إلى أنه خلال الحصار على القلعة الإسبانية بحلق الوادي كانت الأوامر القادمة من إيطاليا تطلب من القائد "سيربيلوني" الانسحاب من مدينة تونس والتوجه نحو قاعدة حلق الوادي، وحسب التقارير الذي كتبها هذا القائد فإن الأوامر قد أعطت قيمة وأهمية كبيرتين لقاعدة حلق الوادي وطلبت منه أن يعمل ما في وسعه لإنقاذها من الوقوع في أيدي العثمانيين. ينظر:

De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p292

وحسب سيربيلوني فإن الأوامر قد أتته من إيطاليا للانسحاب من تونس والتوجه نحو حلق الوادي، حيث أن الأوامر أعطت قيمة كبيرة لحلق الواد وطلبت منه أن يعمل ما في وسعه لأنقاذه¹.

وفي الوقت الذي كان فيه الأسطول العثماني يقصف حلق الوادي أعطى سنان باشا الأوامر للقوات البرية بقيادة حيدر باشا حاكم القيروان، ومصطفى باشا حاكم طرابلس الغرب بمحاصرة العاصمة تونس² التي كان يحتمي بها كل من السلطان محمد والقائد سيربيلوني، وقد كان حيدر باشا أثناء لجوئه إلى القيروان قد راسل حكام طرابلس والجزائر طلبا للدعم، فحسب ابن أبي دينار فقد "كاتب أهل القيروان إختهم بـ طرابلس والجزائر فأتوا بنية الجهاد ونزلوا بتونس في يوم واحد وحاصروها برا"³ وقد تمكنت القوات الإسبانية في مدينة تونس والمكونة من ثلاثة آلاف جندي من الصمود أمام هذا الحصار البري المفروض عليها من القوات العثمانية التي انضم إليها علج علي بعد إتمامه فتح حلق الوادي، وبعد عدم قدرتهم على مواصلة المقاومة لجأ الإسبان يوم 17 جويلية إلى حصن الباستيون - الذي شيده بعد حملة الدون خوان سنة 1573م - واحتموا به⁴ وقد كان حصنا شديد الاستحكام مما جعل علج علي يطلب المدد من سنان باشا الذي أمده بألف جندي إنكشاري وثمانية مدافع كبيرة لمحاصرته والقضاء على القوات الإسبانية المتحصنة فيه⁵ والتي نكر سيربيلوني أنها "أنهكها التعب، وأن عددها أصبح قليلا جدا للدفاع

¹ Ibid, p292

² الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص207، De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p289

³ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص168

⁴ De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p305

⁵ تومي طاهر، المرجع السابق، ص307، 308

على مثل هذا الحصن الكبير، والتي يموت منها بعد كل هجوم عثماني حوالي مائة وخمسين رجلاً¹.

وعلى هذا الحال استمر الحصار والقصف العثماني للباستيون إلى غاية 13 سبتمبر أين تمكنت القوات العثمانية من اقتحامه بعد ثلاث هجومات ومحاولات اقتحام سابقة، وتم القضاء على حاميته وأسر قائدها سيربيلوني² وكذا السلطان الحفصي الذي سيق بعد إتمام الحملة أسيرا إلى الأستانة، وقد جاء عن القرماني حول ذلك: "...وفتحوا تونس واستولوا عليها، و أسرا صاحبها الإفرنجي، وصادفوا فيها صاحب تونس مولاي محمد قد تحصن فيها خوفا من العثمانيين فأسروه ثم جاءوا به إلى القسطنطينية..."³، وهكذا تم للعثمانيين القضاء على الحاميتين الإسبانيتين في حلق الوادي وتونس وكذا إلقاء القبض على السلطان محمد آخر سلاطين تونس الحفصية.

بعد انتهاء المعارك كان عدد القتلى المسيحيين قرابة خمسة آلاف رجل، فيما وقع نحو ألفين آخرين أسرى لدى القوات العثمانية سيقوا بعد انتهاء الحملة إلى إسطنبول⁴، فيما أبقى سنان باشا ثلاثة آلاف جندي انكشاري من الجزائر وطرابلس الغرب لحمايتها والإشراف على حفظ أمنها⁵.

بعد هذا الفتح بعث كل من سنان باشا وعلج علي برسالة الفتح (النصر) للباب العالي في شهر رجب 982هـ/سبتمبر 1574م والتي جاء فيها: "...فُتحت قلعة

¹ De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p297

² De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p298

³ القرماني، المصدر السابق، ج2، ص 418

⁴ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p150, Mexange, op-cit, p158

⁵ De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p 312

تونس التي هي مقر عرش بلاد المغرب، وأنه مع أنّ قلعة حلق الواد على متانة وحصانة وأن لا طاقة بشرية تتحمل قلعها وهدمها... فقد اجتهدوا وسعوا بعون العناية الربانية... وأيضا السعي الدؤوب للعسكر الموحدين... وصارت غزوة عظيمة...¹.

ويشير ابن أبي دينار هنا لدور التخطيط العسكري الجيد الذي أعدته قيادة الحملة العثمانية و المتمثل في الحصار الثنائي البري والبحري في فتح تونس، إذ يقول: "...ولم يزالوا مطبقين على تونس من برها و بحرها إلى أن تمكنت أيديهم من سحرها و نحرها ونزعوا أيديها من ملك الكفرة بعدما كانوا استولوا عليها وسلبوا ملك بن أبي حفص..."²، كما أننا حين نقرأ التقرير العسكري للقائد دون خوان دوزاموقيرا (Don Juan de Zamoguerra) نجد أنه يؤكد على دور استراتيجية الخنادق التي اعتمدها العثمانيون وكذا دور السرعة في الهجوم واستعمال المدافع الكبيرة والقذائف النارية في تحقيق النصر على القوات العسكرية سواء في حلق الوادي أو في تونس³، وليس هذا فقط بل جاء في تقريره كذلك أن قوات الأسطول العثماني كانت على قدر كبير من العمل والاجتهاد والطاعة، وأنهم يتقاضون رواتبهم كل شهرين ولا توجد بينهم شائعات يمكنك سماعها⁴، وهذا اعتراف صريح بمدى احترافية القوات العثمانية وعلى دور هذه الاحترافية في تحقيق انتصاراتهم العسكرية.

¹ سيلانيكي، المصدر السابق، ص 231

² ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 169

³ De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan), op-cit, p299-309

⁴ Ibid, p299-309

بفضل هذه الاستراتيجيات المحكمة إذاً وبفضل احترافية القوات العثمانية، تمّ للباب العالي الانتصار في هذه الملحمة العظيمة وتمكنت قواته من تحرير تونس العاصمة بعد تحرير حلق الوادي¹ مما يعني تحرير كامل البلاد التونسية من الوجود الإسباني وخضوعها نهائياً للحكم العثماني.

ختاماً، كان الصراع العثماني الإسباني في حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي على أشده منذ ستينات القرن السادس عشر ويظهر ذلك من خلال مجموعة الأحداث والمعارك البحرية الكبيرة ذات التداعيات السياسية الهامة على القوتين الإسلامية العثمانية والمسيحية الإسبانية.

هذا، وقد كان الباب العالي حريصاً أشد الحرص على أمن وسلامة الإيالات المغربية، وقد تجلّى ذلك بوضوح في المراسلات العثمانية لحكام الإيالات المغربية أو لقادة الأسطول العثماني على حد سواء مما يعكس بعمق الموقف العثماني من التهديدات الأوروبية على إيالاتها المغربية .

زيادة على ذلك، كان لإيالة الجزائر وأسطولها مكانة كبيرة وأهمية بالغة لدى الباب العالي الذي كان يرأسل حكام الإيالة الجزائرية وينسق معهم طرق التصدي لكل التهديدات الأوروبية المحتملة والقائمة على الإيالات المغربية، كما قد لعبت الإيالة الجزائرية دوراً كبيراً بقواتها البحرية والبرية في العمليات الحربية الكبرى التي وقعت خلال هذه الفترة وعلى رأسها معركة ليبانو وحلق الوادي.

¹ حول عملية تحرير تونس وحلق الوادي سنة 1574م وتفاصيل الحملة والأحداث العسكرية الواقعة أثناء الحصار العثماني لكل من تونس وحلق الوادي ينظر: تقرير القائد العام للقوات الإسبانية في تونس غابريو سيربيلوني (Gabrio Sirbilloni)، وكذا تقرير القائد دون خوان دوزاموقيرا (Don Juan de Zamoguerra) لدى: (De La Primaudaie, Documents inedits (Edition Jourdan),

كذلك، يمكننا القول بأن خسارة العثمانيين في معركة ليبانتو الحاسمة لم تكن لتحول دون استمرار الوجود العثماني في غرب البحر المتوسط ولا دون مواصلة الدولة العثمانية حماية إيالاتها المغربية وهو ما رأيناه في التدخل العثماني في تونس وتحرير حلق الوادي من الاحتلال الإسباني بشكل نهائي.

علاوة على ذلك، فقد كان تحرير حلق الوادي من قبل الأسطول العثماني قد مثل نهايةً للوجود الإسباني في تونس وتكريسًا صارخًا للحكم العثماني في البلاد المغربية، كما عبّر التدخل العثماني في حلق الوادي والاستيلاء عليها بشكل نهائي على مدى حرص الباب العالي وتمسكه بإيالاته المغربية ووقوفه سدا منيعا أمام التهديدات الأوروبية المحذقة بها.

أخيرا يمكننا أن نجمل القول في موقف الباب العالي من التهديدات الأوروبية على إيالتي طرابلس الغرب وتونس في النصف الثاني من القرن السادس عشر في النقاط التالية:

- مثّلت كل من طرابلس الغرب وتونس أهمية بالغة من الناحية الاستراتيجية بالنسبة للدولة العثمانية وللإمبراطورية الإسبانية على حد سواء، فالموقع المتميز لهاتين الإيالتين والذي يربط بين شرق البحر المتوسط وغربه جعل الصراع على أشده بين الباب العالي الذي يريد استمرار حكمه في المنطقة وبين إسبانيا وفرسان مالطا الذين يريدون استعادة حكمهم على المنطقة.
- انطلاقا من المراسلات الكثيرة والمتوالية من طرف الباب العالي لحكام الإيالات المغربية بخصوص حماية هذه الأخيرة من التهديدات الأوروبية يظهر لنا جليا مدى حرص الدولة العثمانية على حفظ وتأمين إيالاتها المغربية من الغزوات المتتالية للقوى الأوروبية الغازية، وكذا موقفها الثابت القائم على

- ضرورة الحفاظ على الإيالات المغربية وحمايتها من التحالفات الأوروبية المسيحية التي تسعى لاستعادتها.
- تمسك الدولة العثمانية بإيالاتها المغربية والحرص على أمنها والدفاع عنها يؤكد أيضا أن الباب العالي لا يعتبر هذه المنطقة مجرد أقاليم ومستعمرات أو مناطق نفوذ وتوسع، بل جزءا لا يتجزء من أراضي الدولة العثمانية سعت الأخيرة بشدة وبكل حزم في الذود عنها.
- من خلال المراسلات العثمانية كذلك، نستنتج مدى علم الباب العالي بجميع التحركات الأوروبية ومشاريعها الاستعمارية تجاه الإيالات المغربية، وبالتالي مدى اهتمام الدولة العثمانية الكبير بالصراع الإسلامي المسيحي الدائر في بلاد المغرب.
- ومن خلال هذه المراسلات أيضا نستشف مدى الأهمية التي يوليها الباب العالي للتدقيق والتشاور مع حكام الإيالات المغربية وخاصة حكام إيالة الجزائر للتصدي لجميع الحملات الأوروبية ضدها.
- لعبت إيالة الجزائر دورا كبيرا في الصراع العثماني الأوروبي في البحر المتوسط خلال هذه الفترة وهو ما يظهر من خلال أدوارها الفعالة ومشاركاتها المؤثرة في جميع العمليات الحربية في المنطقة، من المشاركة في حصار مالطا إلى التدخل لدعم ثورة الموريسكيين في إسبانيا وكذا في معركة ليبانتو الحاسمة ثم في الاستيلاء على تونس وتحرير حلق الوادي.
- اكتسى الصراع العثماني الإسباني في حوض البحر المتوسط خلال هذه الفترة بالصبغة الدينية والتي تجلت في عقد التحالفات العسكرية ذات التوجه الديني كما هو الحال خلال معركة ليبانتو أين شكل الأوروبيون حلفا مسيحيا "مقدسا" لمواجهة الباب العالي وأقاليمه المغربية التي كانت مشاركتها إلى جانب

القوات العثمانية تشكل هي الأخرى حلفاً إسلامياً تحت راية العثمانيين في وجه القوى المسيحية الأوروبية.

- كان الاستيلاء على تونس وتحرير حلق الوادي قد كرس بشكل نهائي الوجود العثماني في بلاد المغرب، كما خلق عند الإسبان قناعة راسخة بصعوبة أو باستحالة احتلال المنطقة مجدداً، وأن هذه الأخيرة قد أصبحت في ظل الحكم العثماني تشكل هي الأخرى إحدى الأطراف الفاعلة في الصراع بين الشرق العثماني الإسلامي والغرب الإسباني المسيحي.

الفصل الثالث: موقف الدولة العثمانية من تهديدات الدولة السعدية وتحالفاتها مع القوى الإيبيرية ضد إيالة الجزائر (1551-1598م)

مدخل

المبحث الأول: ظهور الدولة السعدية بالمغرب الأقصى

المبحث الثاني: الموقف العثماني من تهديدات وتوسعات السلطان محمد الشيخ السعدي تجاه إيالة الجزائر 1551-1557م

المبحث الثالث: التدخل العثماني في الشؤون الداخلية للدولة السعدية 1557-1578م

المبحث الرابع: السياسة العثمانية تجاه الدولة السعدية إبان ولاية السلطان أحمد المنصور 1578-1598م

خاتمة الفصل

مثلما كان الوضع منذ قيام الدولة الزيانية في المغرب الأوسط والدولة المرينية في المغرب الأقصى واللاتان كان التنافس السياسي والصراع العسكري بينهما مدتدما طوال فترة قيامهما، استتوف الصراع خلال القرن السادس عشر بين المغربين الأوسط والأقصى، لكن هذه المرة في ظل حكم مختلف في كلٍ من البلدين، ففي المغرب الأوسط أو الجزائر كما أصبح يسمى منذ القرن السادس عشر قامت إيالة الجزائر العثمانية وبالتالي وصول النفوذ العثماني إلى حدود المغرب الأقصى، هذا الأخير الذي شهد قيام الدولة السعدية على أنقاض الحكم الوطاسي وريث المرينيين منذ منتصف القرن المذكور، وقد شكل قيام الدولة السعدية في المغرب الأقصى تهديدا على إيالة الجزائر العثمانية نظرا للسياسية التوسعية التي تميّز بها حكامها الأوائل وكذا لرفض هؤلاء الانضواء تحت الحكم العثماني الذي تأسس في هذه الفترة ببلاد المغرب، وفي المقابل فإن الدولة العثمانية وحكومتها بالجزائر لم تقف ساكنة أمام تهديدات حكام المغرب الأقصى الجدد على إيالة الجزائر ولم تكن كذلك لتضبط رغبتها في بسط نفوذها على كامل البلدان المغربية بما في ذلك المغرب الأقصى.

وعلى غرار التهديدات الأوروبية التي شهدتها الإيالات المغربية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، شهدت هذه الأخيرة تهديدات خارجية أخرى خلال هذه الفترة، لكن ليس من قبل القوى المسيحية الأوروبية بل من طرف الدولة السعدية الناشئة في المغرب الأقصى منذ منتصف القرن السادس عشر، وقد كانت إيالة الجزائر هي المعرّضة حصرا إلى هذا التهديد بحكم الجغرافيا أولا، ثم بحكم العامل التاريخي المتمثل في استمرار الصراع بين الكيانات السياسية في المغرب الأوسط ونظيراتها في المغرب الأقصى، وأخيرا بحكم رفض السعديين الخضوع للدولة العثمانية وسعي الأخيرة إلى بسط نفوذها على كامل البلدان المغربية

ومجابهتها لأي محاولة تهديد على إيالاتها في المنطقة. وبالتالي فإن موضوع العلاقات الجزائرية السعدية خلال القرن السادس عشر لا يمكن فقط البحث فيه انطلاقاً من الحروب البينية بين إيالة الجزائر والدولة السعدية أو من خلال تسليط الضوء على مساعي كل طرف لفرض هيمنته وتوسعه على حساب الآخر، بل يجب -على اعتبار أن الجزائر صارت خلال القرن السادس عشر إيالة عثمانية- أن ندرس هذا الموضوع من زاوية المواقف الرسمية للدولة العثمانية وسياساتها المختلفة تجاه الدولة السعدية المناوئة للوجود العثماني في بلاد المغرب وخاصة في الجزائر.

انطلاقاً من ذلك فإننا سنعالج في هذا الفصل موقف الدولة العثمانية من السياسة التوسعية والعدائية للدولة السعدية على إيالة الجزائر في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وذلك -دائماً- على ضوء مراسلات الباب العالي لحكام الجزائر محاولين تحليل الأحداث التاريخية ومقارنة الروايات المختلفة لاستخلاص الموقف العثماني على اختلاف أساليبه من التهديد السعدي على إيالة الجزائر العثمانية.

المبحث الأول: ظهور الدولة السعدية في المغرب الأقصى:

مثل باقي بلادالمغرب، شهد المغرب الأقصى مطلع القرن السادس عشر أوضاعا سياسية صعبة ومتدهورة، حيث لم يُغن قيام الحكم الوطاسي في البلاد خَلفاً للدولة المرينية من إنقاذ البلاد من موجة التقهقر والاضطراب التي عصفت بباقي البلدان المغربية، حيث عاش المغرب الأقصى خلال هذه الفترة تفككا سياسيا داخليا جرّاء ضعف السلطة المركزية التي لم يكن نفوذها ليتجاوز العاصمة فاس والأقاليم القريبة منها، إضافة إلى ظهور الإمارات المستقلة وحركات التمرد على السلطة والتي شهدتها معظم أقاليم المغرب الأقصى، كما رافق كل ذلك سقوط المناطق والمدن الساحلية للبلاد في يد الغزو الخارجي البرتغالي والإسباني على حد سواء.

كل هذه الظروف السياسية وما رافقها من تدهور اجتماعي حاصل كان لابد لها أن تُحدث تحولا جذريا في الوضع السياسي في المغرب الأقصى وهو ما تمثل في ظهور كيان سياسي جديد أكثر قوة عسكريا وأكثر قدرة على توحيد البلاد تحت حكم سياسي واحد.

انطلاقا من ذلك فإننا سنتطرق في هذا المبحث إلى الظروف السياسية الداخلية التي شهدتها المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، كما سنسلط الضوء على كيفية نشوء الدولة السعدية في المغرب الأقصى بداية بأصل السعديين ومراحل تأسيس دولتهم إلى غاية الاستيلاء على العاصمة فاس بعد القضاء على الحكم الوطاسي والقيام الرسمي للدولة السعدية في منتصف القرن السادس عشر.

أولاً: الأوضاع السياسية في المغرب الأقصى قبل قيام الدولة السعدية:

1- الأوضاع الداخلية:

بعد سقوط الدولة المرينية سنة 1464م مرّ المغرب الأقصى بعدة تحولات سياسية هامة لعبت دوراً كبيراً في بلورة وتشكيل المغرب الأقصى الحديث، حيث عرفت البلاد في ظل أواخر السلاطين المرينيين ضعف السلطة المركزية للدولة، مما أدى إلى انتشار الفوضى والفتن وتجزئة البلاد إلى وحدات سياسية شبه مستقلة مثل إمارة شفشاون التي استقلت تحت حكم عائلة بن راشد، وإمارة القصر الكبير بقيادة عائلة العروسي، إضافة إلى مدينة تطوان ذات الحضور الأندلسي الكبير والتي برزت بها حكومة مستقلة تحت حكم عائلة المنظري الأندلسية¹، كما استقلت مراكش عن حكومة فاس بزعامة أمراء هنتانة من قبيلة مصمودة².

وقد كان لظهور هذه الكيانات المستقلة عاملين أساسيين؛ أولهما البُعد عن مقر السلطة الحاكمة المتمركزة في العاصمة فاس، وثانيهما إدراك القبائل المحلية ضرورة التوحد لمواجهة الغزو البرتغالي في ظل عدم قدرة السلطة المرينية على التصدي له، كما تجدر الإشارة إلى أن الكثير من القبائل الساحلية على الأطلسي قد اضطرت إلى مهادنة البرتغاليين أو الدخول في خدمتهم وتحت حمايتهم³.

¹ ينظر: كريم، المرجع السابق، ص16، 17

² حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1978، ج2، ص74

³ كريم، المرجع السابق، ص16

2- الاحتلال البرتغالي:

بدأ الغزو البرتغالي للمغرب الأقصى منذ فترة مبكرة مقارنة بالغزو الإسباني الذي تأخر إلى غاية ما بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وحسب المؤرخ المغربي محمد رزوق فذلك راجع إلى عاملين أساسيين هما:

- العامل التاريخي على اعتبار أن البرتغاليين قد طردوا المسلمين من بلادهم منذ القرن الثالث عشر فلم يكن هناك ما يشغلهم أو يؤخرهم عن غزو المنطقة.

- العامل الجغرافي والاستراتيجي والمتمثل في قرب البرتغال من سواحل المغرب الأقصى وأهمية منافذه البحرية، وإمكانية توظيفها كنقاط تمركز للتوسع في الساحل الغربي لأفريقيا.¹

استغل البرتغاليون منذ منتصف القرن الخامس عشر ضعف السلطة المرينية وخروج الكثير من مناطق البلاد من نفوذها لتقوم عدة حملات عسكرية لاحتلال مدن ومناطق استراتيجية بالمغرب الأقصى، فبعد احتلال سبتة عند مضيق جبل طارق سنة 1415م² - والتي كانت بداية التوسع البرتغالي في ما وراء البحار واتخاذها منطلقاً وقفاً لعدة لغزوات المغرب الأقصى بأكمله³ - أقاد الملك البرتغالي ألفونسو الخامس (Alfonso 5) حملة بحرية كبيرة على مدينة القصر الصغير التي كانت تعتبر ميناءً هاماً ما بين مدينتي سبتة وطنجة (الواقعتين عند مضيق جبل طارق) انتهت باحتلال المدينة يوم 21 أكتوبر 1458م⁴، ومع ضعف المرينيين

¹ رزوق محمد، دراسات في تاريخ المغرب، ط1، أفريقيا الشرق للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1991، ص142

² حول الاحتلال البرتغالي لمدينة سبتة ينظر: الناصري، المصدر السابق، ج4، ص92 وما بعدها

³ بوشرب، المرجع السابق، ص157

⁴ كزيم، المرجع السابق، ص8

في الدفاع عن ثغورهم أمام المحدث البرتغالي واصل الأخير حملاته على المغرب الأقصى، حيث تمكنت القوات البرتغالية من الاستيلاء على مدينة أصيلا الساحلية في الشمال الغربي في 24 أوت 1471م، وبعد ثلاثة أيام فقط سقطت مدينة طنجة في أيدي البرتغاليين¹ فتعززت بذلك مكانة البرتغال في المغرب الأقصى وراحت السلطات البرتغالية تُثبّت وجودها فيه باتخاذ المراكز العسكرية عند النقاط الحيوية والاستراتيجية في سواحل المغرب الأقصى.

هذا، كما تمكن الإسبان من احتلال منطقة وادي نون² مؤسّسين بها حصن سانتا كروز سنة 1478م، ومع اشتداد التنافس البرتغالي الإسباني في المغرب الأقصى جيش البرتغاليون قواتهم من جديد قصد توسيع نفوذهم فيه، فاحتلوا المدينتين الساحليتين على الأطلسي؛ آسفي سنة 1481م وآزمور سنة 1486م³.

وبعد الاتفاق الذي عُقد بين البرتغاليين والإسبان حول مناطق النفوذ في بلاد المغرب الذي تجلّى من خلال معاهدة طورديسياس (Tordesillas) سنة 1494م⁴ استغل الإسبان مباركة البابا لحملاتهم على المنطقة وقاموا بمهاجمة مليية المطلة على البحر المتوسط والاستيلاء عليها سنة 1497م، فيما تمكن البرتغاليون من امتلاك مدينة أغادير الساحلية المطلة على الأطلسي جنوب البلاد عام 1505م⁵.

¹ رزوق، المرجع السابق، ص 144

² نسبة إلى وادي نون الذي يقع جنوب أغادير في أقصى الأطراف الجنوبية للمغرب الأقصى ويصب في المحيط الأطلسي.

³ كرّيم، المرجع السابق، ص 9

⁴ ينظر المبحث الثاني من الفصل الأول.

⁵ كرّيم، المرجع السابق، ص 10

3- قيام الحكم الوطاسي:

ينتمي بنو وطاس إلى قبيلة صنهاجة من لمتونة ويعود نسبهم إلى المرابطين، فهُم أبناء وطاس بن المعز بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين، وحين تغلب الموحدون على المرابطين لجأ جدهم الأول وطاس بن المعز المذكور إلى بلاد الزاب بالمغرب الأوسط، ومنها إلى بني مرين وبقي مقيماً عندهم هو ومن جاء من ذريته إلى أن تولى المرينيين حكم المغرب الأقصى بعد سقوط الموحيدين¹، وقد جاء عن الناصري حول أصل بني وطاس: "...اعلم أن بني وطاس فرقة من بني مرين غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله كان لبني وطاس بلاد الريف فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لـجبايتهم..."²، ويفهم من كلام الناصري أن بني وطاس استقروا ببلاد الريف شمال المغرب الأقصى وأنهم قد اقتسموا حكم البلاد مع بني مرين على عهد الدولة المرينية.

كان الوطاسيون على عهد الدولة المرينية يتولون المناصب السامية كالقضاء والوزارة ورئاسة الأقاليم، وقد استمر نفوذهم في الحكومات المرينية المتوالية³ إلى غاية سنة 1458م حيث تعرضوا لاضطهاد من طرف السلطان عبد الحق آخر السلاطين المرينيين (1420-1464م) والذي قام بمذبحة عظيمة في صفوفهم، وقد كان من الناجين من هذه المذبحة أبو زكرياء محمد الشيخ المهدي الوطاسي

¹ حركات، المرجع السابق، ج2، ص194

² الناصري، المصدر السابق، ج4، ص118

³ عمر السيد عمر سلمى، بنو الوطاس في المغرب (1465-1553م)، مجلة دراسات إفريقية، جامعة

إفريقيا العالمية مركز البحوث والدراسات الإفريقية، الخرطوم، ع43، 2010، ص95

الذي فر إلى أصيلا التي سيؤسس فيها الدولة الوطاسية بعد سقوط الدولة المرينية¹.

مع سقوط الدولة المرينية سنة 1464م وبعد سنوات قليلة من الفراغ السياسي بالمغرب الأقصى استولى الوطاسيون على العاصمة فاس سنة 1472م وبذلك قامت الدولة الوطاسية بشكل رسمي تحت حكم أول سلاطينهم أبو زكرياء محمد الشيخ الوطاسي² والذي استمر في الحكم إلى غاية وفاته سنة 1505م حيث خلفه ابنه محمد المعروف بـ"البرتغالي"³.

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن الدولة الوطاسية قد كانت وليدة مجموعة من الأسس التي خلقتها الظروف التي شهدتها المغرب الأقصى بعد سقوط المرينيين، ولعل أبرزها إنقاذ البلاد من الفوضى والتشرذم ومحاولة توحيد المغرب الأقصى بعد انهيار الحكم المريني، ضف إلى ذلك التصدي للإمارات المستقلة التي تأسست في البلاد والتي حال وجودها دون توحيد المغرب الأقصى تحت حكومة مركزية قوية، ناهيك عن الخطر الأجنبي المتمثل في الوجود البرتغالي والإسباني على الثغور والمدن الساحلية الرئيسية في المغرب الأقصى⁴.

¹ حركات، المرجع السابق، ج2، ص75، 76، سلمى عمر، المرجع السابق، ص102، 103

² الناصري، المصدر السابق، ج4، ص119

³ المصدر نفسه، ج4، ص140

⁴ حركات، المرجع السابق، ج2، ص203، 204

ثانياً: تأسيس الحكم السعودي في المغرب الأقصى:

1- أصل السعديين:

يعود أصل السعديين حسب المصادر التاريخية إلى أسرة من أصل عربي حجازي، فهذا الناصري يقول عنهم: "اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون أن أصل سلفهم من ينبع¹ الذخل من أرض الحجاز، وأنهم أشرف من ولد محمد النفس الزكية رضي الله عنه²...³"، أما صاحب "المنتقى المقصور" فيقول عن نسبهم: "... لا خلاف أن شرفهم أصح شرف أهل المغرب، لأن أصلهم من شرفاء ينبع، و قصة إتيانهم من ينبع إلى درعة مشهورة...⁴"، وقد كان السبب في قدوم السعديين من الحجاز إلى المغرب الأقصى حسبما يرويه الناصري أن أهل درعة بإقليم سوس كانت لا تصلح ثمارهم ولا زراعتهم وكانت تعثرها العاهات كثيراً، فقيل لهم لو أتيتم بشريف إلى بلادكم، فجاؤوا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد من أرض الحجاز⁵.

¹ ينبع: بلدة شرق المدينة المنورة على ساحل البحر الأحمر، كانت تمتاز بكثرة العيون والينابيع وكثرة النخل والزرع، ينظر: الحموي ياقوت، معجم البلدان، د.ط، دار صادر، بيروت، 1977، ج5، ص450

² محمد النفس الزكية: من نسل علي بن أبي طالب، ويتفق هذا مع ما ذكره الحموي في أن بلدة ينبع هي سكنى ذرية الحسن بن علي وأن فيها وقفا لعلي بن أبي طالب. ينظر: المصدر نفسه، ج5، ص450، وهذا ما يزيد من دعم رواية صاحب المنتقى المقصور وباقي الروايات التي تتبنى النسب الشريف للسعديين.

³ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص3

⁴ ابن القاضي أحمد المكناسي، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تح، محمد رزوق، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، 1986، ص242

⁵ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص3، حركات، المرجع السابق، ج2، ص273

أما صاحب "الدولة السعدية التكمدرتية" فلا يتحدث عن الأصل البعيد (الحجازي) للسعديين ويكتفي بالحديث عن مضاربهم الباكرة في المغرب الأقصى قائلا: "...كانوا في بداية أمرهم وظهور جهادهم من سوس مولاي محمد الشيخ وأخيه أحمد الأعرج، وقرار بلادهم من درعة¹ و مولدهم بها و سكناهم تادمدارت²..."³، وبالتالي فإن السعديين استقروا بعد مجيئهم من الحجاز في منطقة تاكمدرات في إقليم درعا جنوب المغرب الأقصى وذلك قبيل بداية الدعوة السعدية.

إضافة إلى ذلك فقد قيل كذلك في نسبهم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوزان الذين تنتمي إليهم حليلة السعدية مربية الرسول محمد (ص)، وقيل كذلك أنما لقبوا بالسعديين تيمنا من طرف العامة لأنهم ساعدوا بدولتهم⁴، غير أن الإفرائي يضعف هذه الرواية بقوله: "...واعلم أنه جرى على الألسنة وصف هؤلاء الأشراف بالسعديين، ولم يكن هذا الوصف في القديم ولا وقت تحايطهم به في ظهائرهم وسجلاتهم... إنما يصفهم بذلك من يطعن في نسبهم ويقدم في وشيخ أصلهم ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوزان الذين منهم حليلة السعدية ظئر رسول الله... وكثير من العامة وإخوانهم الطلبة يعتقدون أنهم سمو بذلك لأن

¹درعة: إقليم في الوسط الشرقي للمغرب الأقصى شرق وجنوب شرق مراكش، وهو عبارة عن قرى وعمارات متقاربة ومزارع كثيرة، يشتهر بوادي درعة الذي يعتبر أطول نهر في المغرب الأقصى، ينظر: الحميري عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح، إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت لبنان 1984، ص235، 236

²رواية تاكمدرات تقع في ناحية درعة.

³مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية، تح، عبد الرحيم بنحادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994، ص12

⁴الناصرى، المصدر السابق، ج5، ص4، حركات، المرجع السابق، ج2، ص272

الناس سعدوا بهم ونحو ذلك مما لا معنى له...¹، وبالتالي فإن الإفرائي لا يتبنى كون السعديين من بني سعد بن هوزان وإنما يتبنى رواية كونهم من ينبع النخل وأنهم من نسب شريف يعود إلى محمد النفس الزكية مثلما أوردناه أعلاه، كما تجدر الإشارة إلى أن السعديين تعرضوا للطعن في نسبهم من طرف مناوئهم وخصومهم الذين اعتبروا أن السعديين ليسوا ذوي نسب شريف².

2- بداية الدعوة السعدية :

اظلّ السعديون حتى مطلع القرن السادس عشر يحيون في جنوب المغرب الأقصى حياة بسيطة دينية وعلمية، ولم يظهروا على الساحة السياسية إلا حين اشتدت وطأة البرتغاليين جنوب المغرب الأقصى وألحقوا بسكان المنطقة خسائر كبيرة من الناحيتين البشرية والاقتصادية³ دون أن يتدخل بنو وطاس لحمايتهم، إذ أن هؤلاء كانوا مكتفين بالدفاع عن المدن والحوضر في شمال البلاد، وفي هذا الصدد يقول الناصري: "... إن سبب قيام أبي عبد الله القائم بأمر الله أن أهل سوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة واستحكمت شوكة البرتغال، لأن بني وطاس فشلت ريحهم في بلاد سوس وكان ملكهم في حواضر المغرب..."⁴، ويؤكد كريبخال ما ذكره الناصري وذلك في سياق وصفه للأوضاع في المغرب الأقصى قبل بداية حكم السعديين بقوله: "...كان في المغرب في هذه الفترة من الزمان عدة أمراء يتقاسمون السيادة، ذلك ما جعل الكثير من الحواضر تنفرد باستقلالها، ولم يكن حينئذ لملوك بني وطاس من السلطة ما

¹ الإفرائي، المصدر السابق، ص7

² ينظر: المصدر نفسه، ص3، 4

³ بن خروف، المرجع السابق، ص70

⁴ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص6

يلزم نفوذهم على مجموع تراب موريطانيا الطنجية (المغرب الأقصى حالياً)...¹، وبالتالي فبنو وطاس لم يشمل حكمهم الأقاليم الجنوبية للبلاد ولم يقوموا بأي محاولات للدفاع عنها من الغزو الخارجي ما حتم نشوء قوة محلية للذود عن هذه الأقاليم.

في خضم هذه الأحداث سعى أهالي منطقة سوس² جنوب المغرب الأقصى إلى توحيد صفوفهم تحت قائد واحد يتولى أمور الجهاد فيهم ضد الاحتلال البرتغالي ما جعلهم يرسلون أحد كبار المشايخ في المنطقة يدعى محمد بن مبارك الآقاوي³ من أجل أن يتولى هذه المهمة غير أنه اعتذر عن ذلك، لكنه أشار عليهم بأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن من الأسرة السعدية الذي قبل أن يتولى هذه المهمة بعد مشاورات واتصالات مع الشيخ الآقاوي وكذا مع جمع من فقهاء بلاد سوس

¹ كربخال، المصدر السابق، ج1، ص450

² بلاد السوس: إقليم صحراوي واسع جنوب المغرب الأقصى يضم العديد من المدن والقرى، يمتد من جنوب مراكش على جبال الأطلس إلى مشارف بلاد السودان الغربي، ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج1، ص113، الحميري، المصدر السابق، ص329، 330، مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تح، سعد زغلول عبد الحميد، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ت، ص211

³ ينظر ترجمته في: دوحة الناشر، المصدر السابق، ص113، 114

وأعيانها، وتمت بيعة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن¹ السعدي الذي تلقب بالقائم بأمر الله في قرية تدسي² بإقليم سوس سنة 1509م³.

كان عدد القبائل التي بايعت القائم بأمر الله نحو خمسين قبيلة من من سوس وضواحيها، كما مدت كل قبيلة من هذه القبائل عشرة من رجالها تأسست بهم أول اقوة جهادية سعدية نظامية أسند قيادتها القائم بأمر الله إلى ولده الأكبر أحمد الأعرج⁴.

نستنتج مما سبق أن سبب اختيار أبي عبد الله القائم بأمر الله إنما كان لنسبه الشريف ومكانته العلمية، وأن بيعة قبائل سوس له لم تكن بطلب منه وإنما بتزكية كبار مشايخها وعلمائها، كما نستنتج كذلك أن السبب الرئيس في بحث أهالي سوس عن قائد يتولى أمورهم إنما هو ضعف الحكم الوطاسي الذي لم يعد ممتدا إلى جنوب البلاد مما جعل المنطقة عرضة لطغيان الاحتلال البرتغالي الذي لم يجد أية قوة نظامية تردعه في المنطقة.

¹ هو محمد بن أبي زيد بن عبد الرحمن، يعود نسبه إلى محمد النفس الزكية من نسل علي بن أبي طالب، من أشرف درعة، كان جده زيدان بن أحمد أول من أتى إلى درعة من الحجاز، عرف بسعة العلم والتمسك بسيرة السالف الصالح، ينظر: ابن القاضي، المنتقى المقصور، المصدر السابق، ص242، الإفراني، المصدر السابق، ص4-6

² تدسي: بلدة كبيرة في إقليم السوس تعدادها مطلع القرن 16م كان حوالي أربعة آلاف نسمة، تشتهر بإنتاج قصب السكر، يشتغل أهلها في التجارة مع السودان الغربي، ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج1، ص119

³ ينظر: المصدر نفسه، ص114، الناصري، المصدر السابق، ج5، ص7، كريم، المرجع السابق، ص37

⁴ ابن خروف، المرجع السابق، ص71، قرين محمد، السلطة المخزنية وعلاقتها بالسلطة الدينية في المغرب الأقصى خلال العد السعدي (1510-1658م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2011، 2012، ص11

3- قيام الدولة السعدية (العهد الأول 1510-1529م):

اعتمد الأشراف السعديون في بداية دعوتهم على مجموعة من الأسس لخصها المؤرخ المغربي المعاصر إبراهيم حركات فيما يلي:

- السعديون بحكم كونهم أشراف فهم يرون أنهم أحق بالملك من بني وطاس الذين فشلوا كلياً في ضم المغرب الأقصى في وحدة سياسية متماسكة.
- ضرورة توحيد المقاومة الشعبية التي قادها الصلحاء والمتصوفة، ومن هذا المنطلق لم يكن بالمغرب الأقصى أحسن مقاما من الأشراف الذين كانت لهم عند المغاربة مكانة عظيمة، وبالتالي فهم في نظرهم أحق الناس بتولي الملك.
- الخطر الأجنبي على البلاد ممثلاً في الغزو البرتغالي وضرورة وجود كيان سياسي قوي يتصدى لهذا الغزو¹.

أما بالنسبة لِمَارمول كَرِبخال فإن أسس قيام دولة الأشراف السعديين تلخصت في قوله: "...صار شريف درعة ينهج نهج أسلافه الذين اكتسبوا الشهرة والمجد، وعلا شأنهم بين الناس بما حققوه من مآثورات دينية وبما ادعوا لأنفسهم من قداسة وشرف، فكانت حروب البرتغال في المغرب وعجز ملوكه عن وضع حد لشوكتهم مدعاة ليقوم أبو عبد الله محمد بوضع اللبانات الأولى لإمبراطورية سيتم إنجازها على يد أولاده."² ومنه فإن النسب الشريف والمكانة الدينية ومحاربة البرتغاليين كانت الأسس والعوامل الهامة التي قامت عليها الدولة السعدية³.

¹ حركات، المرجع السابق، ج2، ص273، 274

² كَرِبخال، المصدر السابق، ج1، ص451

³ حول دور المكانة الدينية والنسب الشريف في قيام الدولة السعدية بالمغرب الأقصى ينظر: ملين محمد نبيل، السلطان الشريف؛ الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، تر، عبد الحق الزموري

وعادل بن عبد الله، ط1، مطبعة كوثر، الرباط، 2013

بعد مبايعته حاكما للمنطقة قرر القائم بأمر الله توجيه أول ضربة للبرتغاليين في مرسى "تَقْتَنَّت"¹ تمكن فيها من الانتصار عليهم واضطروهم إلى الانسحاب من هذا المرسى في سنة 1510م²، وفي سنة 1512م عين القائم بأمر الله ابنه أحمد الأعرج وليا للعهد وقد كان نصبه من قبل أميرا على "تيدسي"، ثم انتقل مع ولده المذكور إلى "تدنست"³ بإقليم حاحة⁴ جنوب البلاد بعد طلب من أهلها خاصة بعد اشتداد وطأة وضربات البرتغاليين وحلفائهم أمثال الشيخ يحيى بن تافوفت والشيخ مومن والشيخ بوجمعة، في حين ترك بإقليم سوس ولده الآخر محمد الشيخ الذي تولى تنظيمها وتوسيع النفوذ السعدي فيها، كما اتخذ مدينة تارودانت⁵ عاصمة له بعد مبايعة أهلها له سنة 1514م⁶، ومن هنا نرى أن النفوذ السعدي بدأ يتسع شيئا ف شيئا في ج نوب الم غرب الأقب صى.

¹تقتنت أو تفتنت: بلدة صغيرة في إقليم حاحة على تطل ساحل الأطلسي، كانت تضم مطلع القرن 16م حوالي ستمائة عائلة، بها مرسى للسفن الصغيرة، أهلها يتاجرون مع التجار البرتغاليين، دخلت في وقت مبكر تحت سلطة السعديين، ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج1، ص108

²بن خروف، المرجع السابق، ص 72

³تدنست: بلدة صغيرة في إقليم حاحة، تضم حوالي أربعمائة نسمة مطلع القرن 16م، يشتغل أهلها ببعض الحرف اليدوية والتجارة، ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج1، ص98

⁴إقليم حاحة: إقليم صحراوي في الجنوب الغربي للمغرب الأقصى، يمتاز بصعوبة تضاريسه، وكثرة ساكنيه وقلة الزرع فيه، ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج1، ص96

⁵تارودانت: قرية كبيرة في إقليم السوس، يصفها صاحب الاستبصار بأنها أكثر بلاد المغرب خصبا، تشتهر بإنتاج السكر الذي يصدر منها إلى كامل بلاد المغرب والأندلس، ويقول عنها الوزان أنها كانت مقرا لنائب السلطان على المنطقة في عهد المرينيين، تضم حوالي ثلاثة آلاف نسمة منتصف القرن 16م ينظر: الاستبصار، المصدر السابق، ص211، 212، الوزان، المصدر السابق، ج1 ص117

⁶حركات، المرجع السابق، ج2، ص275

في سنة 1517م توفي أبي عبد الله القائم بأمر الله¹ غير أن ذلك لم يوقف التقدم السعدي في جنوب المغرب الأقصى، إذ أن ابنه وخليفته أحمد الأعرج رفقة أخيه قد واصلوا حمل راية الجهاد " إلى أن صاروا من رؤساء المجاهدين... وصاروا يكتبان إلى القبائل ويحرضانهم على الجهاد"²، وقد كان أمام أحمد الأعرج مهمتان أساسيتان بعد وفاة والده؛ أولهما استمرارية بسط النفوذ السعدي في المغرب الأقصى وثانيهما استرجاع ثغوره من أيدي البرتغاليين³.

ثالثا: الصراع السعدي الوطاسي على حكم المغرب الأقصى (1525-1549م):

1- الصدام السعدي الوطاسي (استيلاء السعديين على مراكش 1525م):

واصل السعديون حروبهم ضد البرتغاليين وحلفائهم من المحليين، حيث قضى السعديون سنة 1519م على الشيخ يحيى بن تافوفت أحد أكبر داعمي الاحتلال البرتغالي في الداخل، وقد نتج عن مقتله تدهور النفوذ البرتغالي في المناطق الداخلية أمام توسع السعديين الذين ضموا كل من ماسة وتبوت وتقاوست وتدسي⁴ وكلها مناطق في الجنوب المغربي تتمتع بمواقع هامة باعتبارها مراكز تجارية ونقاط عبور رئيسية في المنطقة باتت خاضعة للسلطة السعدية، غير أن أهم مدينة سقطت في أيدي السعديين كانت مدينة مراكش⁵ التي دخلها السعديون

¹ توفي القائم بأمر الله بمنطقة أفوغال قرب شيشاوة الواقعة غربي مراكش، ينظر: حركات، المرجع السابق، ج2، ص275، وتجدر الإشارة إلا أن القائم بأمر الله قد عهد قبل وفاته لولده الأكبر أحمد الأعرج ليكون خليفة له، ينظر: الناصري، المرجع السابق، ج5، ص13

² الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص13

³ قرين، المرجع السابق، ص12

⁴ بن خروف، المرجع السابق، ص72

⁵ مراكش: مدينة وحاضرة كبيرة وسط المغرب الأقصى، أسسها المرابطون سنة 1067م واتخذوها عاصمة الدولتهم، كما كانت أيضا عاصمة الدولة الموحدية إلى غاية سقوطها سنة 1269م. للمزيد حول هذه

سنة 1525م، وكان ذلك بعد استتجاد أهلها بالأخوين أحمد الأعرج ومحمد الشيخ، وقد جاء عن صاحب الدولة التكمدرتية في ذلك: "...وتوجهت لهما الناس وكثرت حشودهما وجموعهما ما فتوجها إلى مراكش بعد حروب كانت مع القبائل... فدخلوا مراكش ودعوا لأنفسهما..."¹، وقد كان الاستيلاء على مراكش نقطة تحول محورية في طريق تأسيس الدولة السعدية إذ أن اقترابها من شمال المغرب يعني اصطدامها مع الوطاسيين أصحاب الحكم في العاصمة فاس وكذلك مع البرتغاليين المتمركزين بقوة في الشمال.

لم يرق وصول النفوذ السعدي إلى غاية مراكش السلطة الوطاسية، حيث رأى السلطان الوطاسي محمد "البرتغالي" أن السعديين لا يقتصر هدفهم على جهاد البرتغاليين وإنما يسعون إلى تأسيس دولة موحدة تشمل كافة أرجاء المغرب الأقصى، وقد كان احتلال مراكش واتخاذها مقراً للدولة السعدية الناشئة قد أثر بشكل كبير على مجرى الأحداث بالمغرب الأقصى².

من أجل ألا يصطدم أحمد الأعرج بالوطاسيين ويلج حرباً مبكرة معهم فضل الاتصال بالسلطان الوطاسي عارضاً عليه الصلح وأنه يقبل أن يكون والياً للوطاسيين على مراكش وما جاورها³، ويبدو أن أحمد الأعرج لم تكن تنقصه

المدينة ينظر: الاستبصار، المصدر السابق، ص208، الحميري، المصدر السابق، ص540، وحول تاريخ المدينة خلال العهد السعدي ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج1، ص126-135، مراكش خلال المريني والسعدي، أشغال الملتقى الثاني 1990، جامعة القاضي عياض، مطبعة إدويستين، مراكش، ع8، 1992، زريوح زين العابدين، مراكش عاصمة للدولة المركزية خلال العهد السعدي من الأوج إلى الركود 1525-1659م، مجلة إبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعرييج، ع1، 2020

¹ الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص14

² كرتيم، المرجع السابق، ص50

³ حركات، المرجع السابق، ج2، ص277

الخبرة السياسية في التعامل مع الآخر، فهو لم يشأ أن يدخل في حرب ضد طرفين اثنين في وقت واحد ألا وهما الوطاسيون والبرتغاليون، خاصة أن دولته لم يكتمل نشوءها بعد، وقد كان محمد الوطاسي يعيش نفس الظرف، إذ أنه كان في صراع مع البرتغاليين وكان يخوض معركة ضدهم في مدينة أصيلا التي هاجمها عام 1524م، ولم يشأ أن يفتح عليه جبهة حربية أخرى فقبل بعرض أحمد الأعرج السعدي، هذا الأخير الذي نقض فيما بعد العهد الذي وقعه مع الوطاسيين وأعلن استقلاله بحكم مراكش، مما جعل السلطان الوطاسي يقرر مهاجمته قبل أن يتوفى سنة 1526م¹، وبعد وفاة السلطان محمد "البرتغالي" وقع نزاع على الملك بين أخيه أبي حسون وبين ولده أحمد انتهى بتمكن الأخير من الوصول إلى الحكم في الوقت الذي تحصن فيه السعديون بمراكش مراقبين الوضع في الشمال².

وفي سنة 1527م ومع استمرار السعديين في نقض البيعة لبني وطاس قرر السلطان أحمد الوطاسي أن يهاجم مراكش وحاصرها بجيش كبير غير أن وصول المدد السعدي من سوس تحت قيادة محمد الشيخ أخ الأمير أحمد الأعرج إضافة إلى وقوع تمرد في فاس قاده أبناء عم السلطان الوطاسي اضطر الأخير إلى رفع الحصار عن مراكش والعودة إلى فاس، وفي سنة 1528م وبعد تمكن السلطان أحمد الوطاسي من القضاء على التمرد السابق قرر أن يهاجم السعديين فالتقى الجمعان مرة أخرى بمنطقة آزماي قرب مراكش وانتهت دون نصر حاسم لكلا الطرفين³، وهكذا ظل كل طرف يتجنب الصدام مع الآخر لمدة عشر سنوات إلا

¹ بن خروف، المرجع السابق، ص73، Abitbol Michel, Histoire du Maroc, Perrin Editeur, Paris, 2014, p149

² كرتيم، المرجع السابق، ص51

³ دي طويريس ديبغو، تاريخ الشرفاء، تر، محمد الحجوي ومحمد الأخضر، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1989، ص66، حركات، المرجع السابق، ج2، ص277

أن قرر السلطان الوطاسي مرة أخرى أن يقضي على الوجود السعدي في المغرب الأقصى فنظم حملة عسكرية قوامها عشرون ألف رجل سنة 1536م اتجهت لملاقاة السعديين الذين لاقوا الجيش الوطاسي بتعداد إثني عشر ألف رجل قرب نهر أم الربيع الواقع شمال مراكش إلا أن الوطاسيين لم يستطيعوا مرة أخرى هزيمة السعديين¹.

2- فترة السلام المؤقت بين بني وطاس والسعديين:

بعد الحروب والمواجهات التي خاضها السعديون ضد الوطاسيين والتي لم ينل فيها طرفٌ من الآخر، سعى علماء فاس وكبارُ مشايخها إلى إقامة الصلح بين الطرفين² خاصة في ظل الخسائر البشرية التي لحقت بالمسلمين بالنسبة لكل طرف، وكذلك من أجل إعطاء الأولوية لمحاربة البرتغاليين، وقد ورد عن صاحب الدولة التكمدرتية نصاً حول هذه القضية جاء فيه: "...وأرسلوا إلى المريني (الوطاسي) شرفاء وفقهاء ومشايخ وأنهم يدعون بالشرعية وأنهم لا يرضون قتال المسلمين... فلما تلجج هذا الأمر بينهم بالمكاتبة والوسائط اتفق رأي القوم على عقد الصلح بين السلطانين المريني (الوطاسي) والدرعي (السعدي)..."³,

¹ حركات، المرجع السابق، ج2، ص277، الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص14، ويذكر صاحب تاريخ الشرفاء إلى أن عبد الله الزغل ملك غرناطة السابق كان على رأس كتيبة من الكتائب الوطاسية المشاركة في هذه المعركة، ينظر: دي تورييس، المصدر السابق، ص70

² كان للعلماء والفقهاء في العهد السعدي حضوراً ومكانة كبيرة، حيث كان يُعتمد عليهم في تمرير القرارات السياسية وإضفاء الطابع الشرعي عليها، لكن على الرغم من ذلك عرف العهد السعدي عدة صراعات بين الفقهاء و السلطة الحاكمة في المغرب الأقصى، ينظر: بن قומר جلول، إشارات من محن بعض الفقهاء بالمغرب الأقصى في العهد السعدي الأول (1509-1603م)، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة وهران، م10، ع2، 2019.

³ الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص14

ورغم صعوبة المهمة إلا أنها نجحت في الأخير وأقيمت معاهدة سلام بين الطرفين تضمنت اقتسام البلاد بينهما حيث يكون للسعديين مايلي نهر أم الربيع جنوبا بما في ذلك إقليم سوس ويحتفظ الوطاسيون بباقي الأقاليم الواقعة شمال البلاد إضافة¹، ولم تتضمن هذه الاتفاقية خضوع الأمراء السعديين إلى الحكم الوطاسي مما يعني تقسيم المغرب الأقصى بين السلطتين الوطاسية والسعدية².

استغل الأمير أحمد الأعرج الهدنة مع الوطاسيين وكذلك الهدنة التي وقعها مع البرتغاليين سنة 1537م و التي عقدت لمدة ثلاث سنوات³ وراح ييسط نفوذ دولته خاصة على تلك الأقاليم التي كانت خاضعة للبرتغاليين، كما سيطر على المدن والنقاط الاستراتيجية في الجنوب مثل درعة والسوس ومراكش، وزاد التوسع السعدي بالاستيلاء على مدينة أغادير ومينائها الديوي سنة 1541م، كما انسحب البرتغاليون من مدينتي آسفي وآزمور في أواخر السنة المذكورة مما مكّن أحمد الأعرج من الاستيلاء عليهما وضمهما لدولته الناشئة⁴.

3- أزمة الحكم داخل الأسرة السعدية:

تذكر الروايات التاريخية أنه بعد فتح مدينة أغادير وقع خلاف حول قسمة الغنائم بين أحمد الأعرج وأخيه محمد الشيخ، كما زاد من حدة هذا الخلاف أن رفض الأخير دعوة أخيه الأعرج بالحضور إلى مراكش لمناقشة المسألة، ويرى البعض في أسباب الخصومة أن محمد الشيخ بعد استيلائه على أغادير أصبح ينظر لنفسه على أنه سلطان وليس وليا للعهد، وبالتالي فإن محمد الشيخ كان

¹الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص14

²بن خروف، المرجع السابق، ص74

³ حول هذه الهدنة وأسبابها ينظر: كريّم، المرجع السابق، ص61، 62

⁴ بن خروف، المرجع السابق، ص 75

يربو إلى اقتسام المملكة مع أخيه الأعرج¹، أما الإفرائي فقد جاء عنه حول هذه المسألة أن: "...فكانت كلمتيهما واحدة ورأيهما متفقاً، إلا أن دخل بينهما الوشاة فأفسدوا ما بينهما فتغيرت قلوبهما وتبدل الأمر بينهما حتى أفضى بهما الحال إلى المقاتلة فانعزل كل منهما بطائفة من الجيش..."² وانطلاقاً من هذه الرواية يظهر لنا -على غرار مسألة الغنائم- سبب آخر للخصومة وهو تدخل حاشية الأميرين ودورها في الصراع حول الحكم الذي حصل بين الطرفين.

وصل هذا التوتر في الأخير إلى حد المواجهة العسكرية بين الطرفين والتي انتهت بهزيمة محمد الشيخ الذي وقع في أسر أخيه، لكن أحمد الأعرج أطلق سراحه بعدما اتفقا على تقسيم مناطق النفوذ وعلى أن يكون محمد الحرّان ابن أحمد الأعرج ولياً للعهد بدلاً من محمد الشيخ، لكن الأخير لم يلبث وأن نقض العهد مع أخيه وتجددت المواجهة المسلحة بينهما سنة 1544م انتصر فيها محمد الشيخ ودخل مدينة مراكش مُعلنًا نفسه الحاكم الأول للدولة السعدية، بينما التجأ أخوه أحمد الأعرج رفقة كامل عائلته إلى زاوية سيدي عبد الله بن الساسي ومنها فر إلى سجلماسة³.

4- فتح العاصمة فاس والقضاء على الدولة الوطاسية:

استغل السلطان أحمد الوطاسي الصراع الذي تعيشه الأسرة السعدية بأن عرض المساعدة على أحمد الأعرج ضد أخيه محمد الشيخ، هذا الأخير الذي لم ترقه هذه الخطوة من الجانب الوطاسي ورأى فيها تهديداً صريحاً لسلطانه فجهز جيشه

¹ دي طوريس، المصدر السابق، ص 77

² الإفرائي، المصدر السابق، ص 22

³ حركات، المرجع السابق، ج 2، ص 277، كريم، المرجع السابق، ص 66، 67

لملاقاة الوطاسيين والتقى الطرفان في خريف 1545م على نهر درنة¹ حيث انتهت المعركة بهزيمة الوطاسيين وتمكن محمد الشيخ من أسر السلطان أحمد الوطاسي وابنه أبي بكر² فيما بقي الطريق إلى فاس مفتوحاً أمام قوات محمد الشيخ.

في فاس استلم السلطان أبي حسون الوطاسي حكم المدينة بعد أسر أخيه السلطان أحمد، وقد كان أبي حسون قد منع تقدم محمد الشيخ والاستيلاء على المدينة، خاصة أن هذا الأخير فضّل الانسحاب والعودة إلى مراكش مخافة أن يستولي عليها من جديد أخاه أحمد الأعرج³.

في سنة 1547م رضخ الوطاسيون إلى شروط محمد الشيخ من أجل إطلاق سراح السلطان أحمد الوطاسي وكان قد اشترط عليهم تسليم مدينة مكناس المتاخمة لفاس فسلموها إياه مقابل عفو عن السلطان أحمد⁴.

قرر هذا الأخير أن يثأر لنفسه وأن يجهز حملة عسكرية للقضاء على محمد الشيخ، كما طلب من أجل ذلك العون من البرتغاليين، ضف إلى أنه راسل أحمد الأعرج من أجل التحالف على محمد الشيخ والقضاء عليه، وبعد ترتيب جميع الاجراءات والتجهيزات العسكرية خرجت قوات التحالف للقاء محمد الشيخ ومنذعه من الاستيلاء على فاس في ربيع 1548م، وقد مُني الأخير بالهزيمة أمام القوات الوطاسية المدعومة بقوات أحمد الأعرج والتي كان يقودها ابنه زيدان، إلا أن هذه الهزيمة لم تُثن عزيمة محمد الشيخ السعدي الذي قرر أن يعاود الكرة على فاس

¹ أحد روافد نهر أم الربيع المذكور آنفاً.

² دي طوريس، المصدر السابق، ص100، 101، 150، 149، Abtibol, op-cit,

³ بن خروف، المرجع السابق، ص78

⁴ حركات، المرجع السابق، ج2، ص279

التي حاصرها بداية عام 1549م¹، وقد جاء عن الناصري أن محمد الشيخ السعدي "قد ألح على فاس بالقتال وحاصرها حصاراً طويلاً"²، وبعد العديد من المواجهات والمناوشات بين الطرفين خلال فترة الحصار التي دامت بضعة أشهر لم تستطع القوات الوطاسية المقاومة لفترة أطول فقرر السلطان أحمد الوطاسي الاستسلام لمحمد الشيخ بعد أن أخذ منه الأمان لأهل المدينة³، وهكذا دخل محمد الشيخ فاس قسبة الوطاسيين وعاصمة المغرب الأقصى مطلع سنة 1549م معلناً بذلك نهاية الحكم الوطاسي وقيام الدولة السعدية بالمغرب الأقصى.

ختاماً، يمكننا القول أن المغرب الأقصى عرف خلال النصف الأول من القرن 16م ظروفًا سياسية متدهورة ساهمت في التفكك السياسي الذي شهدته البلاد خلال هذه الفترة، كما كانت سبباً في وقوع البلاد في قبضة الاحتلال الأجنبي.

كذلك، مرّ تأسيس الحكم السعدي في المغرب الأقصى بمراحل مختلفة بداية بقيام الدولة السعدية جنوب البلاد إلى غاية الاستيلاء على العاصمة فاس، وقد شهد المغرب الأقصى خلال هذه المراحل صراعاً سياسياً وعسكرياً محدثاً بين القوى السياسية الفاعلة في المغرب الأقصى خلال هذه الفترة.

هذا، ولقد كان قضاء السعديين على الحكم الوطاسي إيذاناً بالقيام الرسمي للدولة السعدية التي ستقيم في المغرب الأقصى كياناتاً سياسياً قوياً استطاع أن يوحد البلاد تحت سلطة واحدة وأن يدافع عنه من الأخطار الخارجية، غير أن هذه القوة التي امتلكها السعديون ودافعوا بها عن المغرب الأقصى ستكون كذلك دافعا لهم ليحاولوا التوسع شرقاً تجاه إيالة الجزائر وهو ما سيشكل تهديداً كبيراً للعثمانيين في

¹ كريم، المرجع السابق، ص 69

² الناصري، المصدر السابق، ج 5، ص 22

³ دي طوريس، المصدر السابق، ص 100، 101

الجزائر مما سيؤدي إلى نشوء الصراع بين إيالة الجزائر العثمانية والمغرب السعدي خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، وهو ما سنتطرق إليه في المباحث الموالية من هذا الفصل.

المبحث الثاني: الموقف العثماني من تهديدات وتوسعات السلطان محمد الشيخ السعدي تجاه إيالة الجزائر 1551-1557م:

مثما كان انتصار السعديين على الحكم الوطاسي بدايةً للوجود الفعلي والقوي للدولة السعدية في المغرب الأقصى، كان كذلك بدايةً لعهد جديد في العلاقات بين الأخير وبين إيالة الجزائر، إذ أن الحكام السعديين الأوائل سعوا بشدة إلى توسيع نفوذ سلطتهم شرق البلاد وبالتالي نحو أراضي إيالة الجزائر، خاصة وأنهم (أي السعديون) لم يعترفوا بالنفوذ العثماني في بلاد المغرب، هذا النفوذ الذي زاد قوة وثباتا في المنطقة خصوصا بعد تأسيس إيالة طرابلس الغرب سنة 1551م ثم طرد الإسبان من بجاية سنة 1555م، ومنه فإن السعي العثماني لبسط نفوذه في كامل بلاد المغرب واصطدامه بسعي الدولة السعدية للتوسع نحو الأراضي الجزائرية وبمناوئتها للوجود العثماني سيؤجج في المنطقة صدامات سياسية وعسكرية بين الدولة العثمانية ممثلة في إيالة الجزائر وبين الدولة السعدية، هذه الأخيرة التي ستشكل سياستها التوسعية وتحالفاتها الإقليمية مع القوى الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) تهديدات صارخة ضد إيالة الجزائر مما سيتطلب استراتيجيات صارمة من قبل الباب العالي لردعها وحفظ أمن وسلامة أراضي إيالة الجزائر.

كان محمد الشيخ السعدي¹ سلطان المغرب الأقصى يسعى بشدة لمواجهة المدّ العثماني في بلاد المغرب بكل الطرق والأساليب المتاحة بما في ذلك محاولاته التوسعية في الأقاليم الحدودية بين الجزائر والمغرب الأقصى، وقد قوبل هذا التحرك السعدي بأن قامت الدولة العثمانية بايواء المعارضة السعدية واستعمالها في صراعها مع السعديين، وقد كان الفعل السعدي ورد الفعل العثماني من أبرز

¹ ينظر ترجمته في : درة الحجال، المصدر السابق، ج2، ص204

مؤججات الصراع بين إيالة الجزائر والدولة السعدية في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

أولاً: إيواء واستغلال الأمراء الوطاسيين المناوئين للدولة السعدية:

بما أن الأحداث في المغرب الأقصى تؤثر بشكل مباشر على إيالة الجزائر فقد حاولت الأخيرة ألا تكون طرفاً محايداً في الشأن الداخلي للمغرب الأقصى وأن تتصرف بما يخدم مصلحتها في الصراع السياسي بين الوطاسيين والسعديين.

1- لجوء أبي حسون الوطاسي إلى إيالة الجزائر:

في سنة 1549م وبعدما تمكن السعديون من الإطاحة بالوطاسيين ودخول مدينة فاس، قام السعديون بالقبض على جميع الأمراء الوطاسيين ووضعهم تحت الأسر، فيما تمكن السلطان الوطاسي أبو حسون من الفرار واللجوء إلى العثمانيين في الجزائر وقد كان هذا اللجوء مفتاح التدخل العثماني في الشأن الداخلي للمغرب الأقصى.

حول قضية لجوء أبي حسون إلى الجزائر تقدم لنا الروايات التاريخية عدة طروحات نعرضها كما يلي:

عند الناصري فإن أبا حسون بعد اندثار عرشه قام باللجوء مباشرة إلى العثمانيين في الجزائر إذ جاء عن صاحب "الاستقصا": "...وكان دخول السلطان الشيخ إلى فاس سنة ستة وخمسين وتسعمائة، ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين إلى مراکش عدا أبو حسون منهم فإنه فر إلى الجزائر مستجيراً بتركها..."¹، ويذهب صاحب "نزهة الحادي" لدعم الطرح

¹ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 24، 25

ذاته مؤكداً أن أبا حسون طلب المدد من حكام الجزائر لاستعادة عرشه المنتزع من طرف السعديين، إذ يقول: "...كان أبو حسون الوطاسي حين أخرجه أبو عبد الله الشيخ من دار ملكه فاس وتملكها مرّ إلى الجزائر حقناً لدمه وطلباً للإغاثة ولم يزل عند ترك الجزائر يفتل لهم في الغارب والسنام ويحسن لهم بلاد المغرب ويعظمها في أعينهم ويقول لهم إن ملكها اليوم استلبني ملاكي وملك آبائي وغلبنني تراث أجدادي فلو ذهبتم معي إلى قتاله عسى الله أن يتيح بنا النصر عليه ويرزقنا الظفر به والغلبة عليه..."¹، وبالتالي فالروايتين هنا تؤكدان أن أبا حسون لجأ مباشرة إلى إيالة الجزائر.

الطرح الثاني تعرضه لنا وثيقة أرشيفية وهي عبارة عن رسالة من أبي حسون الوطاسي إلى الحاكم الإسباني على ملبية، وحسب هذه الوثيقة فإن أبا حسون لم يلجأ مباشرة إلى الجزائر وإنما لجأ بادئ الأمر إلى السلطات الإسبانية وطلب منها المساعدة في استعادة عرشه، وقد جاء في هذه الوثيقة المؤرخة في 19 ماي 1549م: "...بعد وصولي إلى مدينة ملبية أحيطكم علما بوصولي وكيف تم استقبالي من طرف هؤلاء القادة بالترحاب الكبير... إن ما أتأسف عليه أكثر هو فقدانني لمملكتي، وأتوسل إليكم إرسال كتاب عاجل إلى العاصمة حتى لا أضل محجوزاً هنا وأتمكن من الذهاب لإسبانيا حتى أتمكن من الالتقاء بأصحاب السمو... لذا ألتمس من سيادتكم إسداء معروف لي في هذه القضية والذهاب إلى العاصمة سريعاً، لأنني التجأت إلى حصنكم هذا كصديق آملاً في مساعدتكم

¹ الإفرائي، المصدر السابق، ص30

لي...¹، ومن مليبية اتجه أبو حسون إلى مالقة وقام بمراسلة الدبلوماسي البرتغالي بيدرو مازقارينهاس (Don Pedro Mascarenhas) وأخبره -حسبما جاء في رسالة مؤرخة في 6 أوت 1549م- بأنه أتى إلى مالقة لكي يعرض للملك الإسباني الوضع العام في فاس وفي شمال المغرب الأقصى وأخبره أن الوقت مناسب للغاية لعقد تحالف بينهما وطرد السعديين من المنطقة وخاصة شمال المغرب، كما ورد في الرسالة أيضا أن أبا حسون استعطف ملك إسبانيا بأنه لن يعود إلى بلده دون قرار من الملك يقضي بتقديم المساعدة له².

وعلى الرغم من كون المراسلات بين أبي حسون والمسؤولين الإسبان لا تذكر بأن أبا حسون التقى مع الإمبراطور شارلكان³ فإن صاحب الدولة التكمدرتية يقول بأن الطرفان التقيا وبأن ملك إسبانيا رفض مساعدة أبي حسون بحجة أن هذه المساعدة ستفقد الأخير الدعم الشعبي في المغرب الأقصى الذي سيرفض تحالفه مع الإسبان النصراري، إذ جاء عنه: "...قال له ملك الروم: يا سلطان إن أعطيتك جيش النصراري لم يبق لك في المغرب ناصح ولا في المسلمين حبيب فتجتمع كلمة المسلمين عليك أن يقاتلوك... وإنما يليق بك أن تذهب إلى الجزائر وتنعم لهم بالمال وتخرج محلة التُّرك من أربعة آلاف أو أكثر وكل ما يلزمك من المال

¹ دادي مارية، أضواء على تاريخ العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن السادس عشر من خلال مراسلات باللغة الإسبانية، أعمال الندوة الدولية "المغرب والتحويلات الدولية"، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 2008، ص67

² De Castries. Henry, Les sources Inédites de l'Histoire Du Maroc, T1, Edition Ernest Leroux, Paris, 1921, p333

³ حول مراسلات أبي حسون الوطاسي مع المسؤولين الإسبان ينظر: De Castries. H, op-cit, T1.

فأنا أعطيك إياه...¹، وبالتالي فإن لجوء أبي حسون إلى الجزائر كان بعد الاتصال مع الإسبان والتنسيق معهم في شأن استعادته لعرش المغرب الأقصى.

أما الطرح الثالث فنجده عند مارمول كربخال إذ جاء عنه أن أبا حسون لم يجد آذانا صاغية لمشروعه لدى الإسبان فتوجه إلى ملك البرتغال طالباً دعمه: "...ولما تأكد أبو حسون أنه لن يجني في الوقت الراهن من مساعيه لدى الإمبراطور الإسباني ما يشفي غليله، التفت إلى رحاب البلاط البرتغالي بلشبونة...²، ويضيف كربخال على ذلك أن ملك البرتغال وافق على دعم أبي حسون بالعسكر والمال وأرسل معه السفن مجهزة بالجند لاستعادة عرش فاس من السعديين، إذ جاء عنه أن: "...اهتم عاهل البرتغال إلى حد كبير بالشروح التي قدمها أبي حسون، فمنح أبا حسون مبالغ مالية، ثم وضع تحت تصرفه فرقة عسكرية تتألف من خمسمائة جندي، وأبحر أبو حسون رفقة خمس سفن ونزل بميناء الحسيمة...³، ومنه فإن كربخال يشير إلى لجوء أبي حسون إلى السلطات الإسبانية، غير أنه لم يذكر أنه حصل بين الطرفين أي اتفاق يرضي أبا حسون ما جعله يلجأ لملك البرتغال، وتؤكد المراسلات بين أبي حسون والطرف البرتغالي الطرح الذي عرضه كربخال، حيث نجد أن أبي حسون بعث برسالة إلى ملك البرتغال خوان الثالث (Juan 3) في 30 أوت 1549 وطلب منه المدد العسكري لمحاربة السعديين واستعادة الحكم، وذلك عن طريق التنسيق مع الحاكم العسكري

¹ مجهول، الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص22

² كربخال، المصدر السابق، ج1، ص481

³ المصدر نفسه، ج1، ص481

البرتغالي في طنجة وكذا مع الدبلوماسي البرتغالي بيدرو مازقارينهااس، وجاء في هذه الرسالة أن أبا حسون قد عرض على خوان الثالث ميناء أصيلا مقابل ذلك.¹

ويتفق الباحث والمؤرخ المغربي المعاصر عبد الكريم كريم مع مارمول كريبخال في هذا الطرح الأخير، إذ يذكر في كتابه "المغرب في عهد الدولة السعدية" أن أبا حسون توجه إلى خوان الثالث بعد فشل مساعيه لدى البلاط الإسباني وأن ملك البرتغال وافق على دعمه عسكريا حيث أرسل معه قوات بحرية نزلت في ميناء الحسيمة في سبتمبر 1552م غير أن أسطول إيالة الجزائر قام بأسر السفن البرتغالية بمن فيها، وسيق أبو حسون أسيرا إلى الجزائر حيث أُجبر بعد ملاقة البايبرباي صالح راييس على أن يعرض عليه العمل ضد محمد الشيخ السعدي مقابل منحه امتيازات في شمال المغرب الأقصى²، ونفس الكلام نجده عند هايديو (Haedo) الذي يذكر أن القوات الجزائرية قامت بأسر أبي حسون رفقة القوات البرتغالية³ وأن الأخير لم يأت لاجئا بمحض إرادته إلى الجزائر.

وهنا نشير إلى أن كريبخال يتفق مع هايديو حول أسر صالح راييس للسفن البرتغالية عند مضيق جبل طارق لكنه في المقابل يقول بأن أبا حسون لم يقع في الأسر مع بقية القوات البرتغالية وتمكن من الوصول إلى ميناء الحسيمة، وبرر لصالح راييس -بعد أن توجه إليه لتبرير الوضع ولتخليص القوات البرتغالية- وجوده مع القوات البرتغالية بأنه كان بصدد محاربة السعديين العدو المشترك للوطاسيين والعثمانيين على حد سواء، غير أن صالح راييس لم يقبل تبرير أبي حسون من أجل إطلاق سراح القوات البرتغالية الأسيرة وقرر أخذهم إلى مدينة

¹ ينظر: De Castries, op-cit, p341

² كريم، المرجع السابق، ص79

³ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p88

الجزائر، وهنالما يجد أبو حسون بُدأً من اللاحق بصالح رايس إلى مدينة الجزائر وتقديم عرض جديد له بأن يتحالف معه ضد السعديين¹.

وبالتالي فإن هذا الطرح الذي يعرضه كربخال ويتفق في بعض تفاصيله مع رواية هايدو هو الأقرب للحقيقة على اعتبار أن هناك أكثر من سنتين بين سقوط فاس في أيدي السعديين وبين أسر أبي حسون من طرف البحرية الجزائرية سنة 1552م، وهو ما يؤكد فعلاً أن أبا حسون لم يلبأ مباشرة إلى الجزائر وإنما بحث له عن حليف في الضفة الشمالية من المغرب ونقصد هنا إسبانيا والبرتغال، حيث وحسب كريم فإن إسبانيا رفضت التعاون معه ضد السعديين لداعي وجود معاهدة تحالف بين الطرفين، أما البرتغال فقررت مساعدة أبي حسون بعد تراجع نفوذها في المناطق الساحلية لصالح السعديين².

على الرغم من هذا الاختلاف في الروايات التاريخية وتباين الطروحات في مسألة لجوء أبي حسون إلى الجزائر، يمكننا أن نؤكد على ثلاث نقاط أساسية في هذه المسألة:

أولها؛ أن أبا حسون لم يكن يهيمه من يدعمه لاستعادة عرشه من السعديين وإنما استعادته فقط بغض النظر عن يساعده في ذلك.

وثانيها؛ أن الدعم الجزائري لأبي حسون كان بعد غزو السعديين لتلمسان سنة 1550م -وهو ما سنذكره لاحقاً- وبالتالي فإن تطاول السعديين على الأراضي

¹ كربخال، المصدر السابق، ج1، ص482، وفي هذا الصدد يقول المصدر أن صالح رايس هو من عرض على أبي حسون التعاون ضد السعديين وهو ما وافق عليه الأخير ووافق كذلك على تقديم الدعم المالي لهذا التحالف.

² كريم، المرجع السابق، ص78،79

الجزائرية كان من أهم الدوافع لإقامة التحالف العثماني الوطاسي ضد محمد الشيخ السعدي.

أما الأخيرة؛ وهي ما تهمنا في هذا البحث، هو أن حكومة الجزائر استغلت لجوء أبي حسون إليها لتستعمله كورقة ضغط على محمد الشيخ السعدي وكتبرير لتدخلها ضد السعديين وبسط سيطرتها في المغرب الأقصى.

إذاً، فقد كان الموقف العثماني من الصراع الوطاسي السعدي يتمثل في دعم أبي حسون واستعماله لتبرير التدخلات والرد على تهديدات السعديين لإيالة الجزائر، ودسب الباحث يسيلمن كوخان (Yesilmen Gokhan) فإن صالح راييس قد دعم أبا حسون من مبدأ أن وجود أكثر من حاكم في المغرب الأقصى سيسهل أكثر من مهمة التدخل فيه¹، خاصة وأن محمد الشيخ السعدي سيعتبر الوجود العثماني في الجزائر تهديداً لدولته وكيانا مناهضاً لسياسته وهذا ما سنراه في محاولة محمد الشيخ السعدي التعدي على إيالة الجزائر والاستيلاء على مدينة تلمسان.

2- استيلاء السعديين على تلمسان ورد الفعل العثماني:

كانت تلمسان منذ مجيء الإخوة بربروس مدينة ذات موقع استراتيجي، فمع أنها مدينة بعيدة عن العاصمة الجزائر فإنها كذلك مدينة حدودية مع المغرب الأقصى، وقد شهدت منذ العهد الزياني تذبذباً واضطراباً في وضعها السياسي، وقد كان خير الدين بربروس قد تحدث عن مكانتها الهامة وعن كونها نقطة مهمة في

¹ Yesilmen Gokhan, Osmanli Devliti'nin Fas Siyaseti Uzerine bir Degerlendirme, Medeniyet ve toplum, guz 2018, cilt2, sayi2, p109

الصراع السياسي والعسكري بالمنطقة إذ جاء في مذكراته: "...كان معلوماً أنه ما لم تُفتح هذه المدينة فإن الجزائر لن تعرف الاستقرار"¹، وبالفعل فقد بقيت تلمسان منطقة هامة على الصعيدين السياسي والعسكري وهاهي الآن تشكل محور الصراع بين الكيانين الجديدين في المنطقة؛ العثمانيون والسعديون على حد سواء.

يبرزُ السعديون تدخلهم في تلمسان حسبما أورده المؤرخ عبد الكريم كريمة بأن محمد الشيخ السعدي كان حريصاً على ضم المنطقة الشرقية من المغرب لاستراتيجيتها في صد أي عدوان خارجي، وبالتالي يمكننا القول بأنها سياسية استراتيجية تتمثل في الهجوم بغرض الدفاع، كما يجد السعديون مبرراً آخر لتدخلهم في تلمسان وهو لجوء الأمير الزياني أحمد بن عبد الله إلى فاس وطلبه النجدة من محمد الشيخ السعدي لاستعادة عرش تلمسان.² هذا؛ فضلاً عن ورود بعثة من وجهاء وأعيان تلمسان إلى محمد الشيخ السعدي مستجدين به ضد الأتراك مؤكداً له انضمامهم إليه وأنهم سيقومون بمساعدته على فتح تلمسان واستعادتها من الأتراك³، أما "دييغو دي توريس" صاحب كتاب "تاريخ الشرفاء" المعاصر للأحداث - ورغم إقراره بوقوف أهالي تلمسان ضد الأتراك كما هو مبين أسفله - يرى أن الغزو السعدي لتلمسان لم يكن بغرض الدفاع ولا من أجل استغاثة

¹ مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص 109

² كريمة، المرجع السابق، ص 76

³ ينظر رسالة القائد "صفا بك" إلى الحاكم الإسباني بمليلية بتاريخ 17 فيفري 1551م لدى: De Castries, op-cit, p534. كما نجد عند هايدو (Haedo) طرحاً آخر لهذه القضية، وهو أن سكان تلمسان طلبوا النجدة السعدية لإنقاذهم من بطش الإسبان المستقرين بوهران وليس ضد الوجود العثماني، فيما يؤكد "دي توريس" أن أهالي تلمسان كانوا كارهين للوجود التركي بمدنيتهم وهو ما جعلهم يقفون مع القوات السعدية ضد الأتراك، ينظر: دي توريس، المصدر السابق، ص 169، Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p76

أهاليها وإنما كان طموحا توسعيا لمحمد الشيخ السعدي بعد تمكنه من الوطاسيين وتردعه على عرش فاس، إذ جاء عن صاحب "تاريخ الشرفاء": "...وحدث إن طموحه (محمد الشيخ) لم يترك له وقتا للراحة فإنه عزم في مستهل سنة 1550م على أن يستولي يومئذ على مملكة تلمسان وهي يومئذ في يد الأتراك الذين اغتصبوها من ملكها السابق..."¹، وبالتالي فاستجد أهالي تلمسان بالشيخ السعدي لم يكن سوى ذريعة استغلها الأخير لتنفيذ مخططاته التوسعية في أراضي إيالة الجزائر، كما نستنتج من هذه المقولة التي أوردها صاحب تاريخ الشرفاء أن سياسة محمد الشيخ السعدي تشكل فعلا تهديدا على إيالة الجزائر نظرا للرغبة التوسعية للسلطان المغربي تجاه الأراضي الجزائرية.

انطلقت القوات السعدية بقيادة محمد الحرّان الذي استدعاه والده السلطان محمد الشيخ من تارودانت لقيادة هذه الحملة حيث مر على مراكش أين جهز فرقا من الرماة مكونة من أربعة عشر ألف فارس، وعند وصوله إلى فاس انضم إليه عشرة آلاف آخرين، ومن هناك اتجه الجيش السعدي قاصداً فتح تلمسان الذي تحقق في جوان 1550م²، وتم إلقاء القبض على أميرها-الموالي للعثمانيين- الحسن بن عبد الله، فيما فرّ أخوه عمر إلى مدينة الجزائر مُخبرا حكومة إيالة الجزائر بسقوط تلمسان في أيدي السعديين³.

في ذلك الوقت كان بايلرباي الجزائر حسن بن خير الدين يجهز جيشا ضخما تحت قيادة كل من حسن قورصو وعبد العزيز حاكم إمارة بني عباس بغية تحرير

¹ دي طوريس، المصدر السابق، ص168

² المصدر نفسه، ص169

³ كريم، المرجع السابق، ص77

وهران¹، غير أن أنباء استيلاء السعديين على تلمسان وتقدمهم إلى مستغانم جعل حاكم الجزائر² يغيّر وجهته ويقرر محاربة السعديين، حيث التقت القوات الجزائرية بنظيرتها السعدية قرب نهر الشلف و انتهت المعركة بانتصار القوات الجزائرية واستعادة مستغانم³، وواصلت القوات الجزائرية التقدم نحو تلمسان في الوقت الذي أرسل فيه السلطان السعدي مددا آخر لجيشه قوامه عشرين ألف رجل والتقى الجيشان مرة أخرى قرب زاوية سيدي موسى وانتهت كذلك بانتصار جيش الإيالة و مقتل عبد القادر الشريف ابن السلطان السعدي مما اضطر الجيش السعدي إلى الانسحاب إلى وراء نهر ملوية⁴ والعودة إلى المغرب الأقصى.⁵

وتجدر الإشارة هنا إلى الدور الكبير الذي لعبته قوات إمارة بني عباس وأميرها عبد العزيز في التصدي للقوات السعدية وتحرير تلمسان، حيث يقول كاربخال أن حسن قورصو كان مترددا في قتال القوات السعدية التي كانت تحت إمرة الشريف عبد القادر ابن السلطان السعدي وأن القوات الجزائرية لم تكن لتبادر بالقتال لولا رباطة جأش عبد العزيز الذي عاتب القائد العثماني على ذلك وتولى قيادة الجيش بنفسه بعد أن خاطبه قائلاً: "...أيها السيد حسان⁶ أبهذا تشكر الأمير¹ على

¹ المدني، المرجع السابق، ص 328، 73، op -cit, De Grammont, La Domination,

² يذكر "دي طوريس" أن صالح رايس هو من قام بهذه الحملة وليس حسن بن خير الدين، رغم أنه يؤكد على أن القيادة أسندت لحسن قورصو، ينظر: دي طوريس، المصدر السابق، ص 170

³ الإفراني، المصدر السابق، ص 29، المدني، المرجع، Haedo, Roi d'Alger, op-cit, p76، السابق، ص 229

⁴ نهر ملوية: نهر شرق المغرب الأقصى يصب في البحر المتوسط يعتبر الحد الطبيعي بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 193، ج 2، ص 250

⁵ الإفراني، المصدر السابق، ص 36، ، De Grammont, Alger sous, op -cit, p76

Haedo, Roi d'Alger, op-cit, p78

⁶ يقصد القائد العثماني حسن قورصو.

مايعطيك من أجر جزيل لكونك قد ابتعدت عن الجزائر حيث اعتدت أن تختال في كسوة الذيباج المحلى بالذهب، ولما تبين له أن ذلك العتاب لا يؤثر فيه بتاتا حرض رجاله وهاجم الشريف وهزمه وقتله وقطع رأسه وعاد به إلى مدينة الجزائر...² وانتهت المعركة بانسحاب السعديين إلى فاس كما تمت الإشارة إليه.

بعد هذا النصر دخلت القوات الجزائرية مدينة تلمسان وهي كما وصفها توفيق المدني "لم يكن بها مُلك ولا شبه مُلك"³ وأعادوا -بأمر من البايبرباي حسن بن خير الدين- الحسن بن عبد الله الثاني حاكما على عرش تلمسان، فيما عُيّن القائد العثماني صفا بك (Caid Saffa) قائدا عسكريا على المدينة رفقة مائتي جندي عثماني⁴، وقد كان حسن قورصو قد أبرم بعد هذا النصر معاهدة ملوية مع محمد الشيخ السعدي تمثلت أهم بنودها في النقاط التالية:

- يعتبر وادي ملوية الحد الفاصل بين البلدين.
- احترام الحدود الموروثة عن الزيانيين والمرينيين.
- عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكلا الدولتين.
- عدم التحالف مع عدو كل طرف ضد الطرف الثاني.
- التعاون والتحالف ضد الإسبان⁵.

¹ يقصد البايبرباي حسن بن خير الدين الذي أسند إليه قيادة الحملة.

² كريخال، المصدر السابق، ج2، ص386

³ المدني، المرجع السابق، ص229

⁴ De Castries, op-cit, p534

⁵ هلايلي حنفي، محاولة الجزائر العثمانية توحيد المغرب العربي، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ع5، 2013، ص66

ثانيا: ازدواجية السياسة العثمانية (السلم والحرب) تجاه محمد الشيخ السعدي:

1- سياسة الرسائل والبعثات الدبلوماسية:

عندما بلغ السلطان العثماني سليمان القانوني الصراع الذي دار بين جند إيالته والقوات السعدية أقدم على السعي على إقامة السلم بين الجانبين، وعلى هذا الأساس قام الباب العالي بإرسال وفد من علماء الجزائر سنة 1551م يترأسهم عبد الله محمد الخروبي الطرابلسي الأصل الجزائري المستقر من أجل عقد السلم و تحديد الحدود بين إيالة الجزائر والمغرب الأقصى¹، ويذكر الإفرائي حول هذه البعثة أنه: "...في سنة تسع وخمسين قدم عليه (محمد الشيخ) بمراكش العالم العلامة الصالح أبوعبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي² نزيل الجزائر سفيرا بينه وبين سلطان التُّرك أبي الربيع سليمان شاه صاحب القسطنطينية العظمى بقصد المهادنة بين السلطانين وتحديد البلاد بينهما..."³، ولم يُضف الإفرائي أي كلام بخصوص نتيجة هذه السفارة، غير أن هذه الأخيرة يبدو أنها لم تلق ترحيبا من الجانب السعدي حيث يقول الناصري حولها: "...فأكرم السلطان أبوعبد الله وفادته، إلا أنه لم تظهر ثمرة لمقدمه..."⁴، ورغم أنه لا الإفرائي ولا الناصري ذكرا كيف تم رسم الحدود بين البلدين ولا ما دار خلال البعثة، إلا أن توفيق المدني أكد على أن اللقاء بين سفير السلطان العثماني ومحمد الشيخ السعدي انتهى برسم حدود فاصلة بين إيالة الجزائر والمغرب الأقصى من ساحل

¹ الإفرائي، المصدر السابق، ص41، 42، الناصري، المصدر السابق، ج5، ص27

² ينظر ترجمته في: دوحة الناشر، المصدر السابق، ص126

³ الإفرائي، المصدر السابق، ص42

⁴ الناصري، المصدر السابق، ص27

البحر المتوسط إلى مشارف الصحراء¹، غير أن الأحداث التالية تفنذ رأي المدني وتؤكد فشل بعثة الخروبي واستمرار الصراع بين العثمانيين ومحمد الشيخ السعدي. هذا، كما بعث الباب العالي بخطاب موجه لمحمد الشيخ السعدي² جاء فيه إبراز دور محمد الشيخ في خدمة الدين الإسلامي وتأكيد على النسب الشريف للسلطين السعديين، إذ ورد في هذا الخطاب المؤرخ في م حرم 959 هـ/ديسمبر 1551م: "...هذا مثالنا...أصدرناه إلى الجناب العالي حاكم فاس يومئذ الشريف محمد...وأنت من أولاد سيد المرسلين...وقد سُمع بسدتنا العلية حسن إقدامك وكمال دينك...وصفاء سيرك وقيامك في الذب عن المسلمين وقمع أعداء الدين...ولذلك الشأن حباك إحساننا الشريف...فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سلطانية لتكون صلة للمحبة منا وسببا لنسيج المودة بيننا..."³، وفي هذا الخطاب ما يؤكد بوضوح حرص السلطان العثماني على إقامة علاقات السلم والود مع السلطان السعدي ونبذ سبل الصراع والتخاصم بين الطرفين، منه تأكيد السلطان العثماني للنسب الشريف لنظيره السعدي وكذا تقديم الهدايا كدليل على الإخلاص والمودة من الباب العالي إلى السلطان محمد الشيخ⁴.

¹ المدني، المرجع السابق، ص 331. وقد جاء عنه أن ذلك كان سنة 961هـ / 1553م

² من غير المستبعد أن يكون هذا الخطاب قد أرسل مع محمد الخروبي أثناء وفده على محمد الشيخ السعدي، وأن هذه البعثة كانت أساسا من أجل تسليم السلطان السعدي خطاب الباب العالي.

³ بيات، البلاد العربية، المرجع السابق، ج1، ص 157

⁴ يرى المؤرخ التركي المعاصر يسيلمن كوخان (Gokhan Yesilmen) أن العلاقات بين الدولة العثمانية والسلطنة المغربية بدأت في عهد سليمان القانوني، ثم تطورت هذه العلاقات التي لم تتجاوز تبادل سفراء النوايا الحسنة وتبادل الهدايا، غير أن هذا الطرح تفنذ الأحداث التاريخية اللاحقة التي جرت بين الطرفين وفي عهد سليمان القانوني بالذات، حول هذا الطرح ينظر: Yesilmen, op-cit, p108

وتأكيداً منه على اتباع سياسة السلم واحترام قواعد الجوار قرر الباب العالي عزل حسن باشا بن خير الدين وتولية صالح رايس على إيالة الجزائر، وقد راسل السلطان العثماني نظيره السعدي حول هذه الخطوة في رسالة مؤرخة في محرم 959 هـ/ديسمبر 1551م جافياً بها "... هذا مثلاً نا الـ الشريف الـ عالي السلطاني...أصدرنا إلى...حاكم ولاية فاس يومئذ الشريف محمد دام علوه وزاد سموه...ولما بلغ إلى سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين لذلك بدلناهم غيره فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية...صالح باشا... ولا بد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة...ولذلك الشأن كتبنا إليكم مذشوراً يوجب مضمونه المصافاة ويشفي مكنونه أن تكون المودة أقصى الغايات..."¹، ومن خلال هذه الرسالة تظهر كذلك نية السلطان العثماني في تجنب الخيار العسكري في مواجهة الدولة السعدية واتباع أسلوب السلم وحسن الجوار مع السعديين، إذ بين الباب العالي في هذا الخطاب للسلطان السعدي أن الدولة العثمانية لا تتطلع إلى الحرب بل وتحرص كل الحرص على أن تكون سياسة حكامها في الجزائر متجهة نحو السلم ونبذ العنف.

غير أن تنصيب صالح رايس² بعد عزل حسن بن خير الدين وكذا المساعي الدبلوماسية للباب العالي لن يوقفا النزعة التوسعية لمحمد الشيخ السعدي¹ وأن خيار

¹ بيات، البلاد العربية، المرجع السابق، ج1، ص159، 160

² بخصوص الخطاب المتعلق بتعيين صالح رايس على إيالة الجزائر ينظر: بيات، البلاد العربية، المرجع

السابق، ج1، ص161، 162

السلم مع السعديين سوف يبوء بالفشل مما سيفرض على العثمانيين اللجوء للخيار العسكري أمام تهديدات محمد الشيخ .

2- الخيار العسكري؛ استيلاء العثمانيين على فاس:

2-1- إعادة أبي حسون الوطاسي لعرش فاس:

يرى الباحث فاضل بيّات أن اهتمام الباب العالي بالمغرب الأقصى لم يبدأ إلا بعد تدخل محمد الشيخ السعدي في تلمسان، وأن الدولة العثمانية لم تفكر في ضمّ المغرب الأقصى ولا في التدخل في شؤونه السياسية قبل الحملات السعدية على إيالة الجزائر، ولأن هذه التحركات السعدية كانت تستهدف الوجود العثماني في البلاد المغربية فقد اضطر العثمانيون لاستعمال القوة لوقف التهديد السعدي على إيالة الجزائر العثمانية².

وعلى هذا الأساس، وبعد فشل بعثة الصلح الذي كان العثمانيون ينوون القيام به مع محمد الشيخ السعدي في ظل إصراره على عداة العثمانيين، قرّر ديوان إيالة الجزائر أن يتحرك عسكرياً نحو المغرب الأقصى من أجل إزاحة السعديين وتنصيب أبي حسون الوطاسي اللاجئ بالجزائر على عرش المغرب الأقصى.

¹ حول النزعة التوسعية لمحمد الشيخ ومقاومتها من طرف صالح رايس ينظر: مبرك فيصل، وقوف صالح رايس في وجه النزعة التوسعية لمحمد الشيخ السعدي 1539-1557م، مجلة تاريخ المغرب العربي، جامعة الجزائر 2، ع9، 2018

² بيّات، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص613. غير أن هذا الرأي يبدو مخالفاً للصواب فنيّة الدولة العثمانية في التوسع نحو المغرب الأقصى كانت قبل هذا التاريخ. وحول هذه المسألة ينظر: رواجي نذير، محمد شبوب، استراتيجية الدولة العثمانية تجاه المغرب الأقصى خلال عهد السلطان سليمان القانوني 1520-1566م، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، مج12، ع4، جامعة ورقلة، الجزائر، 2020

خرجت القوات الجزائرية في مطلع صيف 1553م متجهة نحو شمال المغرب الأقصى واستقرت تحديدا عند حجر بادس أين رسي الأسطول الجزائري¹ رفقة أبي حسون الوطاسي الذي انضم إليه قبائل المنطقة الموالية للوطاسيين، كما انضم إليه القائد مولاي عمر أمير منطقة دبدو شمال المغرب الذي كان لاجئا في مدينة مليلية، وبعد مناوشات مع القوات السعدية استطاعت القوات الجزائرية أن تستولي على بادس وتآزة الساحليتين²، وعن هذه المجريات يقول المؤرخ المجهول صاحب كتاب "الدولة التكمدرتية"³: "...فخرجت الحركة وغاز على وهران فخرج له المال ففرقه على الجيوش وازداد وغاز إلى تلمسان وكتب منها إلى القبائل فأجابوه وارتحل إلى أن وصل رباط تآزة فأتته رجال من المغرب..."³، وبعد ذلك اتجهت قوات التحالف الجزائري الوطاسي نحو الداخل قاصدة مدينة فاس بقيادة صالح رايس الذي جاءه مبعوث السلطان السعدي يعرض عليه الصلح الذي رفضه باشا الجزائر وقرّر المسير نحو فاس وذلك حسبما جاء في رسالة أحد المُخبرين إلى الحكومة الإسبانية بتاريخ 5 جانفي 1554م⁴.

قُرب فاس وفي منطقة "كدية المخالي" وقعت معركة شديدة مع القوات السعدية انتهت بهزيمة السعديين، وقد ورد حولها عند الإفرائي أن: "... فأقبلوا معه في جيش حفيل وباشتهم صالح التركماني إلى أن دخلوا مدينة فاس وخرج محمد الشيخ هاربا بعد حروب عظيمة ومعارك شديدة وكان دخول أبي حسون لفاس

¹ كانت القوات الجزائرية الداعمة لأبي حسون تتكون من خمسة آلاف رجل واثنى عشر سفينة حسب "دي طوريس". ينظر: المصدر السابق، ص 190

² كريم، المرجع السابق، ص 80

³ مجهول، الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص 23

⁴ دماش خليفة، كشاف وثائق الجزائر في الكتابات المتعلقة بالمغرب من العهد العثماني إلى العهد الراهن، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، قسنطينة، 2018، ج 2، ص 79

ثالث صفر عام إحدى وستين وتسعمائة...¹، وهكذا تم للعثمانيين تنصيب حليفهم أبي حسون الوطاسي على عرش فاس من جديد.

وتجدر الإشارة إلى أن الاضطراب الداخلي في المغرب الأقصى قد ساهم في ترجيح كفة التحالف العثماني الوطاسي على السعديين، إذ أن الجيش السعدي كان يضم الكثير من قبائل المرينيين الذين انقلبوا على محمد الشيخ السعدي وانحازوا لأبي حسون وصالح ريس، هذا إضافة إلى ستمائة جندي من الأتراك كانوا ضمن جيش محمد الشيخ وقد انقلبوا عليه كذلك ووقفوا إلى جانب صالح ريس مما مكن الأخير من كسب المعركة وهزيمة السلطان السعدي الذي فر لاجئاً إلى مراكش بعد دخول أبي حسون وحاكم الجزائر فاس في الثامن من جانفي سنة 1554م.²

وحسبما جاء في رسالة الحاكم العسكري الإسباني في وهران إلى حكومة بلاده بتاريخ 10 مارس 1554م فإن صالح ريس قد أعلن عن نفسه حاكماً لمملكة فاس باسم السلطان العثماني وعيّن أبا حسون نائباً له، كما أرسل إلى السلطان العثماني سفينة يقودها علج علي تحمل هدية للسلطان مكونة من الجواهر والذهب والفضة كما طلب من الباب العالي أن يرسل إليه الدعم العسكري من الرجال والسفن الحربية.³

كان انتصار صالح ريس على السعديين ذا أهمية بالغة من أوجه عدة:

أولها؛ دحر التهديد السعدي ولو ظرفياً على إيالة الجزائر وتأمين مدينة تلمسان وباقي المناطق الغربية للإيالة، وثانيها فإنه بتنصيب مولاي عمر في دبدو وأبي حسون في فاس فقد مكّن النفوذ العثماني من التوسع في شرق ووسط المغرب

¹ الإفرائي، المصدر السابق، ص30

² كريم، المرجع السابق، ص80

³ حماش، المرجع السابق، ج2، ص81، 82

الأقصى، وأخيرا فإن سيطرة العثمانيين على بادس والموانئ الشمالية قد ضيق الخناق على الإسبان والبرتغاليين وهدد وجودهم في منطقة شمال المغرب ومضيق جبل طارق، وهو ما دفع بملك البرتغال خوان الثالث للاتصال بملك إسبانيا شارلكان ليبيّن له مدى خطورة الوضع على كلا المملكتين (الإسبانية والبرتغالية) في ظل الوجود العثماني في الموانئ الاستراتيجية شمال المغرب الأقصى¹.

ولم تكتف السياسة العثمانية تجاه المغرب الأقصى بتوسع نفوذها فيه عن طريق الحليف أبي حسون، وإنّما أراد العثمانيون أن يزيد حوا الأخير وينفردوا بالسلطة في المغرب الأقصى وهذا ما أورده المؤرخ المجهول إذ جاء عنه: "...ولما رأى التُّرك محاسن البلاد أعجب بهم وأرادوا القيام على أبي حسون... فضربوا (أقاموا) ديوانهم على فاس الجديدة²... فلما اجتمعوا بفاس الجديد دعوا لأنفسهم وقبضوا السلطان أبي حسون وقبضوا على خاصته وسدوا فاسا الجديد وأخرجوا أهلها..."³، وفي هذا النص برهان واضح على نية العثمانيين الانقلاب على أبي حسون والاندفاع بالسلطة في المغرب الأقصى وضمه للحكم العثماني بشكل نهائي.

لم يقبل سكان فاس بمحاولة الانقلاب هذه وثاروا ضد العثمانيين وطالبوا بجلّائهم من فاس مما دفع بالسياسة العثمانية أن تتراجع عن فكرة الانقلاب وتفضل الاحتفاظ بنفوذها تحت حكم أبي حسون الذي اتفق مع القوات العثمانية

¹ ينظر: كريم، المرجع السابق، ص 81

² مدينة جديدة قرب فاس. للمزيد حولها ينظر: دي طوريس، المصدر السابق، ص 146

³ مجهول، الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص 24

على الجلاء من فاس مقابل ما وعدهم به من المال والعطايا فعادوا إلى الجزائر تاركين في المغرب الأقصى بعضاً من فرق الجند العثماني¹.

ثالثاً: اغتيال السلطان محمد الشيخ السعدي:

1- استعادة السعديين عرش فاس:

بعد انسحاب الجند العثماني من فاس بطلبٍ من أبي حسون كما قد سبق ذكره، وجد محمد الشيخ السعدي الفرصة مواتية للقضاء على أبي حسون واستعادة عرش المغرب الأقصى نهائياً²، وقبل أن يتوجه محمد الشيخ إلى فاس لمحاربة أبي حسون قرر أولاً أن يطلب مساعدات عسكرية من البرتغال لكي يستقوي بها على أبي حسون ويأمن بها من أترك الجزائر³، وبعد أن أتمّ الشيخ السعدي هذا الاتفاق⁴ أقام تجهيز قواته من قبائل سوس ومراكش وأتى لقتال أبي حسون الذي خرج لمواجهته بجيش مكون من قبائل فاس ومنطقة الريف (شمال المغرب الأقصى)، غير أن محمد الشيخ قد نجح هذه المرة في نصب كمين لأبي حسون أدى إلى مقتله هو والكثير من قواته خلال المعركة التي انتهت بدخول محمد الشيخ قسبة فاس في 23 سبتمبر 1554م⁵، وهنا يقول الناصري: "...فاستنفر

¹ ينظر: الإفرائي، المصدر السابق، ص28، كريبخال، المصدر السابق، ج1، ص486، 487

² يقول كريبخال أن صالح رايس كان قد راسل محمد الشيخ قبل أن يعود إلى الجزائر بأنه لا يمانع شنّ غارة سعدية على فاس واستردادها من أبي حسون الذي حرّض العامة على صالح رايس وجنوده في فاس.

ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص487

³ حمّاش، المرجع السابق، ج2، ص30

⁴ كان من شروط البرتغاليين في هذا الاتفاق تنازل الشيخ السعدي عن جزيرة بادس وحصن البنيون ومدينة العرائش وعدم المطالبة بالجزائر إن تمت السيطرة عليها، وقد وافق الشيخ السعدي على ذلك

باستثناء التنازل عن مدينة العرائش، ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص30، 31

⁵ كريم، المرجع السابق، ص82، 83

قبائل السوس وجمع الجموع وزحف إلى فاس فدارت بينه وبين أبي حسون حروب شديدة كان في آخرها الظفر للشيخ فقتل أبا حسون واستولى على فاس وصفا له أمر المغرب...¹، وبهذا النصر عاد حكم المغرب الأقصى مرة أخرى للسعديين وانفرد محمد الشيخ بحكم البلاد بعد أن قضى على الوطاسيين بشكل نهائي.

2- فشل المساعي الدبلوماسية العثمانية في ظل التحالف السعدي الإسباني:

بعد هذا النصر الذي حققه محمد الشيخ أخذ الأخير في توطيد علاقاته مع الإسبان الذين يعتبرون بدورهم أشد أعداء العثمانيين في المنطقة، حيث أقام السلطان السعدي في سنة 1555م معاهدة سلم وتحالف مع الحكومة الإسبانية، وقد طلب السلطان السعدي من الطرف الإسباني أن يرسلوا إليه إثني عشر ألف جندي من المشاة وألف فارس لمحاربة إيالة الجزائر، وإنه سيتعهد بدفع مرتباتهم وتكاليف نقلهم إلى المغرب وذلك حسبما جاء في رسالة الحاكم العسكري الإسباني بمليية إلى حكومة بلاده بتاريخ 21 مارس 1555م²، ويبدو أن الطرف الإسباني قد رحّب بالعرض السعدي وياشر التفاوض مع محمد الشيخ حول هذا التحالف وهو ما جاء في الرسالة التي بعثها حاكم وهران الكونت دالكوديت (Comte d'Alcaudete) لملك إسبانيا بتاريخ 22 جويلية 1555م والتي يصف فيها كيف استقبل الوفد الإسباني في شهر ماي 1555م من قبل محمد الشيخ من أجل

¹ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص28

² حماش، المرجع السابق، ج2، ص90، 91. كما أيدت مملكة البرتغال معاهدة الصلح الإسبانية السعدية ودعت إلى ضرورة دعم السلطان السعدي ضد إيالة الجزائر. ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص90، 91

التفاوض مع السلطات على معاهدة الصلح والتحالف بين الطرفين، وقد كان الوفد الإسباني قد بقي في فاس إلى غاية 11 جوان من نفس السنة¹.

ويبدو أن الطرف الإسباني كان حريصاً جداً على استمرار التحالف مع الطرف السعدي، حيث جاء في وثيقة ملكية إسبانية "تفويض" لحاكم وهران بعرض تحالف مع سلطان المغرب ضد العثمانيين وذلك في رسالة مؤرخة في 1 أبريل 1556م تضمنت مايلي:

"الملك،

أسمو الملك الفارس بين المغاربة مولاي محمد الشيخ ملك فاس والمغرب، فبواسطة دون مارتين دي قرطبة ودي بلاسكو والكونت ديلكوديت قبطاننا في وهران ومملكة تلمسان وتونس، نريد التفاوض بشأن السلم والهدنة معنا ونساعدكم في طرد الأتراك من الجزائر ومناطق أخرى من المغرب، فتهددهم لمناطق عديدة من البر وأخرى من البحر جعلهم أعداء مشتركين، فهم لا يحافظون على أي وعد أو قانون، وأخذاً بإرادة الشريف لمساعدتنا فإننا نمنح المدعو الكونت دي الكوديت تفويضا للتفاوض معكم أو مع من ينوب عنكم في ذلك..."².

وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ السعدي يعقد تحالفاته مع الإسبان والبرتغاليين وصله سفير من إيالة الجزائر في خريف عام 1555م حسبما جاء في الرسالة

¹ De La Primaudaie, Documents inedits (R.A, V21), op-cit, p268-275

² هذه الرسالة عبارة عن تفويض ملك إسبانيا فيليب الثاني للحاكم الإسباني في وهران الكونت دالكوديت بشأن التفاوض مع الشريف السعدي ملك المغرب مُرسلة من بروكسل مقر إقامة الملك الإسباني بتاريخ 1 أبريل 1556م. ينظر: بويقران خالد، علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين من خلال الوثائق الإسبانية

الدفينة لتاريخ المغرب، مجلة كان، ع39، 2018، ص125

التي بعث بها الحاكم البرتغالي في مدينة القصر الصغير إلى حكومة بلاده بتاريخ 25 أكتوبر 1555م والتي أقر فيها بأنه يجهل موضوع السفارة وكذا النتائج التي أسفرت عنها¹.

ويمكننا القول أنه منذ مقتل أبي حسون لم يعد للعثمانيين في المغرب الأقصى ورقة يلعبونها ضد السلطان السعدي غير المواجهة المباشرة أو الجنوح إلى السلم ولو ظرفيا على الأقل ولهذا فقد اختار العثمانيون الطريقة الثانية في التعامل مع محمد الشيخ السعدي ألا وهي البحث عن هدنة معه والعمل على وضع حد للحرب ريثما يُعيدون ترتيب أوراقهم، خاصة أن العثمانيين في هذه الفترة كانوا يتأهبون لمعركة حاسمة مع الإسبان في بجاية والتي ستنتهي بتحريرها نهائيا سنة 1555م.

على هذا الأساس قام السلطان العثماني بإرسال سفارة أخرى إلى محمد الشيخ السعدي يهنئه فيها على تولي حكم المغرب الأقصى ويدعوه فيها إلى الصلح وإلى إعلان التبعية للباب العالي وهو ما جاء في الرسالة التي بعث بها الحاكم البرتغالي في مدينة القصر الكبير إلى حكومة بلاده والمؤرخة في 15 جانفي 1557م²، كما قد ورد عند المؤرخ المجهول نصا حول هذه البعثة ونتائجها جاء فيه: "...ولمّا تمكك السلطان بمُلك المغرب... إذ وفد عليه رسول السلطان سليم³ يُسعده في ملاكه ويُعلمه بما كان عليه بنو مرين (بني وطاس) معه من الوداد والهدايا والخدمة إليه... فسكت عنه ولم يجبه بشيء وبقي عنده إلى أن طال جلوس الرجل وطلب منه أن يسرحه فقال له مولاي محمد الشيخ سلم على أمير القوارب

¹ حمّاش، المرجع السابق، ج2، ص31

² المرجع نفسه، ج2، ص32

³ يقصد السلطان سليمان القانوني.

سلطانك وقل له أن سلطان المغرب لا بد له أن ينازحك على عمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله...¹، ومن هذا الردّ الذي أهان به محمد الشيخ سفير الباب العالي وسلطان الدولة العثمانية بدا جليا أن السلطان السعدي غير مستعد لإقامة أي صلح مع العثمانيين وإنه يرفض بشدة أن يكون تابعا للدولة العثمانية كما كان الحال مع الوطاسيين، كما أن هذا الرد يبيّن أن الشيخ السعدي يعتبر العثمانيين أعداء له في المنطقة وإنه يسعى لطردهم وإزاحتهم منها، وهذا ما أكد عليه الإفرائي في سياق حديثه عن علاقة محمد الشيخ السعدي بالدول المجاورة إذ يقول: "...قد فغر أفواهه للانتقامه عدوان عظيمان، عدو من الأتراك وعدو الدين الطاغية..."²، ويبدو أن نشوة النصر كذلك قد وسعت من طموحات السلطان السعدي وحمّلتها على مقارعة العثمانيين ولا أدلّ على ذلك من قول الإفرائي أن محمد الشيخ لما تغلب على بلاد المغرب ودانت له حواضره وبواديها تآقت همتّه العليّة إلى بلاد المشرق فكان يقول لا بد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك من أحجارهم وأنازلهم من ديارهم³.

ومن هنا يمكننا القول -بخصوص بعثة السلام العثمانية الأخيرة إلى السلطان السعدي- أن الأخير قد كان في موقف قوة بعد قضائه على أبي حسون وانفراجه بالحكم في المغرب الأقصى، ومنه فقد أصرّ على مواجهة العثمانيين وعدم الجنوح إلى السلم معهم، أما في الجهة المقابلة فإنه يمكننا القول أن العثمانيين لم يطلبوا الصلح من محمد الشيخ السعدي من أجل الصلح وإنما فقط من أجل كسب بعض

¹ مجهول، الدولة التكمارية، المصدر السابق، ص31

² الإفرائي، المصدر السابق، ص39

³ المصدر نفسه، ص42

الوقت للتفرغ لتحرير بجاية¹ من أيدي الإسبان وإعادة ترتيب أوراقهم أكثر في المنطقة.

ومنه فقد كان التحالف السعدي الإسباني والعلاقات العسكرية مع البرتغال إضافة إلى إهانة محمد الشيخ للسلطان العثماني دلائل واضحة المعالم على فشل مساعي الإصلاح التي بادر بها الباب العالي تجاه محمد الشيخ السعدي، وأن الأخير غير مستعد مطلقاً على إقامة علاقات سلمية مع العثمانيين، بل على العكس فالسلطان السعدي كان يسعى لتخلص منهم ومن نفوذهم في بلاد المغرب، ومن هنا فقد قرر السلطان العثماني القضاء نهائياً على نظيره السعدي وبأسلوب أكثر عنفاً ودموية.

3- مقتل محمد الشيخ السعدي:

لما وصلت إهانة محمد الشيخ السعدي للسلطان العثماني مسامح الأخير فضلاً عن إقامته لتحالف مع الإسبان ضد العثمانيين، قرر الباب العالي أن يتخلص من السلطان محمد الشيخ السعدي، وكان السلطان سليمان القانوني قد أراد بادئ الأمر أن يجتاح المغرب الأقصى عسكرياً من أجل القضاء عليه، غير أن نواب السلطان ووزراءه اقترحوا عليه مقترحاً آخر، ألا وهو اتباع طريقة أقل تكلفة من الحرب لقتل السلطان محمد الشيخ، إذ جاء عن المؤرخ المجهول: "...فأنكروا عليه ذلك الوزراء وغيرهم وقالوا له نفعل ما هو أيسر من هذا... وكتبوا إلى الكاهية صالح وهو كبير الإنكشارية وأعلموه بالأمر... فأتى بهم إلى السلطان وقال لهم يا مولاي إن هؤلاء بنو عمي وإخواني وقرابتي لما سمعوا

¹ تم تحرير بجاية على يد صالح رايس في شهر سبتمبر 1555م. حول ذلك ينظر:

Dan, op-cit, p81, Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p93, De la primaudie, Documents inedits (R.A, V21), op-cit, p 281,282

بعزنا معك أتوا إليك ليخدموك فقال لهم مرحبا ثم كتب لهم الراتب والإقامة من جملة القوم...¹، هذه رواية المجهول، أما الإفرائي فيقول عن الاغتيال مايلي: "...فبعثوا رجلا من أبطالهم يقال له صالح الكاهية في شردمة قليلة من أجنادهم مظهرين له أنهم هربوا من العثماني ورغبوا في خدمته والتحصن به من طلبهم وزيتهم المكيدة والاغتيال... فلم يزل مع أصحابه ينظرون في المكيدة ويتربصون الدواير بالسلطان إلى أن أمكنتهم الفرصة منه... فضربوه بشاقور ضربة واحدة أبانوا بها رأسه عن جسده.."²، وقد تمت عملية الاغتيال أثناء إحدى الرحلات التفقدية لمحمد الشيخ نواحي "تارودانت" وتحديدا في منطقة آلا كال، إذ وأثناء إقامة المعسكر السلطاني في المنطقة أحدث الجند العثماني³ أضجة وصدخبا قرب إقامة السلطان وذلك من أجل توفير الجو الملائم لتنفيذ العملية، وهنا قال محمد الشيخ لأحد نوابه: "أخرج وانظر إلى هؤلاء الحوالة وانظر فتننتهم على أي شيء، فقال له يا مولانا إن هذا رأس الشهر وربما أتوك بسبب الإقامة والمؤونة وهكذا هي عادتهم فأمر بدخولهم عليه... فأخرج الكاهية صالح شاقورا من ظهر رجل منهم ورمى رأس السلطان وخرج به في يده..."⁴. وهكذا تم القضاء على محمد الشيخ السعدي الذي تمادى في إعلان عداؤه للدولة

¹ مجهول، الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص31،32

² الإفرائي، المصدر السابق، 42،43

³ حول القوات العثمانية التي بقيت في فاس زمن حكم محمد الشيخ وعملت لصالحه ينظر: المصدر نفسه، ص 43، مجهول، الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص30، رواجي، شبوب، المرجع السابق، ص175،176

⁴ مجهول، الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص32. وتجدر الإشارة إلى أن المؤرخ ابن القاضي في ترجمته لمحمد الشيخ السعدي في كتابه درة الحجال في أسماء الرجال لم يُشير إلى أنه اغتيل من قبل الأتراك وإنما "غَرَّ به بعض جنده بقرب تارودانت من بلاد السوس". ينظر، درة الحجال، المصدر السابق، ج2، ص206

العثمانية وإهانة سلطانها، والذي أنهى اغتياله فترة من أكثر الفترات توترا بين إيالة الجزائر والمغرب الأقصى.

من الجدير هنا الإشارة إلى أن المصادر التاريخية أهملت الحديث عن شيء في غاية الأهمية وهو قصر بصيرة محمد الشيخ السعدي، فكيف يُدعى على مجموعة من القوات العثمانية في فاس لحمايته وهو مُشهر بعدائه للسلطان العثماني، فكيف لم يفكر محمد الشيخ أنه يمكن لسليمان القانوني وقادته في الجزائر أن يأمر الجند العثماني الذي لا يزال قابعا في فاس بل والذي اتخذ منه محمد الشيخ بطانة وحرسا بأن يقوموا بتصفيته¹ وهو ما حدث فعلا في آخر المطاف؟

ومن أجل أن نسلط الضوء أكثر على عملية اغتيال الشيخ السعدي لا بد من الإشارة إلى إحدى الروايات المعاصرة للحدث، والتي أوردها مارمول كربخال، حيث يختلف الأخير مع المصادر المحلية المغربية في حيثيات مسألة اغتيال محمد الشيخ السعدي، إذ حسب كربخال فإن اغتيال السلطان السعدي لم يكن للسلطان العثماني فيه أي دخل وإنما اتخذ القرار باستقلالية من طرف حكومة إيالة الجزائر، إذ جاء عنه: "...كان يومئذ بالجزائر ضابط كبير سفاك للدماء يدعى حفصي،

¹ بما أن دراستنا تتعلق بدراسة موقف وسياسة الباب العالي تجاه التهديدات الخارجية لإيالاتها المغربية وبما أن فصلنا هذا يختص بالبحث في موقفه من التهديد السعدي لإيالة الجزائر فلا بد من الإشارة إلى أنه لم نجد مراسلات من الباب العالي تتعلق بالقضاء على محمد الشيخ السعدي ولا على قتله أو اغتياله أو حتى تحيته من الحكم، خاصة وأن الأرشيف الوطني بالجزائر غني بالمراسلات العثمانية لحكام الجزائر حول السياسة الخارجية وكذا حول العلاقة مع الدولة السعدية ابتداءً من سنة 963هـ/1555م، وربما يعود ذلك إلى سرية هذه المهمة ومحاوله العثمانيين تجنب انتشار الأمر بالاغتيال وذلك مخافة فشل مخطط الاغتيال وكذا تجنباً لتشويه صورة الخلافة العثمانية وسلطانها سليمان القانوني، أو لأن أمر اغتياله كان بقرار خالص من حكومة الجزائر.

وهو بالذات حفصي باشا، أبوه هو المكنى بربروس، وقد عرض هذا الضابط خدمته على حاكم الجزائر لكي ينفذ عملية اغتيال محمد الشيخ الذي يعده عدوا لدودا، استحسن الحاكم الاقتراح ووعده السفاك بمكافأة مالية هامة إن هو نفذ العملية بنجاح...¹. هذا ما يختلف به كربخال عن المصادر الأخرى أما البقية من قصة الاغتيال وحول دخول المرتزقة الجزائريين إلى فاس على أساس أنهم فارين من العثمانيين والتفاصيل الأخرى للعملية فيتنفق فيها معهم.

لكن من هو حفصي باشا؟ هل هو حسن باشا ابن خير الدين؟ خاصة وأن كربخال ذكر أن والده هو المكنى بربروس؟ وأن العملية تمت فعلا سنة 1557م وهي فترة ولاية حسن بن خير الدين على إيالة الجزائر؟

لكن هذه الفرضية تبطلها الرواية نفسها، إذ يقول كربخال أن حفصي هذا عرض خدماته على حاكم الجزائر وحاكم الجزائر هو نفسه حسن بن خير الدين؟ كما أن كربخال يذكر في كتاباته حسن بن خير الدين باسم: "حسن باشا" وبالتالي لا يمكن أن يقع عليه اللبس حول شخصيته وهذا يدل على أن كربخال لا يقصد أن حفصي باشا هو نفسه حسن باشا. ولكن لماذا قال عن والده إنه المكنى بربروس؟

رواية تاريخية أخرى نحاول من خلالها الخروج من هذه الحلقة المفرغة واضطراب الروايات التاريخية حول شخص منفذ عملية الاغتيال، وهي رواية "دي طوريس" صاحب كتاب "تاريخ الشرفاء" إذ نجد عنده: "...كان حاكم الجزائر آنذاك أحد أبناء بربروس، خلفا لصالح رايس، ويقال أن سليمان لما بعث به حاكما إلى الجزائر كلفه بالفتك بالشريف إذا سنحت الفرصة له، ذلك لأن السلطان الأعظم كان حاقنا عليه لامتناعه من تنفيذ أوامره... وكان إذ ذاك بالجزائر تركي يدعى حسن وهو رجل شاطر جريء، لما علم أن الباشا يرغب في تنفيذ أوامر سليمان

¹ كربخال، المصدر السابق، ج1، ص490، 491

فقصد العامل وقال له إذا رغب في أن يقتل الشريف فما عليه إلا أن يأمره بذلك... فوعد الباشا بجوائز عظيمة إذا نجح في عمله...¹، وبقية القصة تتقاطع فيها هذه الرواية مع الأخباريات. ورغم اختلافه مع الروايات الأخرى حول منفذ عملية الاغتيال يتفق "دي طوريس" معها في أن السلطان العثماني هو من أعطى الإذن لحكومة الجزائر بتنفيذ العملية، باستثناء كرخال الذي اعتبر حسبما أوردناه أعلاه أن القرار اتخذ باستقلالية من طرف حكومة الجزائر.

في رواية أخرى نجد أن السلطان العثماني قرر منذ سنة 1555م وقبل تحرير بجاية أن يتخلص من محمد الشيخ السعدي وهو ما جاء في إحدى الرسائل التي وجهها الكونت دالكوديت حاكم وهران إلى الأميرة ريختي (Regente) أميرة البرتغال في 23 جوان 1555م إذ ورد في الرسالة مايلي:

"سيدتي... ما يخشى خطره في هذه المناطق هو أن الشريف يتجه نحو إثارة أهالي الجزائر ضدنا لأنهم جميعا أعداءنا من قبل العقيدة وفي الإيمان، والخطر كذلك احتمال توافق وتحالف ملك الجزائر مع الشريف... رغم كون هذا الاتفاق صعبا لأنني أعلم بمجئ ابن بربروسا لإزاحته من السلطة بأمر من الباب العالي، وأنه لا يجرؤ على الذهاب لتركيا لأنه غني وأن السلطان العثماني ساخط عليه..."²، وبالتالي فقد صرح هنا حاكم وهران بعلمه بنية الباب العالي إزاحة محمد الشيخ السعدي من الحكم في المغرب الأقصى وبأنه كلف حسن باشا بن خير الدين بهذه المهمة، وهنا تتفق الرواية المذكورة في رسالة الكونت دالكوديت مع رواية "دي طوريس" بخصوص مجئ حسن بن خير الدين للقضاء على محمد

¹دي طوريس، المصدر السابق، ص220

² بويقران خالد، بويقران محمد، علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين من خلال الوثائق الإسبانية بمجموعة الوثائق الدفينة لتاريخ المغرب، مجلة قضايا تاريخية، الجزائر، ع9، 2018، ص134

الشريف السعدي مما يجعلنا نذهب لترجيح هذه الرواية على الأخريات في قضية اغتيال محمد الشيخ السعدي، أي أننا نرى بأن الاغتيال تم بقرار من السلطان سليمان القانوني وبأمر من قبل حسن باشا حاكم الجزائر.

من جهتنا، وبعد تحليل ومقارنة مختلف الروايات التاريخية نقول بأن منفذ عملية اغتيال محمد الشيخ السعدي هو حسن قورصو المكلف بهذه المهمة من قبل البايبراي حسن بن خير الدين، هذا الأخير الذي كُلف هو الآخر بهذه المسألة من قبل الباب العالي.

إذاً، يمكننا القول أن جميع المصادر التاريخية والدراسات المعاصرة للأحداث تقول عن منفذ الاغتيال أنه يدعى "صالح الكاهية" وهو من كبار قادة إنكشارية الجزائر¹، وتبقى روايتا كل من كربخال ودي طوريس الوحيدتان اللتان شدتا عن القاعة واختلفتا مع الروايات الأخرى حول منفذ عملية اغتيال محمد الشيخ السعدي.

أخيراً، يمكننا القول أن الصراع الجزائري السعدي في عهد محمد الشيخ كان صراعاً محدثاً استعمل فيها الطرفين أساليب وطرق متنوعة، وقد اختلفت هذه الطرق بين العسكرية والدبلوماسية وكذلك استعمال اللجوء السياسي في خضم هذا الصراع.

¹ إضافة إلى المصادر التاريخية المُعتمد عليها في المتن ينظر حول هذه الشخصية: بن قומר جلول، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا 1578-1603م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، الجزائر، 2011، ص54، كريم، المرجع السابق، ص85، بن خروف، المرجع السابق، ص184، إتر، المرجع السابق، ص202، وكلها تذكر بأن المدعو صالح الكاهية هو مُنفذ عملية اغتيال محمد الشيخ السعدي.

هذا، كما نشير إلى أن الدولة العثمانية لم تكن سبّاقة للحرب مع الطرف السعودي الذي كان البادئ إلى الحرب بعد محاولته التوسع على حساب الأراضي الجزائرية والاستيلاء على تلمسان.

كذلك، سعت الدولة العثمانية لاستغلال لجوء الوطاسيين إليها في صراعها مع السعوديين، حيث أراد الباب العالي أن يمكّن الوطاسيين من استعادة حكم المغرب الأقصى مما يجعله يضمن ولاءهم وبالتالي مدّ النفوذ العثماني إلى المغرب الأقصى عن طريق الوطاسيين المدعومين من طرفه.

اضف إلى ذلك، فقد حاول الباب العالي اتباع طرق سلمية ودبلوماسية لحل الصراع أو على الأقل للحد منه، وهو ما رأيناه في المراسلات العثمانية لمحمد الشيخ وكذا في سفارة الخروبي وأيضا في عزل الباب العالي لحسن بن خير الدين الذي كان ميّالا إلى الحرب مع السعوديين، غير أن هذه الحلول السلمية قد باءت بالفشل، إذ أن الطرف السعودي لم يرحب كثيرا بمبادرات السلم وسياسة الدبلوماسية التي بادر بها الباب العالي إزاء الصراع مع السعوديين، وهو ما تجلّى في الخطابات المهيّنة لمحمد الشيخ تجاه السلطان العثماني وكذا بالتحالفات التي أقامها مع الإسبان أعداء الدولة العثمانية في المنطقة وهو ما دفع بالباب العالي لاتباع الخيار العسكري الذي تجلّى في التدخل في المغرب الأقصى مرات عدّة لضرب المصالح السعودية ثم أخيرا في اغتيال السلطان السعودي، غير أن ذلكم يَضَعُ حداً للصراع العثماني السعودي في بلاد المغرب والذي تواصل في عهد ولده "عبد الله الغالب بالله" وهو ما سنتطرق إليه في المبحث الموالي.

المبحث الثالث: التدخل العثماني في الشؤون الداخلية للدولة السعدية:

لم يُنه اغتيال الباب العالي لمحمد الشيخ السعدي الصراع بين الدولة العثمانية ونظيرتها السعدية، إذ أن تولي عبد الله الغالب وراثته العرش السعدي كان إيذانا باستمرار الصراع بين الطرفين، وبالتالي استمرار التهديد السعدي على إيالة الجزائر خاصة في ظل التحالفات التي سيقمها عبد الله الغالب مع الإسبان للاستقواء بهم ضد العثمانيين، غير أن هؤلاء كانت لهم خططهم وأساليبهم هم كذلك، إذ باشروا بإيواء إخوة عبد الله الغالب المناوئين له في الحكم والذين استتجدوا بالدولة العثمانية التي راحت طيلة فترة حكم عبد الله الغالب تستعملهم كورقة ضغط سياسية للتدخل في المغرب الأقصى ومدّ النفوذ العثماني إليه.

ومنه فإن هذا المبحث سيتطرق إلى موقف الباب العالي من الصراع بين أبناء محمد الشيخ السعدي ودوره (أي الباب العالي) السياسي والعسكري لتطويق الدولة السعدية وإضعافها وبالتالي وقف تهديداتها على إيالة الجزائر.

أولاً: سياسة الباب العالي تجاه انشقاق الأسرة السعدية وأزمته الداخلية:

1- مشكلة وراثته العرش في الأسرة السعدية:

بعدما قُتل محمد الشيخ السعدي استلم ابنه عبد الله الغالب بالله¹ الذي كان أميراً على فاس الحكم من بعده، حيث تمّت بيعته من طرف أهالي فاس كما بايعه أيضاً أهل مراكش وتارودانت وسائر المناطق التي كانت خاضعة لوالده محمد الشيخ²، وفي هذا الصدد يقول صاحب الدولة التكمدرتية: "...فأرسل إلى أهل فاس من أعيان وفقهاء وأشياخ وأمناء وخاصته ومن كان حاضراً من أعيان

¹ ينظر ترجمته في: درة الحجال، المصدر السابق، ج3، 56، 57.

² دي طوريس، المصدر السابق، ص228.

القبائل فأعلمهم بوفاة والده السلطان بتارودانت فجددوا له البيعة و نادى بنصره... وأخذ بالرحيل إلى ناحية مراكش إلى أن وصلها ونزل بإزائها وخرج له أهلها وعزوه في أبيه... وكتبوا إليه البيعة...¹، وكان ذلك في محرم من سنة 965هـ² (أواخر سنة 1557م).

بعد بيعته سلطانا على المغرب الأقصى قرر عبد الله الذي تلقب بالغالب بالله الانتقال إلى مراكش في حين ولى على بقية الأقاليم إخوته وأبناء إخوته يحكمونها باسمه، غير أن الأمور لم تدم طويلا في عهد السلطان الجديد عبدالله الغالب حتى بدأ الانشقاق داخل البيت السعدي.

يعزو المؤرخ المعاصر للأحداث "دي طوريس" في كتابه "تاريخ الشرفاء" سبب الانشقاق الذي حصل داخل البيت السعدي إلى أن السلطان عبد الله الغالب لم يرقه حسن إدارة إخوته للأقاليم التي ولّاهم عليها ومحببة الرعية لهم، فقد رأى في ذلك تهديدا للمشروع الذي يحضّر له ألا وهو تجهيز أبنائه للحكم من بعده دون إخوته فقرر التخلص منهم³، خاصة بعدما رفضوا تقليده لابنه محمد المتوكل بولاية العهد⁴ متجاهلا بذلك أسبقيتهم⁵ في تولي هذا المنصب، وهو ما جعلهم يثورون ضده معارضين قراره، فما كان عليه إلا أن قرر القضاء عليهم عن طريق الاغتيال ولم

¹ الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص35

² الإفرائي، المصدر السابق، ص45

³ ينظر: دي طوريس، المصدر السابق، ص228

⁴ حول مشكلة ولاية العهد وبداية الانشقاق داخل الأسرة السعدية ينظر: كريخال، المصدر السابق، ج1، ص493، 494

⁵ تجدر الإشارة إلى أن أبناء محمد الشيخ السعدي كانوا إخوة غير أشقاء أي من أمهات عديدات. للمزيد حول تفاصيل ذلك ينظر: دي طوريس، المصدر السابق، ص222

ينجُ منهم سوى عبد الملك وأحمد وعبد المؤمن¹ الذين فرّوا لاجئين إلى إيالة الجزائر.

ومنه فقد كان هذا القرار الذي اتخذه عبد الله الغالب سببا في بداية الانشقاق والانقسام داخل البيت السعدي، فكيف سيتعامل العثمانيون مع هذه المسألة الهامة التي طرأت على المغرب الأقصى؟

2- لجوء الأمراء السعديين المنشقين إلى إيالة الجزائر:

بعد تعيين عبد الله الغالب لابنه محمد المتوكل² وليا للعهد واغتياله لإخوته الذين تمكّن منهم، اختار البقية اللجوء إلى العثمانيين في الجزائر طالبين الحماية من حكامها أولا ثم الدعم والتمدد لاستعادة عرش أبيهم من عبد الله الغالب وابنه محمد المتوكل ثانياً، وفي هذا الشأن يقول المؤرخ المجهول صاحب الدولة التكمدرتية: "...فأما مولاي عبد الملك³ ومولاي أحمد⁴ فكانا بسجلماسة ومنها فرا إلى تلمسان، ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن⁵...⁶، إلا أن هذه الرواية التي ذكرها المؤرخ المجهول لم تكشف ما لداعي إلى فرارهما، غير أننا نجد ذلك عند الإفرائي الذي يؤكد على أن هذا الفرار كان خوفا على حياتهما من بطش أخيهم عبد الله الغالب، إذ ورد عنه: "...وكان مولانا عبد الملك الغازي وأخوه أحمد

¹ كريم، المرجع السابق، ص 94

² ينظر ترجمته في: درة الحجال، المصدر السابق، ج 2، ص 223

³ ينظر ترجمته في: المصدر نفسه، ج 3، ص 149

⁴ ينظر ترجمته في: المصدر نفسه، ج 1، ص 106، وفي: المنتقى المقصور، المصدر السابق، ص 238

ومابعدا

⁵ ينظر ترجمته في: درة الحجال، المصدر السابق، ج 3، ص 168

⁶ الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص 34

المنصور بسجلماسة وحين بلغتهما وفاة أبيهما واستيلاء أخيهما على الملك بعده فرا إلى تلمسان خوفا على أنفسهما منه ولحق بهما أخوهما مولاي عبد المؤمن فبقيا بها مدة ثم فرا إلى الجزائر...¹، وبما أن السياسة العثمانية تجاه المغرب الأقصى منذ عهد محمد الشيخ كانت قائمة على إيواء المعارضة السياسية ودعمها ضد حكامه بما يخدم مصلحة إيالة الجزائر بالأساس فقد رحّب حسن بن خير الدين² بالأمراء السعديين المنشقّين ووعدهم بالإعانة لاستعادة عرشهم، كما زوج إحدى بناته لعبد المؤمن، إذ جاء عن صاحب "تاريخ الشرفاء": "...مكث عبد المؤمن بالجزائر، وأعجب حسن بسلوكه النبيل وخصاله الحميدة حتى أنه زوجه إحدى بناته وأسند إليه حكم تلمسان وأقام بها سكناه، وظل مدة من الزمن محبوبا من أهل ولايته...³، وقد كانت مصاهرة حسن بن خير الدين لعبد المؤمن السعدي وكذا توليته على تلمسان تدخل في إطار زواج وتعيين سياسيين خالصين بما لاشك فيه، حاول من خلالهما حاكم الجزائر بسط نفوذ إيالاته في شؤون المغرب الأقصى وتشكيل ضغط أكبر على عبد الله الغالب، ويؤكد هذا الرأي ما ورد في إحدى المراسلات اللاحقة من البايبرباي عالج علي إلى الباب العالي في رمضان 979هـ/جانفي 1572م والتي جاء فيها: "... إن شقيقي عبد الله سلطان مراكش وفاس المدعوان عبد المؤمن وعبد الملك قد حضرا إلى الجزائر قبل ثلاثة

¹الإفراني، المصدر السابق، 59

² عاد إلى حكم الجزائر في ولاية ثانية بداية من شهر جوان 1557م، ينظر: Haedo, Rois d'Alger, op-cit,p114

³ دي طوريس، المصدر السابق، ص230

عشر عاماً¹ وتم تنصيب عبد المؤمن على تلمسان لأن في ذلك مضرة لحاكم فاس ونفع للجزائر...².

وأثناء مكوثهما بالجزائر بدء كل من عبد المؤمن وعبد الملك بمراسلة السلطان العثماني بخصوص اغتصاب أخيهما حكم المغرب الأقصى وتكيله بإخوته وهو ما نجده في الرد الذي جاء في إحدى مراسلات الباب العالي بتاريخ 7 رمضان 972هـ/أفريل 1564م لعبد المؤمن وعبد الملك والذي ورد فيه:

"...ورد إلى باب سعادتنا خطابكما المتضمن رجاءكما بإعانة أسطولنا الهمايوني لتحقيق آمالكما بالعودة إلى دياركما بعدما سمعتموه عن محاولة هجوم أخيكما جناب الأمير عبد الله حاكم مراكش إثر محاولتكما الاقتراب من الحدود قصد الصلح معه، وقد عرض المضمون الميمون لخطابكما بالتفصيل على حضرتنا وأصبح ما جاء فيه محاط بعلمنا الشريف..."³.

ومن خلال الروايات التاريخية المعاصرة ورسائل الباب العالي بخصوص لجوء الأمراء السعديين نجد أن الباب العالي قد رحّب بلجوء هؤلاء إلى إيالة الجزائر، كما أعطى للمعارضة السعدية وعداً بالدعم السياسي والاهتمام بقضيتهم وخلافهم مع عبد الله الغالب وهذا ما يفهم من عبارة "وأصبح ما جاء فيه مُحاطاً بعلمنا الشريف" الواردة في مراسلة الباب العالي للأخوين السعديين، كما لم تكف السياسة العثمانية بإيواء المعارضة السعدية ودعمها سياسياً، بل أسّست كذلك

¹ تاريخ هذه الرسالة هو رمضان 979هـ/جانفي 1572م وبالتالي فإن لجوءهما إلى الجزائر كان سنة 966هـ/1558م وهو بالفعل تاريخ استلام عبد الله الغالب الحكم من بعد أبيه محمد الشيخ السعدي.

² و.ج، مهمة دفتري 18، حكم 25، 27 رمضان 979هـ.

³ و.ج، مهمة دفتري 6، حكم 971، 7 رمضان 972هـ.

علاقة مصاهرة مع الأمراء السعديين وشاركتهم في الحكم بإيالة الجزائر بما يضمن ولاءهم وإخلاصهم للدولة العثمانية.

ثانياً: الموقف العثماني من السياسات العدائية للسلطان الغالب بالله السعدي:

1- معركة وادي اللبّ:

مُستغلاً الانشقاق الحاصل داخل البيت السعدي ولجوء عبد الملك وأحمد إلى الجزائر قرر حسن باشا بن خير الدين استعادة النفوذ العثماني في المغرب الأقصى والذي انحسر منذ تغلب السعديين على الوطاسيين، فجهز حملة عسكرية واتجه براً من تلمسان قاصداً مدينة فاس أين وقعت بين القوات العثمانية والقوات السعدية معركة في أبريل سنة 1558م قُرب وادي اللبّ في نواحي فاس غير أن الهزيمة كانت من نصيب القوات العثمانية التي قررت الانسحاب إلى الشمال وتحديداً إلى صخرة بادس على مضيق جبل طارق، وعن هذه المعركة يقول الناصري: "...وفي سنة 965 في جمادى الأولى منها، غزاه حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف من الأتراك، فخرج إليه السلطان الغالب بالله فالتقيا بمقربة من وادي اللبّ من عمالة فاس، فكانت الدبرة على حسن، فرجع منهزماً يطلب صياصي الجبال إلى أن بلغ إلى بادس وكانت يومئذٍ للترك..."¹، وقد كانت معركة وادي اللبّ تمثل أول انتصار لعبد الله الغالب على العثمانيين، إلا أن الأخير ورغم انتصاره في هذه المعركة فإنه كان على يقين بأنه لن يستطيع مقاومة العثمانيين بمفرده في مرات قادمة فقرّر أن يبحث له عن حليف إقليمي ضد الوجود العثماني في المنطقة.

¹ الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص39، p117, Haedo, Rois d'Alger ,op-cit,

1- التحالف السعدي الإسباني ضد إيالة الجزائر (معركة مزهران 1558م):

يقول الباحث محمد رزوق بأن العلاقات المغربية الإسبانية لا يمكن دراستها أو فهمها إلا من خلال العلاقات المغربية العثمانية¹ (الجزائرية) ، وعلى هذا الأساس ومن أجل مواجهة الدولة العثمانية تابع عبد الله الغالب سياسة والده القائمة على عقد تحالفات مع أعداء العثمانيين في منطقة غرب البحر المتوسط عن طريق مهادنتهم والمحافظة على السلم معهم²، وكذلك عن طريق إشراكهم في حروب ضد العثمانيين، حيث أن التحالف مع الإسبان سيُحقق للسلطان السعدي أمرين مهمين؛ أولهما كسب الدعم الإسباني ضد العثمانيين والمعارضة الداخلية، وكذلك توريط إيالة الجزائر في معارك مع الإسبان تُشغلها ولو ظرفياً عن التدخل في المغرب الأقصى.

في شهر أوت من نفس السنة استغل الإسبان هزيمة إيالة الجزائر ضد عبد الله الغالب بالله السعدي في معركة وادي اللين -أخذاً بتوصية الحاكم البرتغالي في مدينة القصر الكبير لحكومة بلاده في الرسالة المؤرخة في 20 أفريل 1558م والتي بين فيها أن الظروف مواتية أمام الملك الإسباني لشنّ حملة على الجزائر³ وقرروا احتلال مستغانم عن طريق حملة مفاجئة، غير أن الإسبان فشلوا في مهمتهم ، في معركة قُتل فيها حاكم وهران الكونت دالكوديت (Comte d'Alcaudete)⁴.

¹ رزوق، المرجع السابق، ص 95

² كريمة، المرجع السابق، ص 87

³ حماش، المرجع السابق، ج 2، ص 33 ونشير هنا إلى أنه كان هناك في العديد من المرات تنسيق وتفاهم شديدين بين حكومتي إسبانيا والبرتغال فيما يتعلق بشؤون المغرب الأقصى.

⁴ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p118

ورغم فشل الإسبان في حملتهم على مستغانم إلا أن تعدد معارك العثمانيين وانشغالهم بالإسبان في مستغانم وكذا بثورة إمارة بني عباس في بايلك الشرق مكنت الغالب بالله السعدي من الدخول إلى تلمسان سنة 1560م، ورغم أن عبد الله الغالب لم يبق في تلمسان لوقت طويل إذ أنه انسحب منه فور سماعه بخروج جيش إيالة الجزائر لمحاربه¹، إلا أن تمكنه من دخول هذه المدينة يعتبر نجاحاً للخطط التي وضعها في إطار حربه على إيالة الجزائر.

وبالتالي يمكننا القول بأن هدف عبد الله الغالب بإشغال الجزائر عن غزو مملكته قد تحقق، فبعد هزيمتهم في وادي اللبن وبعد تحالف الغالب مع الإسبان قررت إيالة الجزائر أن تتعامل مع السلطان السعدي بحیطة وحذر وأن توقف ولو مؤقتاً تدخلاتها العسكرية في المغرب الأقصى، ففتح العديد من جبهات القتال سوف لن يعود بالنصر العسكري ولا بالنفع السياسي على إيالة الجزائر، وفي هذا الصدد يذكر الباحث المغربي خالد طحطح أنّ التخوف العثماني من إمكانية حصول تحالف إسباني سعدي هو أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت العثمانيين يوقفون تدخلاتهم في شمال المغرب الأقصى والتي أصبحت غير مضمونة النتائج خاصة أن القوى الأوروبية لن تلتزم الصمت إزاء السيطرة العثمانية على مضيق جبل طارق ومنافذ الطرق التجارية المتوسطية والأطلسية في آن واحد.²

¹ بن سفي عز الدين، ملامح من العلاقات السياسية الجزائرية المغربية على عهد الأتراك العثمانيين في الجزائر والأشراف السعديين في المغرب الأقصى، مجلة القرطاس، جامعة تلمسان، الجزائر، ع11،

2011، ص39، حركات، المرجع السابق، ص286، بن قومار، المرجع السابق، ص54

² طحطح خالد، العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث القرن 16-18م، مجلة كان، ع14،

2011، ص107

لم يكتفِ عبد الله الغالب بإشراك الإسبان في حروبٍ ضد إيالة الجزائر، وهو ما تجسّد في الحملة الإسبانية الفاشلة على مستغانم سنة 1558م، بل راح أيضا يطلق يدهم في التدخل العسكري في السواحل الشمالية للمغرب الأقصى من أجل طرد العثمانيين المستقرّين هناك عند صخرة بادس¹ تلك القاعدة البحرية والنقطة الاستراتيجية في مضيق جبل طارق والتي تلاعب دورا هاما في تحقيق النصر العسكري والسيطرة الاستراتيجية في المنطقة، فهي أقرب نقطة إلى جبل طارق والأراضي الإسبانية وكانت قاعدتين هامتين للسيطرة على حركة السفن في شمال المغرب، فلا توجد سفينة تمر بمضيق جبل طارق إلا ويستولي عليها العثمانيون المتمركزون فيها، وبالتالي فقد أصبحت هذه القاعدة تمثل تهديدا لكل أعداء العثمانيين في غرب البحر المتوسط وخاصة الإسبان والسعديين، ويمكننا حصر أهمية حجر بادس بالنسبة للعثمانيين في النقاط التالية:

- تمكنهم من مراقبة التحركات العسكرية الإسبانية والبرتغالية في مضيق جبل طارق.

- تمكنهم من عرقلة أي تحالف إسباني مع السعديين.

- تمكنهم من التدخل عسكريا في شمال المغرب الأقصى عن طريق الأسطول البحري.

- تسمح لهم بالتدخل في الأراضي الإسبانية وإنقاذ أو دعم الموريسكيين.

¹ كان الإسبان قد بنوا منذ احتلالهم شمال المغرب الأقصى مطلع القرن 16م قبالة ساحل طنجة حصنا عسكريا عند حجر بادس (Penon de Vallez) لمراقبة المنطقة والسيطرة عليها قبل أن يستعيدها الوطاسيون الذين سلموها بدورهم للعثمانيين مقابل دعمهم لأبي حسون الوطاسي ضد السعديين. ينظر: كريمة، المرجع السابق، ص 89

-وكذلك تمكنهم من الاستيلاء على/ أو من عرقلة الأنشطة التجارية لدول أوروبا الغربية بشكل عام.

على هذا الأساس قرر عبد الله الغالب التحالف مع ملك إسبانيا من أجل طرد العثمانيين من بادس ومنحها للإسبان مقابل دعمهم له ضد العثمانيين، وبطبيعة الحال فقد رحّب الإسبان بهذا الأمر نظراً للأهمية البالغة لهذه القاعدة، وحول هذه القضية يقول المؤرخ المجهول: "...وكانت عمارة أهل الجزائر وسفنهم لا تخلّ من مرسى بادس... ولا ينقطع الترك عنها في كل أوان، فاغتم من ذلك مولاي عبد الله وقنط وخاف أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد إلى المغرب فكتب إلى سلطان النصارى واتفق معه أن يخلي له الأدالة (كذا) من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليهما من المسلمين وتنقطع مادة الترك من تلك المادة فأتت النصارى بالعمارة إلى الحجر ونزل المسلمون منها وسكنتها النصارى... وارتحل السلطان إلى مراكش وتهنا من الترك من تلك البلاد."¹ وكان ذلك في سبتمبر من سنة 1564م، ونستخلص من هذا الكلام أن الإسبان لم يكونوا ليستولوا على قاعدة بادس لولا دعم عبد الله الغالب السعدي خاصة وأن الإسبان لم يحاولوا طرد العثمانيين منها منذ أن تملكوها زمن أبي حسون الوطاسي.

¹الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص39. وتجدر الإشارة إلى أن إسبانيا استطاعت استعادة قاعدة بادس سنة 1564م بعد محاولة أولى فاشلة سنة 1563م. ينظر: كريم، المرجع السابق، ص91، 90

ثالثاً: الباب العالي بين مساعي الصلح والتدخل العسكري ضد الغالب بالله السعدي:

1- مساعي الصلح:

مع حلول سنة 1564م رأت الدولة العثمانية أن تسلك مسلك التهدئة والصلح الحذر في التعامل مع الأوضاع في المغرب الأقصى وذلك لأسباب عديدة أهمها:

- هزيمة جيش الجزائر ضد السعديين في معركة وادي اللبنة.
- التحالف الإسباني السعدي ضد العثمانيين.
- محاولة الإسبان احتلال مستغانم سنة 1558م.
- تهديدات فرسان مالطا لتونس وطرابلس الغرب سنة 1560م وضرورة التصدي لها.
- خسارة صخرة بادس لصالح الإسبان سنة 1564م.
- الاستعداد لحصار مالطا سنة 1565م.

في ظل هذه المعطيات والأحداث التي تمر بها الدولة العثمانية وإيالاتها في غرب المتوسط رأت السياسة العثمانية أن تُقيم الصلح وتسعى إلى التهدئة بين الأمراء السعديين، حيث أن الصراع العسكري مع المغرب الأقصى لن يكون مجدياً في ظل هذه الموازنات الإقليمية والدولية التي يشهدها حوض المتوسط والمنطقة المغربية، وعلى إثر ذلك بعث الباب العالي برسالة يرد فيها على الأخوين عبد الملك وعبد المؤمن بتاريخ 29 رمضان 972هـ/ أبريل 1564م والتي جاء فيها:

"حُكْم إلى خلفي الأماجد والأكارم شرفي المحامد والمكارم، المختصان بمزيد من عناية الملك الدائم الشيخ عبد المؤمن والشيخ عبد الملك دام علوهما... وأمرت: عند وصول أمري الشريف الواجب اتباعه ألا تغفلا على مداراة شقيقكما بالشكل

والأسلوب الذي يراه حسن باشا دام إقباله أمير أمراء الجزائر مناسباً كي تضلا في أحسن حال...¹، ويتضح لنا من خلال مضمون الرسالة حرص السياسة العثمانية على ضرورة إيجاد حل سلمي للأزمة الحاصلة بين الأمراء السعديين، وعلى ضرورة استخدام الأساليب الدبلوماسية واتباع خيار الصلح من أجل حلحلة الأزمة، كما فيها توكيد من الباب العالي على حتمية تدسيق الأمراء السعديين اللاجئين لدى إيالة الجزائر مع حاكمها تجنّباً لأي ردة فعل فردية من قبل عبد الملك وعبد المؤمن تجاه عبد الله الغالب، وتجدر الإشارة إلى أن حكومة الجزائر قد عقدت معاهدة سلام مع عبد الله الغالب السعدي للمرة الأولى عام 1560م حسب إحدى الرسائل الموجهة للبلاط البرتغالي بتاريخ 6 فيفري من العام المذكور²، ومنه نستنتج أن الباب العالي لم يكن منذ الوهلة الأولى ناوياً على التدخل العسكري ضد عبد الله الغالب بالله، ولو أنه قام بتأييد ثورة عبد الملك وعبد المؤمن ضد أخيهما الغالب بالله³.

إنّ محاولة الباب العالي إقرار الصلح بين الأمراء السعديين لم تُكلّل بالنجاح وذلك بسبب نقض معاهدة الصلح من طرف عبد الله السعدي كما هو واضح في الرسالة التالية، هذا التطور الحاصل جعل السلطان العثماني يحث حاكم الجزائر حسن بن خير الدين على ضرور تسيير الأزمة السعدية وفق ما تقتضيه المصلحة العثمانية، حيث جاء في مراسلة من الباب العالي لبایلر باي الجزائر بتاريخ 3 رمضان 972هـ/4 أبريل 1565م:

"حُكْم إلى بكربكي جزائر الغرب حسن باشا"

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 971، 7 رمضان 972 هـ

² حماش، المرجع السابق، ج2، ص34

³ المرجع نفسه، ج2، ص34

أرسلت رسالة إلى عتبي العليا تبلغ فيها أنه سبق أن تم عقد الصلح بين حاكم فاس عبد الله وبين أخويه عبد المؤمن وعبد الملك بوساطة بعض الصلحاء إلا أنه تم نقض ما تعاهدوا عليه فعادوا إلى الجزائر... وقد صدر حكمي السلطاني إلى أخوي حاكم فاس المشار إليه والموجودين عندك وأرسل إليك وتقوم بتسليتهما بالشكل الذي تراه مناسباً... ولهذا فقد تم إرسال... وزيرى مصطفى باشا على رأس أسطولي السلطاني العظيم إلى البحر، وكلف بفتح قلعة مالطا والسيطرة عليها، وبعد انجلاء وضع هذه الغزوة الشريفة وعند عدم قيام حاكم فاس الموماً إليه بالجنوح إلى الصلح والصلاح... وأظهر العداء وأصر على المخالفة تجاه تلك الأرجاء فإنه سيتم تدبير أمره في وقته وحينه، ووفق ما يستدعيه مآب سلطنتي...¹، ومن خلال مضمون هذا الخطاب نلاحظ تأكيد الباب العالي على ضرورة اتباع أسلوب الصلح والسلم تجاه الأزمة السعدية، كما حثّ الباب العالي حاكم الجزائر على التعامل مع إخوة عبد الله الغالب حسبما تقتضيه مصلحة الدولة العثمانية وإيالة الجزائر، إلا أن الخطاب السلطاني لم يخلُ كذلك من الإشارة إلى ضرورة ردع عبد الله الغالب إن هو لم يجنح إلى السلم وقرر مواصلة إظهار العداء تجاه إيالة الجزائر وأخويه اللاجئين فييها.

كما نجد من خلال هذا الخطاب أن الباب العالي قد فضّل تأجيل اتخاذ خطوة عسكرية تجاه الغالب بالله بسبب استعداد الدولة العثمانية لحصار جزيرة مالطا سنة 1565م، حيث نبّه الباب العالي حاكم الجزائر على ضرورة كسب الوقت ومحاولة تجنب الصراع العسكري مع عبد الله الغالب بالله إلى ما بعد حصار مالطا.

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 972، 3 رمضان 972هـ

وفي مراسلة أخرى موجهة من الباب العالي لحسن بن خير الدين بتاريخ 12 جمادى الأولى 976هـ/02 نوفمبر 1568م أخبر فيها السلطان العثماني حاكم الجزائر بمجيء عبد الملك السعدي إلى القسطنطينية وبطلبه التدخل العثماني لحل الصراع بينه وبين أخيه عبد الله، وقد جاء في هذا الخطاب:

"حُكْم إلى أمير أمراء الجزائر

لقد حضر إلى سدة سعادتنا خلف الأمراء الكرام السيد عبد الملك دام علوه دام اشقيق السيد عبد الله حاكم مراكش معنا ولاءه وقد أعرب المذكور عن النزاع الدائر بينه وبين شقيقه بخصوص الحكم واسترعى إصدارنا خطابا همايونيا لمنحه مكانا قريبا من الجزائر لأجل معيشة وكذلك بدل مساعينا لفصل الخلاف القائم بينهما بطريق الصلح والصلاح ودون حرب وقتال كيلا يلحق بالرعية أذى ورجا أيضا تعيين كل من السيد أحمد النوي والسيد سعيد المصري بن عاشور وهم من علماء وصلحاء الجزائر لإصلاح ذات البين بطريقة الرسالة ومطالبتهم لأخيه بإعطائه مدينة فاس.

وإذا ت عذر ذ لك فلي طالبوه ب مدينتي تار ته (تازة) وتغ لره (تافيلانت) مع توابعهما..وأمرت:

أن تتصل بالمدكور حال وصول هذا الحكم وفي حال موافقته على الصلح والصلاح فلتشكل الوفد على الوجه الذي ورد في خطابي الشريف ولتبعث به بالأسلوب والطريقة المناسبة...ودعهم أيضا يتجسسون آراء الناس خفية كي تظهر نواياهم فيمن يرغبونه حاكما عليهم وليحذروا من حيلة وخديعة المشار إليه حتى يتم الصلح والصلاح على أكمل وجه.¹ وفي هذه الرسالة الموجهة

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 7، حكم 2439، 12 جمادى الأولى 976هـ .

لحاكم الجزائر تأكيد عثماني على حتمية إيجاد حل سلمي للصراع بين الأمراء السعديين وعلى ضرورة تجنب الخيار العسكري.

ومن خلال هذه المراسلة يمكننا استخلاص مجموعة من النقاط حول هذه المسألة لعل أبرزها:

- التأكيد على الحل السلمي للصراع بين الأمراء السعديين.
- تعيين وفد الصلح بعناية من قبل الباب العالي.
- وضع مجموعة من الشروط للصلح كتنازل عبد الله عن فاس أو بعض المدن الأخرى الموضحة في الرسالة، إذ أن الصلح يجب أن يحفظ حقوق كلا الطرفين.
- حرص الباب العالي على ضرورة التحقق من آراء العامة فيمن يرغبون فيه حاكما وذلك تجنباً لفشل الصلح.
- المطالبة بأخذ الحيطة والحذر من أية رد فعل غير مرغوب فيها من قبل عبد الله الغالب بالله.

هذا، وتتفق المصادر السعدية مع ما ورد في مراسلة الباب العالي الأخيرة، حيث تؤكد هذه المصادر أن السلطان العثماني رفض مساعدة عبد الملك عسكرياً منذ الوهلة الأولى وفضل البحث عن حلول سلمية، حيث يقول صاحب الدولة التكمدرتية في هذا القضية: "...ولما تمهد السلطان في ملكه بعد وفاة أبيه استقر مولاي عبد الملك مع أمه الرحمانية في ديار إصطنبول عند السلطان مراد¹

¹ السلطان مراد الثالث (1574-1595م): استلم مراد الثاني الحكم بعد وفاة أبيه السلطان سليم الثاني في أكتوبر 1574م، تم في عهده تدخل جيش إيالة الجزائر لتتصيب عبد الملك السعدي على عرش المغرب الأقصى، وكذا معركة وادي المخازن سنة 1578م والتي دعم فيها العثمانيون السلطان المذكور، للمزيد

وأعلمه بملك أخيه فسأله محلة لمنازعة أخيه ورد عليه القول وقال له: إني لا أعينك على فتنة المسلمين وأخوك قد تولى وبايعه المسلمون من أهل المغرب وهو أكبر منك سنا لكن سأرسل له...فأتى رسول من عند السلطان مراد إلى مولاي عبد الله ليستخبر أهل البلاد هل هم راضون به أم لا وهل هو عادل في الرعية أم جائر إلى أن بلغ الرسول إلى مراكش¹، وهنا تتفق رواية "المؤرخ المجهول" مع مضمون رسالة الباب العالي في أن الأخير رفض الخيار العسكري لحل الأزمة وفضل اتباع أسلوب الصلح بين الأمراء السعديين.

وكما بعث الباب العالي بخطاب لحاكم الجزائر أرسل كذلك خطابا لعبد الله الغالب متعلقا بنفس الموضوع يحثّ فيه الأخير على ضرورة إيجاد حل سلمي للأزمة بينه وبين إخوته وأن يوليهم على بعض الأقاليم في المغرب الأقصى، ومما ورد فيه: "...إن أخاك عبد الملك قدم إلى حضرتنا مظهرا للإخلاص والعبودية والانتماء...ويكون هذا الإخلاص مؤديا لإصلاح ما بينكم وسببا لمزيل الشقاق من بينكم...فلأجل إخلاصك ينبغي أن تُعين لأخيك المشار إليه شيئا من الممالك التي انتقلت إليكم من آباءكم الكرام...وترعى حق الأخوة فيه، وتزيل ما بينكم من الشقاق والعناد، وتكونوا مجدين في حفظ البلاد وصون العباد..."²، ويبدو أن الغالب بالله قد ردّب ببعثة الصلح التي أرسلها السلطان العثماني وقبل بشروط السلم مع الباب العالي وهو ما يتضح لنا من رواية "المؤرخ المجهول" الذي جاء عنه في ذات السياق أن عبد الله الغالب بالله استقبل بكرم المبعوث العثماني

حول هذه الشخصية ينظر: القرمانى، المصدر السابق، ج3، ص73-80، المحامى، المرجع السابق، ص259

¹الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص38، وحول هذه القضية ينظر كذلك: الإفرائى، المصدر السابق، ص60

²بيات، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص605

وأرسل معه ذخائر من الذهب والياقوت إلى نظيره العثماني، كما وعد المبعوث بأن يتولى شؤون إخوته وأن يرعاهم وينفق عليهم، ثم إن عبد الله الغالب بعث بكتابه أبا محمد السرغيني إلى الأستانة رفقة المبعوث العثماني حيث التقى "السرغيني" بالسلطان سليم الثاني واتفق معه على شروط الصلح قبل أن يعود إلى المغرب الأقصى ويخبر عبد الله بحيثيات هذا الصلح الذي رضي به كلا الطرفين حسب "المؤرخ المجهول"¹.

ولم تكتف السياسة العثمانية تجاه عبد المؤمن وعبد الملك بدعمها سياسيا في صراعها مع عبد الله الغالب بل اهتمت الدولة العثمانية أيضا بأوضاعهما المعيشية والمالية أثناء إقامتهما في إيالة الجزائر، وهذا ما تطرقت إليه رسالة السلطان العثماني إلى عبد المؤمن بتاريخ 22 جمادى الأولى 976هـ/22 نوفمبر 1568م، إذ جاء فيها:

"حكم إلى السيد عبد المؤمن

حضر إلى بابنا المعلا شقيقك عبد الملك دام علوه حاملا عرض حال يرجو فيه الاستمرار بإعطائكما ما كنتما تأخذانه من خزينة الجزائر ومن الحاصلات الأخرى كما كان الحال عليه عند قدومكما إليها.

وقد أرسل حكم شريف بهذا الشأن إلى أمير أمراء الجزائر علي دام إقباله لأجل إعطائكما ما كان يعطى لكما سواء من خزينة الدولة أو من المحاصيل الأخرى، وبناء على صداقتك وإخلاصك المعهودين لدى أستانة سعادتني منذ القديم فقد أرسلت إليك خدعة همايونية..."² كما جاء في الرسالة ذاتها أمر عبد المؤمن

¹ الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص39

² أ.و.ج، مهمة دفترى 7، حكم 2481، 22 جمادى الأولى 976هـ

بضرورة بذل جهوده تجاه الأمور المتعلقة بالدولة العثمانية وشؤونها الداخلية والخارجية وضرورة مواصلة العمل المشترك مع بايلرباي الجزائر¹.

وفي رسالة أخرى موجهة لعبد المؤمن بتاريخ 22 جمادى الأولى 978هـ/أواخر سنة 1570م دعا الباب العالي عبد المؤمن الذي لقبته الرسالة بحاكم فاس إلى عقد الصلح بينه وبين أشقائه وإصلاح الأحوال فيما بينهم "...ينبغي إحلال الصفاء بينكم وامتثال أشقائكم لأوامركم وعدم العدول والاندحراف عن جادة الشرع والقناعة بالأماكن المعينة لهم لإزالة سوء التفاهم... يجب أيضا حسن المعاشرة والموالاتة والمؤاخاة بينكم... فإن مرادنا هو صفاء الأخوة بينكم..."² مما يبين حرص الباب العالي إلى حد هذا التاريخ على ضرورة اتباع أسلوب السلم ومحاولة إقرار الصلح بين الأمراء السعديين وأخيههم عبد الله الغالب.

2- الخيار العسكري:

في الوقت الذي كان الباب العالي يحاول حلحلة الأزمة سلميا بين الأمراء السعديين نقض عبد الله الغالب بالله عهود الصلح مع إخوته، بل ذهب أكثر من ذلك وقرر أن يقضي على أخيه عبد المؤمن المقيم في تلمسان، حيث أرسل إليه وليّ عهده محمد المتوكل أحد رجاله سنة 1570م متظاهرا بفراره من المتوكل وطلب من عبد المؤمن أن يُغيّثه وأن يجعله من بطانته، فقبل الأخير بذلك، ولم

¹أ.و.ج، مهمة دفترى 7، حكم 2481، 22 جمادى الأولى 976هـ

²أ.و.ج، مهمة دفترى 14، حكم 625، 22 جمادى الأولى 978هـ

يمضٍ وقت طويل حتى تمكن الرجل من اغتيال¹ عبد المؤمن أثناء آدائه لصلاة الجمعة حسبما ذكره صاحب "تاريخ الشرفاء"².

كان اغتيال الغالب بالله السعدي لأخيه عبد المؤمن في تلمسان إيذانا صريحا من قبل عبد الحاكم السعدي على رفض التدخل العثماني في المغرب الأقصى ورفض كل مساعي الصلح الذي كان الباب العالي يعمل على إقراره، وهذا ما أدى بالدولة العثمانية إلى تغيير طريقة تعاملها مع عبد الله الغالب وقررت التدخل ضده عسكريا ودعم إخوته لاستعادة عرش المغرب الأقصى، خاصة وأنه في هذه الفترة وتحديدًا سنة 1571م وبعد اغتيال أخيه عبد المؤمن كان عبد الملك بن محمد الشيخ السعدي قد راسل الباب العالي مخبرًا إياه بمقتل عبد المؤمن ومُطالبًا بخطاب التعيين وبتوليته مكان أخيه القتل³، وقد ورد ذكر هذه الأحداث في إحدى المراسلات العثمانية إلى حكومة الجزائر بتاريخ 27 رمضان 979 هـ/ فيفري 1972م والتي صرّح فيها السلطان العثماني بـ: "...أن تصدقنا عليه بالبُرات"⁴ الهمايونية على الوجه الذي أُعطيت لأخيه المتوفي، وأمرنا بحرية تصرفه بها كما كان ذلك لأخيه من قبله..."⁵، ولم يكتف عبد الملك السعدي بمراسلة الباب العالي فقط، بل توجه بنفسه إلى القسطنطينية يطلب استعادة عرش المغرب

¹ شهدت ظاهرة الاغتيال السياسي انتشارًا كبيرًا في الجزائر خلال العهد العثماني، ورغم أن هذه الظاهرة كانت منتشرة أيضًا في العهد الزياني إلا أن حدتها زادت خلال الفترة العثمانية، وللمزيد حول هذه الظاهرة وتداعياتها في الجزائر إبان العهد العثماني ينظر: جبور ميلودية، ظاهرة الاغتيال السياسي في نظام الحكم العثماني بالجزائر 1519-1830، مذكرة لذيّل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران 1،

2014، 2015

² دي طوريس، المصدر السابق، ص 232

³ أ.و.ج، مهمة دفترى 18، حكم 25، 27 رمضان 979 هـ

⁴ البُرات، أو البُروات، أي الرسائل، والمقصود هنا المرسوم السلطاني أو رسالة التعيين.

⁵ أ.و.ج، مهمة دفترى 18، حكم 25، 27 رمضان 979 هـ

الأقصى من أخيه عبد الله وهو ما ورد في المراسلة الواردة إلى ديوان الجزائر بتاريخ 26 شوال 979هـ/مارس 1572م والتي جاء فيها: "...حضر إلى أستانة دولتنا خلف الأمراء والسلاطين عبد الملك دامت معاليه..."¹، كما جاء في هذه الرسالة أيضا أمرٌ بمساعدة عبد الملك في استعادة العرش السعدي "...وبناء على استدعائه لعاطفتي الملوكية بوضع ولاية فاس و مراكش و سوس تحت تصرفه... كما كانت عليه أيام والده المتوفي، فقد أعطينا هذا النشان الهمايوني إحاطة منا له بعنايتنا العلية الكروانية... فلا ينازعه في حكمه منازع ولا يتعرض له أحد في ذلك..."².

وبما أن الباب العالي قد قرر دعم عبد الملك لاستعادة العرش السعدي فقد طلب من عبد الملك الاتصال بعلي حاكم الجزائر من أجل التنسيق معه لتحقيق هذا الهدف، وذلك في رسالة موجهة لعبد الملك بتاريخ 26 محرم (الأصح شوال)³ 979هـ/أفريل 1572م جاء فيها:

"حُكِمَ إلى عبد الملك حاكم فاس

وصل إلى سدة عتبتنا العلية خطابكم الشريف الذي ينبئ باستمرار الظلم والتعدي الذي يمارسه شقيقكم عبد الله... وعلمنا بعدم رضا المشار إليه بالصلح وعدم امتثاله لما جاء في خطابي الهمايوني... وبناء عليه فقد أرسل حكم همايوني إلى

¹ أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 1036، 25 شوال 979هـ.

² أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 1036، 25 شوال 979هـ، وكذلك: مهمة دفترتي 12، حكم 325، 979هـ.

³ رغم أن الوثيقة المعتمد عليها تشير بوضوح إلى تاريخ 26 محرم، إلا أنه ودسب تتابع الأحداث التاريخية فإننا نأخذ بكون تاريخ هذه الرسالة هو 10/26 (شوال) وليس 1/26 (محرم) أي أن هناك احتمال وقوع خطأ أثناء النسخ.

علي دام إقباله أمير أمراء جزائر الغرب وأمرناه بإعداد العدة للهجوم على المذكور متى سنحت الظروف والأوقات وذلك بمشيئة الله...¹، كما أكد الباب العالي لعبد الملك على حتمية الاتصال والتنسيق مع عالج علي حاكم الجزائر بخصوص ذلك "فالمطلوب منكم هو الاتصال بالمشار إليه حال وصول هذا الخطاب الهمايوني وترقب الفرصة المواتية للهجوم على تلك الولاية المذكورة مع العساكر المنصورة..."²، وفي نفس الموضوع بعث الباب العالي بخطاب إلى عالج علي حاكم الجزائر يأمره بضرورة تقديم العون ومساعدة عبد الملك في استعادة العرش من أخيه عبد الله "...إذا كانت الظروف والأوقات مواتية بإذن الله الأعز فعليك بالهجوم مع العساكر المنصورة على تلك الولاية والبلاد لأجل استخلاصها بعناية الله باذلا في سبيل ذلك جميع مساعيك الجميلة..."³، ولكن وبما أن الخطاب اشترط في التدخل العثماني في المغرب الأقصى توفر الفرصة المناسبة وتهيؤ الظروف لذلك، فإن التحولات الإقليمية والدولية في حوض البحر المتوسط اقد حالت دون هذا التدخل العسكري في المغرب الأقصى، إذ أن استعداد القوى الأوروبية لمواجهة عسكرية ضد الدولة العثمانية متمثلة في معركة ليبانتو سنة 1571م قد جعلت الباب العالي يستدعي عالج علي حاكم الجزائر للمشاركة في هذه المعركة وبالتالي صرف النظر ظرفيا عن الأزمة في المغرب الأقصى.

¹أ.و.ج، مهمة دفتري 18، حكم 25، 27 رمضان 979هـ

²أ.و.ج، مهمة دفتري 18، حكم 25، 27 رمضان 979هـ

³أ.و.ج، مهمة دفتري 14، حكم 1572، 26 محرم 979هـ

رابعاً: تنصيبُ البابِ العاليِ عبدَ الملكِ السعدي سلطاناً على المغرب الأقصى:

1- مشاركة عبد الملك السعدي في تحرير تونس سنة 1574م ودورها في كسبه الدعم العثماني:

في سنة 1574م توفي السلطان عبد الله الغالب بالله السعدي وورثه على عرش المغرب الأقصى ولده ووليَّ عهده محمد المتوكل، وقد وافق تولي محمد المتوكل الحكم في المغرب الأقصى انتصارُ العثمانيين على الإسبان في تونس وضمها للدولة العثمانية، وقد كان لهذا النصر العثماني الأخير في تونس تأثيراً مباشراً على الأحداث في المغرب الأقصى. فكيف ذلك؟

تذكر الروايات التاريخية (كما في الفقرة الموالية) أن عبد الملك السعدي شارك رفقة القوات العثمانية في فتح تونس سنة 1574م مما سمح له باستمالة الباب العالي ودفعه لدعمه عسكرياً لاستعادة عرش فاس من ابن أخيه محمد المتوكل، ونشير هنا إلى أن عبد الملك شارك أيضاً رفقة القوات العثمانية في معركة ليبانتو سنة 1571م وأسر فيها من قبل الحلف الصليبي المقدس قبل أن يتم إطلاق سراحه، حيث عاد إلى الجزائر وبقي يعمل على ربط اتصالاته بين حكام الجزائر والباب العالي وكذا أنصاره من القبائل المغربية¹، غير أن العثمانيين لم يكونوا قبل هذه الأحداث على استعداد أو لم يكونوا متفرغين لدعم مشروع عبد الملك خاصة أن الإسبان قاموا بحملة كبيرة على تونس سنة 1573م² تطلبت تدخل الأساطيل العثمانية لتحريرها وهو ما حدث نهائياً كما أشرنا سنة 1574م.

¹ القدوري، المرجع السابق، ص 171

² حملة دون خوان النمساوي على تونس والتي تم التطرق إليها في الفصل الثاني.

جاء عن الناصري أن عبد الملك السعدي وأخوه أحمد المنصور قد شاركا في تحرير تونس وحلق الوادي سنة 1574م وأنهما كانا على رأس بعض القوات البحرية المشاركة في حصار حلق الوادي، إذ يقول في ذلك: "...فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتي¹ وهو صاحب الجزائر أن يجعل لهما رياسة قرصان منها يتوجهان فيه للجهاد معه، فأعطاهما غليونة فيها ستة وثلاثون رجلا فركباها ولدقا بعمارة السلطان سليم في جملة مراكب الجزائر..."²، وبذجاح الحملة العثمانية في تحرير تونس وحلق الوادي والذي ساهم فيه الأخوان السعديان وجد عبد الملك الفرصة مواتية لاستمالة السلطان العثماني وكسب دعمه العسكري من أجل التدخل في المغرب الأقصى بعدما رفض ذلك سابقا، وبخصوص هذه المسألة يقول الإفرائي: "...وبعث معهم³ مولانا عبد الملك... فهزم آلة الكفرة ومكن من رقابهم السيف وظهر البلاد من نجسهم... فكان عبد الملك أول من أرسل البشارة مع أصحابه إلى السلطان العثماني فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فأعطت للسلطان المذكور ما كتبه به ابنها والتمست منه أن يعطيها في بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهاب معه للمغرب فأعطاها ذلك فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان إلى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه إلى تملك ما كان بيد آباءه..."⁴، وهكذا نجح عبد الملك في أخذ الموافقة للدعم العسكري العثماني لاستعادة عرش المغرب الأقصى من ابن أخيه محمد المتوكل.

¹ يقصد رمضان باشا حاكم الجزائر.

² الناصري، المصدر السابق، ج5، ص62

³ أي القوات العثمانية، والمقصود هنا السلطان العثماني مراد الثالث بن سليم الثاني (1574م-1595م) وهذا خطأ، إذ أن فتح تونس كان في شهر جويلية 1574م أي في عهد سليم الثاني ابن سليمان القانوني (1566م-1574م) وقبل وفاته، وبالتالي فرواية الناصري أدق من رواية الإفرائي.

⁴ الإفرائي، المصدر السابق، ص62

أما بخصوص الباب العالي فقد وجد الفرصة مناسبة لدعم عبد الملك السعدي مما سيضمن له تحقيق جملة من الأهداف أهمها:

- القضاء على محمد المتوكل عدو الباب العالي في المغرب الأقصى.
- بسط النفوذ العثماني في المغرب الأقصى.
- فك التحالف الإسباني المغربي بتولية عبد الملك حليف العثمانيين.
- تقليص النفوذ الإسباني في غرب البحر المتوسط وتأمين الإيالات المغربية العثمانية من التهديدات الإسبانية.
- محاولة توحيد كافة البلدان المغربية تحت الحكم العثماني.

زيادة على ذلك وحسب الباحث إسماعيل جيران (Ismail Ceran) فإن كل من السلطان العثماني وعلج علي باشا بايلرباي الجزائر كانا على دراية تامة بأنه لا يمكن القيام بأي مهمة جادة ضد إسبانيا في وهران والمرسى الكبير-أو حتى في غرب البحر المتوسط عموماً- طالما هناك عداً مع المغرب الأقصى، ولهذا السبب فقد وجداً طلب عبد الملك معقولاً وقرراً دعمه ليجلس على عرش المغرب الأقصى¹، بمعنى أن وجود حكومة موالية لإيالة الجزائر والدولة العثمانية في المغرب الأقصى ستساعد على اجتثاث الإسبان من الجزائر ومن كافة المنطقة، وعلى العكس فإن ذلك سيبقى صعباً في ظل وجود تحالف بين إسبانيا ومن يجلس على عرش المغرب الأقصى.

¹ Ceran Ismail, Vadilmehazin Savasi 4 agustos 1578, Belletin Turk Tarihi Kurumu, Cilt60, Sayi228, 1998, p294

2- استلام عبد الملك السعدي عرش فاس :

بعد وصول الفرمان السلطاني الذي ينص على دعم عبد الملك عسكرياً قرر حاكم الجزائر رمضان باشا تجهيز جيش إيالة الجزائر من أجل الهجوم على المغرب الأقصى، واتفق الطرفان (رمضان باشا وعبد الملك) على أن يتحمل الأخير التكاليف المالية لهذه الحملة إذ ورد عن الإفرائي: "...فطالبه أهل الجزائر بالراتب، فقال لهم أسلفوني وعلي الخلاص، فاتفق أن يعطيهم عشرة آلاف في كل مرحلة، وكان عدد جيش الترك أربعة آلاف..."¹، وهكذا تحرك جيش إيالة الجزائر نحو المغرب الأقصى لاستعادة عرش فاس لصالح عبد الملك وكان ذلك في شهر شوال 983هـ/جانفي 1576م²، وكانت قوات إيالة الجزائر مكونة من ستة آلاف جندي إنكشاري وثمانمائة فارس، إضافة إلى ألف رجل من إمارة كوكو وستة آلاف من الفرسان العرب³، كما أبحرت سبع عشرة سفينة مُرافقة الحملة إلى السواحل الشمالية للمغرب الأقصى⁴.

في منطقة الركن قرب فاس التقى جيش إيالة الجزائر الداعم لعبد الملك وقوات محمد المتوكل السعدي الذي انسحب من المعركة بعد انقلاب قسم من قواته عليه⁵ وانضمامها لعبد الملك، حيث أن الأخير كان أثناء مكوثه بالجزائر قد ربط اتصالاته بشيخته في المغرب الأقصى ومنهم من كان في قوات محمد المتوكل،

¹ الإفرائي، المصدر السابق، ص62، وينظر كذلك: الدولة التكمدارية، المصدر السابق، ص47، 46

² وحسب هذا المرجع فإن قوات الجزائر كانت مكونة من خمسة عشر ألف Ceran, op-cit, p295
جندي بمن فيهم الفرسان والرماة حملة البنادق.

³ Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p161

⁴ بن خروف، المرجع السابق، ص204

⁵ كان من بين قوات المتوكل فرقة "جند الأندلس" بقيادة سعيد الورغالي التي انحازت إلى عبد الملك مما أضعف صفوف المتوكل وجعله ينسحب من المعركة. ينظر: الناصري، المصدر السابق، ج5، ص64

فعند بداية المعركة انقلب هؤلاء إلى جيش عبد الملك، وهنا فضل محمد المتوكل الانسحاب من المعركة ولجأ إلى فاس الجديد قبل أن يفر نهائياً إلى مراكش مما مكن عبد الملك من دخول فاس فاتحاً وكان ذلك يوم 7 ذي الحجة 983هـ¹/مارس 1576م، وفي هذا الصدد يقول ابن المفتي في تقييداته أثناء ترجمته لرمضان باشا: "...وتجهّز لحرب المغرب واستولى على فاس ونصّب عليها مولاي عبد الملك سنة 983..."²، وبانهزام المتوكل وفراره إلى مراكش كما سبق دخل عبد الملك إلى فاس ونصّب بدعم القوات العثمانية سلطاناً على المغرب الأقصى.

تجدر الإشارة إلى أن انتصار عبد الملك على ابن أخيه المتوكل لم يكن فقط بسبب الدعم العسكري العثماني، فقد لعب عاملٌ آخرٌ دوراً هاماً في هذا الانتصار؛ ألا وهو غياب الدعم الإسباني للمتوكل، حيث أن ملك إسبانيا فيليب الثاني كان في هذه الفترة منشغلاً بثورات الأراضي المنخفضة ضده، وكذا بالحروب التي وقعت في غرب أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت التي تدخلت فيها بريطانيا داعمة البروتستانت ضد إسبانيا الكاثوليكية³، وبالتالي فقد حالت هذه الأحداث في أوروبا دون دعم الإسبان لحليفهم محمد المتوكل مما أدى إلى انهزامه أمام عبد الملك وحلفائه العثمانيين.

3- مظاهر التبعية السعدية للباب العالي في عهد السلطان عبد الملك:

بعد استلامه لعرش فاس جدّد عبد الملك السعدي بيعته للباب العالي، كما أعلن أهالي فاس طاعتهم للسلطان العثماني ودعوا له بطول العمر ودوام الإقبال مما

¹ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص64

² ابن المفتي، المصدر السابق، ص43

³ كريمة، المرجع السابق، ص98، إتر، المرجع السابق، ص247

سرّ السلطان العثماني¹، وقد كان من مظاهر تبعية عبد الملك للباب العالي كذلك تلك الهدايا التي كان يرسلها السلطان السعدي إلى القسطنطينية، فضلا عن إلقاء الأخير الخطبة باسم السلطان العثماني وسكّ النقود باسمه²، وفي هذا رمزية ودلالة واضحتين على خضوع المغرب الأقصى زمن عبد الملك السعدي للدولة العثمانية، ولا أدلّ على ولاء عبد الملك للسلطان العثماني وإخلاصه للباب العالي ما جاء في الرسالة المذكورة سابقا بتاريخ 25 شوال 979هـ/فيفري 1572م والتي أقر فيها الأخير صراحة بكمال صداقة عبد الملك وإخلاصه تجاه الدولة العثمانية، كما وُصف الحاكم السعدي في هذه الرسالة بكونه "كان مواظبا على أداء خدماتي الهمايونية ليل نهار بصداقة وإخلاص"³.

ومن مظاهر تبعية المغرب الأقصى للباب العالي على عهد عبد الملك تسييرُ الدولة العثمانية لأشؤون الداخلية للمغرب الأقصى وتقديم المساعدة اللازمة لحاكمها عبد الملك، وهو ما جاء في عدة رسائل سلطانية، حيث جاء في رسالة مؤرخة في 5 ربيع الأول 985هـ/جويلية 1577م موجهة إلى حاكم الجزائر أمرٌ من السلطان العثماني بتقديم المساعدة لسلطان فاس عبد الملك عند الحاجة: "...نحيطكم علما بأن حاكم فاس هو محط عواطفنا العلية... وذلك لما هو عليه من صداقة وإخلاص ومودة واختصاص تجاه دار سعادتنا العلية... وفيما اعتدى أي باغ عللا بلاده وطلب المعونة منكم فلا تتوانوا عن إرسال القدر الكافي من العساكر لمعاونته ومظاهرتة ودفع مخاطر الأعداء عن

¹ السويكت فهد بن محمد، موقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية، مجلة جامعة الملك سعود، الرياض، م19، 2006، ص197، Ceran, op-cit, p300

² طحطح، المرجع السابق، ص107

³ أ.و.ج، مهمة دفترتي 12، حكم 1036، 25 شوال 979هـ

دياره".¹، كما جاء في ذات الرسالة: "...فإننا نأمر بعدم السماح لعساكر الجزائر أو لغيرهم بالتعرض والتدخل في شؤون بلاد ورعايا المشار إليه..."²، ويبدو من خلال هذه العبارة أن الباب العالي لا يريد أي زعزعة للاستقرار القائم أو إحداث أي بلبلة عسكرية في المغرب الأقصى، هذا الأخير الذي أمسى في ظل حكم السلطان عبد الملك رهن إشارة الباب العالي. وفي موضوع متصل يؤكد أيضا على سيادة الباب العالي على المغرب الأقصى زمن عبد الملك ذلك الخطاب الذي وجهه الباب العالي لأعيان فاس والذي أمرهم فيه بضرورة الامتثال لأوامر وأقوال حاكمهم الجديد السلطان عبد الملك³.

أيضا، ومن ملامح هذه التبعية تلك الأوامر التي كان يوجهها الباب العالي لعبد الملك السعدي بخصوص شؤون البلاد وحول ضرورة الاهتمام بالجند والرعية، وهو ما نجده مثلا في الخطاب الموجه إلى السلطان السعدي بتاريخ 5 ربيع الأول 985هـ/جويلية 1577 والذي يأمر من خلاله حاكم فاس ومراكش بالاستمرار في رعية الأعيان والأهالي وعساكر الديار سواء كانوا عربا أم تركا،⁴ وإننا لنجد في هذا الخطاب دليلا واضحا على وجود العسكر العثماني في المغرب الأقصى مما يؤكد فعلا خضوع البلاد -ولو نسبيا- لنفوذ الدولة العثمانية.

هذا، كما كان الباب العالي يهتم برعايا المغرب الأقصى أثناء رحلاتهم الحجازية لأداء مناسك الحج، وهو ما نجده في رسالتين موجهتين لكل من والي مصر ووالي مكة يحثهما فيهما على ضرورة الاهتمام بحجاج المغرب الأقصى

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 30، حكم 421،5 ربيع الأول 985هـ

² أ.و.ج، مهمة دفترى 30، حكم 421،5 ربيع الأول 985هـ

³ أ.و.ج، مهمة دفترى 30، حكم 429، 5 ربيع الأول 985هـ

⁴ أ.و.ج، مهمة دفترى 30، حكم 466-467،5 ربيع الأول 985هـ

وعلى عدم إيذائهم والحرص على حفظ أموالهم، فقد جاء في رسالة موجهة لوالي مصر بتاريخ 5 ربيع الأول 985هـ/جويلية 1577م مايلي:

"حُكم إلى أمير أمراء والي قاضي مصر

نأمر بإرسال الحجاج الوافدين إلى مصر من فاس ومرانقوس مع سائر الحجاج القاصدين الكعبة الشريفة، وأمرنا:

...بالحيلولة دون إيذاء الحجاج الوافدين إلى مصر من الولاية المذكورة... فلا يمانعهم ولا يزاحمهم أحد، وفيما إذا ثبت شرعا وجود ورثة للحجاج أو التجار القادمين من تلك الديار فيجب تسليم تركاتهم لورثتهم بمقتضى الشرع القويم..."¹.

وفي خطاب موجه لقاضي مكة بنفس التاريخ أمر الباب العالي بعد طلب من عبد الملك بالسماح لرجال الأخير بتقسيم صدقات بلاده على الفقراء والعمل على تسليم أملاك الحجاج المتوفين الوافدين من فاس ومراكش للورثة الشرعيين وأكد في ذات الخطاب على ضرورة صون حجاج المغرب الأقصى:

"حُكم إلى قاضي مكة المكرمة

تقدم جناب الأمير عبد الملك حاكم فاس دام سعه بطلب إصدار أمرنا الهمايوني بشأن السماح لرجال له بتقسيم وتوزيع الصدقات التي سيرسلها إلى الكعبة المعظمة وكذلك بعدم التعرض لهم من جانب أحد...ومن ناحية أخرى، ففي

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 30، حكم 428،5 ربيع الأول 985هـ

حالة توفي أحد الحجاج الوافدين من فاس أو من مرانقوس وثبوت ورثة شرعيين لهم فينبغي بموجب الشرع القويم تسليم مخلفاتهم لورثتهم...¹.

إذاً، ففي كل هذه الرسائل والخطابات السابقة تتجلى بوضوح السيادة العثمانية على المغرب الأقصى في عهد عبد الملك السعدي، فالأبواب العالي كان يهتم بالشؤون المغربية سواء السياسية أو حتى الاجتماعية كما رأينا انطلاقاً من اعتباره كون المغرب الأقصى أمسى إقليمياً عثمانياً، ومن كون الرعايا في فاس ومراكش رعايا السلطان العثماني.

أخيراً، يمكننا القول بأن فترة حكم عبد الله الغالب بالله كانت استمراراً للصراع بين العثمانيين والسعديين، إذ أن عبد الله الغالب واصل سياسة أبيه الراضة للنفوذ العثماني في المغرب الأقصى والقائمة على الاستقواء بالإسبان في مواجهة العثمانيين.

كذلك، تميزت هذه الفترة باستغلال الأبواب العالي لجوء إخوة عبد الله الغالب ومطالبتهم تدخل الدولة العثمانية لتمكينهم من استعادة العرش السعدي - وهو ما تم لهم سنة 1576م بعد تنصيب عبد الملك السعدي حاكماً للبلاد - لبسط نفوذها وتوسعها في المغرب الأقصى.

هذا، كما لم تخلُ هذه الفترة من الصراع العثماني السعدي من المبادرات الدبلوماسية والمسااعي السلمية من طرف الأبواب العالي لتهدئة الصراع مع السعديين وكذلك لإيجاد حلول سلمية تنهي مسألة الصراع على الحكم داخل البيت السعدي وهو ما رأيناه في مجموعة من المراسلات العثمانية سواء لحكام الجزائر أو للأمراء السعديين على حد سواء.

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 30، حكم 425،5 ربيع الأول 985هـ

عموماً، يمكننا القول بأن الباب العالي قد نجح في مسعاه لبسط نفوذه على المغرب الأقصى ولو نسبياً، وذلك ببيعة عبد الملك وأهالي فاس وإعلانهم التبعية للسلطان العثماني، كما أنه بتولية عبد الملك حليف العثمانيين وخادمهم في المغرب الأقصى تخلص العثمانيون من التهديد السعدي لإيالة الجزائر والذي استمر من عهد محمد الشيخ السعدي إلى غاية تنصيب عبد الملك على عرش المغرب الأقصى سنة 1576م.

المبحث الرابع: السياسة العثمانية تجاه الدولة السعدية إبّان معركة وادي المخازن وولاية السلطان أحمد المنصور 1578-1598م

لم يكن نجاح الباب العالي في تنصيب عبد الملك السعدي حاكماً على المغرب الأقصى ليُحقق السلام النهائي مع السعديين المناوئين لعبد الملك وللعثمانيين، إذ أن هذا الصراع سيعرف تدخل طرف آخر سيُربك الحسابات السياسية والعسكرية للباب العالي ولعبد الملك السعدي على حد سواء.

إن استنجاد مدم المتوكل بملك البرتغال لاستعادة عرشه على المغرب الأقصى سيُفضي في الأخير إلى حدث هام في المنطقة ألا وهو معركة وادي المخازن التي ستكون آخر العمليات العسكرية الكبرى في بلاد المغرب إبّان القرن السادس عشر والتي ستُرسّم نتائجها وتداعياتها الخطوط العريضة للوضع السياسي والعلائقي في بلاد المغرب عامة وبين إيالة الجزائر والمغرب السعدي بشكل خاص.

أولاً: الدولة العثمانية والحملة البرتغالية على المغرب الأقصى عام 1578م:

1- استنجاد المتوكل بالبرتغاليين ضد السلطان عبد الملك:

بعد انهزامه أمام عمه عبد الملك وحلفائه العثمانيين فرّ المتوكل إلى إقليم سوس جنوب المغرب الأقصى قبل أن يعود ويتجه شمالاً نحو سبتة بعد فشل محاولات استعادة عرشه، ومن سبتة انتقل إلى طنجة أين استنجد بملك البرتغال دون سيباستيان (Don Sébastian)¹ من أجل نجده ضد عمه عبد الملك وحلفائه

¹ دون سيباستيان (Don Sébastian): من مواليد 20 جانفي 1554م، ورث حكم مملكة البرتغال بعد وفاة والده الملك جواو مانويل (Joao Manuelle) منذ سنة 1557م، ينحدر من أسرة أفيز (Aviz) الملكية التي حكمت البلاد خلال الفترة ما بين 1385-1580م، أمه هي الأميرة خوانا (Dona Juana)

العثمانيين ، وعن استتجاد المتوكل بملك البرتغال يقول الناصري: " كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد لما دخل طنجة قصد طاغية البرتغال، واسمه سيديستان...وتطرح عليه وشكا إليه ما ناله من عمه أبي مروان المعتصم وطلب منه الإعانة عليه كي يسترجع ملكه، فأشكاه الطاغية وادى دعوته..."¹، وكان المتوكل قد اتفق مع ملك البرتغال بعد لقائهما يوم 9 جويلية 1578م على أن يتنازل له عن كافة سواحل المغرب الأقصى إن هو نجح في هزيمة عبد الملك واستعاد العرش المغربي، وقد كان المتوكل قد تنازل لملك البرتغال مُسبقاً عن مدينة أصيلا الساحلية كدليلٍ منه على صدقه وإخلاص وُعوده²، وحسب الإفرائي فإن المتوكل قد أرسل خطاباً لأعيان بلاده يخبرهم فيه عن سبب استتجاده بملك البرتغال جاء فيه قوله أنه ما استصرخ بالانصاري حتى عَدَمَ النصر من المسلمين، كما هددهم في رسالته أنه إن لم تقوموا بتأييدي فأذنوا بحرب من الله ورسوله، غير أن أعيان المغرب الأقصى ردّوا على خطابه برفضهم وتنديدهم باستتجاده بملك البرتغال النصراني ضد إخوته وأهل بلده من المسلمين³.

على أية حال فقد قبل الدون سيبا ستيان عرض المتوكل وقرر الاستجابة لدعوته، وعلى غرار استتجاد المتوكل به، كان لملك البرتغال أسباب أخرى تجعله

ابنة الإمبراطور الإسباني شارلكان (شارل الخامس)، وقد نشأ دون سيديستان كفارس شجاع مدافعا عن العقيدة الكاثوليكية ضد المسلمين والبروتستانت في بيئة قصرٍ مشبعة بالتصوف والحماسة تحت تأثير المعلمين اليسوعيين. ينظر: يحيى ياسين، الديني والسياسي في الذاكرة الجمعية؛ معركة وادي المخازن (الملوك الثلاثة) بين ذاكرتي الغالب والمغلوب، أشغال المؤتمر الدولي السنوي لمؤسسة مقاربات؛ الذاكرة والبناء الثقافي، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس، ع2، 2019، ص435، Ceran, op-cit, p307

¹ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص69

² ينظر: المصدر نفسه، ج5، ص69، كريم، المرجع السابق، ص103، Ceran, op-cit, p303,

³ ينظر: الإفرائي، المصدر السابق، ص65

يُقدِّم على غزو المغرب الأقصى؛ أهمها محو ما وُصم به البرتغال فترة حكم أبيه يوحنا الثالث (Jean 3) من الضعف والتخاذل، حيث كان البرتغاليون قد انسحبوا من آسفي وآزمور وأصيلا وغيرها في الفترة مابين 1521-1557م، وكذا الدافع الشخصي؛ إذ أراد الدون سيباستيان إعلاء منزلته بين ملوك أوروبا وكان يحلم في أن يتوج ملكا على أفريقيا والمغرب¹، وفضلا عن ذلك يعزو "المؤرخ المجهول" سبب قبول البرتغاليين دعم المتوكل ضد عمه عبد الملك إلى ما جاء في قوله: "...وقال بعضهم لبعض إن هذا السلطان رأى مملكة التُّرك ورأى منافع البحر فأول ما أمر بإنشاء السفن، وإذا كملت له العمارة يقطع إلى بلادنا... ونحن ندبروا (كذا) على ملكنا قبل أن يصلح سلطانه ويتمكن أمره، وأول التدبير عندنا أن تخرجوا وتحتوا وتتمكنوا بالسواحل وتقاتوله في بلاده وعلى أرضه..."²، ومنه فإن البرتغاليين قد تحسّسوا قوة عبد الملك منذ أن حالف العثمانيين، كما أن عبد الملك قد أصبح أيضا-بالنسبة لهم- مطلقا على أمور الدولة وعارفا لركائزها وهو ما يهدد وجود البرتغاليين ومصالحهم شمال المغرب الأقصى ولهذا قرروا دعم ابن أخيه المتوكل ضده.

في سنة 1578م وبعد علمه بتحريك ملك البرتغال ضده أرسل عبد الملك لنظيره الدون سيباستيان خطابا يندد فيه بهذه الخطوة ويبين له اعتراضه على دعم ابن أخيه محمد المتوكل، وقد جاء في هذا الخطاب:

¹ أبو خليل شوقي، وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1988، ص46، op-cit، s299، Ceran،

² الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص58

" إلى السيد دون سيباستيان، ملك البرتغال، الهادئ والرائع... لا أدري مالذي أثار حماسك أيها الملك لشن هذه الحرب الظالمة ضدي، إن هذا لا يُرضي الله، فلا يجب أن تتطلع لأخذ الملك الذي أعطاه الله لي... وإن خطأك في الإقبال على هذه الحملة سيكون أقل خطورة لو أنك تقوم بها من أجل حسابك الخاص... إنك تخاطر بنفسك وبشرفك من أجل تقديم خدمة لأولئك الذين يفتقدون للشرف والحكمة... أنت شاب عديم الخبرة ولديك بطانة تنصحك بالسوء..."¹، ورغم هذا الخطاب الذي وجهه عبد الملك لنظيره البرتغالي بألا يتدخل في شؤون مملكته على اعتبار أن هذا التدخل غير عادل وسيُعرض ملك البرتغال وجيشه للخطر، ورغم تحذير ملك إسبانيا فيليب الثاني نظيره وابن أخته البرتغالي من مغبة هذه الخطوة² إلا أن ملك البرتغال الشاب لم يتراجع عن دعمه للمتوكل وقرر التدخل في المغرب الأقصى³، وتجدر الإشارة إلى أنه قد تم عقد اجتماع بين ملك إسبانيا فيليب الثاني والدون سيباستيان في الفترة ما بين 22 ديسمبر 1576 و1 يناير 1577م في مدينة غوادالوبي (Guadalupe) عبّر خلاله الملك البرتغالي على أن الخطر العثماني على السواحل البرتغالية والإسبانية هو ما يدفعه للقيام بهذه الحملة، فيما ردّ عليه فيليب الثاني بأن عبد الملك سيقاوم بشدة، خاصة بعد

¹ Berbrugger Adrien, Une lettre inédite d'un Empereur du Maroc, R.A, V10, 1866, p257-261

² في 8 فيفري 1576م بعث ملك إسبانيا برسالة إلى سفيره بالبرتغال يخبره فيها عن علاقة الصداقة مع عبد الملك السعدي ويطلب منه معرفة موقف الدون سيبيستيان ملك البرتغال من عبد الملك ومدى استعداده

لدعم محمد المتوكل، ينظر: داداي، المرجع السابق، ص71، 72

³ كرتيم، المرجع السابق، ص103، أبوخليل، المرجع السابق، ص47

المجهدات التي قام بها لاستعادة عرش بلاده وأنه من المحتمل أن يطلب المساعدة من الباب العالي، وبالتالي فقد وضّح فلييب الثاني لنظيره البرتغالي مجموعة المخاطر التي قد تتجم عن هذه الحملة غير مضمونة العواقب. ورغم أن الملك فيليب الثاني قد عارض القيام بهذا المشروع إلا أنه لم يمنع قطعا تقديم بعض المساعدات العسكرية للدون سيباستيان¹.

ويبدو أن رفض الملك الإسباني دعم كل من المتوكل² والدون سيباستيان ضد عبد الملك قد كان أيضا بسبب معاهدة السلام التي عقدها قبل عام مع الأخير، والتي تبينها تلك الرسالة الموجهة لعبد الملك من الملك الإسباني فيليب الثاني بتاريخ 11 ماي 1577م والتي جاء فيها:

" إلى مولاي عبد الملك... المحترم والأشرف بين المغاربة، مولاي عبد الملك ملك فاس والمغرب، سلام متمنياتنا بالازدهار... تلقينا بإرادة جيدة وأمل بتحقيق سلم و صداقة معنا، وقد أكدنا على المدعو القبطان بالعمل على تحقيق هذا السلام... وليحفظكم الله دائما وأبدا."،³ وبالتالي فإن رفض ملك إسبانيا دعم نظيره البرتغالي لم يكن بسبب الخطورة المحتملة للغزوة في ظل علاقة عبد الملك الجيدة مع العثمانيين واحتمالية فشلها، بل بسبب هذه المعاهدة، فإسبانيا كانت تسعى جاهدة لإقامة علاقة جيدة مع المغرب الأقصى وبالتالي فلن تسمح أو على الأقل لن تساهم في زعزعة نفوذها واستقرار علاقاتها مع المغرب الأقصى .

¹ Ceran, op-cit, p313

² في شهر نوفمبر من سنة 1577م راسل محمد المتوكل الملك الإسباني وكذا الحاكم الإسباني لقاعدة بادس طالبا الدعم ضد عمه عبد الملك، كما ذكر لهما في مراسلتيه ما يمكن لإسبانيا أن تجنيه من فوائد سياسية واستراتيجية جراء ذلك، ينظر: دادي، المرجع السابق، ص73، 74

³ المرجع نفسه، ص72، بويقران خالد، المرجع السابق، ص128

2- اهتمام الباب العالي بالحملة البرتغالية على المغرب الأقصى:

انطلاقاً من حرص الدولة العثمانية الكبير على منطقة غرب البحر المتوسط واهتمامها بالتهديدات الخارجية على إيالاتها المغربية فإن الباب العالي قد اهتم جيداً بموضوع لجوء المتوكل إلى البرتغال وبالحملة البرتغالية المحتملة على المغرب الأقصى وحاكمها عبد الملك حليف العثمانيين.

يتضح لدينا هذا الاهتمام من خلال مجموعة الاستعدادات التي باشرت الدولة العثمانية في القيام بها، وكذا انطلاقاً من المراسلات التي بعثت بها إلى حكومة إيالة الجزائر بخصوص هذه الغزوة الوشيكة، فقد في رسالة موجهة من الباب العالي بتاريخ 2 رجب 986 هـ / (حوالي 7 سبتمبر) 1578م¹ إلى حسن باشا فنزيانو² حاكم إيالة الجزائر أمر سلطان بالعمل على جمع الجند وتهيأتهم بكامل العدة للجهاد بعد احتمال هجوم ملك البرتغال على عبد الملك السعدي³.

وقد كانت هذه المراسلة عبارة عن ردٍّ من الباب العالي على رسالة حسن باشا فنزيانو بخصوص الاستعدادات البرتغالية لهذه الحملة - وذلك في إطار التنسيق المشترك الذي يجتمع طرفين بخصوص التهديدات الخارجية على الأقاليم

¹ حسب هذا التاريخ فإن هذه المراسلة قد وصلت إلى الجزائر متأخرة بشهر وثلاثة أيام عن اندلاع المعركة، حيث أن معركة وادي المخازن جرت وانقضت يوم 30 جمادى الأولى (4 أوت 1578م) كما سنرى في العنصر الموالي.

² حسن باشا فنزيانو: أصله من البندقية، إسمه أندريتا (Andretta)، كان من رجال رمضان باشا ثم من رجال علج علي، تولى حكم الجزائر في فترتين متقطعتين 1577-1580 ثم سنة 1582، ينظر: ابن المفتي، المصدر السابق، ص 43، 44، 168، Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p168

³ أ.و.ج، مهمة دفترتي 35، حكم 475، 2 رجب 986 هـ (الملحق رقم 6)

العثمانية- ويهمننا هنا أن نعرض بعض ما جاء في هذه المراسلة الهامة من الباب العالي إلى حكومة الجزائر:

"حُكْم إلى حسن باشا أمير أمراء جزائر الغرب

وصل خطابك الذي مضمونه أن ملك البرتغال منهنك جيشه (كذا) منذ ثلاثة أشهر، وأن البابا ودوق فرنسا يقومان منذ أكثر من ثلاثة أشهر بجمع الجنود وإرسال أربع أو خمس سفن وتدميلهم بالمقاتلين وا لذخيرة بقصد إرسالهم لمساعدة البرتغال... وأن الملك الإسباني جمع عشرة آلاف جندي لإعطائهم إلى ملك البرتغال¹، كما تعهد له بتقديم ستين قاذرة من أجل نقلهم إلى السواحل العربية..."²، ويتضح لنا جليا من خلال هذه الرسالة علم الباب العالي واهتمامه بكل ما يجري من استعدادات في الضفة الشمالية لغرب البحر المتوسط وبكافة الأخطار التي يمكن أن تهدد الحليف عبد الملك السعدي أو إيالة الجزائر على حد سواء، كما نستشف من خلال ما ورد في هذه الرسالة الإمام الباب العالي بكل تفاصيل تحالف المتوكل مع ملك البرتغال وبالمراسلات المنعقدة بينهما، إذ ورد فيها كذلك: "...كما تشير إلى احتمال هجوم ملك البرتغال على عبد الملك، حيث أن ابن أخيه المدعو مولاي محمد كان قد ذهب إلى قلعة سبتة الواقعة بيد الكفار والتشاور مع ملك البرتغال الذي سبق له أن أرسل عدة رسائل إلى المذكور مع رجاله، كما بعث هو الآخر بثلاثة من الوجهاء إلى ملك البرتغال لاستعجال قدومه، وأثناء ذهابهم صادفتهم سفن عبد الملك فألقت القبض عليهم

¹ هذا يتنافى مع ما أورده الباحثان عبد الكريم كريمة وشوقي أبو خليل بخصوص أن إسبانيا رفضت دعم دون سيباستيان، كما يتعارض أيضا مع ما جاء في معاهدة السلام بين إسبانيا وعبد الملك التي أوردها أعلاه.

² أ.و.ج، مهمة دفترى 35، حكم 475، 2 رجب 986هـ

وأحذروهم إليه، وبعد الاستفسار عن المهمة المكلفين بها قتل اثنين منهم وسجن الثالث...¹، ومنه نرى أن الباب العالي قد عَلِمَ بتحالف المتوكل مع الدون سيباستيان منذ الوهلة الأولى وعلى هذا الأساس راح يجهز قواته في إيالة الجزائر للتصدي لهذا التحالف ودعم عبد الملك.

كما تضمنت هذه الرسالة أيضا أمرًا لحاكم الجزائر بتهيئة قوات إيالته لمساعدة عبد الملك: "...وأنت فم بقيادة عشرين سفينة واتجه فورا إلى البحر، كما نأمر بأن تكون جاهزا ومستعدا للغزو والجهاد..."²، وكان علج علي قائد الأسطول العثماني قد تواصل مع السلطان عبد الملك وأخبره بأنه سيرسل لمساعدته مائة وخمسين سفينة من نوع قاليرا، كما أمره في المقابل بإعداد الممّون اللازمة لقوات الأسطول حسب الباحث عمار بن خروف الذي يقول بأنه أصدر أمر من حاكم الجزائر بإرسال حوالي خمسة آلاف مقاتل غادروا الجزائر خلال شهر ماي 1578م³، في حين جاء في المراسلة السابقة الذكر وهي أصدق المصادر بالنسبة لنا فيما يخص الموضوع أن قوات الإيالة التي جُهزت لهذه الحملة لم تتجاوز ألفا وخمسمائة رجل رفقة عشرين سفينة: "...وتذكُرُ بأنه تم تعيين وإرسال ألف وخمسمائة جندي من عساكر الجزائر وعلى رأسهم أميرين كفوءين من أمرائها إلى الحدود، وتقول بأنك جهزت عشرين سفينة وأنت تستعد للإبحار بها..."⁴، وعلى هذا الأساس نخلص إلى أن الدولة العثمانية كانت منذ وقت مبكر على علم بهذا التهديد الجديد المتمثل في حملة ملك البرتغال على المغرب الأقصى وأنها

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 35، حكم 475، 2رجب 986هـ

² أ.و.ج، مهمة دفترى 35، حكم 475، 2رجب 986هـ

³ بن خروف، المرجع السابق، ص218

⁴ أ.و.ج، مهمة دفترى 35، حكم 475، 2رجب 986هـ

كانت على اطلاع تام بجميع تفاصيلها حتى أنها بادرت بالتنسيق مع قيادات الجزائر بضرورة التصدي لها ودعم السلطان عبد الملك.

3-1- التآهب لمعركة وادي المخازن:

غادرت القوات البرتغالية سواحل لشبونة في يوم 25 جوان 1578م وعسكرت في ميناء آصيلا يوم 12 جويلية¹، وقد كان تعدادها حسب ما جاء في رواية صاحب مرآة المحاسن: "...واحتشد أمما من النصرانية يقال إن مجموعهم كان مائة وعشرين ألفا، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل..."²، أما صاحب المنتقى المنصور فيقول عن تعداد القوات البرتغالية: "...وكان عدد الكفرة فيما تواتر وشاع مائة ألف وخمسا وعشرين ألف..."³، كما ضمت قوات ملك البرتغال متطوعين من الإسبان والفرنسيين والإيطاليين والألمان⁴، فيما كان رفقة المتوكل جيش قوامه حوالي ستة آلاف جندي⁵.

¹كريم، المرجع السابق، ص 105، أبوخليل، المرجع السابق، ص 49. وحسب بعض الروايات التاريخية فإن الجند البرتغالي بعد نزولهم في شاطئ آصيلا قد بدأوا بالتسلية وإقامة الألعاب بدلا من التدريب والاستعدادات مما يعبر عن استهتارهم أو ثقته المفرطة بالفوز بالمعركة. ينظر: Ceran, op-cit, p339

²بن يوسف محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تح، الشريف محمد الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن بن جلد، المغرب، د.ت، ص 145

³المنتقى المنصور، المصدر السابق ص 245

⁴حركات، المرجع السابق، ص 292

⁵يحياوي، المرجع السابق، ص 435، وحسب ذات المرجع فإن قوات ملك البرتغال كانت حوالي سبع عشرة ألف رجل وليس مثلما ورد عند صاحبي الروايتين أعلاه، كما أنه جاء عن كريم، المرجع السابق، ص 104 أن قوات الدون سيباستيان كانت زهاء عشرين ألف مقاتل وبالتالي فالروايتان أعلاه مبالغ فيهما بشكل فاضح إلا أننا فضلنا توظيفهما كونهما من المصادر المعاصرة.

وبخصوص عبد الملك فقد كان على علم هو الآخر بالحملة البرتغالية منذ انطلاقتها، وعلى هذا الأساس جمع قواته وخرج من فاس قاصدا مدينة سلا الساحلية قبل أن يعسكر بقواته في مدينة المعمورة يوم 16 جويلية¹، وقد كان عدد قوات عبد الملك حوالي خمسة وأربعين ألف جندي فيما كان رفقة أخيه أحمد المنصور عشرة آلاف آخرين حسبما ورد في رسالة الباب العالي لحاكم الجزائر التي أوردناها آنفا².

كان عبد الملك قد خاطب الدون سيباستيان وقت نزوله في أصيلا منددا باجتيازه على السواحل المغربية في رسالة جاء فيها: "...إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر إلى عدوة المسلمين، فإن أنت ثبتت في الساحل إلى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي وشجاع، وإن أنت رجعت إلى بلادك وحدقت بعض الرعية قبل أن يقاتل لك أمير مثلك فأنت يهودي بن يهودي..."³، ويبدو من خلال هذا الخطاب أن عبد الملك أراد من ملك البرتغال ألا يتعدى على الرعية وألا يقوم بغزو الأهالي العزل في المناطق الساحلية قبل أن يلتقي الجيشان المتحاربين.

3-2- مجريات المعركة ونتائجها:

قبل التوغل في الداخل نصح المتوكل -والذي كان قد عقد اجتماعا مع دون سيباستيان على متن سفينة الأخير في مضيق طنجة يوم 9 جويلية⁴- الجيش البرتغالي باحتلال تطوان والعرائش على اعتبار أنهما مدينتان ساحليتان ذاتا أهمية

¹كريم، المرجع السابق، ص105

²أ.و.ج، مهمة دفترى 35، حكم 475، 2 رجب 986هـ

³الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص59

⁴ Ceran, op-cit, p338

استراتيجية، غير أن قادة الجيش البرتغالي فضّلوا الاصطدام المباشر مع عبد الملك، وقد كان الأخير قد تعمد استدراج الجيش البرتغالي بعيدا عن المناطق الساحلية كي لا يتسنى لهم الاستفادة من الدعم اللوجستي الذي قد يحتاجونه أثناء المعركة¹، وقد أورد الإفرائي خطاب عبد الملك للدون سيباستيان الذي تعمد فيه استدراجه بعيدا عن السواحل، مما جاء فيه: "...إني رحلت إليك ستة عشر مرحلة ولم تتقدم إلي واحدة، فتقدم العدو من موضع يقال له تهدارت ونزل على وادي المخازن..."²، وهكذا نجح عبد الملك في استدراج الجيش البرتغالي بعيدا عن الساحل مما سيرجح كفة عبد الملك في المعركة إذ أن الابتعاد عن الساحل سيحول دون وصول أي دعم برتغالي أو محاولة فرار للقوات البرتغالية.

في يوم 4 أوت 1578م³ التقى الجيشان قرب وادي المخازن ناحية مدينة القصر الكبير، وقد كان الجيش البرتغالي أثناء المعركة تتقدمه قوات المدفعية التي تحمي المشاة فيما كان الفرسان الخيالة يمثلون الجناحين، أما جيش عبد الملك فقد اصطف على شكل نصف دائري لكي يكرس خطته في حصار نظيره البرتغالي، ولما عبر الجيش البرتغالي قنطرة الوادي لملاقاة قوات عبد الملك قامت الأخيرة مباشرة بدكّ وهدم القنطرة وهكذا تمت محاصرة الجيش البرتغالي بين الوادي وقوات عبد الملك⁴، ومع أول اشتباك بين قوات الطرفين نجح الجيش السعودي في هزيمة

¹كريم، المرجع السابق، ص105

²الإفرائي، المصدر السابق، ص74

³الموافق لـ 30 جمادى الأولى 986هـ، ومن خلال تاريخ اندلاع المعركة بين الطرفين (30 جمادى الأولى) نستنتج أن المراسلة السابقة الموجهة من الباب العالي لحسن فنزيانو قد وصلت للجزائر بعد شهر وثلاثة أيام من انقضاء المعركة (وصلت يوم 2 رجب)، مما يجعلنا نرجح بأن الكثير من المراسلات كانت تصل لحكومة الجزائر بعد حدوث أو انتهاء المسائل التي تتناولها.

⁴حركات، المرجع السابق، ص293

أفرق المشاة في الجيش البرتغالي وبدأوا في التراجع إلى الخلف في الوقت الذي تمت فيه مطاردتهم من قبل فرق الفرسان في جيش عبد الملك، وهكذا تراجعت القوات البرتغالية إلى النهر الذي وجدت جسره قد هُدم، وهكذا حوصرت القوات البرتغالية بين النهر وقوات عبد الملك مما اضطر الجنود البرتغاليين إلى الارتقاء في النهر حيث غرق الكثير منهم، فيما واصل الجيش السعدي ملاحقة القوات البرتغالية الباقية وقتلوا منهم الكثير، وكان من بين القتلى الملك البرتغالي دون سيباستيان ومحمد المتوكل اللذان تجمع الروايات التاريخية أنهما لقيا حتفهما غرقاً في النهر¹.

هكذا انتهت المعركة بانتصار عبد الملك حليف العثمانيين وهزيمة القوات البرتغالية وحليفاتها من قوات المتوكل ومقتل كل من دون سيباستيان² ومحمد المتوكل، إضافة إلى عبد الملك الذي توفي خلال المعركة، ولهذا فهي تسمى بمعركة الملوك الثلاثة نسبة إلى هؤلاء الثلاثة الذين قتلوا أو ماتوا خلالها.

4- علاقة العثمانيين بوفاة السلطان عبد الملك:

كان عبد الملك حليف العثمانيين قد توفي هو الآخر أثناء المعركة، غير أن الروايات التاريخية تختلف في سبب موته، فبعضها يعزو ذلك لمرض أصابه، فيما تذهب أخرى إلى أنه اغتيل من طرف العثمانيين، فالمؤرخ المجهول يقول حول موته: "...ولما اشتد مرض السلطان جمع لوه في جرفة على رؤوس الناس... فاشتد الأمر بالسلطان وخرجت روحه رحمه الله وجزاه خيراً والناس

¹ ينظر: درة الحجال، المصدر السابق، ج2، ص224

² ينظر رسالة تعزية الملك الإسباني فيليب الثاني للبلط البرتغالي في وفاة دون سيباستيان والمؤرخة في

18 أوت 1578م لدى: دادى، المرجع السابق، ص75

يقاتلون...¹، أما الإفرائي فجاء عنه: "... كان سبب وفاة عبد الملك أنه سُقي اسماً، وذلك أن قائد الأتراك الذي كان معه واسمه رضوان العليج بعث لبعض قواده أن يتلقاهم بكعك مسموم هدية لعبد الملك وقت جوازهم عليه قصد بذلك قتله بعد أخذه مدينة فاس... فكان ذلك سبب موته"²، ويذهب ابن القاضي لتأكيد هذا الرأي قائلاً: "...توفي مسموماً بسم قديم كان به في يوم الغزوة قبل أن يباشر القتال..."³ ويذكر في موضع آخر: "... وكان عبد الملك ضعيفاً من سُم كان به، سمه رمضان العليج حيث أتى معه للمغرب غدرًا له..."⁴، ومن هنا فإننا أمام رأيين متضاربين من مصادر قريبة جداً من الأحداث حول حقيقة التواطؤ العثماني في وفاة عبد الملك السعدي.

يَعْتَبُرُ كُلٌّ من الإفرائي⁵ وابن القاضي⁶ أن عبد الملك توفي على إثر السُّم الذي أسقاه إياه العثمانيون أثناء دخوله مدينة فاس فاتحاً رفقة الجند العثماني سنة 1576م وبالتالي قبل عامين من معركة وادي المخازن. لكن لماذا يقوم العثمانيون بمحاولة اغتيال عبد الملك وهو حليفهم في المغرب الأقصى، كما أنهم هم الذين ساعدوه لاستعادة ملكه من ابن أخيه المتوكل؟ وكيف يسعون إلى التخلص منه وقد

¹ الدولة التكمدرتية، المصدر السابق، ص 61. وقد كان رفقة السلطان عبد الملك خلال المعركة ووقت وفاته طبيباها الفرنسي "غيوم بيرارد" واليهودي القايد علي، ينظر: Ceran, op-cit, p346

² الإفرائي، المصدر السابق، ص 77

³ درة الحجال، المصدر السابق، ج 3، ص 149

⁴ المصدر نفسه، ج 2، ص 224

⁵ من مؤرخي البلاط العلوي بالمغرب الأقصى، صاحب كتاب "نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي" الذي يعتبر من المصادر القريبة زمنياً من الأحداث المدروسة خاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية، توفي سنة 1043هـ/1670م.

⁶ ولد سنة 960هـ/1552م وتوفي سنة 1025هـ/1617م وبالتالي فهو معاصر لهذه الأحداث وروايته تعتبر من أهم الروايات التاريخية وأكثرها قيمة للبحث في الموضوع قيد الدراسة.

خَطَب على المنابر باسم السلطان العثماني بل وسك النقوذ باسمه- كما ذكرنا في المبحث السابق- كدلالة واضحة على تبعيته للباب العالي؟ وكيف يغتال العثمانيون حليفهم الوحيد في المغرب الأقصى، هذا البلد الذي طالما كان يمثل تهديدا لإيالة الجزائر أثناء فترات حكم أسلافه من السعديين؟

في المقابل، وانطلاقا من الموضوعية التاريخية وحرصا على تدني الحياض التاريخية يمكننا أن نعتبر أن العثمانيين قد سعوا للتخلص من عبد الملك خاصة منذ تقربه من الإسبان وعقده لمعاهدات صداقة وسلام معهم¹ وهو ما قد أوردناه سابقا في هذا المبحث، وبالتالي يمكننا القول بأن العثمانيين بدأوا يشكّون في ولاء عبد الملك وإخلاصه للباب العالي مما حتمّ عليهم انطلاقا مما تقتضيه السياسة والمصلحة العثمانية أن يقوموا بتصفيته.

بعد انتهاء واقعة وادي المخازن، تمّت بيعة أخ عبد الملك أبو العباس أحمد المنصور سلطانا على المغرب الأقصى، حيث جاء في كتاب "المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور": "...وعقدت له البيعة في غزوته العظيمة بوادي المخازن يوم الإثنين المنسلخ من جمادى الأولى سنة ستة وثمانين، وابتدأت بيعته الشريفة بالمحل المذكور وتمت بمدينة فاس..."² وهكذا تمّت تولية أحمد المنصور على عرش المغرب الأقصى وانتهى معه زمن الصراع بين الأمراء السعديين. هذا، وستستمر الدولة العثمانية في هذه الحقبة الجديدة بالاهتمام بالمغرب الأقصى وبأحداثه الداخلية وعلاقاته الخارجية وهو ما سنتطرق إليه فيما يلي.

¹ بادر عبد الملك السعدي بإقامة علاقات جيدة مع الإسبان منذ توليه عرش فاس وهو مانجده في بضعة

رسائل رسمية بين الطرفين، ينظر: دادي، المرجع السابق، ص71-73

²المنتقى المقصور، المصدر السابق، ص244

ثانيا: الدولة العثمانية وولاية أحمد المنصور؛ الموقف والعلاقات:

1- موقف حكومة إيالة الجزائر من تولي أحمد المنصور حكم المغرب الأقصى:

بعد وفاة عبد الملك في معركة واد المخازن أراد القادة العثمانيون في الجزائر الحيلولة دون وصول أحمد المنصور إلى الحكم وحاولوا الإطاحة به مقابل دعمهم لإسماعيل بن عبد الملك سليل العثمانيين من جهة الأم ليعتلي العرش السعدي ونادوا بأحقية في الخلافة على اعتبار أنه ابن السلطان المتوفى، حيث حاولوا إثارة الجند والعامّة وأخذوا ينادون بأحقية الأمير اسماعيل بن عبد الملك في الخلافة على حساب أحمد المنصور مستغلين سمعة عبد الملك في أوساط المغاربة¹، كما أرسل قائد القوات العثمانية في جيش أحمد المنصور المدعو محمد ابن زرقون الكاهية خطابا إلى باشا الجزائر حسن فنزيانو يخبره فيه بالوضع في المغرب الأقصى وبأن الوقت سانح للتدخل فيه، وقد ورد ذلك في رسالة من القائد الإسباني لويس إبريرا (Luis Ibrira) إلى ملكه فيليب الثاني بتاريخ 13 أوت 1578 جاء فيها: "...إن رئيس الفيلق التركي قد نادى على الأتراك من الجزائر للمجيء والتدخل هناك في المغرب لأنها فرصة وفراغ لإلحاق المغرب بالجزائر وأن جلالة السلطان مهدد في ملكه بشكل كبير من قبل الأتراك".² وبحسب هذه الرسالة فإن نيّة حكومة الجزائر واضحة في محاولة قول كلمتها فيمن يجب أن يتولى العرش السعدي، ولم يكن دعم القادة المغاربة المحليين وكذا قادة الجزائر للمولى اسماعيل كونه ابن عبد الملك ولكون والدته تركية فقط، ولكن أيضا لأن

¹ الفشتالي عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر مولينا الشرفاء، تح، عبد الكريم كريم، د.ط، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، د.ت، (مقدمة المحقق)، ص41، بن خروف، المرجع السابق، ص220

² بويقران خالد، المرجع السابق، ص130

حسن فنزيانو حاكم الجزائر قد تزوج بهذه الأخيرة (أي أرملة عبد الملك ووالدة المولى إسماعيل)¹ ومن تمّ فالغاية واضحة لدعم قيادة الجزائر هذا الأخير لتولي العرش السعدي، غير أن المغاربة أصروا على بيعة أحمد المنصور خاصة وأن عبد الملك كان قد أوصى له بولاية العهد قبل وفاته مما حتمّ على القادة المغاربة الموالين لحكومة الجزائر وعلى قادة الأخيرة القبول بالأمر الواقع² سيّما بعدما استطاع أحمد المنصور أن يُثبت نفسه على العرش السعدي وأن يقضي على حركات التمرد التي قادها ضده - بدعم من حكام الجزائر - سعيد بن فرج الدغالي ومحمد بن زرقون الكاهية الداعمان للأمر إسماعيل وذلك في خريف سنة 1578م³.

يمكن القول بخصوص دعم حكومة الجزائر للمولى إسماعيل بن عبد الملك أن هذا الدعم لم يكن على حساب أحمد المنصور على اعتبار أن الأخير كان أيضا من الذين لجأوا إلى الدولة العثمانية زمن صراعهم مع المتوكل، وإنما يعبر هذا الدعم عن أن قادة الجزائر وبعد الصراع الطويل الذي عايشوه مع حكام المغرب الأقصى أرادوا أن يوصلوا إلى الحكم كل من يضمنون ولاءه لهم ويؤكدّ على طاعته وبيعته لاسلطان العثماني، ولهذا فإن المصلحة العثمانية في المغرب الأقصى كانت حريصة دوما على وجود أكثر من حاكم يمتلك الشرعية في تولي العرش السعدي ولم يكن لهم في ذلك شخص معين، ولهذا سوف نرى - بعد مراسلة أحمد المنصور لاسلطان العثماني وتبادل التهاني بين الطرفين - أن حكام

¹ كريمة، المرجع السابق، ص 110

² الفشتالي، المصدر السابق (هامش المحقق)، ص 41

³ المصدر نفسه، ص 41-48

الجزائر العثمانيين سوف يعملون على إقامة علاقات جيدة مع أحمد المنصور قائمة على إرساء السلم وحسن الجوار.

2- تهنئة الباب العالي بالنصر في وادي المخازن واستلام العرش السعدي:

انطلاقاً من علاقة أحمد المنصور الجيدة مع الباب العالي، على اعتبار أنه كان لاجئاً سياسياً لدى الدولة العثمانية، وعلى أساس أن الأخيرة قدمت له ولأخيه عبد الملك كل الدعم السياسي والعسكري لاستعادة عرشهما على المغرب الأقصى، وكذلك تجنبا لدعم حكام الجزائر أي طرف ضده في المغرب الأقصى، فقد بعث أحمد المنصور برسالة إلى السلطان العثماني مراد خان ييدشره بالنصر على البرتغاليين واعتلائه عرش فاس¹، وفي هذا يقول الفشتالي: "...وانتشر في المعمور خبره وشفع الله ذلك بما أصر إليه من الخلافة...خاطب لحيته صاحب القسطنطينية العظمى وسائر ملوك الإسلام..."²، وقد جاء أيضاً في هذه رسالة المنصور الموجهة للباب العالي: "...مقام السلطان الأعظم الخاقان الأفخم، المجاهد الأكبر الما جد الأخطر...نا صر السنة والدين، قانع الكفرة والمشركين...السلطان مراد خان بن السلطان الجليل المقدار...فإننا كتبناه إليكم كتب الله لمقامكم عزا يتكفل بإعلاء كلمة الإسلام واستئصال شأفة عباد الأوثان والأصنام من حضرتنا العلية دمرآء مراكش المحروسة بالله المحمية..."³، ونلاحظ أن في هذه الرسالة حرص المنصور على إبلاغ الباب العالي بالنصر على المتوكل والبرتغاليين، كما نلاحظ أنها قد امتلأت بعبارات التقدير والتفخيم

¹ أرسل هذا الخطاب للسلطان العثماني من طرف أحمد المنصور مع وفد برئاسة أحمد بن يحيى

الهوزالي، ينظر: الإفرائي، المصدر السابق، ص 81، 82

² الفشتالي، المصدر السابق، ص 48

³ مجهول، رسائل سعدية، تح، عبد الله كئون، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954، ص 18-21

للسلطان العثماني مراد خان وأسلافه العثمانيين وفيها تبشير له على النصر في معركة وادي المخازن واستعادة العرش السعودي وهزيمة النصارى البرتغاليين، ولم تتضمن هذه الرسالة إبلاغ الباب العالي بالنصر المحقق فقط بل ورد فيها أيضا التزام المنصور وتأكيد ولائه للعثمانيين إذ ورد فيها كذلك: "...وسُور ولأنكم لدينا على الدوام متلوة وعقائل مصافاتكم على مذصات التنويه مجلوة ومكنونات محبتكم الإيمانية بين الجوانح مخبوة..."¹.

وفي المقابل رد الباب العالي على أحمد المنصور مهنئا بأن أرسل له وفدا كان أول من هناه بالنصر وباستلام العرش السعودي، حيث يقول الفشتالي أنه "...كان أولهم ورودا على سدته الشريفة وأبوابه العلية المنيعة رسول صاحب الجزائر لاقترابه، فبلغ الرسالة وأدى الهدية وكان فيها من فساطيط الهند الغريبة الشكل والصنعة وزرابي مبنوثة وطرف نفيسة..."²، وقد تضمنت رسالة المنصور السابقة للباب العالي إشارة إلى الوفد العثماني الذي جاءه مهنئا من إيالة الجزائر وأنه قد افرح به وأكرم مثواه إذ ورد فيها: "... هذا وقد وفد على غلبي مقامنا خذابكم الخا قاني و مدرجكم العلي السلطاني صحبة أر سال ج نابكم ال سامي العثماني... وبسطنا له مايليق به من المبرة والتنويه بساطا وتلقيناه بوجه الترحيب والتكريم سرورا بمقدمه واغتباطا..."³ ومن هنا يتضح لدينا أن العلاقة العثمانية السعودية غداة حكم المنصور كانت على أحسن حال وعلى وفاق تام إلى غاية أن حدث تقارب سعودي إسباني كدّر العلاقة بين الباب العالي والسلطان السعودي.

¹ رسائل سعودية، المصدر السابق، ص 21

² الفشتالي، المصدر السابق، ص 49

³ رسائل سعودية، المصدر السابق، ص 22

3- موقف الباب العالي من التقارب الإسباني مع أحمد المنصور:

بعد توليه العرش حرص المنصور على إقامة علاقات جيدة مع جيرانه، فعلى غرار رسائل الود التي أرسلها للباب العالي، قام المنصور كذلك بإقامة علاقات حسنة مع الإسبان، فبدايةً قبل طلب الملك فيليب الثاني بتسليم جثة دون سيباستيان للوفد الإسباني البرتغالي المشترك الذي قصد المنصور بعد توليته، ثم اقام بإطلاق السفير الإسباني الذي أسر أثناء معركة وادي المخازن، فضلاً عن كونه تعهد بالأ يتحرك ضد القوات البرتغالية في شمال المغرب الأقصى¹، ولم يقف تقارب المنصور من الإسبان عند هذا الحد بل دخل في مفاوضات مع المبعوث الإسباني القسيس مارين (Marin) من أجل التنازل لهم عن ميناء العرائش الذي ترى السلطات الإسبانية أنه يشكل تهديدا لها من قبل العثمانيين في شمال المغرب الأقصى².

أثار هذا التقارب السعدي الإسباني مخاوف الباب العالي، ومن أجل ذلك سعى السلطان العثماني للحيلولة دون استمرار هذا التقارب وكان ذلك عن طريق عدة خطوات متتالية، كانت أولها عرض السلطان العثماني مراد الثالث على أحمد المنصور في سبتمبر 1580م عقد تحالف بين الطرفين ضد الإسبان وهو ماتضمنته رسالة من الباب العالي إلى المنصور جاء فيها: "...فد ما وصل بمسامعنا الشريفة... خبر طاغية قشتالة وأنه ادتوى مملكة برتقال... وأنه لكم جار وعدو مضرار... نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز وناصر وكماة عثمانية تستفتح بها إن شاء الله الأندلس..."³، وبعدها قام السلطان العثماني في

¹ بن خروف، المرجع السابق، ص222، 223

² كريم، المرجع السابق، ص113

³ المرجع نفسه، ص111

السنة ذاتها بعزل حسن باشا فنزيانو حاكم الجزائر الذي لم تكن علاقته جيدة بأحمد المنصور بعدما طالبه بتحسين العلاقات معه، أما الخطوة الأخيرة فتمثلت في محاولة السلطان العثماني مصاهرة المنصور بأن عرض عليه أن يزوجه إحدى بناته¹، وكما أن في هذا العرض تأكيداً من الباب العالي على نية السلطان العثماني الحسنة تجاه المنصور، فهو كذلك خطة زواج سياسي سيعود بالنفع على الدولة العثمانية التي ستضمن من خلاله -إن نجح- ولاء السلطان السعدي.

لكن، يبدو أن المنصور لم يرد على الباب العالي لا بقبول التحالف العسكري ولا بقبول مصاهرة السلطان العثماني وأنه ماض في توطيد علاقاته مع الإسبان، ولهذا فقد قررت الدولة العثمانية التدخل عسكرياً في المغرب الأقصى لردع المنصور وجعله يعيد النظر في علاقاته مع المملكة الإسبانية.

تذكر المصادر التاريخية في هذا المسألة تحديداً أن القبودان باشا وبايلرباي الجزائر عالج علي هو من طلب من السلطان العثماني التدخل في المغرب الأقصى وردع أحمد المنصور عسكرياً، فقد جاء عن الفشتالي: "...ثم إن علوج علي وزير البحر... صار يبطن بذلك عداوة لأبناء النبي الخلفاء الراشدين بالمغرب... فشمّر بذلك لإثارة الوحشة بين المملكتين... وحرك منه بذلك النزعات الملوكية وزين له الانحدار للمغرب... وأسدى في هذه المكيدة بيد سلطانه وألحم حتى وجد منه آذانا صاغية وبرز له الإذن بتجهيز الأساطيل..."²، ويبدو أن توقيع أحمد المنصور لهدنة جديدة مع الإسبان في جانفي 1581م³ هو ما جعل عالج علي يطلب من الباب العالي بضرورة التدخل في المغرب الأقصى لردع

¹ كريم، المرجع السابق، ص 112

² الفشتالي، المصدر السابق، ص 61، 62، وينظر كذلك: الإفرائي، المصدر السابق، ص 86

³ كريم، المرجع السابق، ص 112

أحمد المنصور ومنعه من المضي قدما في إقامة التحالفات مع المملكة الإسبانية، وأمام احتمالية حدوث رد الفعل العثماني لم يجد المنصور بُدأً من إرسال بعثة دبلوماسية إلى الباب العالي لتهدئة الأوضاع والتأكيد على استمرار حُسن العلاقات بين الطرفين، ويذكر الإفرائي في هذا الصدد: "...وبعثُ أرساله إلى السلطان المذكور بهدية عظيمة وكان من إرساله القائد الأندجب أحمد بن ودة العمري والكاتب الشهير أبو العباس أحمد بن علي الهوزالي..."¹، وقد كان الوفد السعدي قد عبّر لاسلطان العثماني عن أسفه في التأخر عن الرد عن خطاب الباب العالي² وأنّ ذلك لم يكن إلا لانشغال المنصور بأوضاع بلاده، فقبل السلطان العثماني تبرير الوفد السعدي وأمر عرج علي بالتراجع عن غزو المغرب الأقصى، كما أرسل السلطان العثماني بدوره وفداً إلى المنصور يعبّر عن امتعاض الباب العالي من "التراخي في أمور الملوك" وهو ما جعل المنصور يرد برسالة لتلطيف العلاقات بين الطرفين مع الوفد العثماني وقد حمل هذا الرد كل من أبي القاسم بن علي الشاطبي وعبد الرحمن بن منصور الشياظمي³.

ونظراً للدور الذي لعبه عرج علي في هذا التحرك العثماني ضده فقد أرسل إليه أحمد المنصور خطاباً يعبّر فيه عن امتعاضه وقلقه إزاء ذلك في رسالة جاء فيها: "...مأبأة القبطان المعظم الماجد الأكرم...أبي الحسن علي باشا أبقاه الله...أما بعد...إلى أن ورد خبر التحرك الذي كان لكم لهذه الناحية...فتأدى إلينا عنكم بوجه كان الظن بكم خلافه...ومازلنا ونحن نستغرب لشنانكم ذلك داعيه

¹ الإفرائي، المصدر السابق، ص 86

² كان عدم رد المنصور على خطاب السلطان العثماني الذي عرض فيه المساعدة والمصاهرة والذي ذكرناه أعلاه من الحجج التي أراد بها عرج علي إقناع السلطان العثماني على غزو المغرب الأقصى خاصة بعد تحالف المنصور مع الإسبان.

³ ينظر: الإفرائي، المصدر السابق، ص 86

وسببه وتجردكم للعدوان لا لأمر اقتضاه وأوجبه...¹، وفي المقابل -وبعد أن طلب منه السلطان العثماني التراجع عن التدخل في المغرب الأقصى-² أرسل عالج علي خطاب اعتذارٍ لأحمد المنصور عن هذه الحملة التي قادها ضده، إذ ورد في نفس الخطاب المذكور: "...إذ ورد علي بابنا رسولنا الآب من تداكم الأبواب العثمانية...فأنهى إلينا بما تلقاه منكم...على أن تحرككم ذلك ما كان منكم لباعث نفسي...وأنكم فيه على غير هوى منكم ولا اختيار محمولين في أمره...فعندما قرر لنا عنكم هذا النبأ المتأول والبعذر الواضح لمن تأمل زال عن النفوس ذلك الامتعاض...فأنهينا إليكم خطابنا هذا..."³، ورغم هاتين المرسلتين المتبادلتين بين عالج علي والمنصور إلا أن العلاقة بين الطرفين بقيت يشوبها انعدام الثقة خاصة في ظل وجود تحالف جديد بين المنصور والإسبان.

ثالثاً: سياسة "السلام الحذر" تجاه السلطان أحمد المنصور وتحالفاته الإقليمية:

1- توصيات الباب العالي بمراقبة تحركات السفراء السعديين:

رغم التصالح الظاهر وبعثات الصلح بين أحمد المنصور والسلطان العثماني إلا أن الأخير بقي متوجساً من السلطان السعدي ومن علاقته بإسبانيا، فبعد تأهب السفير المغربي في الأستانة للعودة إلى دياره سنة 1581م بعث الباب العالي

¹ ينظر: رسالة من المنصور إلى عالج علي: رسائل سعدية، المصدر السابق، ص 68-72
² يذكر هايدو (Haedo) أن تراجع عالج علي عن غزو المغرب الأقصى كان بأمر من السلطان العثماني، هذا الأخير الذي راسله إنكشارية الجزائر وأخبروه أنه ليس من الحكمة محاربة ملك جيد مثل أحمد المنصور، كما أشاروا له أن عالج علي ينوي الاستقلال بحكم الإيالات المغربية وهو ما جعل السلطان العثماني يأمر عالج علي بالعودة إلى موانئ القسطنطينية. ينظر: Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p186,187، ويعتبر هذا الحادث من أهم الدوافع على غرار عوامل أخرى جعلت الباب العالي يلغي نظام البايلربايات سنة 1587م.

³ رسالة من المنصور إلى عالج علي: رسائل سعدية، المصدر السابق، ص 71، 72

مراسلةً لحاكم الجزائر بخصوص سفير المنصور وبخصوص العلاقة المشبوهة بين السلطان السعدي وبين الإسبان جاء فيها: "...ولقد أمرت حضرة القبطان عالج علي بأن يتولى إيصاله إلى بلاده سالما غانما... وعند وصول أمري الشريف إليكم بادروا في اتخاذ جميع الاجراءات اللازمة من أجل استقبال السفير المشار إليه أحسن استقبال... ثم قوموا بالتباحث معه في مصلحة البلدين... ولكن على الرغم من التظاهر أمامه بهذا الشكل راقبوا أحواله جيدا وترصدوا تصرفاته... حتى تتحققوا من نية حاكم فاس والمراكش وموقفه الحقيقي منا ومن دولتنا وتبينوا غرضه الحقيقي من إرسال الرسل إلينا... لأن الرجل ممكن أن يتظاهر أمامنا بهذا المظهر المزيف ويتعامل خفية مع الكفار لضربنا من الخلف..."¹، ولم يكتف الباب العالي بإبلاغ حكومة الجزائر فقط بهذا الأمر الهام بل راسلت أيضا بخصوصه -في نفس الفترة- حيدر باشا حاكم إيالة طرابلس الغرب، حيث جاء في خطاب موجه للأخير أن: "...السفير الذي بعثه إلينا حاكم فاس... أخبرنا بعزمه على مغادرة البلاد والتوجه إلى بلاده... عند وصول أمري الشريف إليكم بادروا إلى إرسال قوة تتكون من رجال أكفاء إلى جانب فاس ومراكش من أجل مراقبة واستكشاف لما يجري هنالك بين الكفار من جهة وبين الكفار وحاكم فاس ومراكش من جهة أخرى لأن هذا الرجل وإن كان قد بعث إلينا رسوله الخاص... غير أننا نشك من صدق تصرفاته ونعتقد أنه يخفي لنا خلاف ما يظهر، وأنه ما أقدم على ما أقدم إلا من قبيل ربح الوقت حتى يتمكن من تحقيق غرضه وأهدافه مع التعاون والتفاهم مع الكفار..."²، ومن هنا تتبين جليا نية الباب العالي وسياسته الحذرة في التعامل مع أحمد المنصور، وأن الدولة العثمانية

¹أ.و.ج، مهمة دفترتي 42، حكم 84، 989هـ

²أ.و.ج، مهمة دفترتي 42، عدد 82، 989هـ، (الملحق رقم 7)

وإن كانت تقبل هدايا المنصور وبعثاته للسلام إلا أنها لا تثق فيه كامل الثقة وبالتالي فإن العلاقة المبذية معه هي علاقة "سلامٍ حذرٍ" يسيّرهما الباب العالي بحرص وحذر شديدين.

ويتبين كذلك حذرُ الباب العالي من أحمد المنصور من خلال ما ورد في المراسلة الآنفة الذكر لحاكم طرابلس الغرب والتي جاء فيها أيضاً: "...لهذا فإن الأمر يقتضي التيقظ والانتباه حتى لا نفاجاً بغارة مزدوجة من طرفهم وتكون هذه الثغور محمية ومحروسة حتى ولو اقتضى ذلك التوجه إلى هذه المناطق بالأسطول الشاهاني الكريم لتشديد الحماية والحراسة اللازمتين من أجل الدين والدولة..."¹، وهذا ما يدل بوضوح على إقرار الباب العالي باستمرار التهديد السعدي-الإسباني على إيالة الجزائر والإيالات المغربية بشكل عام، إذ أن حرص الدولة العثمانية على ضرورة الانتباه لتحركات أحمد المنصور واحتمالية قيامه والإسبان بحملة مزدوجة-كما جاء في نص المراسلة- على إيالة الجزائر يؤكد لنا أيّما تأكيد بأن الدولة العثمانية تنظر بعين الشك والريب للسلطان أحمد المنصور وأنها تُقيم علاقتها مع المغرب الأقصى وفق مبدأ "السلام الحذر"، كما نستنتج أيضاً من خلال عبارة "ولو اقتضى ذلك التوجه إلى هذه المناطق بالأسطول الشاهاني² الكريم" قيمة ومكانة إيالة الجزائر والإيالات المغربية لدى الدولة العثمانية وأنها لن تتوانى مطلقاً في الذود عن هذه الأقاليم وردع أي تهديد محتمل يحيط بها.

¹أ.و.ج، مهمة دفترى 42، عدد 82، 989هـ

²أو الأسطول الهمايوني، أي الأسطول الرسمي للدولة العثمانية والذي تضاف إليه زمن الحملات البحرية الكبرى جميع أساطيل الأقاليم العثمانية في شرق وغرب البحر المتوسط، يتولى قيادته "قبطان داريا" أي أمير البحر.

وفي مراسلة أخرى لبایلر باي الجزائر بنفس التاريخ وحول البعثة ذاتها نجد تفصيلا أعمق حول موقف الباب العالي من أحمد المنصور، إذ بعد التأكيد على ضرورة مرافقة السفراء المغاربة وإيصالهم لبلادهم في أمان، نجد في هذه المراسلة على غرار ذلك: "...وأن المشار إليه أحمد سيقوم بالخطبة في المنابر وضرب الاسكة باسمي الهمايوني، وينقاد بخلوص القلب وصفاء خاطر، ونظرا لعدم إخلاله بالإخلاص، ولا تصدر منه خيانة فإنه يبقى في محله على ما هو عليه، وبعكسه يتم تنفيذ ما جاء في الحكم السابق..."¹، ومنه يبدو أن الباب العالي قد اتفق مع الوفد السعدي على ضرورة إعلان أحمد المنصور تبعيته وبيعته للسلطان العثماني كشرط لقبول الصلح وإقامة العلاقة بين الطرفين وإلا فلا، وهو ما نفهمه من عبارة "وبعكسه يتم تنفيذ ما جاء في الحكم السابق"، أي في حال عدم قبول أحمد المنصور بإعلان التبعية للدولة العثمانية فإن الأخيرة قد تضطر لتنفيذ ما ورد في المراسلة السابقة من إرسال الأسطول الهمايوني أو قوات عسكرية من إيالة الجزائر لتأديب المنصور أو حتى خلعها من العرش السعدي.

2- استمرار تبادل السفارات والرسائل الدبلوماسية:

رغم الريب الذي بقي لدى الباب العالي تجاه أحمد المنصور إلا أن ذلك لم يمنع الدولة العثمانية من تفعيل دبلوماسيتها وتدشيتها تجاه المغرب الأقصى، حيث فضّل الباب العالي أن يستمر في إرسال واستقبال البعثات الدبلوماسية من وإلى السلطان السعدي، إذ وفي الفترة نفسها من سنة 1581م -التي تضمنت رسائل شك وريب من الباب العالي إلى حكومة الجزائر- وردت إلى الجزائر مراسلة أخرى من الباب العالي تأمر بضرورة إظهار كل الاحترام لحاكم فاس عبر

¹بيّات، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 609، 610، إتر، المرجع السابق، هامش ص 261

رسوله الخاص القادم إلى الأستانة لتقديم كل معاني الإخلاص والعبودية للسلطان العثماني¹، هذه السفارة الأخيرة التي يبدو أنها قد بددت مخاوف وشكوك السلطان العثماني تجاه نظيره السعدي وهو ما يظهر من خلال ردّ الباب العالي إلى الأخير في مراسلة وُجّهت للمنصور سنة 1582م اشتملت على تقدير وترغيب في استمرار العلاقات الطيبة بين الطرفين واحتوت على ما يؤكد ثقة الدولة العثمانية في أحمد المنصور وقد ورد فيها: "...بالرسالة التي أرسلتها مع شخص من طرفكم أثبت بها الإخلاص والموودة لسدتنا العلية، لذلك قررنا منحك حق الحكم لك ولمن سيأتي من نسلك جيلا بعد جيل بدون انقراض...ومادامت تبعيتكم تعتمد على الصداقة والإخلاص، ولقاء هذا الإخلاص ستحكم البلاد نسلا نسلا إلى يوم القيامة."²، ويدل ما ورد في هذه المراسلة على تأكّد الباب العالي من نيّة أحمد المنصور وإخلاصه تجاه الدولة العثمانية ما جعل الأخيرة تُقرّ بحكمه في المغرب الأقصى بل وتدعم حكمه وحكم أبنائه من بعده، وهو ما يؤكد على أن العلاقة بين الطرفين باتت أكثر ثقة وودية بعد أن تبددت عن الباب العالي شكوكه تجاه المنصور وما يُحيكه للدولة العثمانية.

استمرت علاقات السلم وتبادل البعثات بين الطرفين إلى أن صارت بشكل منتظم وشبه دائم، وهو ما يظهر من خلال المراسلات والبعثات الدبلوماسية اللاحقة بين الطرفين، فهذه رسالة بعثها المنصور إلى حاكم الجزائر جعفر باشا³ والتي هي في الأصل ردّ من السلطان السعدي على سفارة السلم التي أرسلها باشا

¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 42، حكم 86، 989هـ

² أ.و.ج، مهمة دفترى 48، حكم 31، 990هـ

³ جعفر باشا : من أصل هنغاريّ، أسير في صِغره من طرف القوات العثمانية في البلقان، انضم بعد إسلامه إلى فرق الإنكشارية، تولّى حكم الجزائر في الفترة ما بين 1580-1582م. ينظر: ابن المفتي،

المصدر السابق، ص 43، 182، Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p182، 43

الجزائر إليه برئاسة الشيخ عبد الجليل وقد جاء فيها: "...هذا وموجب إصداره إليكم كون الفقيه الأحظي...أبي العباس أحمد بن عبد الجليل أنجده الله لما قاده رسن الأمل والوداد...فأناخ الرحب بدارنا زائرا... فأنتهى لعلائنا من ولأئكم ورسوخ مودتكم ما ثبت لدينا دليله...وأثنى عليكم بلسان طلق التعبير وقرر ماثركم أي تقرير...فانفصل آءبا لتلكم البلاد حماها الله وأصحابها إليكم هذا المدرج الكريم..."¹ وإننا لنستطيع بكل يسر أن نستشف من هذا الخطاب مدى استقرار العلاقة بين الطرفين خلال هذه الفترة.

ولم تتوقف المراسلات السلمية والبعثات الدبلوماسية بين الطرفين بعد عودة حسن فنزيانو لتولي حكم إيالة الجزائر بعد جعفر باشا سنة 1582م وهو ما يظهر في رسالة السلطان السعدي إلى حاكم الجزائر الجديد والتي يبلغه فيها بمغادرة سفير الباب العالي بلاط السعديين وتوجهه إلى القسطنطينية حيث ورد فيها: "...الباشا المعظم...محمد حسن باشا حرسه الله...وما ينهي لجنابكم المرعي أن السفير المكرم سليمان باي الوارد على علائنا من الأبواب العثمانية قد توجه منفصلا عن حضرتنا في هذا التاريخ أما إتمام الأوبة لمقره من الديار القسطنطينية العظمى وحملناه من جملة ما تحمل أجوبة الباشا المعظم الكبير أبي الحسن علي باشا...والله يبقي علاءكم ويديم بقاءكم والسلام."² وفي هذا النص تأكيد على نوعية العلاقة الجيدة بين الطرفين، وكذا نستنتج من خلالها ازدياد البعثات والوفود الدبلوماسية بين إيالة الجزائر والدولة السعدية خلال هذه الفترة.

¹رسالة من المنصور إلى محمد جعفر باشا: رسائل سعديّة، المصدر السابق، ص87، 88

²رسالة من المنصور إلى حسن فنزيانو: المصدر نفسه، ص90-92

3- مشكلة الحدود، واستمرار "السلام الحذر":

في سنة 1584م حدثت أزمة حدودية بين إيالة الجزائر والمغرب الأقصى تمثلت حيثياتها في محاولة أحمد المنصور فرض السيادة السعودية على واحات "فغيغ" جنوب غرب تلمسان، حيث قام جنود المنصور بقتل المسؤول المكلف بجمع الضرائب من منطقة مكناس، وبعد أن احتج حسن باشا فنزيانو على الخطوة العدوانية التي قام بها جند أحمد المنصور برّر الأخير فعل جنده بأن الباب العالي اقد تنازل له عن حُكم المنطقة¹، وهنا راسل حاكم الجزائر الباب العالي حول القضية، وقد تمثل ردّ الباب العالي حول هذه المسألة في أن طالب حاكم إيالة الجزائر بمعالجة الأمر بحكمة مراعيًا ما اعتادت عليه الرعية في تلك المنطقة في انتمائها سواء لإيالة الجزائر أو للسلطة السعودية دون أي تفصيل محدّد²، كما ورد في هذه المراسلة كذلك حتّى الباب العالي حاكم الجزائر على ضرورة حماية وحراسة مصالح إيالة الجزائر وعلى عدم ترك المجال للسلطان السعودي للتدخل في أقاليمها الحدودية: "...وكن حريصا كل الحرص على حماية وحراسة المصالح التابعة للإيالة والولاية المذكورة، ولا تترك فرصة لحاكم فاس للتدخل في هذه المناطق لأن ذلك قد يؤدي إلى نتائج غير محمودة...وكن حذرا دائما ومستعدا لجميع(...). والطواريء حتى (لا) تتفاجأ غفلة والسلام."³.

ورغم صمت المصادر التاريخية عن نتائج هذه الأزمة إلا أنه يبدو أنها قد حُلّت بطرق سلمية وهو ما يتضح من خلال طبيعة العلاقة بين الطرفين غداة هذه الأزمة، حيث أننا نجد أحمد المنصور يواصل تبادل الرسائل السلمية وخطابات

¹التر، المرجع السابق، ص265

²ينظر: أ.و.ج، مهمة دفترى 52، عدد 227، 992هـ

³أ.و.ج، مهمة دفترى 52، عدد 227، 992هـ

الهدنة سواء مع الباب العالي أو مع إيالة الجزائر، فمع الباب العالي استمرت بعد هذه الأزمات السفارات السلمية والدبلوماسية بين الطرفين وهو ما تؤكد عليه المراسلة الواردة من الأستانة إلى حكومة إيالة الجزائر سنة 1585م والتي ورد فيها:

"حُكم إلى أمير أمراء الجزائر

إن سعادة السلطان أحمد سلطان فاس سابقا قد أرسل رسولا إلى المقام الشاهاني العالي وهذا السفير الذي أقام مدة في الأستانة عزم الآن على التوجه إلى بلاده عن طريق الجزائر فإذا وصل إليك فأكرمه كما يلزم ثم أرفقه ببعض المحافظين كي يصل إلى بلاده في أمن وسلام...¹، وإذا كانت هذه المراسلة تدل على استمرار البعثات السلمية السعدية إلى الباب العالي ففيها أيضا ما يدل على حرص الباب العالي على سلامة المبعوثين السعديين ومنزلتهم القيمة لدى الدولة العثمانية والتي تعكس بالضرورة منزلة أحمد المنصور لدى الباب العالي.

كما ورد في ذات المراسلة: "...وكذلك لما يأتي إليكم راجعا من بلاده تصرف معه بنفس التصرف... من حيث الإكرام والاستضافة ثم أرسله إلى الأستانة... وأوصيك ألا تدخر جهدا في القيام بهذه الواجبات تجاه هذا الرجل في الذهاب والإياب."² وإننا لنجد في هذا المقطع من المراسلة ما يبيّن لنا أن النشاط الدبلوماسي بين الدولة العثمانية والمغرب الأقصى زمن أحمد المنصور كان يتميز بالنشاط والحركة وأن السفارات لم تكن تنقطع بين الطرفين ذهابا وإيابا- كما هو وارد في نص المراسلة- وهو ما يؤكد بشكل كبير أن العلاقة العثمانية السعدية

¹أ.و.ج، مهمة دفترى 52، عدد 82، 993هـ

²أ.و.ج، مهمة دفترى 52، عدد 82، 993هـ

زمن أحمد المنصور تجاوزت مرحلة السلام الحذر ودخلت مرحلة أكثر ثقة ومثانة من ذي قبل.

أما عن العلاقة السعدية مع إيالة الجزائر فلم تتغير طبيعتها عن العلاقة مع الباب العالي، وخو مايتضح من خلال الرسالة التي بعث بها أحمد المنصور إلى حكومة الجزائر والتي راح السلطان السعدي يمدح ويثني فيها على جيش إيالة الجزائر بكل أصنافه ويبرز فيها أثر الجهاد الجزائري ضد المسيحيين والكفرة، إذ ورد فيها:

"العصابة التي لها من علاقة المحبة لهذا الجنب الرفيع...والجيش الذي له إلى اقتناص الخيرات بجوانح الرضا جنوح ونزوع، جملة الجند الجزائري، الباشا وسائر ياياباشلار¹، وبلكباشلار²، وأطنباشلار³ ويولظاش⁴، وصل الله لجميعكم أسباب السعادة، وسددكم لما تحصلون به أسباب الحسنى والزيادة، وأبقى شوكتكم على الكفرة جديدة، ووصولكم في الجهاد متصلة جديدة، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته..."⁵، ونلاحظ هنا أن السلطان السعدي لم يكتفِ بالثناء على حاكم الجزائر أو السلطان العثماني كما في مراسلاته السابقة، وإنما خصّ في هذا

¹ربما المقصود هو "الباش ياياجي"، و"لار" صيغة الجمع: وهي رتبة عسكرية بدرجة عقيد، أو قائد السارية، والذي يشرف كذلك على معامل البنادق، ينظر: أوزتونا، المرجع السابق، ج2، ص394

²بلكباشي (Bolukbasi): و"لار" صيغة الجمع: رتبة عسكرية تطلق على أقدم أغوات الإنكشارية الذين يتولون قيادة سرايا الإنكشارية الخيالة، وهم من مرافقي الباشا، ينظر: صابان، المرجع السابق، ص54،

أوزتونا، المرجع السابق، ج2، ص394، معاشي، الإنكشارية، المرجع السابق، ص28

³لدل المقصود: أوضاباشي: وهو العريف، قائد الغرفة والمسؤول الأول عن فرقة اليولداش (الجندي البسيط)، ينظر: المرجع نفسه، ص28

⁴يولداش (Yuldas): وتعني الجندي البسيط في صفوف الجيش الإنكشاري، ينظر: المرجع نفسه، ص28

⁵خطاب من المنصور إلى جيش الجزائر: رسائل سعدية، المصدر السابق، ص92، 93

الخطاب جيش إيالة الجزائر بكل أصنافه، وأبرز فيه جليا دور جيش الإيالة في نصرة الإسلام ومحاربة القوى الأوروبية، ولا يمكن لخطاب كهذا من السلطان السعدي إلا أن يدل على العلاقة الجيدة والحسنة بين الطرفين خاصة وقد جاء فيه أيضا إشارة من السلطان السعدي إلى استمرار العلاقات الودية والأخوية بين الطرفين، إذ ورد فيه كذلك: "...ومن فضوله التنبيه على أن خادم جنابنا...أبو العباس أحمد الماسي حملتموه من مزيد ودادكم ما ينفذ مشافهة لدينا جرابه...فقد أملى من صحائف خلوصكم ما حملتموه مسرودا، واستوفى علاؤنا الإصغاء لذلك مقصورا ومدودا..."¹، وحسب هذا النص فإن سفير أحمد المنصور الشيخ "أحمد الماسي" قد عاد إلى الجزائر حاملا معه رسائل ودية من طرف حكومة الجزائر وأن السلطان السعدي قد استمع لها وفرح بما تضمنته، وقد رافق السفير السعدي مبعوث إيالة الجزائر القائد "مامي راييس" الذي أغدقت عليه الهدايا من طرف السلطان السعدي قبل أن يعود إلى الجزائر في كنف السلامة وفي عز وكرامة حسب التعبير الوارد في الرسالة السعدية².

4- سفارة "التمكروطي" إلى القسطنطينية:

تواصلت البعثات الدبلوماسية وسفارات السلم وتوطيد العلاقات بين الباب العالي والدولة السعدية زمن أحمد المنصور، ففي سنة 1589م أرسل السلطان السعدي إلى الأستانة بعثة دبلوماسية برئاسة أبي الحسن علي التمكروطي³ وعبد العزيز

¹رسائل سعديّة، المصدر السابق، ص 95

²المصدر نفسه، ص 96

³التمكروطي أبو الحسن علي: رحالة وعالم ودبلوماسي مغربي، أصله من تمكروط من قبيلة جزولة بالمغرب الأقصى، كان مُدرسا بالزاوية الناصرية في تمكروط، ترأس البعثة الدبلوماسية السعدية للقسطنطينية سنة 1589م، توفي سنة 1595م، ينظر: بروفنسال ليفي، مؤرخو الشرفاء، تع، عبد القادر الخلافي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص 82، الغاشي مصطفى، صورة

الفشتالي¹، وعلى الرغم من أن التمكروطي رئيس هذا الوفد لم يعبر في كتابه حول هذه البعثة المُسمى "النفحة المسكية في السفارة التركية" عن مضمونها وأهدافها، إلا أنه وحسب ماورد في مؤلفه المذكور "...وأذن لنا في الدخول على السلطان وإدخال الهدية عليه فدخلنا عليه في إيوانه...فسلمنا عليه وناولناهم ما معنا من الكتب...والهدية أدخلوها قبل دخولنا ففرحوا بها كثيرا وعجبوا منها..."² يدل على أن البعثة³ كانت للتأكيد على استمرار وحسن العلاقة بين الطرفين، كما يتضح كذلك من كلام التمكروطي أن الباب العالي قد رحّب كثيرا بهذه البعثة وبالهدايا المرسلة من قبل المنصور وهذا ما يعني أن السلطان العثماني حريصٌ تماما على وجود علاقات ودية وسلمية مع المغرب السعدي.

استمرت العلاقات الودية بين الدولة العثمانية وأحمد المنصور إلى غاية أواخر القرن السادس عشر، ففي سنة 1594م وعلى إثر وفاة السلطان العثماني مراد

مغربية للإمبراطورية العثمانية خلال القرن 16م؛ نموذج التمكروطي، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، المغرب، مج11، ع44، 1999، ص89، 90

¹الفشتالي عبد العزيز: كاتب وشاعر ومؤرخ مغربي، تولى وزارة القلم (الكاتب الرسمي) في عهد أحمد المنصور، صاحب كتاب مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، رافق التمكروطي في البعثة الدبلوماسية إلى القسطنطينية سنة 1589م، توفي سنة 1623م، ينظر: مؤرخو الشرفاء، المرجع السابق، ص80، 81

²التمكروطي علي بن محمد، النفحة المسكية في السفارة التركية، تح، عبد اللطيف الشادلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2002، ص99، 100

³ غادرت البعثة العاصمة فاس يوم 20 جمادى الثانية 997هـ/6ماي 1589م، ووصلت إلى القسطنطينية في 16محرم 998هـ/25نوفمبر 1589، وقد كان رفقة التمكروطي كاتبها السلطان عبد العزيز الفشتالي ومحمد بن علي بن أبي القاسم، وقد مكث الوفد هناك حوالي ثمانية أشهر، ينظر: النفحة المسكية، المصدر السابق (هامش المحقق)، ص7، 8، وللمزيد أكثر حول هذه الرحلة وظروفها السياسية ينظر: الغاشي، المرجع السابق، ص86-105

الثالث بعث أحمد المنصور برسالة تعزية إلى الوزير سنان باشا جاء فيها: "...وقد طُن بهذه الأقطار نبأ فظيع التذكار فتت الأكباد... ذلكم ما نزل به القضاء، وانتهى فيه الأمد وانقضى وهو انتقال السلطان الجليل... الخاقان الأعظم والشاهق الأعصم، السلطان مراد بن السلاطين الكبار... فإننا لله وإنا إليه راجعون... فاللجأ فيه إلى الصبر الجميل والضراعة لله في الجزاء الجزيل..."¹، كما تضمنت رسالة العزاء هذه في نفس الوقت تهنئةً للسلطان محمد بن مراد على استلامه عرش الدولة العثمانية خلفاً لوالده المتوفى، حيث ورد فيها: "...وإننا بعد مشاركتكم في الأسف على فقده، ومشاطرتكم في الألم بحسب ما عندنا من عهد وده، لشاكرون الله على استواء كعب السلطان الأعظم سلالة الملك الأفخم مقام ولدنا السلطان محمد بن السلاطين العظام... في كرسي السلطنة العظمى مكان أبيه..."² ولا تدل هذه الرسالة إلا على ما دلّت عليه باقي المراسلات بين السعوديين والعثمانيين زمن أحمد المنصور من التأكيد على حسن الجوار والعمل على استمرار صفاء العلاقة بين الطرفين وخلوها من أي توترات وصراعات مثلما كان الحال قبل تولي أحمد المنصور العرش السعودي.

5- تنديد الدولة السعودية بتمرد الإمارات المحلية في إيالة الجزائر:

دليل آخر على طيب العلاقات بين الباب العالي والمغرب السعودي في عهد أحمد المنصور تلك الرسالة التي بعث بها الأخير إلى باشا الجزائر على إثر انتفاضة وتمرد إمارة كوكو على الحكومة العثمانية في الجزائر وتحالفها مع إسبانيا

¹ خطاب تعزية المنصور للصدر الأعظم سنان باشا في وفاة السلطان مراد خان: رسائل سعودية، المصدر

السابق، ص 98، 99

² المصدر نفسه، ص 99، 100

سنة 1598م¹، حيث جاء في رسالة المنصور: "... هذا وإنه اتصل بـعلي مقامنا كتابكم الأثير وخطابكم الخطير... أما ما عرفتم به من حال ابن القاضي صاحب كوك و صلة يده بيد الطاغية صاحب إسبانيا... وما كان به من إرساله إليه بالهدية، فيحيط بعلمكم أن هذا الخبر كان قرع أسماعنا الكريمة على أسنة العوام فلم نصدق... إلى أن جاء كتابكم فزال الشك والريب..."²، وبعد هذا الامتعاظ الذي عبّر به المنصور لباشا الجزائر من تحالف إمارة كوكو مع الإسبان، عرض السلطان السعدي المساعدة على إيالة الجزائر وحاكمها إذ تضمنت الرسالة كذلك: "... ثم اعلّموا أنه إن آدستم من جانب الكفرة دمرهم الله تُنشأ أو أسطولا يوم ناحيتكم ويغشى واحتجتم إلينا فنحن بدمد الله بأنفسنا وأموالنا وأجنادنا موجودون لنصرتكم..."³، وفي عرض السلطان السعدي كل أنواع المساعدة على إيالة الجزائر ضد الإسبان وحلفائهم من إمارة كوكو نستنتج أن أحمد المنصور كان يسعى جدياً لأن تستمر علاقاته بشكل جيد مع جيرانه العثمانيين في الجزائر، فأحمد المنصور كان بإمكانه استغلال هذا الوضع (تمرد إمارة كوكو وتحالفها مع مملكة إسبانيا) ضد إيالة الجزائر، كما كان في مقدوره كذلك الانضمام إلى هذا التحالف والضغط على إيالة الجزائر، خاصة في هذه الفترة التي شهدت فيها الأخيرة منذ سنوات قليلة تغييراً جذرياً في نظام الحكم⁴ في البلاد وما رافقه من تداعيات سياسية داخلية وخارجية.

¹ حول تمرد إمارة كوكو على العثمانيين بالجزائر وتحالفهم مع إسبانيا سنة 1598م ينظر: بن الشيخ،

المرجع السابق، ص 91، 92

² رسائل سعديّة، المصدر السابق، ص 143

³ المصدر نفسه، ص 144

⁴ في سنة 1587م انتقلت إيالة الجزائر من نظام البايلربايات إلى نظام الباشوات وذلك لأسباب عدة أبرزها الصراع بين طائفتي الرياس والإنكشارية وكذا ظهور النزعة الاستقلالية لدى بايلربايات الجزائر.

هذا، كما نستنتج أيضا أن حكام الجزائر كانوا على وفاق تام وعلى علاقات طيبة مع المنصور وإلا لما راسلوه بخصوص هذه القضية الهامة "وخذ طابكم الخطير" وأرادوا التنسيق معه في حيثياتها، فنحن نعلم أن حكام الجزائر العثمانيين كانوا دائما حريصين طيلة النصف الثاني من القرن السادس عشر على ألا يحدث أي اتفاق سعديّ إسباني يعود بالضرر على إيالة الجزائر، كما أن حكام المغرب الأقصى لطالما استغلّوا أزمات إيالة الجزائر الداخلية وصراعاتها مع إسبانيا لتنفيذ أجنداتهم السياسية ضد إيالة الجزائر.

وفي المقابل يمكننا تبرير هذا الموقف السعدي المتحالف مع العثمانيين في الجزائر انطلاقا من أن الإسبان لا يزالون يتركزون في عدة مناطق ساحلية في الغرب الأقصى وأن أحمد المنصور يهدف إلى التخلص من وجودهم في بلاده، أي أن الإسبان أصبحوا في عهد المنصور عدوا مشتركا مع الجزائر وليس حليفا ضدها كما كان زمن أسلافه، ومنه فإن هذا التنسيق الجزائري السعدي بخصوص تحالف إمارة كوكو مع الإسبان سنة 1598م لا يدل إلا على تأكد العثمانيين في الجزائر من طيب وحسن علاقة أحمد المنصور معهم وأن لا نية له في استغلال أي ظرف داخلي أو خارجي ضد إيالة الجزائر، وهو ما يؤكد لدينا كذلك على زوال التهديد المغربي السعدي على إيالة الجزائر خلال القرن السادس عشر.

6- توجه المنصور نحو بلاد السودان وانحسار التهديد السعدي عن إيالة الجزائر :

من الدلائل الأخرى على زوال التهديد السعدي على إيالة الجزائر اهتمام أحمد المنصور بالسياسية التوسعية جنوبا نحو بلاد السودان الغربي وصرف نظره شرقا تجاه إيالة الجزائر، حيث كان المنصور قد خاطب في إحدى المرات قاداته

وحاشيته قائلاً: "...وانقضت عنّا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر باستيلاء الترك عليها... فإن بلاد السودان أنفع من أفريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الأتراك لأنه تعب كثير فيه نفع قليل..."¹، ومن كلام المنصور هذا نستنتج موقف السلطان السعدي من الصراع مع إيالة الجزائر؛ فهو أولاً يُقرّ باستقرار الحكم العثماني في إيالة الجزائر وبأحقية العثمانيين وشرعيتهم فيها، وثانياً في كلام المنصور هذا يعبر بصدق عن عجزه في التصدي للعثمانيين بالجزائر وأن النصر عليهم أمر صعب المنال.

دليل آخر على اندسار التهديد السعدي عن إيالة الجزائر تلك الحادثة التي أوردها الإفرائي عن أن أحمد بابا التنبكتي² قد طالب أحمد المنصور -بعد إحدى الحملات السعدية في بلاد السودان الغربي- بمحاربة الأتراك ووقف التدخل في بلاده، حيث يقول الإفرائي: "...فقال له أبو العباس هلا جمعت الكلمة بتürk تلمسان ومايليتها من البلدان فهم أقرب إليك منا، فقال له المنصور: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ارتكوا التürk ما تركوكم فامتثلنا الحديث..."³، وفي ردّ المنصور هذا بيان واضح عن موقف السلطان السعدي من العثمانيين في الجزائر وأنه قد قرر نهائياً التوقف عن محاربتهم وعن التفكير في التوسع نحو إيالة الجزائر.

¹ الإفرائي، المصدر السابق، ص92

² أبو العباس أحمد بابا التنبكتي: عالم ومؤرخ من مواليد تنبكتو في السودان الغربي (مالي حالياً) سنة 1556م، صاحب كتاب التراجم الشهير "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، أُسِر سنة 1595م من طرف القوات السعدية الغازية لبلاده وسبق به رفقة عائلته إلى مراكش وفيها ناظر السلطان السعدي حول ما أوردناه أعلاه، ينظر: عبد الحميد عبد الله الهرامة (المحقق)، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص11-13

³ الإفرائي، المصدر السابق، ص97

بهذا الموقف الذي اتخذه أحمد المنصور من إيالة الجزائر يمكننا القول أخيرا أن المغرب الأقصى في عهد هذا السلطان وخاصة مع أواخر القرن السادس عشر لم يُعد يشكل تهديدا على إيالة الجزائر العثمانية التي خاض أسلافه السعديون معها حروبا دون هوادة منذ سنة 1550م عرفت فيها المواجهة بين الطرفين-باستثناء محطات قليلة- انتصار العثمانيين على حكام المغرب الأقصى ووقوفهم سدا منيعا أمام تهديداتهم المتكررة على إيالة الجزائر.

كذلك، يمكننا اعتبار حكم أحمد المنصور عصر الهدوء والاستقرار في العلاقات العثمانية السعدية، فانطلاقا من المراسلات المتبادلة بين الطرفين خلال فترة حكمه والتي غلب على مجملها الطابع السلمي والسعي إلى حسن الجوار بل وحتى إلى عرض التعاون بين الطرفين وخاصة من قبل المنصور، كل هذا يجعلنا نقول بانتهاء التهديد السعدي على إيالة الجزائر وكذا انتهاء التدخلات العثمانية في المغرب الأقصى، وبالتالي بداية عصر جديد في العلاقات العثمانية السعدية قائم أساسا على احترام الآخر واحترام سيادته واستقلاله.

أخيرا يمكننا إجمال القول حول الصراع السعدي الجزائري خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر فيمايلي:

- بحكم أن السعديين لم يعترفوا بالوجود العثماني في بلاد المغرب فقد اتخذهم العثمانيون أعداء مثلهم مثل الإسبان.
- استعمل الباب العالي في سياسته تجاه السعديين سياستَي القوة واللين حسب ما تقتضيه المصلحة العثمانية.
- قام الباب العالي بإيواء المعارضة السعدية واستعملها ضد السلاطين السعديين المناوئين للدولة العثمانية.

- اسعى العثمانيون من أجل ردع التهديد السعدي على إيالة الجزائر في تنصيب الأمراء السعديين الموالين لهم على عرش المغرب الأقصى مما يضمن ولاءهم للباب العالي كما الحال مع عبد الملك وعبد المؤمن.

- كان التقارب السعدي مع الإسبان أكثر ما يؤرق الباب العالي وبالتالي فقد حاول العثمانيون دائماً الحيلولة دون قيام تحالفات سعديّة إسبانية.

- لم تقف السياسة العثمانية إزاء التهديد السعدي عند دعم الموالين لها من الأمراء السعديين فقط بل تدخلت عسكرياً في عدة مناسبات في المغرب الأقصى لبسط النفوذ العثماني فيه ووقف اعتداءاته المتكررة على إيالة الجزائر.

- رغم تعدد جبهات القتال وكثرة الحروب العثمانية ضد القوى الأوروبية في حوض البحر المتوسط خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر إلا أن العثمانيين نجحوا في الحفاظ على إيالة الجزائر من أي تهديد من طرف السعديين.

- تعتبر فترة حكم أحمد المنصور نهايةً للتهديد السعدي على إيالة الجزائر نظراً لموقف الأخير من العثمانيين وعلاقته الجيدة بالباب العالي.

وعلى هذا الوضع انتهى القرن السادس عشر بانتهاء الصراع العثماني السعدي وبقبول الباب العالي بالأمر الواقع واكتفائه بزوال التهديد السعدي على إيالة الجزائر وإقامة علاقات ودية وسلمية مع السعديين على حساب سعيه لضم المغرب الأقصى للحكم العثماني.

خاتمة

أخيراً فقد حرصنا على أن تكون نتائج البحث دقيقةً تعطي فهماً صحيحاً للموضوع، ومنتوعةً بحيث تنطلق إلى الجانب المنهجي والمعرفي على حد سواء. وعلى هذا الأساس يمكن أن نختم البحث بعرض مختصر ودقيق لأهم النتائج التي توصلنا إليها من خلاله، وهي كالتالي:

1. تساهم الوثائق الأرشيفية في تجديد الكتابة التاريخية، إذ أن الكثير من الدراسات التاريخية التي أصبحت اليوم مراجع في تخصصاتها لا يتوافق ماجاء فيها مع ما تتضمنه الوثائق حول ذات الموضوع الذي تعالجه، أو أنها تتنافى معها بشكل قطعي، مما يجعل هذه الدراسات تحوي أخطاء تاريخية معرفية، وبالتالي يجب أن تعاد كتابتها على أساس إعطاء الأولوية للوثائق التاريخية، وهنا (ومن خلال هذه الدراسة) لديّ مثالين اثنين، أولهما عن الصراع الجزائري السعودي خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر والذي تنطلق إليه المراجع على أساس أنه كان صراعاً عسكرياً لم يخلُ من المعارك والحروب خلال جُلّ أطواره، غير أنه وبدراسة الوثائق التاريخية (وانطلاقاً مما جاء في المراسلات العثمانية) فإن سُدُبُل السلام والبعثات الدبلوماسية وتبادل السفارات وذبذ العنف والحرب كان هو أكثر ما ميّز علاقة إيالة الجزائر والباب العالي بالدولة السعودية خلال القرن السادس عشر، أما المثال الثاني فهو قضية علاقة الدولة العثمانية بثورة الموريسكيين (1568-1570م)، حيث أن العديد من الدراسات والأبحاث قامت بدراسة الموضوع انطلاقاً من إشكالية الدعم والتدخل العثماني لنصرة ثورة الموريسكيين، إذ أن ما جاء في هذه الدراسات هو إبراز دور الدولة العثمانية وتدخلها في غرناطة لدعم ثورة الموريسكيين، غير أن دراسة الوثائق التاريخية (وانطلاقاً مما جاء في المراسلات العثمانية) تبين أن

الدولة العثمانية اعتذرت عن التدخل المباشر في هذه الثورة وبررت موقفها بأنها منشغلة بقضية أخرى في نفس الفترة وهي فتح جزيرة قبرص التي اعتبرتها مسألة أهم من التدخل لدعم ثورة الموريسكيين واكتفت فقط بإعطاء أوامر لحاكم الجزائر بأن يرسل لهذه الثورة بعض الدعم العسكري. وبالتالي فإن وضع مثل هذه الدراسات في ميزان القيمة العلمية المبذوبة على المصادر الأولية (وأبرزها الوثائق الأرشيفية) قد يُفقدُها قيمتها ويجعل مواضيعها في حاجة إلى أن يُكتب فيها من جديد.

2. تبقى الوثائق الأرشيفية المتعلقة بالموضوع المدروس -على كثرتها وتنوعها- عاجزة عن سدّ جميع الثغرات المعرفية (الأحداث، الإحصائيات) والمنهجية (المقارنة) التي يحاول البحث ملأها مما يضطرنا للبحث عن مصادر مكّلة.

3. كانت العديد من المراسلات العثمانية تصل متأخرة لحكام الإيالات المغربية، أي بعد مرور الحدث الذي يتناوله مضمونها، كما الحال مع المراسلة (مهمة دفترية 16، ح كم 40، 20 ج مادي الأولي 979 هـ) المتعلقة بمعركة لي بانو 1571م، والمراسلة (مهمة دفترية 35، ح كم 475، 2 رجب 986 هـ) المتعلقة بحملة ملك البرتغال دون سيباستيان على المغرب الأقصى عام 1578م، وهو ما يجب أن يتقطن إليه الباحث كي لا يبني دراسته على تحليلات غير سليمة زمنيا وبالتالي الوقوع في ما يسمى الجهل بالسياق التاريخي للوثيقة مما يؤدي لسوء توظيفها.

4. تمتلك الجزائر مكانة محورية في الرؤية العثمانية لقضايا الإيالات المغربية وحوض المتوسط الغربي، إذ أن الجزائر كانت بالذات بابا العنصر الأساسي واللاعب الأكثر أهمية وفعالية في المنطقة، فلا توجد مسألة في المنطقة

سواء كانت سياسية أو عسكرية إلا وحمّلت الدولة العثمانية إيالة الجزائر للإضطلاع بها.

5. القيمة السياسية والعسكرية الكبيرة للجزائر في الصراع الإسلامي العثماني/ المسيحي الأوروبي خلال القرن السادس عشر، إذ أن كل المسائل السياسية والعمليات العسكرية الكبرى في حوض المتوسط الغربي كان للجزائر دور كبير فيها، فمن ناحية الباب العالي فقد كان يفوّض شأن كل هذه المسائل لإيالة الجزائر وحكامها، وبالنسبة للدول المعادية في المنطقة فإنها كانت دائماً ما تحسب حساب الجزائر وتتبع تحركات أسطولها وتستخبر عن سياسة حكامها لمعرفة موقف الجزائر ورد فعلها تجاه سياسات وتحركات هذه الدول.

6. كان التنسيق العسكري والاستخباراتي عالي المستوى بين الباب العالي والإيالات المغربية وخاصة مع إيالة الجزائر وهو ما تجلّى من خلال ماورد في الكثير من المراسلات العثمانية لحكام هذه الإيالات ومن جهة أخرى فقد شدّد الباب العالي على ضرورة التنسيق بين الإيالات المغربية فيما بينها وهو ما جاء في العديد من المراسلات التي حثّت حكام الإيالات المغربية للتواصل مع بعضهم البعض والتنسيق والتشاور فيما بينهم خاصة قبيل وخلال العمليات العسكرية الكبرى في حوض البحر المتوسط (مثل معركة ليبانتو) أو في بلاد المغرب (مثل تحرير تونس وحلق الوادي).

7. كانت الدولة العثمانية حريصة كل الحرص على سلامة وأمن إيالاتها المغربية، حيث لم تنس في أوجّ الحروب التي كانت تخوضها (كما خلال معركة ليبانتو مثلاً) أن توصي قادتها على أن يهتموا بحماية الإيالات المغربية من أي تهديد محتمل أو خطر داهم قد يلحق بها زمن انشغال قواتها في هذه الحروب، ويبيّن هذا الكلام مدى

ارتباط الدولة العثمانية بإيالاتها المغربية وأنها لم تكن تنتظر إليها كمجرد محميات أو مستعمرات كما قد تروّج له بعض الكتابات التاريخية الغربية أو حتى العربية، بل كانت تعتبرها جزءا منها وحلقات مكمّلة لعقد الخلافة العثمانية الإسلامية.

8. شكّلت التهديدات الخارجية الاهتمام الرئيسي للباب العالي بخصوص أوضاع الإيالات المغربية، إذ أن أغلب مراسلات الباب العالي لحكومات هذه الإيالات قد ركّزت على الجانب الأمني والعلاقات المتأزمة مع الأطراف الخارجية (القوى الأوروبية، الدولة السعدية) فرغم أن هذه المراسلات اهتمّت بمواضيع أخرى اجتماعية ومحلية إلا أن الوضع الأمني والعسكري والتهديدات الخارجية كانت حجر الأساس في مراسلات الباب العالي لحكام الإيالات المغربية.

9. حاول الباب العالي دائما أن يشرك العنصر المحلي (الإمارات والنزعات المحلية، أو البحارة والرياس المتطوعين) في الإيالات المغربية إلى جانب قواته الرسمية في المعارك التي جرت ضد القوى الأوروبية، ومن جهة أخرى فقد اهتم الباب العالي بمسألة التوافق بين العنصر المحلي والسلطة في إيالة الجزائر حيث اعتبرها مسألة مهمة جدا خاصة في ظل التهديدات الخارجية التي تتعرض لها الإيالة، إذ بعث الباب العالي في غير مرة بخطابات لأعيان ووجهاء ومشيوخ إيالة الجزائر يحثّهم فيها على ضرورة الانصياع لحاكم الجزائر ومساعدته في حفظ البلاد والعباد.

10. من المنصف أن نقول إن الدولة العثمانية وإيالاتها في شرق وغرب البحر المتوسط لم تسيطر سيطرة مطلقة على حوض البحر المتوسط، إذ إن القوى الأوروبية أيضا امتلكت الكثير من النفوذ وفازت في العديد من المعارك وسيطرت

على الكثير من المناطق الاستراتيجية في حوض البحر المتوسط، وبالتالي فإن الصراع كان إلى حد كبير متوازنا بين الشرق العثماني والغرب الأوروبي.

11. يمكن القول بنجاح سياسة الباب العالي في تطهير الإيالات المغربية من الوجود المسيحي الأوروبي وفي صد تهديداته المستمرة عليه إبان القرن السادس عشر، حيث كانت القوى الأوروبية وعلى رأسها مملكة إسبانيا مع مطلع القرن السادس عشر تسيطر على المنطقة الممتدة من المرسى الكبير بالجزائر غربا إلى طرابلس شرقا وهو ماتم استعادته من قبل الدولة العثمانية (باستثناء وهران والمرسى الكبير اللتان سيتأخر تحريرهما إلى أواخر القرن الثامن عشر).

12. أخذ الصراع بين الشرق العثماني والغرب الأوروبي طابعا دينيا بخلاف بعده الاستراتيجي والسياسي وهو ما اتضح من خلال الكثير من العبارات الواردة في مراسلات الباب العالي مثل: (الكفار، دمّره الله، في سبيل الدين والدولة، بعناية الله...)، أو من خلال ما رأينا في الطرف المقابل من تدخل قوات البابا في المعارك التي جرت ضد الدول العثمانية وفي دعوات البابوات المسيحيين لنصرة المسيحية ومحاربة الإسلام وكذا في تسمية التكتل العسكري الأوروبي سنة 1571م بـ"الحلف المقدس".

13. لعبت الاستخبارات دورا كبيرا في الصراع العثماني الأوروبي في حوض البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، حيث حرص كل طرف على تأسيس شبكة من الجواسيس لجلب الأخبار وتتبع تحركات العدو، وهو ما ورد في بعض المراسلات العثمانية وكذا -بالنسبة للطرف الآخر- في بعض التقارير المرسلة من وإلى السلطات الإسبانية خلال هذه الدراسة.

14. أخذ الصراع في حوض البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر شكل "التكتلات الدولية" بالمفهوم المعاصر، إذ من المخطئ أن نعتبر أن الصراع خلال هذه الفترة كان صراعا عثمانياً/إسبانياً؛ بل صراع كتلة شرقية إسلامية بزعامة الدولة العثمانية وكتلة غربية مسيحية بزعامة المملكة الإسبانية، إذ إن الكثير من الدول الأوروبية لم تكن في منأى عن هذا الصراع، وقد رأينا كيف كانت الإمارات الإيطالية والجزر اليونانية ومالطا والنمسا والمجر وحتى ألمانيا والبرتغال تحشد قواتها خلال أبرز المواجهات ضد الدولة العثمانية التي شكّلت بدورها تكتلا شرقيا كانت الإيالات المغربية وإيالة مصر أبرز أعضائه.

15. لطالما رفض الباب العالي بشدة ضم المغرب الأقصى عسكرياً رغم أن ذلك كان ممكناً خلال عدة مرات إبان النصف الثاني من القرن السادس عشر، حيث فضّلت الدولة العثمانية استعمال سياسة السلم واجتناب سبب الحرب في التعامل مع الدولة السعدية، أما بالنسبة لتدخلها في المغرب الأقصى فقد اكتفت الدولة العثمانية فقط بإيواء الأمراء أو الحكام المحليين (السعديين) ودعمهم من أجل الوصول إلى السلطة وبالتالي بسط بعض النفوذ العثماني في المغرب الأقصى عن طرق هؤلاء الحكام.

16. كانت الدولة السعدية في المغرب الأقصى متذبذبة في علاقاتها بالقوى الخارجية، ولهذا فقد بقيت تمثل تهديداً لإيالة الجزائر نظراً لعدم ثبات سياستها الخارجية، ورغم عقدها للكثير من معاهدات الصلح بينها وبين إيالة الجزائر إلا أن استمرارها في التقرب من القوى الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) المعادية لإيالة الجزائر

جعل الأخيرة تقييم علاقاتها معها وفق مبدأ السلام الحذر إلى غاية نهاية القرن السادس عشر .

17. في ذات الصدد، لجأ الحكام السعديون في العديد من أطوار الصراع مع إيالة الجزائر خلال القرن السادس عشر للاستقواء بالقوى الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) من خلال عقد تحالفات معهم أو الاستتجاد بهم من أجل التدخل العسكري المباشر، سواء في الجزائر أو في المغرب الأقصى.

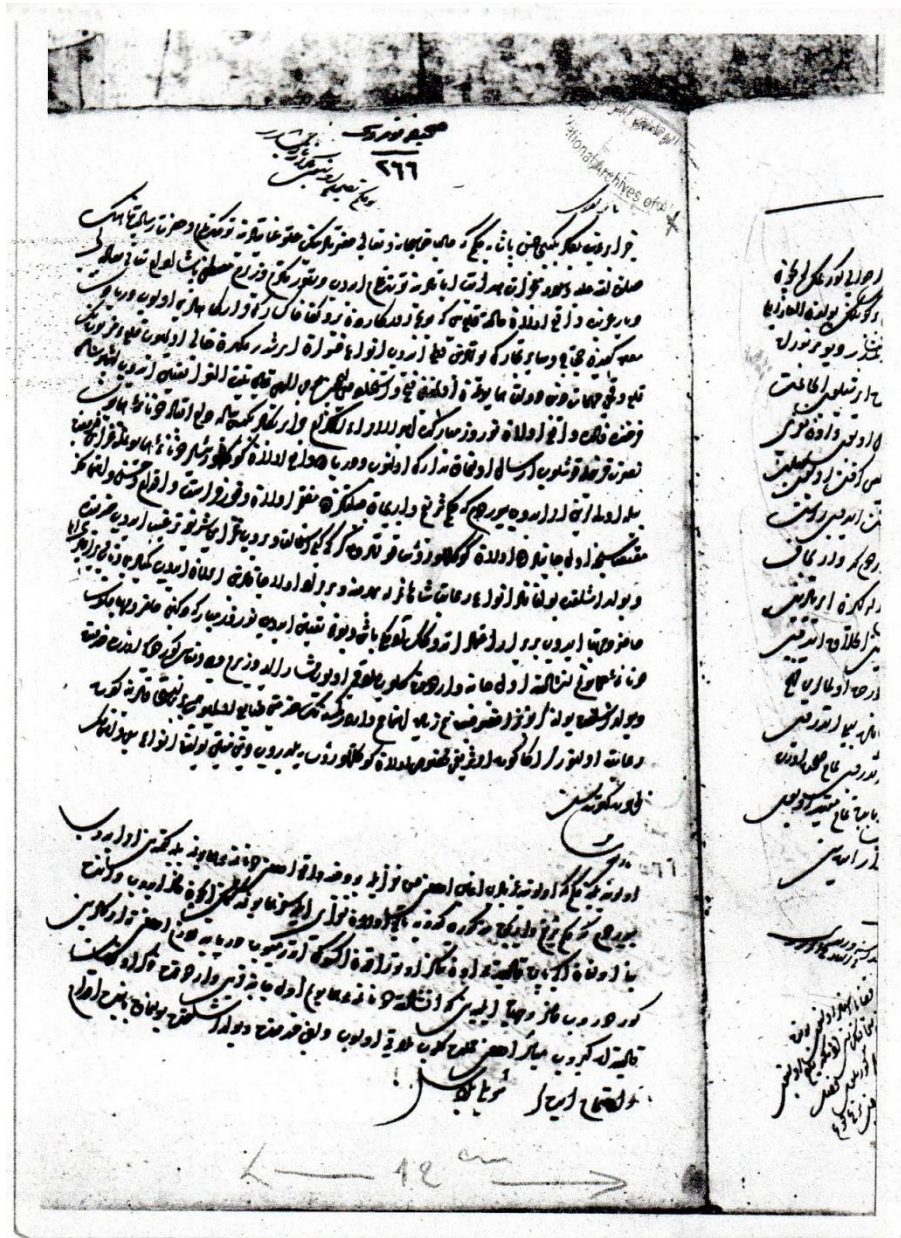
18. يكمن القول أن التهديد السعدي على إيالة الجزائر قد اقلّ نسبياً منذ مقتل السلطان محمد الشيخ السعدي وانتهى بشكل نهائي فترة حكم السلطان أحمد المنصور الذي أنهى السياسة التوسعية السعدية نحو إيالة الجزائر، هذه الأخيرة التي نجحت دائماً في التصدي لها.

19. ساهمت السفارات والبعثات الدبلوماسية في تخفيف الصراع بين إيالة الجزائر والدولة السعدية، إذ حرص الباب العالي على اتباع سياسة دبلوماسية أمام الخصم الحاصل مع المغرب الأقصى منذ عهد محمد الشيخ السعدي، أما في عهد أحمد المنصور فقد وصلت هذه السياسة إلى ذروتها واتبعها الطرفان على حد سواء مما ساهم بشدة في تخفيف حدة الصراع بين إيالة الجزائر والمغرب السعدي في الربع الأخير من القرن السادس عشر.

الملاحق

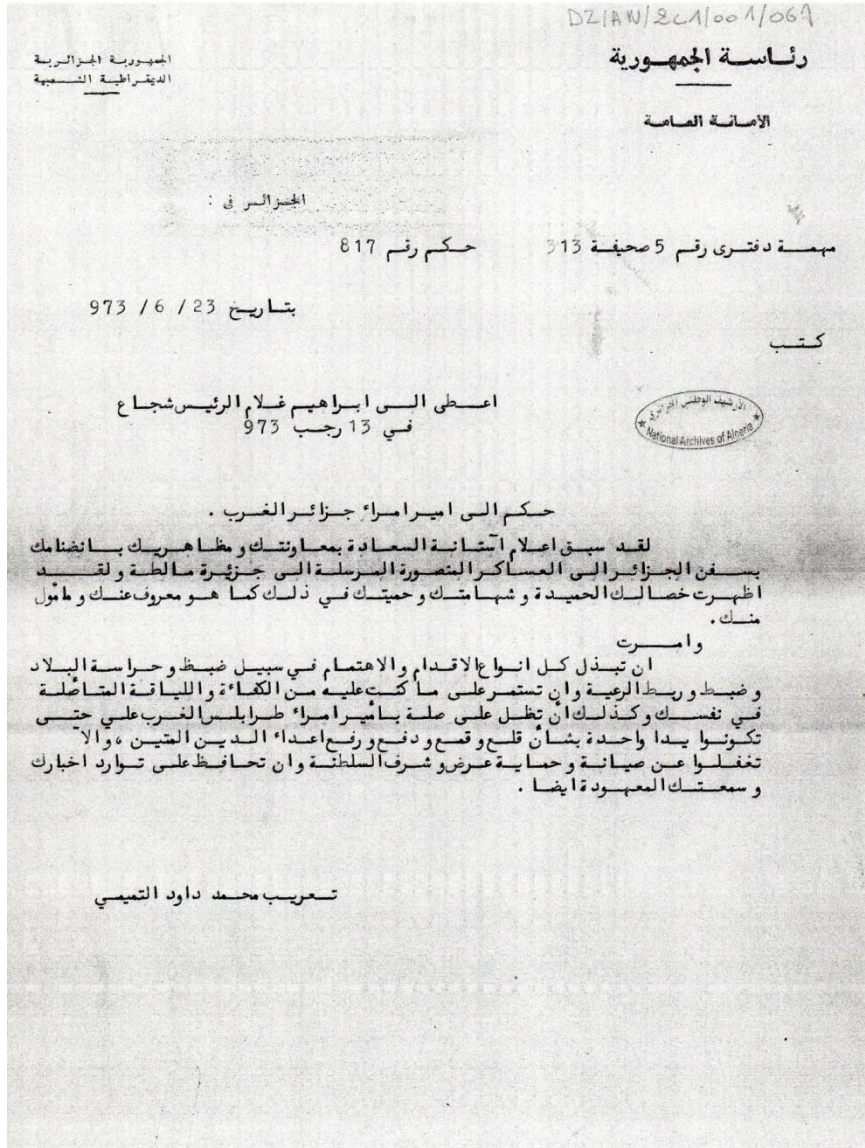
أولاً: الملاحق الخاصة بوثائق الأرشيف الوطني الجزائري:

ملحق رقم 1: رسالة من الباب العالي إلى حاكم الجزائر حسن بن خير الدين حول استعدادات فرسان مالطا للقيام بحملة عسكرية على طرابلس الغرب، بتاريخ 15 شوال 966هـ/21 جويلية 1559م¹: (النسخة المترجمة للعربية غير موجودة بالأرشيف الوطني الجزائري)



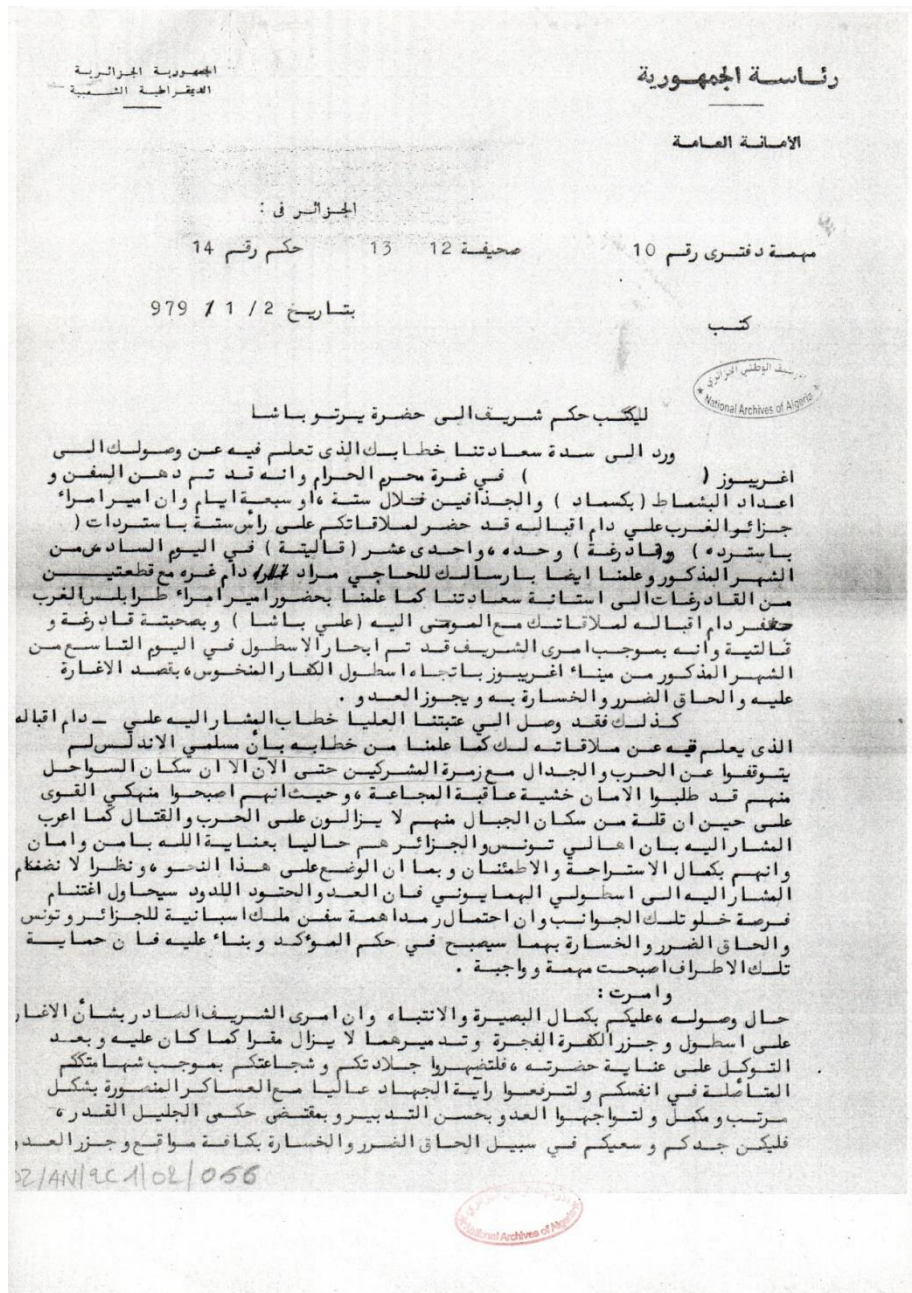
¹ أ.و.ج، مهمة دفترتي 3، حكم 139، 15 شوال 966هـ. وبخصوص هذه الوثيقة فقد اعتمدنا على النص المترجم للعربية من عند: بيات، البلاد العربية، المرجع السابق، ج2، ص324، 325

ملاحق رقم 2: رسالة من الباب العالي إلى حسن باشا بن خير الدين تثنى عليه وعلى قواته إثر مشاركته في حصار مالطا سنة 1565م، بتاريخ 23 جمادى الثاني 973هـ/فيفري 1566م¹

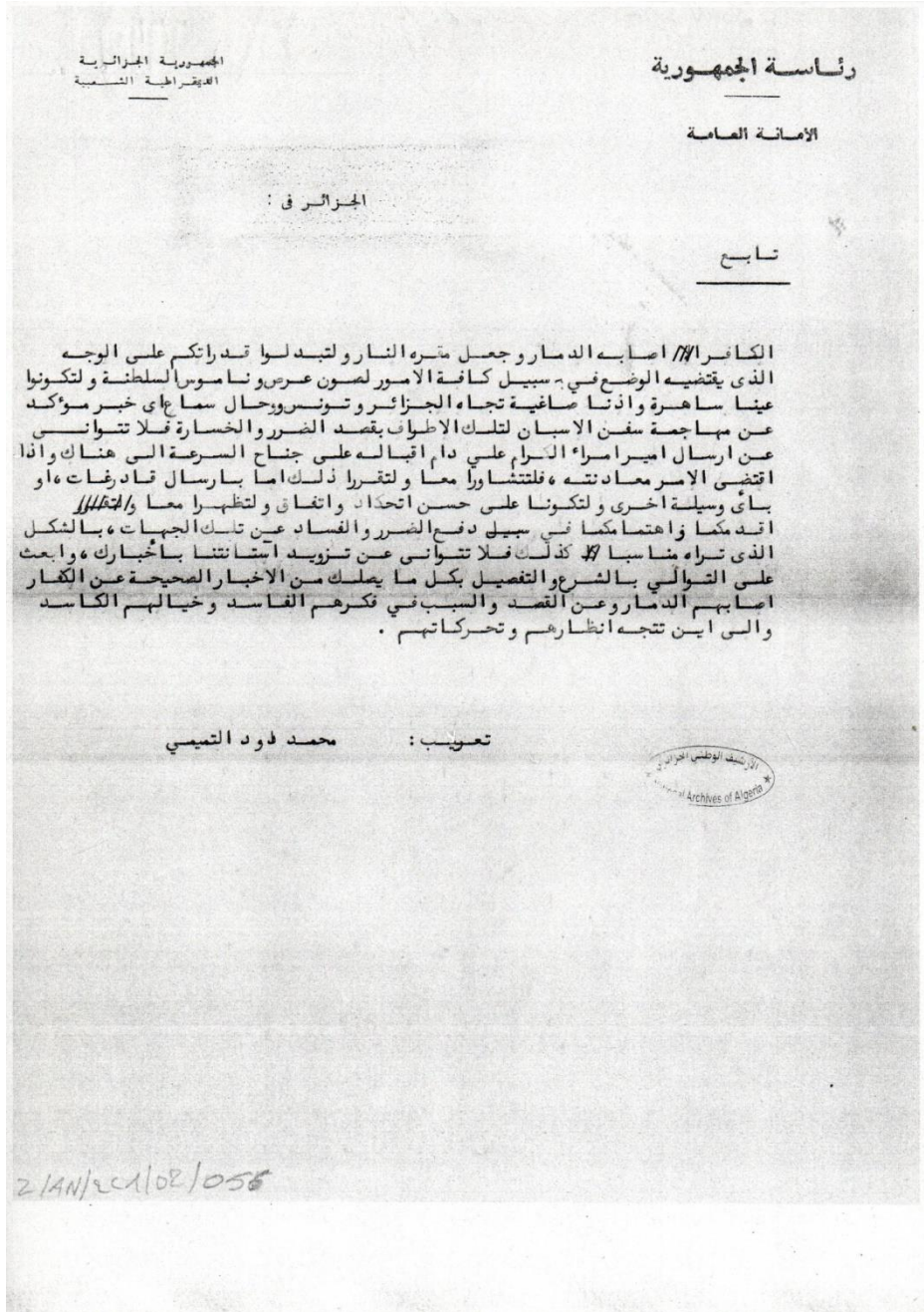


¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 5، حكم 817، 23 جمادى الثاني 973هـ

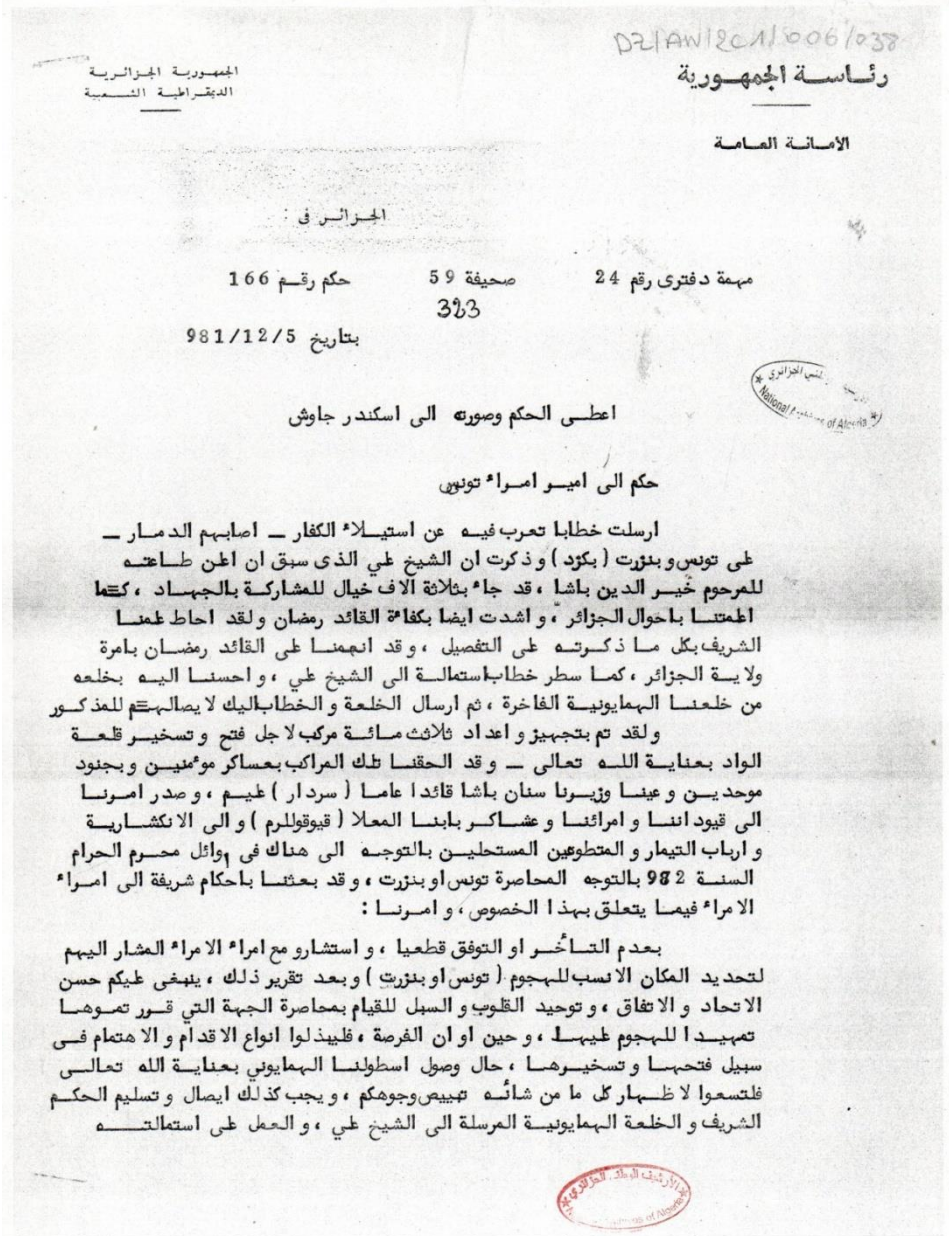
ملحق رقم 3: رسالة تتضمن ردّاً من الباب العالي على كل من قائد الأسطول العثماني القبودان برتو باشا وحاكم الجزائر عرج علي بخصوص استعدادات الأسطول العثماني والتحاق قوات إيالة الجزائر للمشاركة في معركة ليباننتو، بتاريخ 2 محرم 979هـ¹



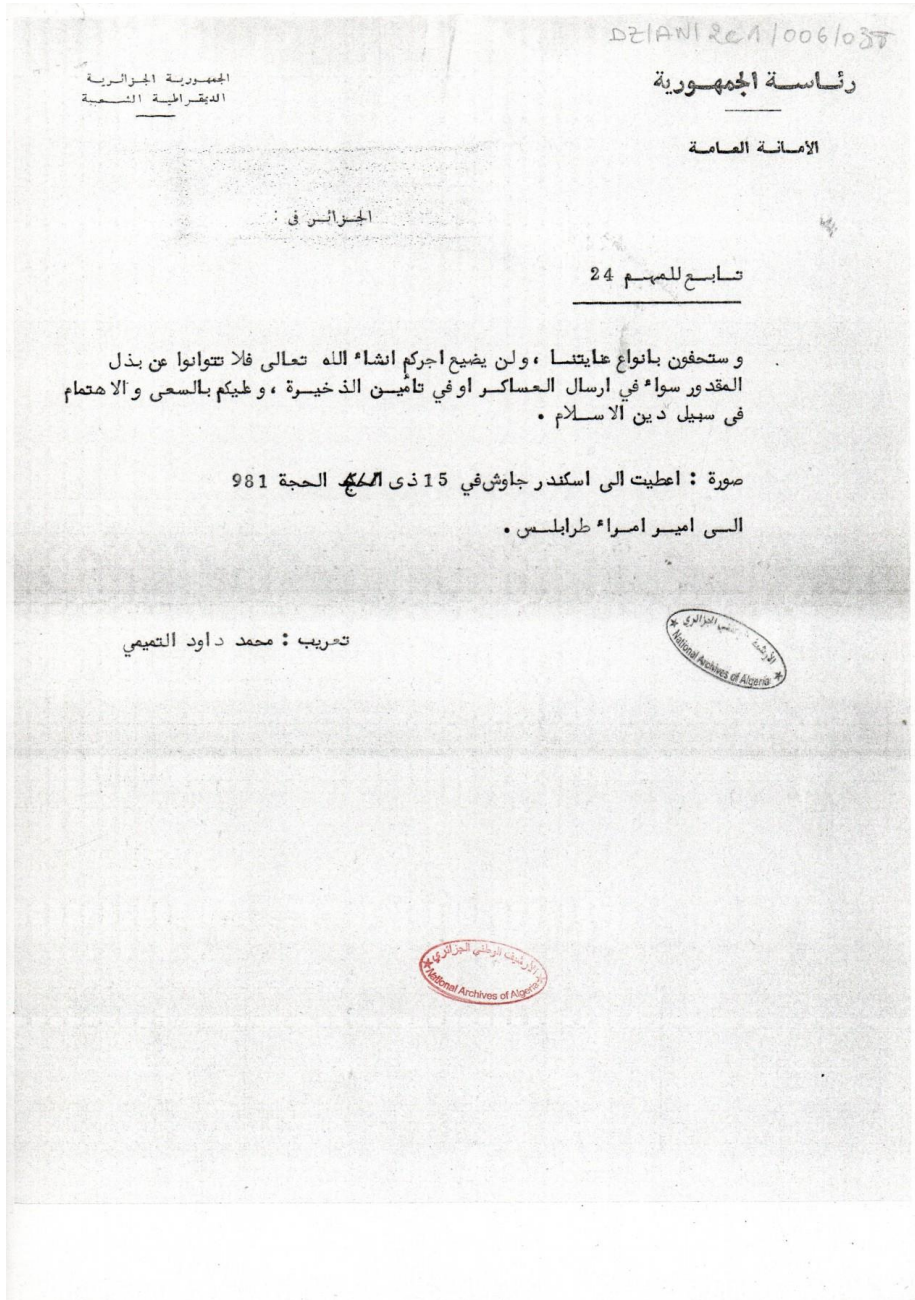
¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 10، حكم 14، 2 محرم 979هـ



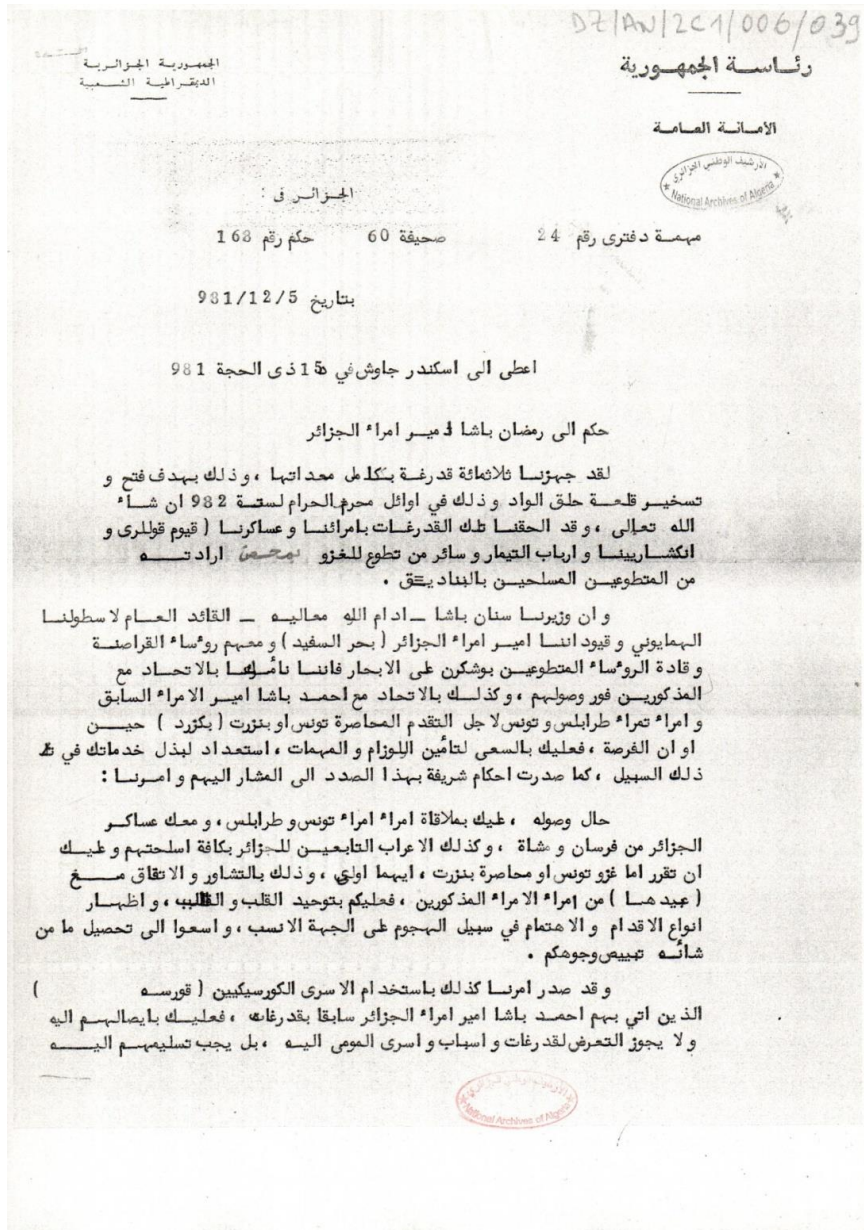
ملحق رقم 4: رسالة من الباب العالي إلى حيدر باشا حاكم تونس بخصوص استيلاء الإسبان على تونس وبنزرت، كما يعلم فيها الباب العالي حاكم تونس بتجهيز الدولة العثمانية حملة عسكرية لاستعادتها من الإسبان (تحرير تونس وحلق الوادي)، بتاريخ كذو الحجة 981هـ¹



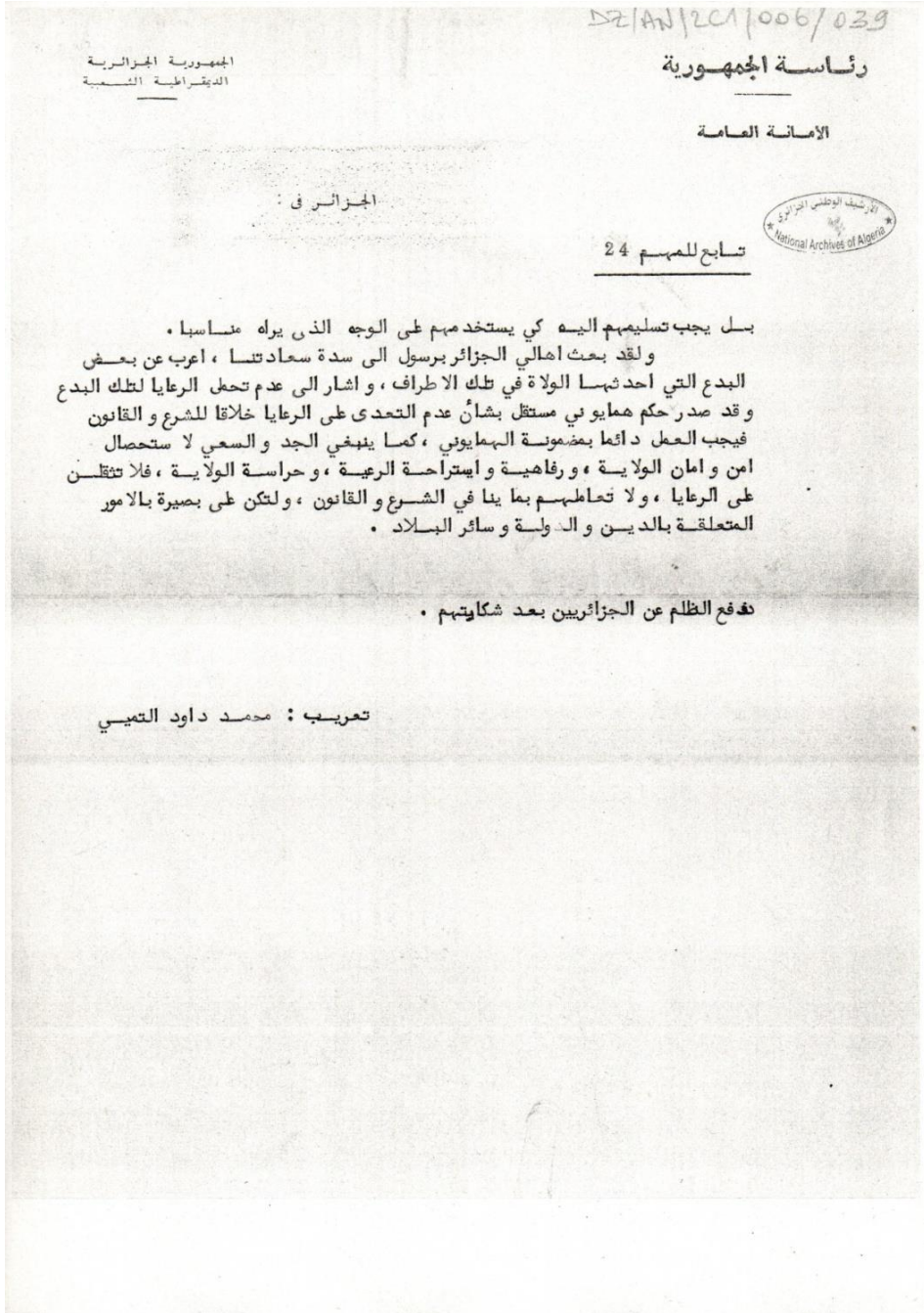
¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 24، حكم 166، كذو الحجة 981هـ



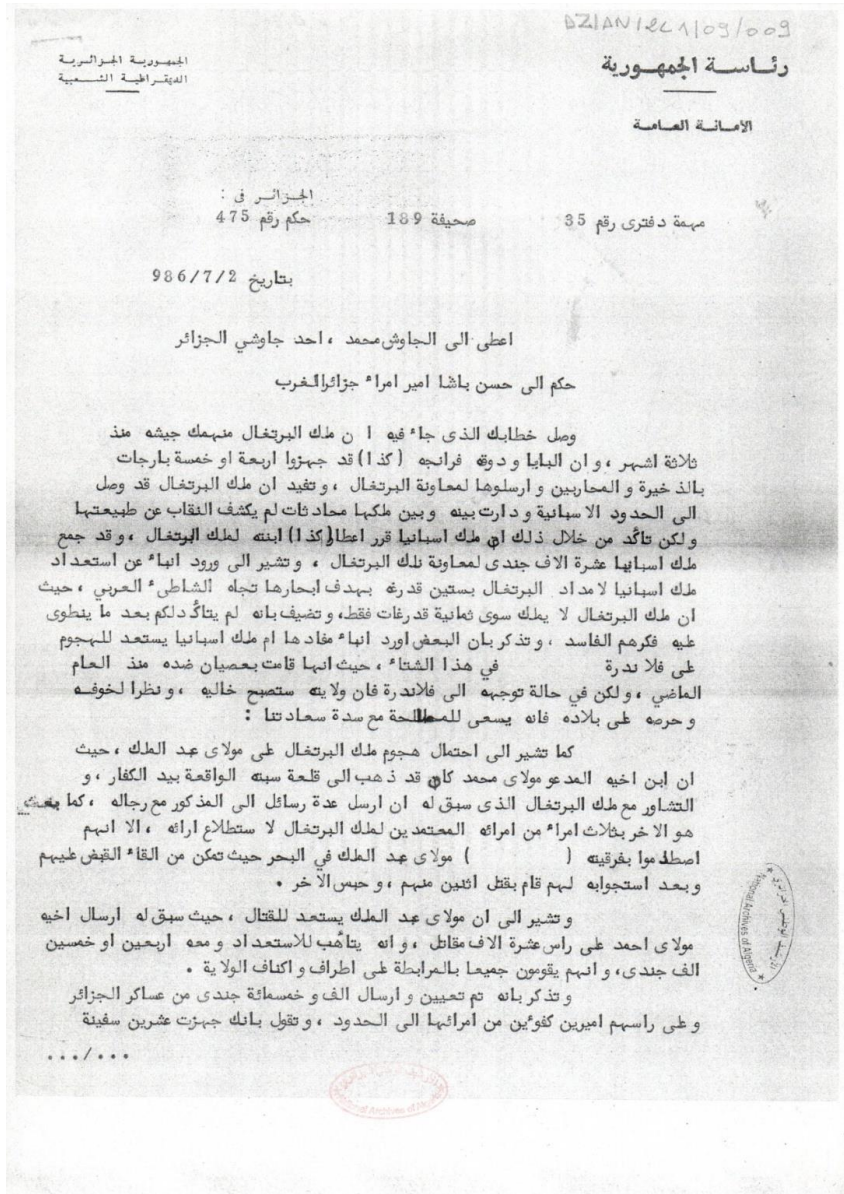
ملحق رقم 5: رسالة من الباب العالي إلى رمضان باشا حاكم الجزائر يعلمه فيها بتجهيز الدولة العثمانية حملة عسكرية لتحرير تونس بقيادة سنان باشا، ويأمر فيها الباب العالي حاكم الجزائر بتجهيز قوات الإيالة للمشاركة في هذه الحملة، كما يدته على ضرورة التنسيق مع حاكمي تونس وطرابلس الغرب، بتاريخ 5 ذو الحجة 981هـ¹



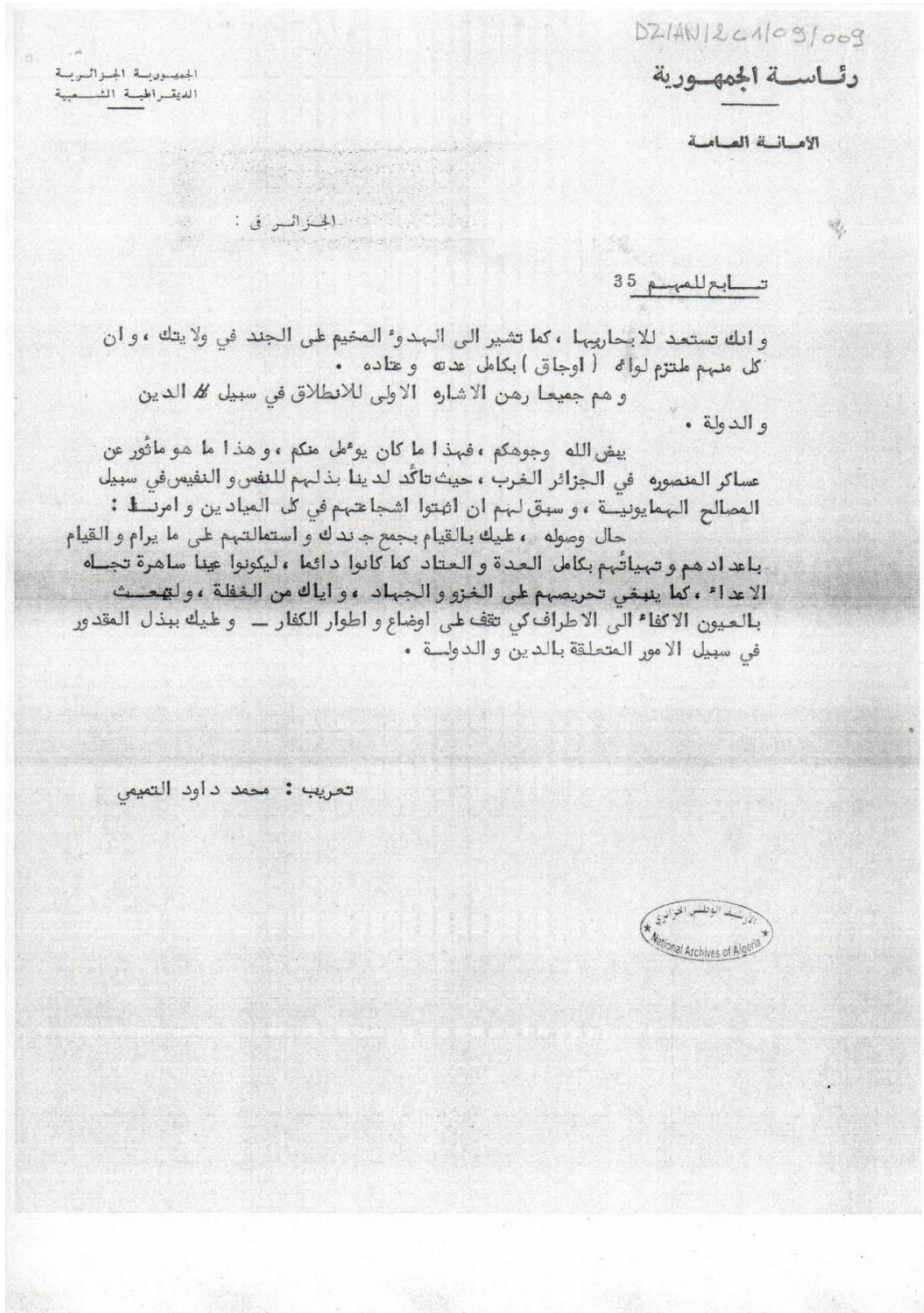
¹ مهمة دفترى 24، حكم 168، 5 ذو الحجة 981هـ



ملحق رقم 6: رسالة من الباب العالي الى حسن باشا فنزيانو حاكم الجزائر بضرورة الاستعداد لحملة ملك البرتغال على المغرب الأقصى والتأهب لأي طارئ عسكري قد يضر بإيالة الجزائر جراء هذه الحملة، بتاريخ 2 رجب 986ه¹.

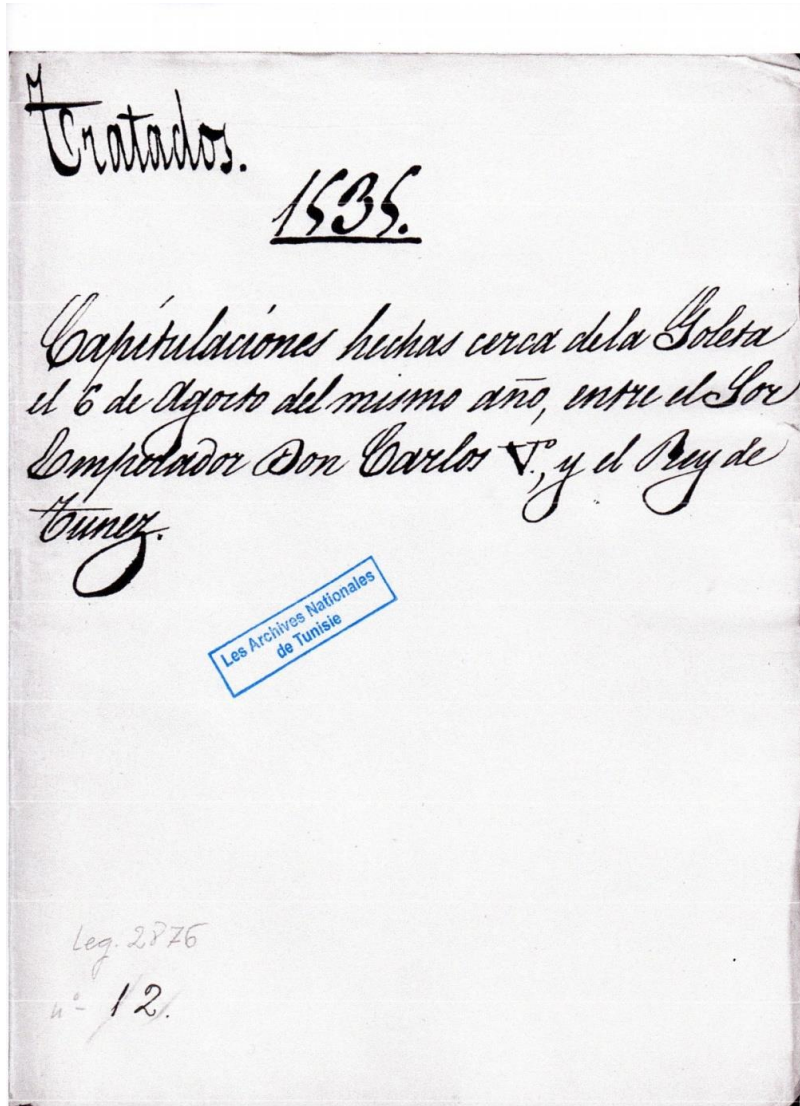


¹ أ.و.ج، مهمة دفترى 35، حكم 475، 2 رجب 986ه



ثانيا: الملاحق الخاصة بوثائق الأرشيف الوطني التونسي:


ملحق رقم 8: معاهدة التنازل والخضوع المبرمة بحلق الوادي بين السلطان الحسن الحفصي وملك إسبانيا شارلكان في 6 أوت 1535م¹:



¹أ.و.ت، المعاهدة الإسبانية التونسية لسنة 1535، المجموعة رقم 2876، ملف رقم 12

1535
6.1.17

Copia de la Capitulacion hecha entre el ^{mo} Senor Emperador Carlos quinto y el Rey de Tunca cerca de la Goleta a 6 de Agosto de 1535 numero 114. de la 2.^a lista remissida por el ^{mo} Senor D.^{no} Sebastian de la Quadra:

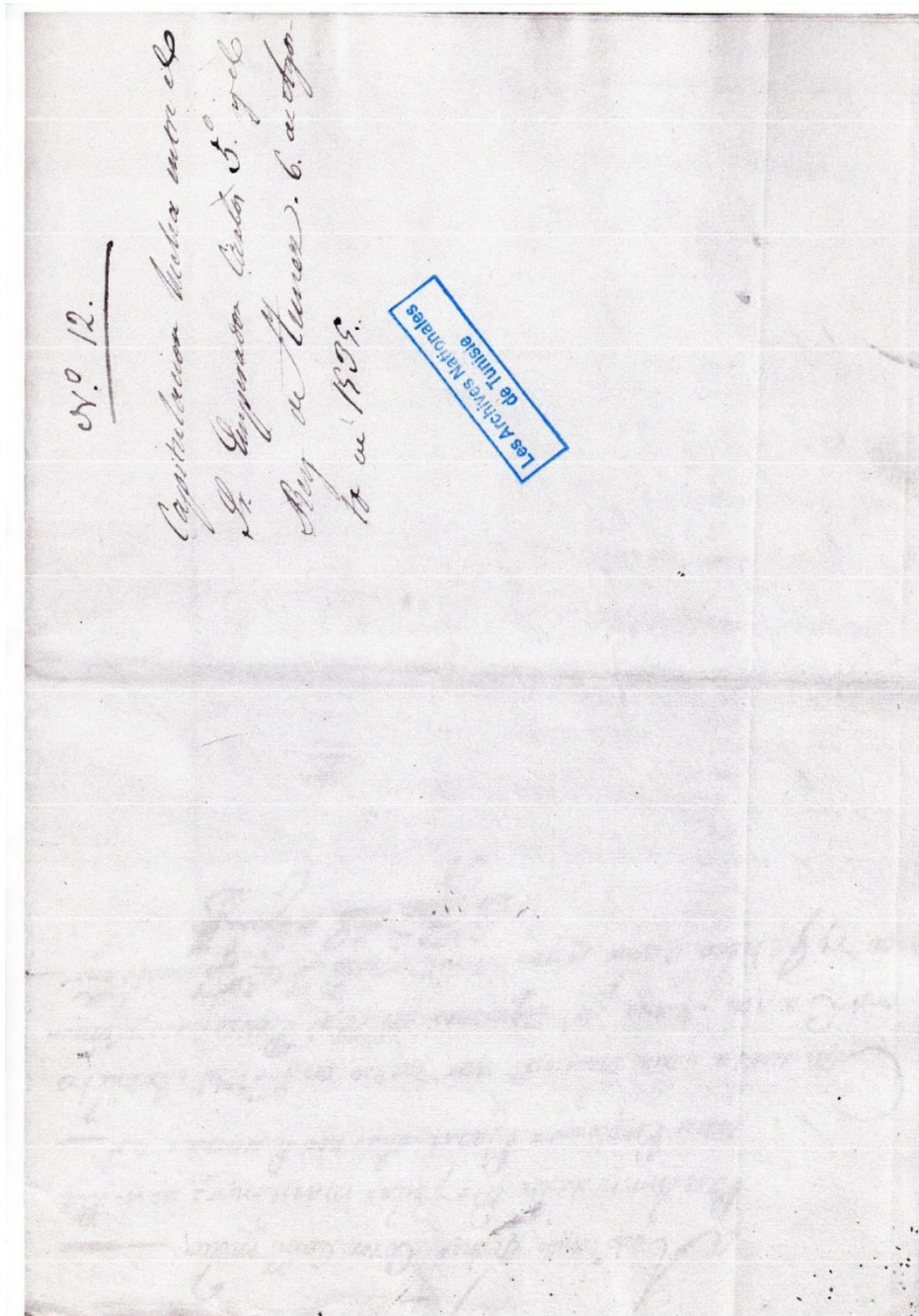


Y como los que a presentie fueren sean notorio como copia de la data desta entre el muy alto muy exzellente y muy poderoso Principe Don Carlos por la divina Clemencia Emperador de los Romanos siempre augusto Rey de Alemania de las Españas de las dhas Indias de Mar y de Tierra Rey de Tunca &c. se han hecho y asentado los Capitulo siguientes:

Primera mente que el dho Rey de Tunca reconociendo como ha sido echado de su Reyno por Capitan bano llamado Barbarossa natural de Turquia el qual ha sido ocupado y a ena usurpado el dho Reyno tiranicamente y con inuitos medios y con vna cruel dades fuerza y violencia en los Paullas del dicho Reyno que el dho Rey de Tunca estava echado y expellido del dho

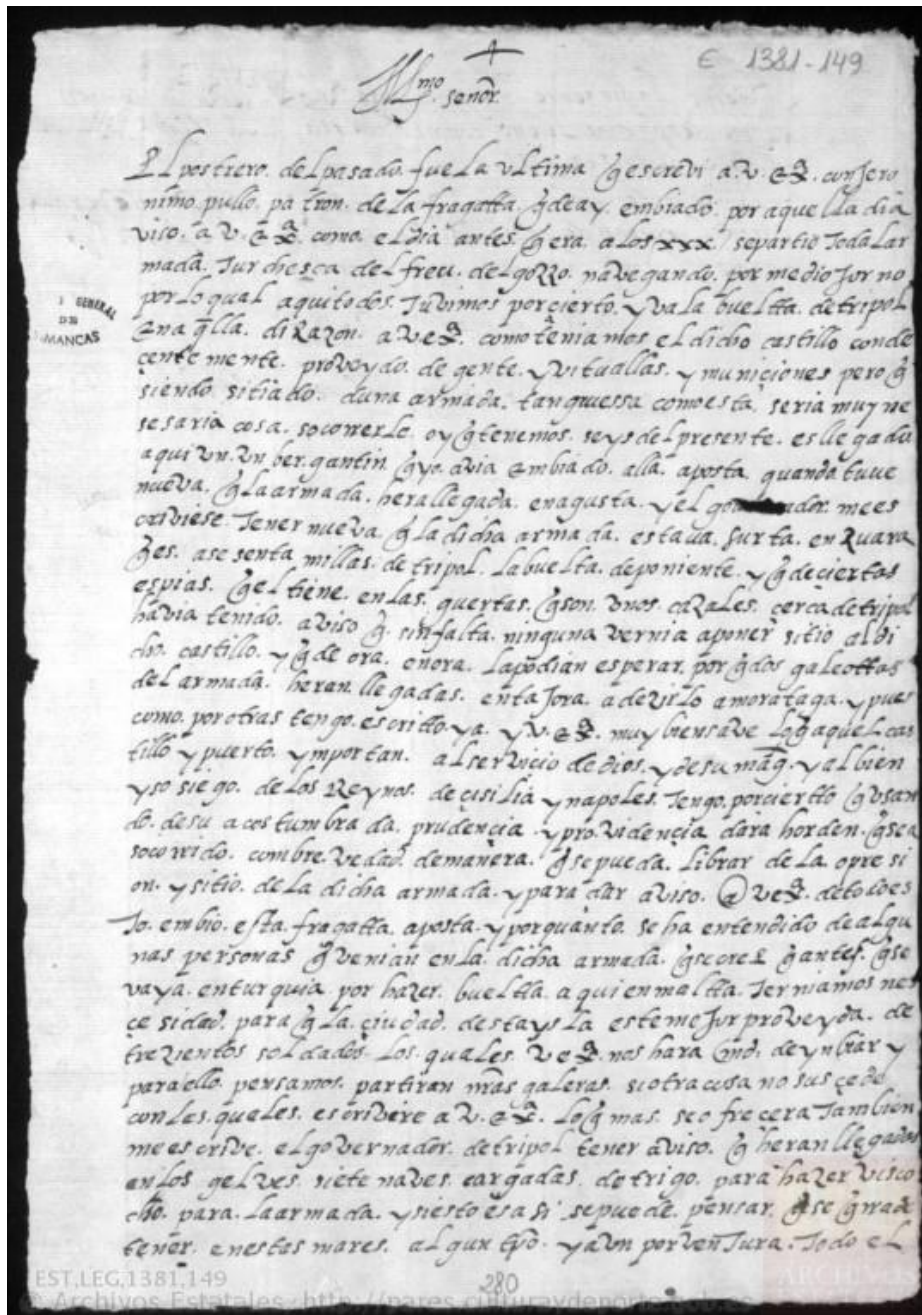
Leg. 2876
ne 12

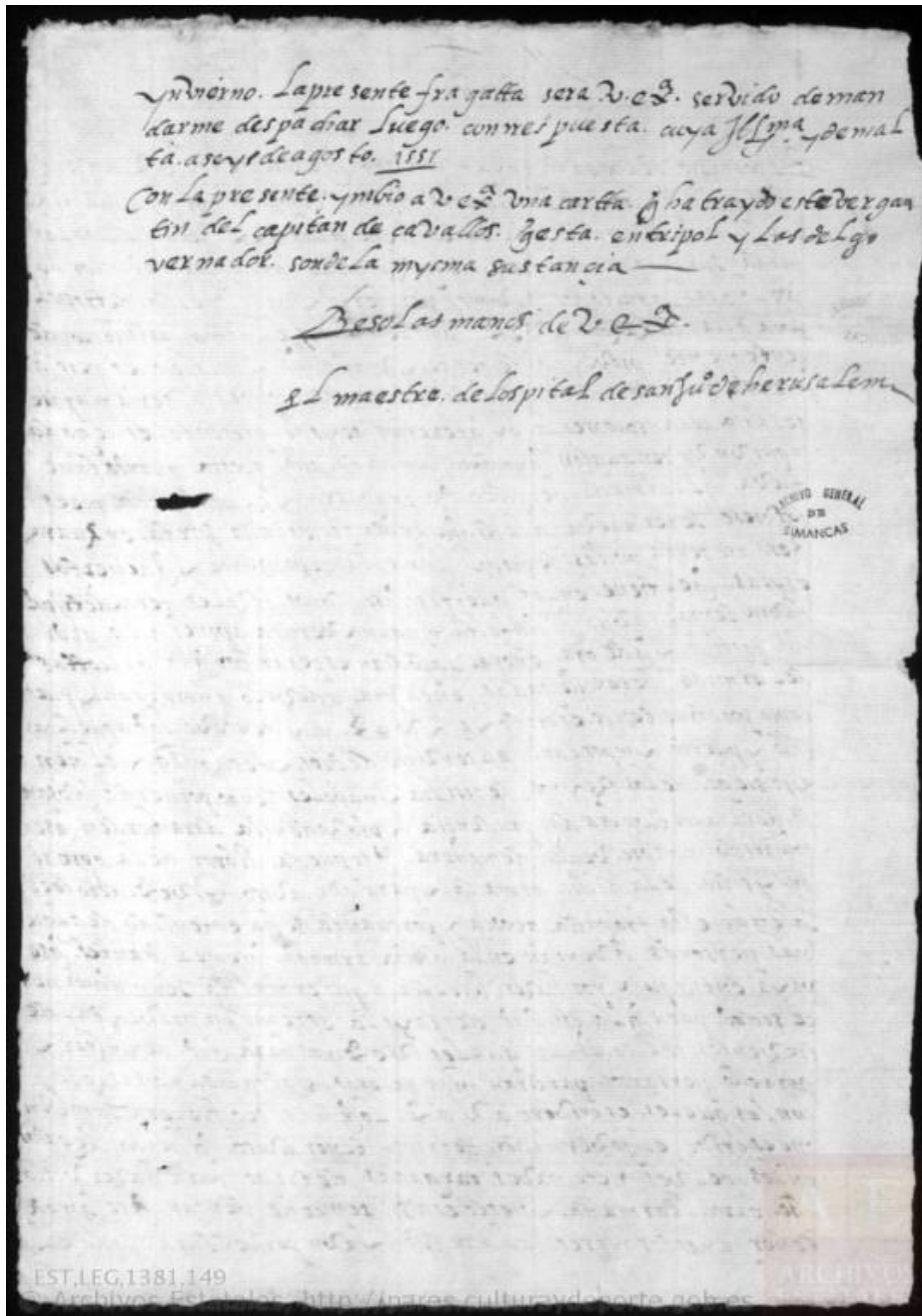
Les Archives Nationales de Tunisie



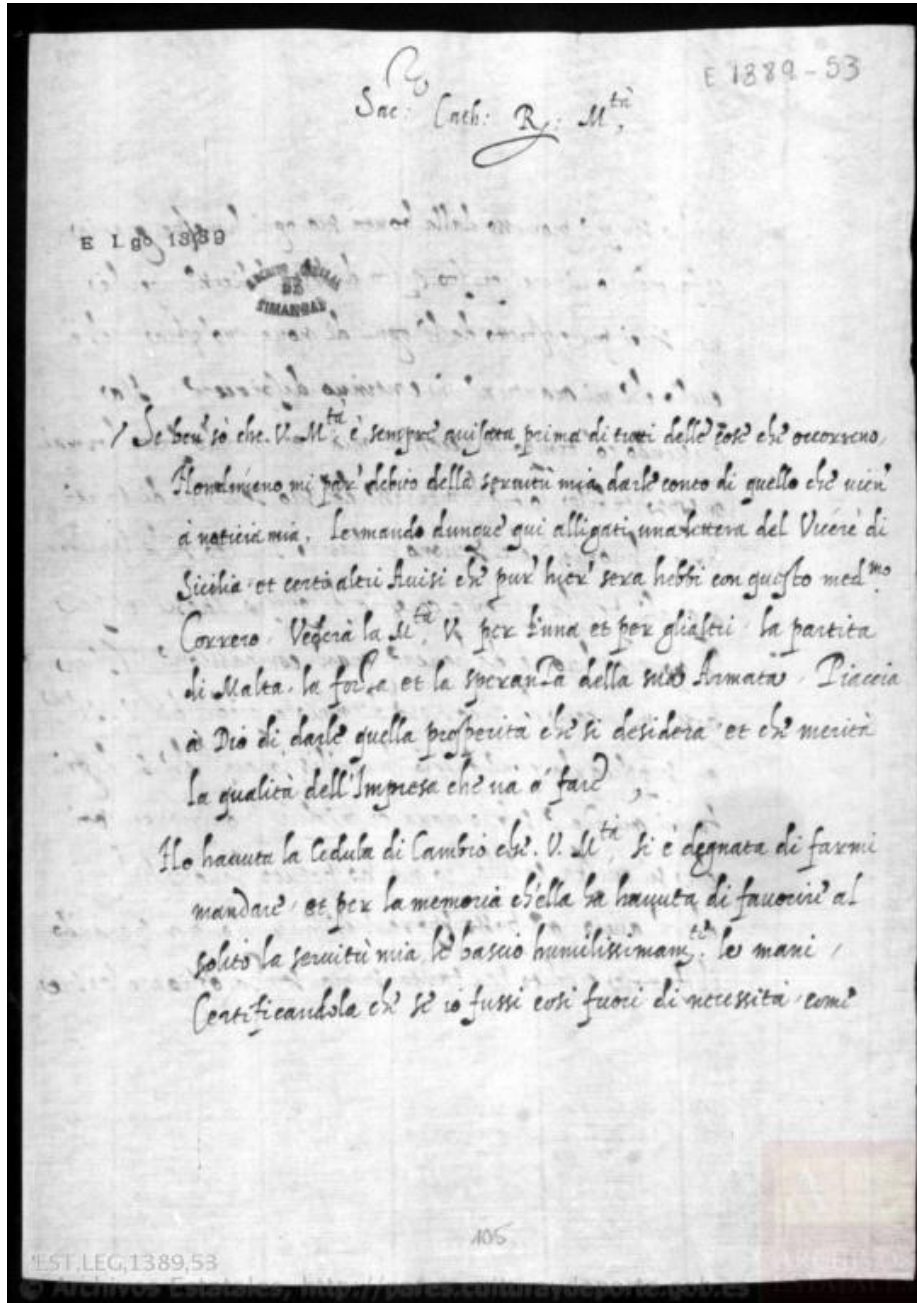
ثالثاً: الملاحق الخاصة بوثائق دور الأرشيف الإسبانية:

ملحق رقم 9: رسالة من قائد فرسان القديس يوحنا إلى السلطات الإسبانية بخصوص

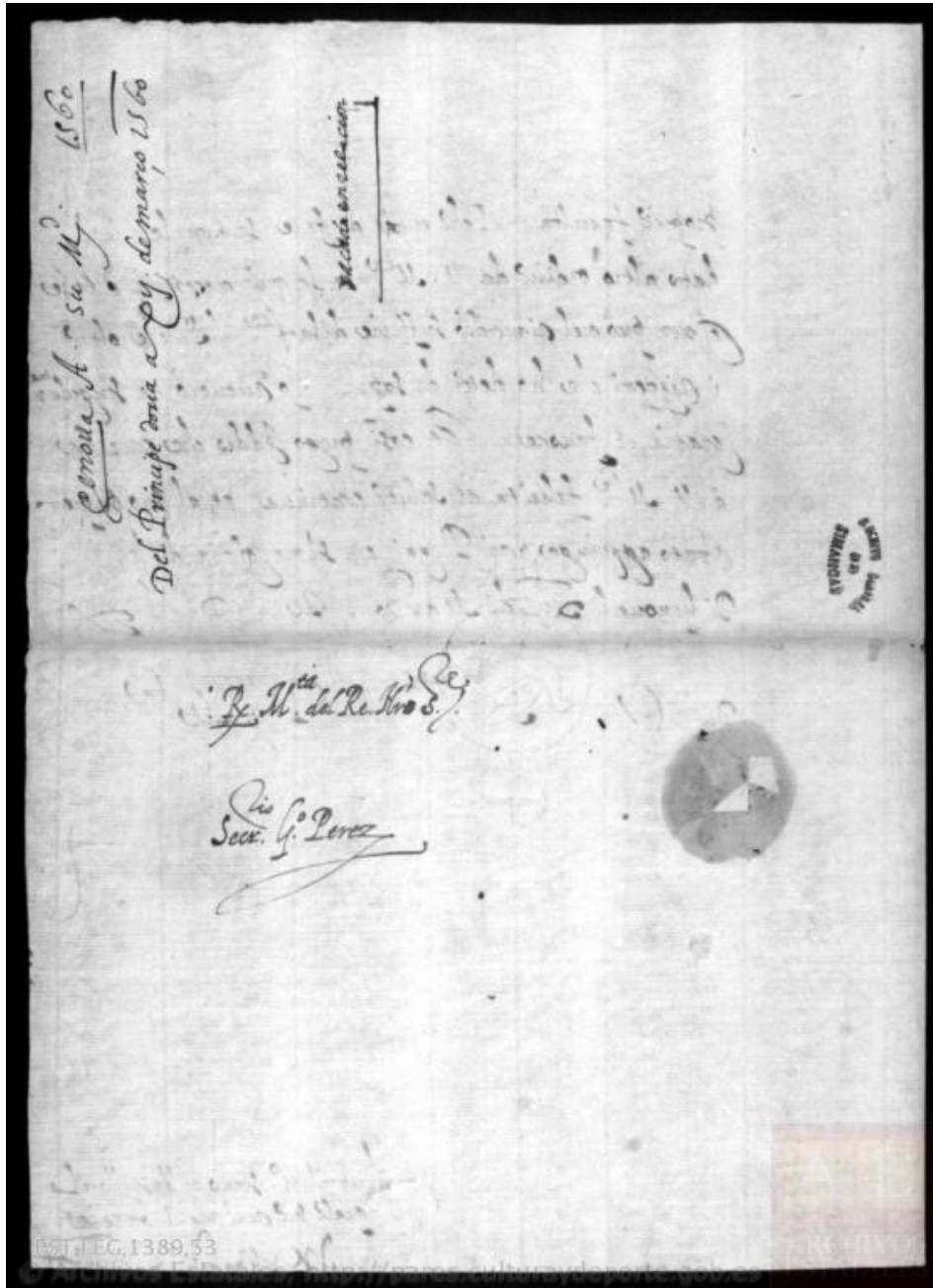
الحملة العثمانية المتجهة لتحرير مدينة طرابلس، بتاريخ 31 جويلية 1551¹¹ A.G.S, EST, LEG, 1381,149



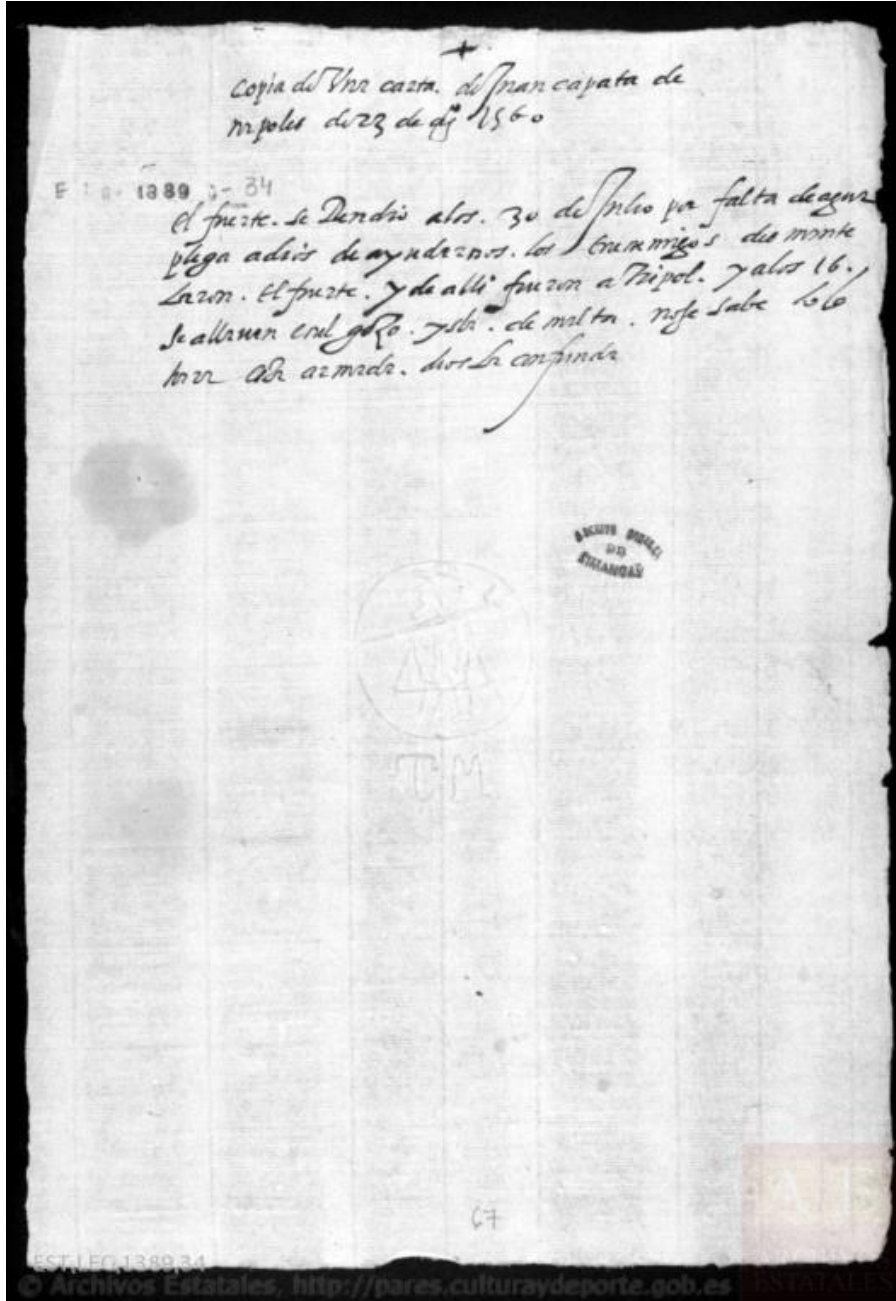
ملاحق رقم 10: رسالة من أندري دوريا إلى الملك فيليب الثاني بعد النجاح في الاستيلاء على جزيرة جربة خلال الحملة على طرابلس الغرب، بتاريخ 12 مارس 1560م¹.



¹ A.G.S, EST, LEG, 1389,53

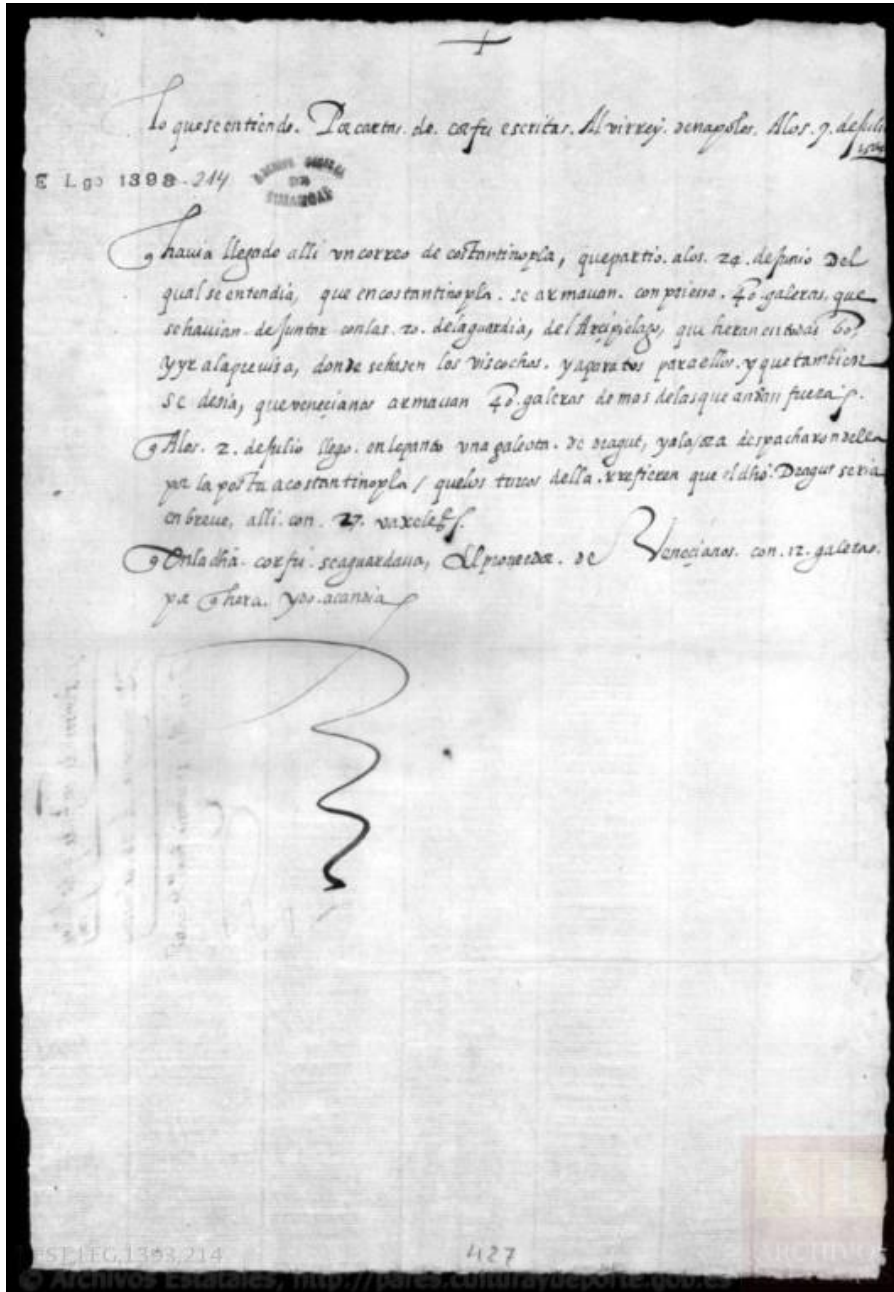


ملحق رقم 11: رسالة من خوان زاباتا رئيس بريد نابولي تتضمن تقريرا حول استسلام الإسبان في حص جربة وكيف تمت السيطرة عليه من قبل العثمانيين، بتاريخ 23 أوت 1560¹. (وثيقة بصفحة واحدة مكتوبة فقط)

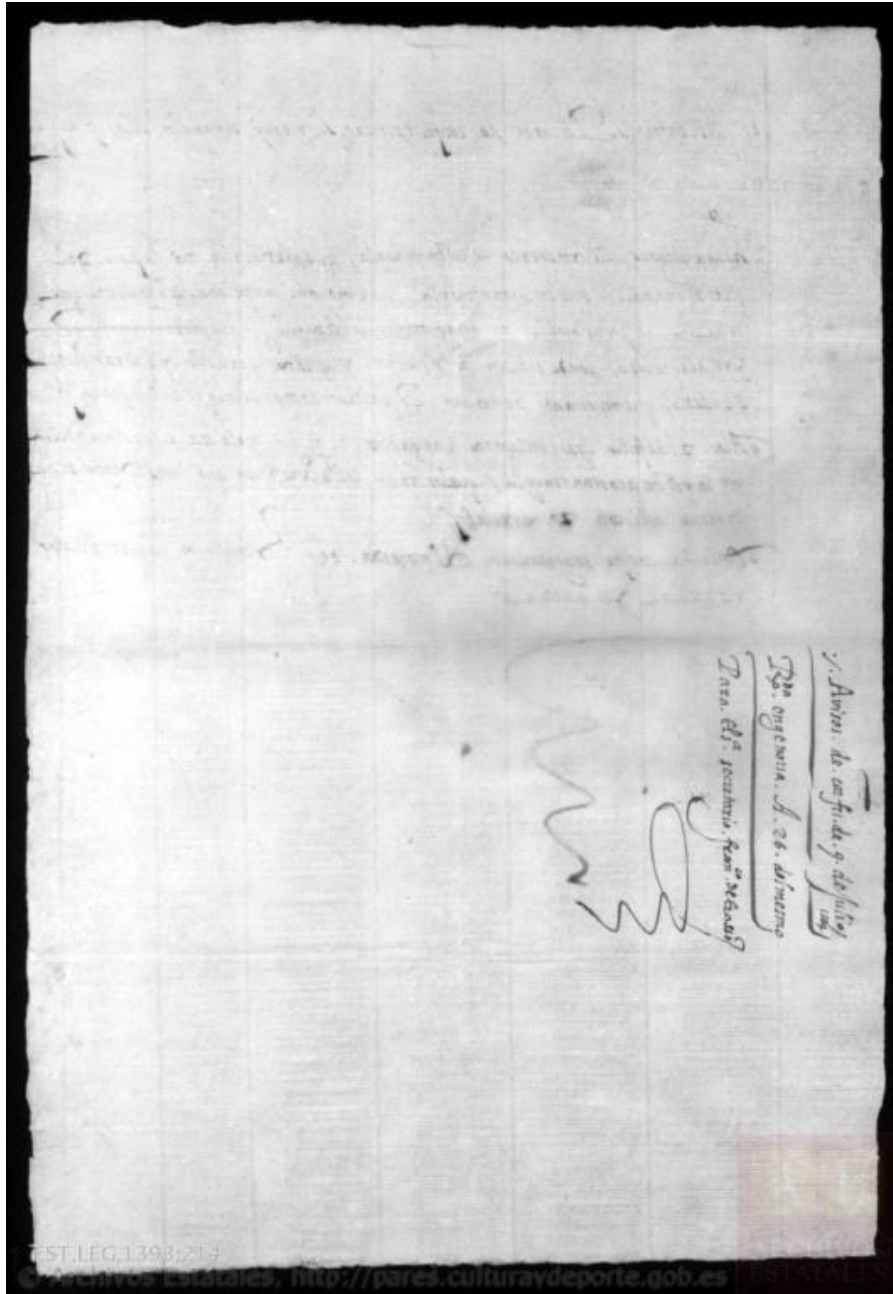


¹ A.G.S, EST, LEG, 1389,34

ملحق رقم 12: تقرير من كورفو (باليونان) يحتوي على ملاحظات من نائب الملك في نابولي حول الاستعدادات البحرية التي تقوم بها الدولة العثمانية استعدادا للقيام بعمليات ناحية الغرب (الفترة التي سبقت حصار مالطا)، بتاريخ 9 جويلية 1564م¹:

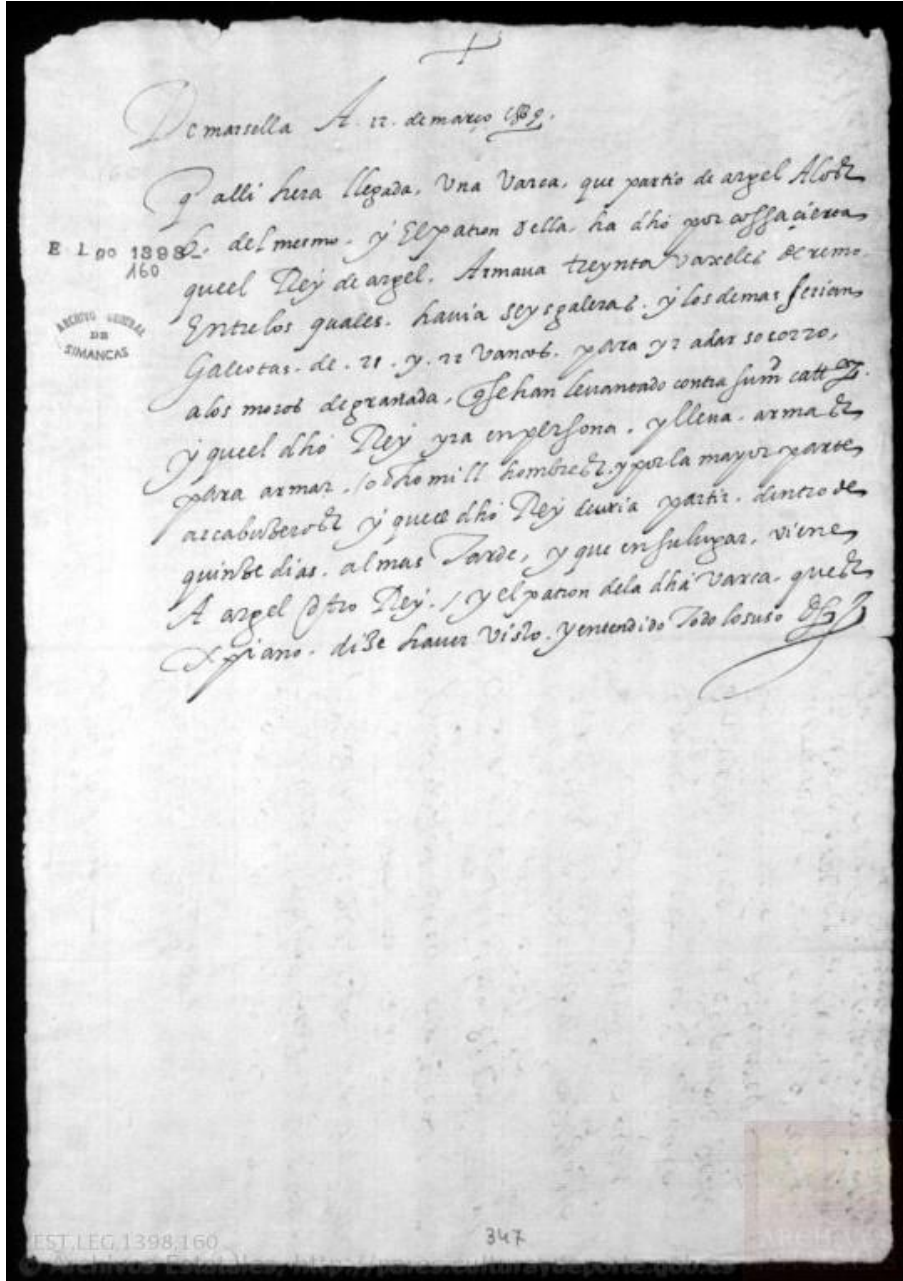


¹ A.G.S, EST, LEG, 1389,214



ملاحق رقم 13: تقرير استخباراتي مُرسل من مدينة الجزائر إلى السلطات الإسبانية حول الدعم العسكري المزمع تقديمه لثورة الموريسكيين من طرف إيالة الجزائر،

بتاريخ 12 مارس 1569م¹:



¹ A.G.S, EST, LEG, 1398, 160

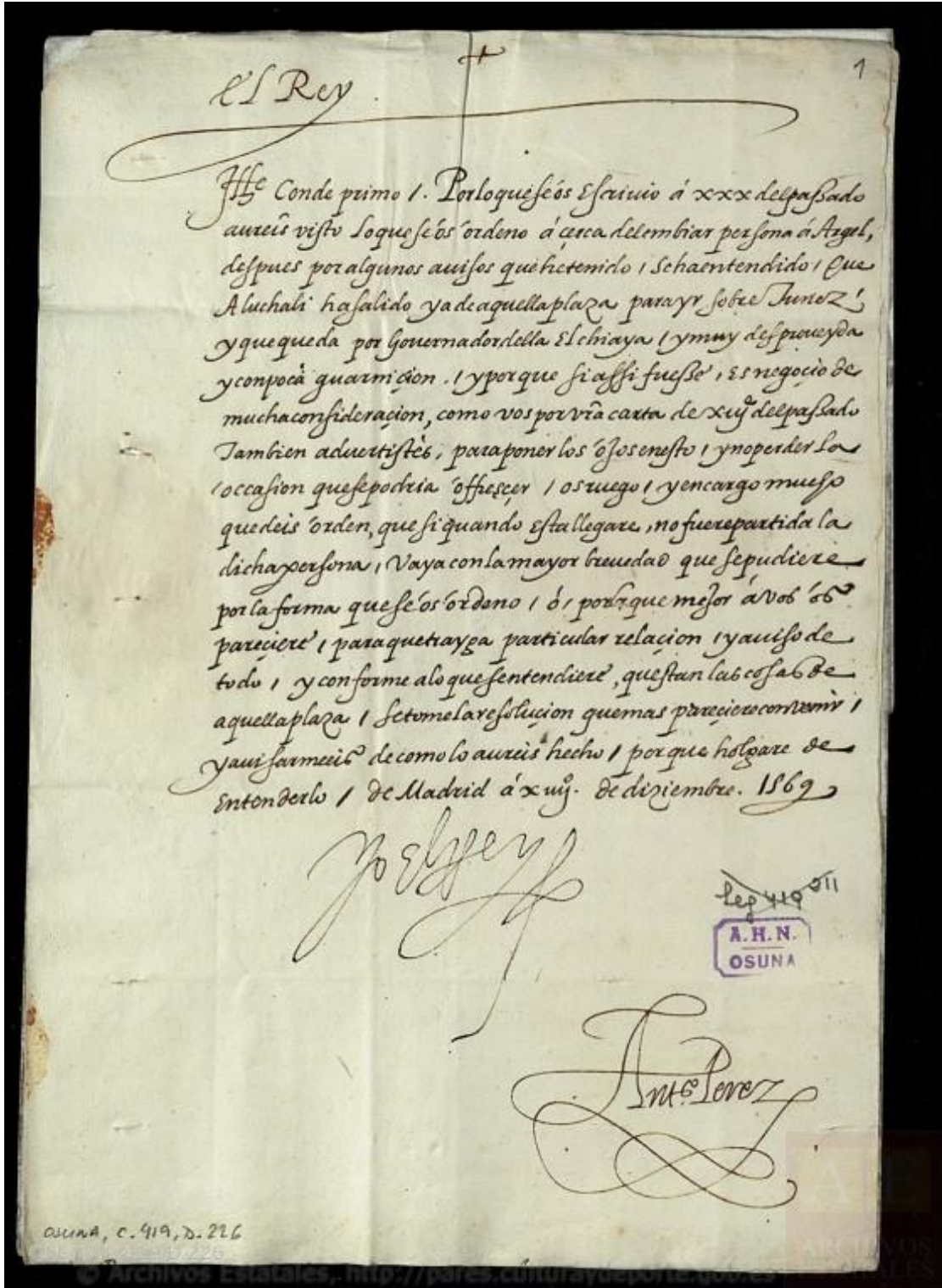
Handwritten text in Arabic script, likely a list of sources or references. The text is written in a cursive style and is partially obscured by a vertical line. The visible text includes:

Handwritten text in Arabic script, likely a list of sources or references. The text is written in a cursive style and is partially obscured by a vertical line. The visible text includes:

Handwritten text in Arabic script, likely a list of sources or references. The text is written in a cursive style and is partially obscured by a vertical line. The visible text includes:

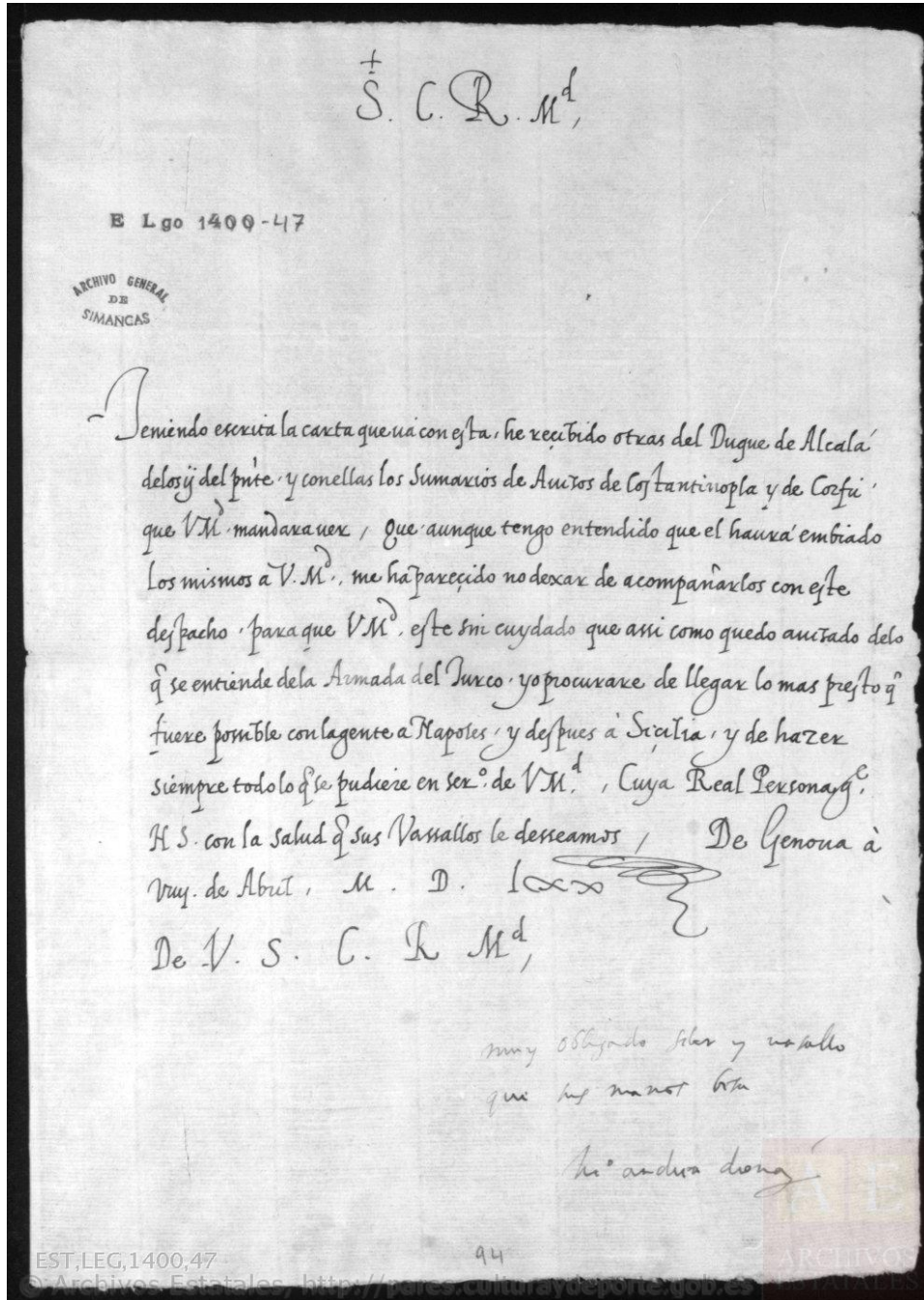
ملاحق رقم 14: رسالة تتضمن أمراً من السلطات الإسبانية بإرسال جاسوس إلى

مدينة الجزائر، بتاريخ 14 ديسمبر 1569م¹:

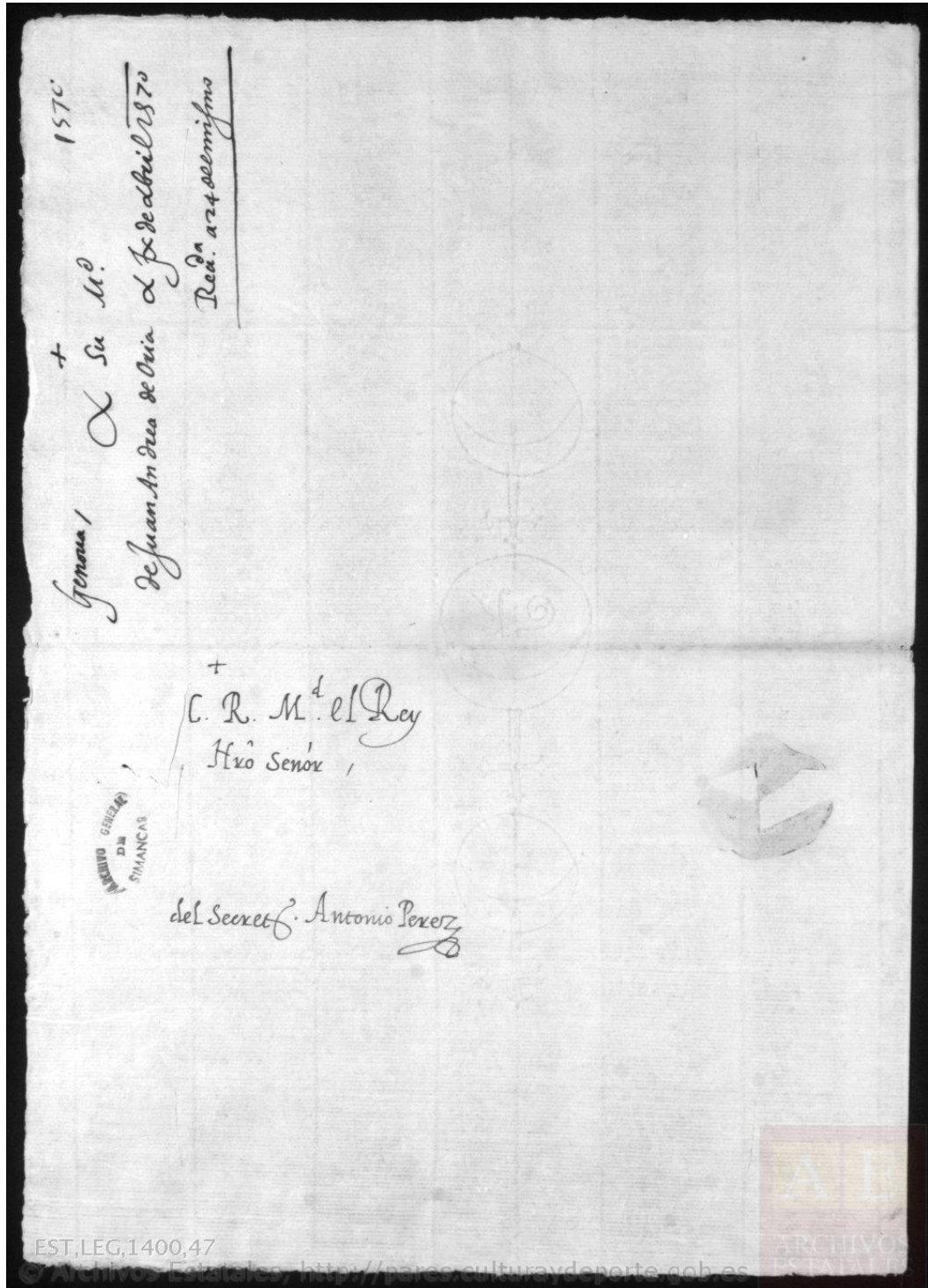


¹ OSUNA, C. 419, D. 226

ملحق رقم 15: رسالة من أندري دوريو إلى الملك فيليب الثاني حول الاستعداد للقيام بحملة ضد كل من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس (بعد سيطرة العثمانيين على تونس في جانفي 1570م)، بتاريخ 9 أفريل 1570م¹

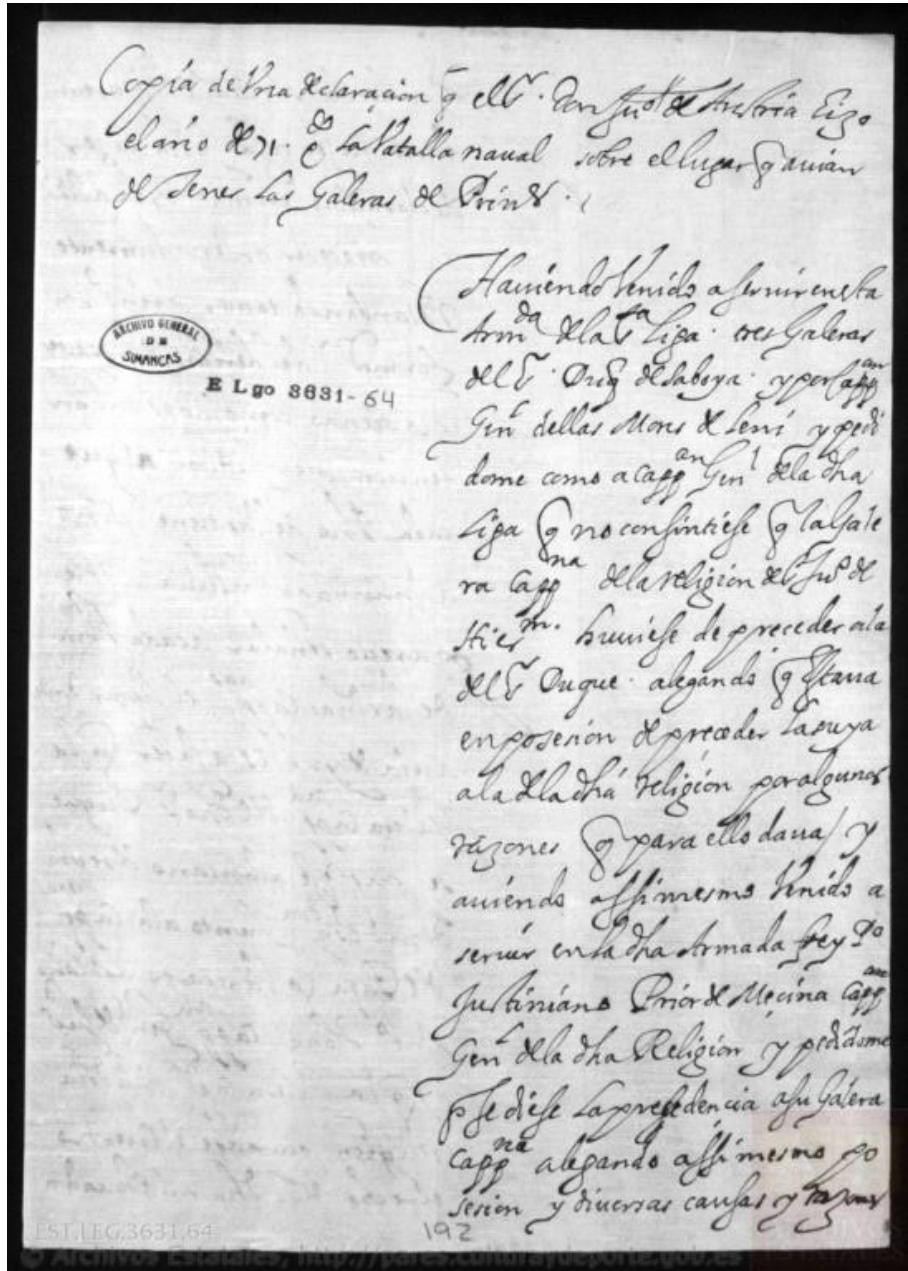


¹ A.G.S, EST, LEG, 1400,47

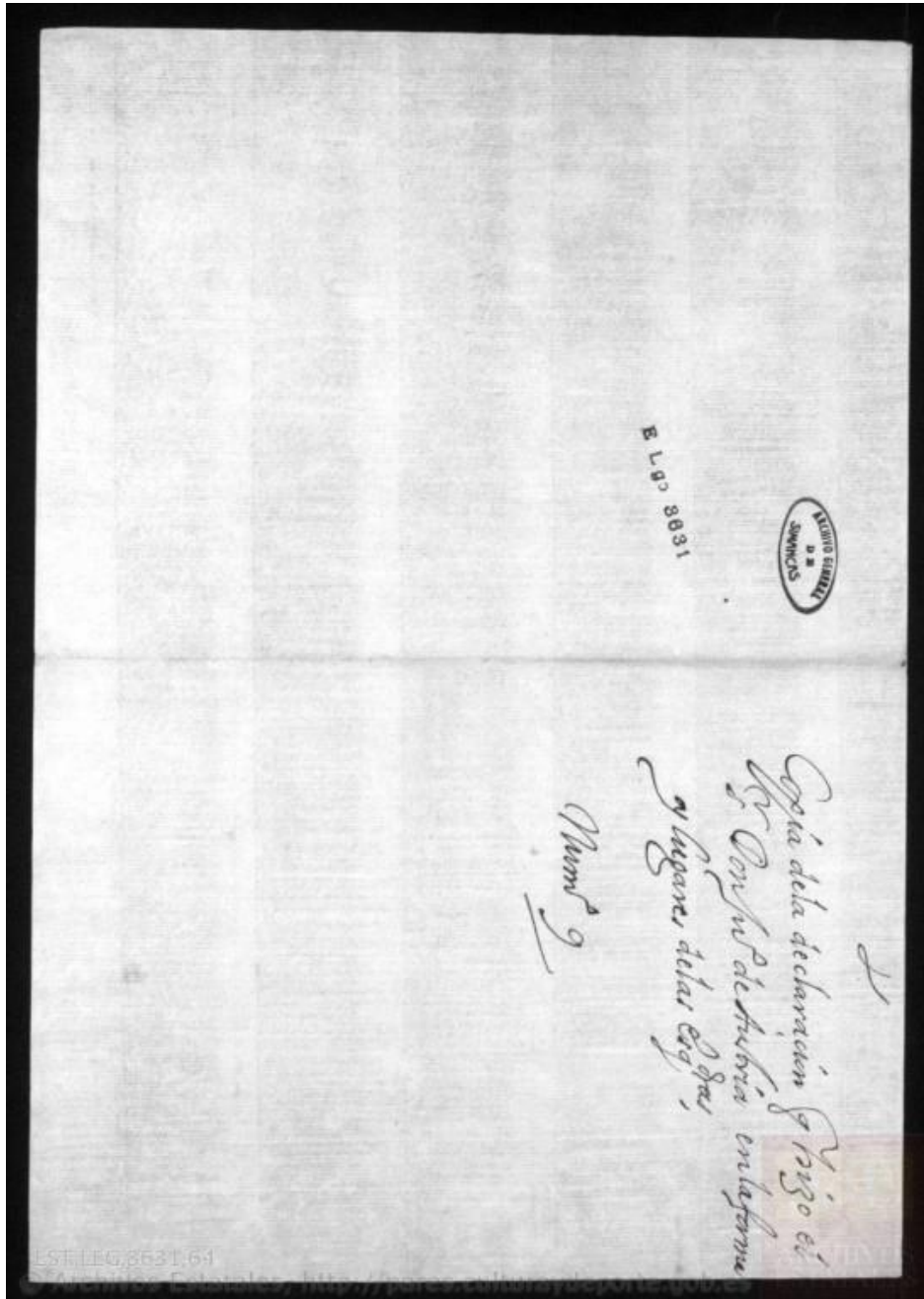


ملحق رقم 16: تقرير من دون خوان النمساوي موجّه إلى السلطات الإسبانية يتضمن معلومات حول أماكن تواجد سفن الحلف المقدس وقياداتها قبيل معركة ليدانتو،

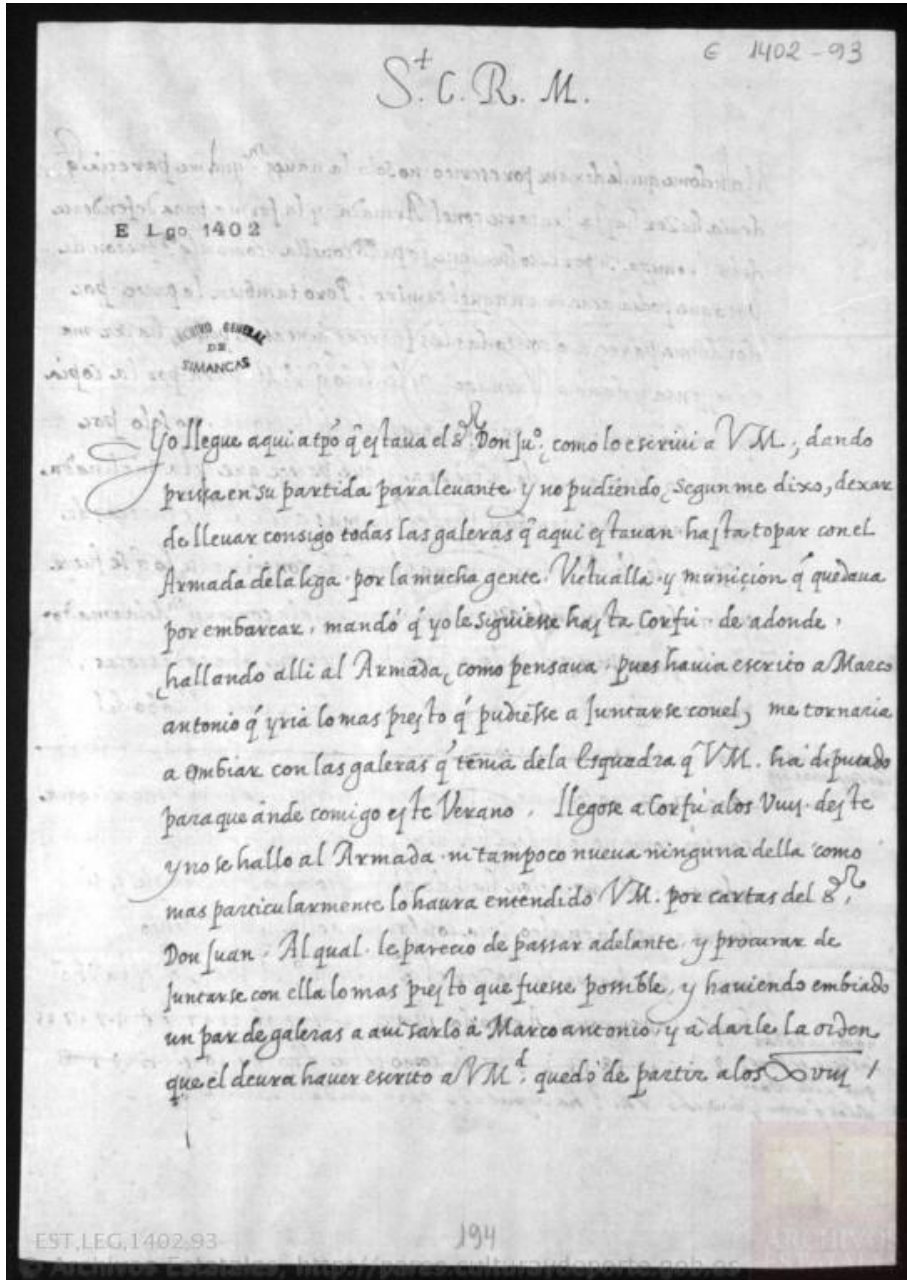
بتاريخ 17 سبتمبر 1571م¹



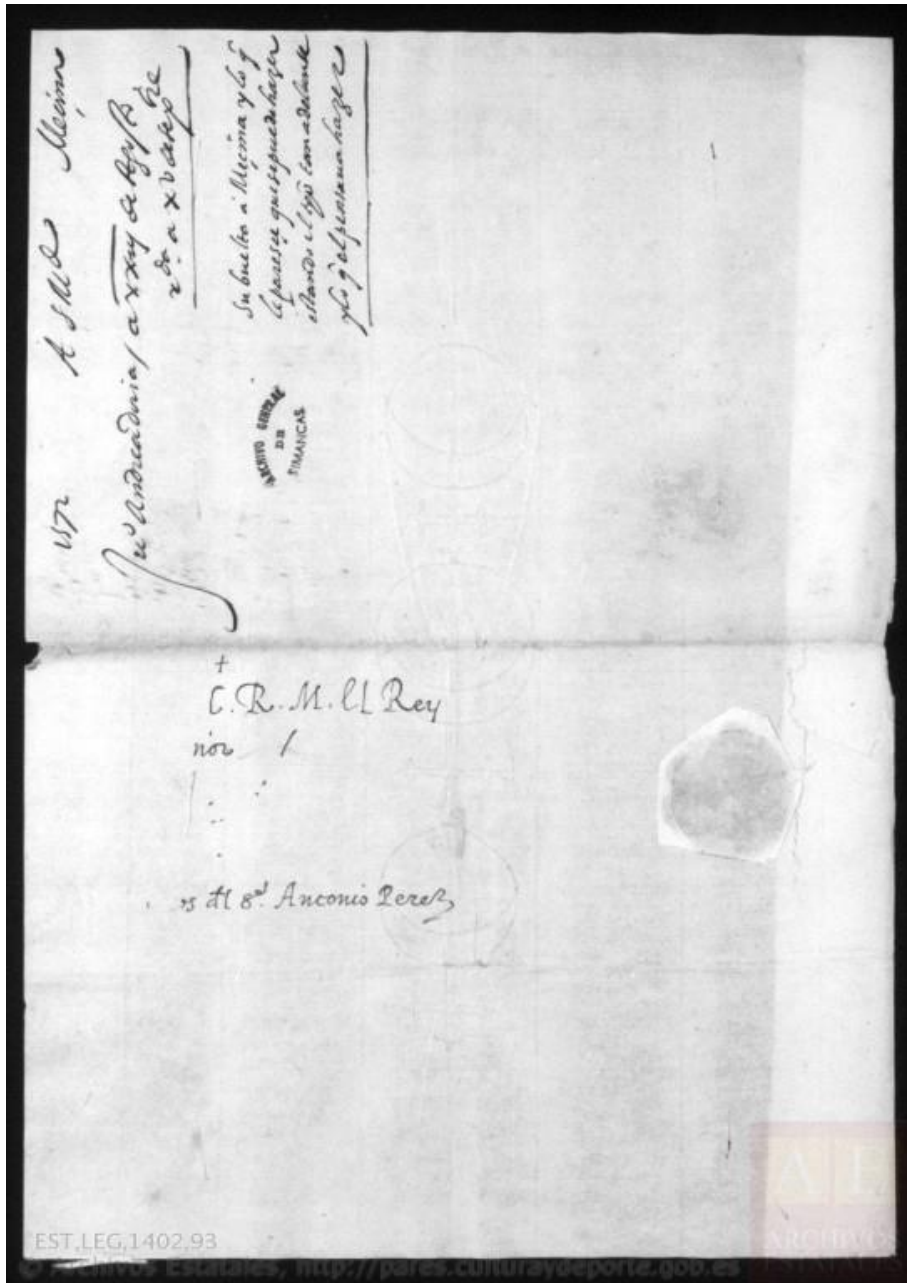
¹ A.G.S, EST, LEG, 3631, 64



ملاحق رقم 17: رسالة من أندري دوريإ إلى الملك فيليب الثاني يخبره فيها بوصوله مع قواته إلى ميسينا ويقدم فيها رأيه حول قوات واستعدادات الحلف المسيحي المقدس قبيل الحملة على تونس، بتاريخ 23 أوت 1572¹



¹ A.G.S, EST, LEG, 1402,93



الملاحق رقم 18: الخطة العسكرية البحرية (المخطط الحربي) لانتشار سفن الحلف المسيحي المقدس خلال معركة ليبانتو البحرية التي جرت في أكتوبر 1571¹:



¹ A.G.S, EST, LEG, 1134 , 88

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

1. الوثائق الأرشيفية:

1. وثائق الأرشيف الوطني الجزائري (رصيد "مهمة دفترى"):

- مهمة دفترى 3، حكم 139، 15 شوال 966هـ
- مهمة دفترى 3، حكم 1611، 968هـ
- مهمة دفترى 5، حكم 817، 23 جمادى الثاني 973هـ
- مهمة دفترى 5، حكم 967، 19 رجب 973هـ
- مهمة دفترى 6، حكم 565، 25 جمادى الأولى 972هـ
- مهمة دفترى 6، حكم 904، 20 شعبان 972هـ
- مهمة دفترى 6، حكم 971، 7 رمضان 972هـ
- مهمة دفترى 6، حكم 972، 3 رمضان 972هـ
- مهمة دفترى 6، حكم 973، 3 رمضان 972هـ
- مهمة دفترى 7، حكم 2439، 12 جمادى الأولى 976هـ
- مهمة دفترى 7، حكم 2481، 22 جمادى الأولى 976هـ
- مهمة دفترى 9، حكم 204، 23 شوال 977هـ
- مهمة دفترى 9، حكم 231، 24 شوال 977هـ
- مهمة دفترى 10، حكم 06، 2 محرم 979هـ
- مهمة دفترى 10، حكم 14، 2 محرم 979هـ
- مهمة دفترى 10، حكم 19، 12 محرم 979هـ
- مهمة دفترى 10، حكم 22، 2 محرم 979هـ

- مهمة دفتری 10، حکم 157، 979هـ
- مهمة دفتری 10، حکم 338، 979هـ
- مهمة دفتری 12، حکم 325، 979هـ
- مهمة دفتری 12، حکم 367، 2 ذو القعدة 978هـ
- مهمة دفتری 12، حکم 518، 17 ذو الحجة 978هـ
- مهمة دفتری 12، حکم 1003، 1004، 23 شوال 979هـ
- مهمة دفتری 12، حکم 1036، 25 شوال 979هـ
- مهمة دفتری 12، حکم 1037، 25 شوال 979هـ
- مهمة دفتری 12، حکم 1074، شوال 979هـ
- مهمة دفتری 13، حکم 4، 979هـ
- مهمة دفتری 13، حکم 63، 980هـ
- مهمة دفتری 13، حکم 65، 980هـ
- مهمة دفتری 13، حکم 66، 980هـ
- مهمة دفتری 13، حکم 67، 980هـ
- مهمة دفتری 13، حکم 68، 980هـ
- مهمة دفتری 13، حکم 69، 980هـ
- مهمة دفتری 14، حکم 48، 1 صفر 979هـ
- مهمة دفتری 14، حکم 283، 3 محرم 979هـ
- مهمة دفتری 14، حکم 284، 3 صفر 979هـ
- مهمة دفتری 14، حکم 603، 22 جمادى الأول 978هـ
- مهمة دفتری 14، حکم 611، 22 جمادى الأولى 978هـ
- مهمة دفتری 14، حکم 625، 22 جمادى الأولى 978هـ
- مهمة دفتری 14، حکم 1571، 26 محرم 979هـ

- مهمة دفتری 14، حکم 1572، 26 محرم 979ھ
- مهمة دفتری 16، حکم 40، 20 جمادى الأولى 979ھ
- مهمة دفتری 16، حکم 347، شعبان 979ھ
- مهمة دفتری 16، حکم 555، شعبان 979ھ
- مهمة دفتری 16، حکم 632، شعبان 979ھ
- مهمة دفتری 17، حکم 06، 21 محرم 979ھ
- مهمة دفتری 18، حکم 25، 27 رمضان 979ھ
- مهمة دفتری 18، حکم 280، 979ھ
- مهمة دفتری 19، حکم 255، 4 صفر 980ھ
- مهمة دفتری 21، حکم 503، 21 ذو القعدة 980ھ
- مهمة دفتری 21، حکم 509، 21 ذو القعدة 980ھ
- مهمة دفتری 21، حکم 517، 21 ذو القعدة 980ھ
- مهمة دفتری 21، حکم 526، 527، 21 ذو القعدة 980ھ
- مهمة دفتری 21، حکم 540، 21 ذو القعدة 980ھ
- مهمة دفتری 21، حکم 637، 16 ذو الحجة 980ھ
- مهمة دفتری 22، حکم 418، 4 جمادى الأولى 981ھ
- مهمة دفتری 22، حکم 419، 4 جمادى الأولى 981ھ
- مهمة دفتری 22، حکم 430، 4 جمادى الأولى 981ھ
- مهمة دفتری 23، حکم 634، 23 شوال 981ھ
- مهمة دفتری 23، حکم 783، 18 ذو الحجة 981ھ
- مهمة دفتری 24، حکم 166، 5 ذو الحجة 981ھ
- مهمة دفتری 24، حکم 168، 5 ذو الحجة 981ھ
- مهمة دفتری 24، حکم 198، 5 ذو الحجة 981ھ

- مهمة دفترى 24، حكم 222، 982هـ
- مهمة دفترى 24، حكم 246، 5 ذو الحجة 981هـ
- مهمة دفترى 30، حكم 421،5 ربيع الأول 985هـ
- مهمة دفترى 30، حكم 425، 5 ربيع الأول 985هـ
- مهمة دفترى 30، حكم 428، 5 ربيع الأول 985هـ
- مهمة دفترى 30، حكم 429، 5 ربيع الأول 985هـ
- مهمة دفترى 30، حكم 466-467، 5 ربيع الأول 985هـ
- مهمة دفترى 35، حكم 475، 2 رجب 986هـ
- مهمة دفترى 42، عدد 82، 989هـ
- مهمة دفترى 42، حكم 84، 989هـ
- مهمة دفترى 42، حكم 86، 989هـ
- مهمة دفترى 48، حكم 31، 990هـ
- مهمة دفترى 52، عدد 227، 992هـ
- مهمة دفترى 52، عدد 82، 993هـ

2. وثائق الأرشيف الوطني التونسي:

- المعاهدة الإسبانية التونسية لسنة 1535، المجموعة رقم 2876، ملف رقم

12

- المعاهدة الإسبانية التونسية لسنة 1554، المجموعة رقم 2876، ملف رقم

21

3. وثائق دور الأرشيف الإسبانية: أخذاً من بوابة الأرشيف الإسباني:

(Portal de Archivos Espanoles: Pares.mcu.es)

3-1- وثائق أرشيف سيمانكاس (Archivo General de Simancas):

- A.G.S, EST, LEG, 1134,88
- A.G.S, EST, LEG, 1381,148
- A.G.S, EST, LEG, 1381,149
- A.G.S, EST, LEG, 1388,188
- A.G.S, EST, LEG, 1389, 34
- A.G.S, EST, LEG, 1389,53
- A.G.S, EST, LEG, 1389,166
- A.G.S, EST, LEG, 1393,214
- A.G.S, EST, LEG, 1393,230
- A.G.S, EST, LEG, 1398,160
- A.G.S, EST, LEG, 1400,47
- A.G.S, EST, LEG, 1401,141
- A.G.S, EST, LEG, 1402,91
- A.G.S, EST, LEG, 1402,93
- A.G.S, EST, LEG, 3631,64

3-2- وثائق الأرشيف التاريخي الملكي (Archivo Historico de la Nobleza):

- OSUNA, C.419,D.142
- OSUNA, C.419,D.226

4. المخطوطات: (مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية)

- رسالة من أعيان الأندلس للسلطان العثماني بايزيد الثاني، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 1620.
 - خبر قدوم عروج راييس إلى الجزائر و قدوم أخيه خير الدين، لمؤلف مجهول، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1622.
 - الزهرة الدائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، لابن رقية أحمد التلمساني، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1626.
5. المصنّفات:

أ- باللغة العربية:

الإفراني محمد الصغير الفشتالي (ت1156هـ/1747م):

1. نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق أ.هوداس، مطبعة بردين، أنجي، فرنسا، 1888

الباجي المسعودي (ت بعد 1273هـ/1885م):

2. الخلاصة النقية في أمراء أفريقية، تحقيق وتقديم محمد زينهم عزب، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2013

بربروس خير الدين (ت955هـ/1546م):

3. المذكرات، تحقيق محمد دراج، ط2، دار الأصالة، الجزائر، 2013

التنبكتي أحمد بابا (ت1036هـ/1627م):

4. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989

التمكروطي علي بن محمد (ت1003هـ/1594م):

5. النفحة المسكية في السفارة التركية، تحقيق عبد اللطيف الشادلي، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 2002

- ابن الحنبلي رضي الدين (ت971هـ/1568م):
6. درّ الحبيب في تاريخ أعيان حلب، تحقيق محمد الفاخوري ويحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ج1، 1972
- الحموي ياقوت (ت626هـ/1229م):
7. معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977
- الحميري عبد المنعم (ت900هـ/1498م):
8. الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان 1984
- ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم (ت حوالي1107هـ/1698م):
9. المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط.ح، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1865
- الراشدي بن سحنون:
10. الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق محمد البوعبدلي، ط1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2013
- ابن رقية محمد بن عبد الرحمن التلمساني (ت1194هـ/1780م):
11. الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق خير الدين سعدي، ط1، دار أوراق ثقافية، جيجل، الجزائر، 2017
- الزركشي محمد بن إبراهيم (ت بعد 894هـ/1492م):
12. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966
- ابن زنبيل أحمد الرمّال (ت981هـ/1572م):
13. آخرة المماليك، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 1998

الزياني محمد بن يوسف:

14. دلائل الجيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، ط1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2013
ابن الشماع أبو عبد الله محمد (ت863هـ/1459م):

15. الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم الطاهر العموري، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984
الصدّيق محمد بن أبي السرور (ت1006هـ/1596م):

16. المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تحقيق ليلى الصباغ، ط1، دار البشائر، بيروت، لبنان، 1995
ابن عسكر محمد الشفشاوني (ت988هـ/1579م):

17. دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب، 1977
ابن العماد شهاب الدين الحنبلي (ت1089هـ/1680م):

18. اشذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرنؤوط، ط1، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، 1993
ابن غلبون محمد بن خليل (ت1172هـ/1763م):

19. التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار (تاريخ طرابلس الغرب)، تحقيق الطاهر الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1934
الفتتالي عبد العزيز (ت1031هـ/1622م):

20. مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، المغرب، د.ت.
ابن القاضي أبو العباس أحمد المكناسي (ت1025هـ/1616م):

21. درة الدجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ط1، مكتبة التراث، القاهرة، مصر، 1970
22. المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق محمد رزوق، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، 1986
القرماني أحمد بن يوسف(ت1019هـ/1610م):
23. أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطييط وفهمي سعد، ط1، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ج3، 1992
اللخمي علي بن محمد الإشبيلي(ت بعد 912هـ/1517م):
24. الدرّ المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس أرنست، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، 1926
المشرفي عبد القادر(ت بعد 1178هـ/1765م):
25. بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، ط.ح، دن، د.ت
ابن المفتي حسين بن رجب شاوش(ت1166هـ/1753م):
26. تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، تحقيق فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، سطيف، الجزائر، 2008
مقديش محمود(ت1258هـ/1813م):
27. نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج2، 1998
المقري أحمد بن محمد التلمساني(ت 1030هـ/1632م):
28. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، ج4، 1968

29. أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقاوي وإبراهيم الأبياري
وعبد الحفيظ شلبي، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر ج1،
1939

المزاري آغا بن عودة:

30. طلوع سعد السعود، تحقيق يحيى بوعزيز، ط1، دار الغرب الإسلامي،
بيروت، لبنان، 1990

الناصري محمد أبوراس (ت1238هـ/1823م):

31. الحلل السندسية في شأن وهران و الجزيرة الأندلسية، ط.ح، مطبعة بيير
فونتانا، الجزائر، 1903

الناصري أحمد بن خالد السلاوي (ت1315هـ/1897م):

32. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر
الناصري، د.ط، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954

النهروالي قطب الدين محمد (ت990هـ/1582م):

33. البرق اليماني في الفتح العثماني، إشراف حمد الجابر، ط1، دار اليمامة،
الرياض، السعودية، 1968

ابن يوسف محمد العربي الفاسي (ت1052هـ/1642م):

34. مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تحقيق الشريف محمد
الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن بن جلد، المغرب، د.ت

مجهول (عاش في القرن 6هـ/12م):

35. الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، ط1،
دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، د.ت

مجهول (ت بعد 904هـ/1509م):

36. نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق ألفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 2002
مجهول (ت ق 11هـ/17م):
37. الدولة السعدية التكمдарتية، تحقيق عبد الرحيم بزحادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، 1994
مجهول (عاش في القرن 11هـ/17م):
38. رسائل سعدية، تحقيق عبد الله كذّون، دار الطباعة المغربية، تطوان، المغرب، 1954
مجهول:
39. غزوات عروج و خير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934
ب- المترجمة للعربية:
خليفة حاجي (ت 1068هـ/1657م):
40. تحفة الكبار في أسفار البحار، تحقيق وتعريب محمد حرب وتسليم حرب، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، مصر، 2017
خوجة حمدان بن عثمان (ت حوالي 1233هـ/1840م):
41. المرأة، ترجمة وتحقيق العربي الزبيري، موفم للنشر، الجزائر، 2006
دي إيتيا خينيس بيريث (ت 1030هـ/1619م):
42. الحرب ضد الموريسكو، ترجمة عائشة محمود سويلم، مراجعة جمال عبد الرحمن، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2009
دي طوريس ديبغو (ت بعد 985هـ/1577م):

43. تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد الدجي ومحمد الأخضر، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1989
روبيرتسون وليم (ت1202هـ/1793م):
44. اتحاف ملوك الزمان بأندباء الإمبراطور شارلكان، ترجمة خليفة مدمود، ط.ح، المطبعة العامرة، القاهرة، 1850
سلانيكي مصطفى أفندي (ت968هـ/1599م):
45. تاريخ سيلانيكي، ترجمة وتحقيق أحمد حنفي عبد الرحيم، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، مصر، 2021
كريخال مارمول (ت بعد 979هـ/1571م):
46. أفريقيا، تحقيق ترجمة محمد حجي، ط1، دار المعارف، الرباط، المغرب، 1984
لطف باشا (ت970هـ/1562م):
47. تواريخ آل عثمان، ترجمة محمد عبد العاطي مدمود، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، مصر، 2018
ج- باللغة الفرنسية:

Athénien Chalcondil :

48. Histoire général des Turcs, Tr, Blaise de Vigenaire, Imprimerie et Librairie Ordinaire du Roy, Paris, T1, 1663

Dan Pierre R.P. :

49. Histoire de Barbarie et de Ses Corsaires, 2E, Libraire Ordinaire du Roi, Paris, 1646

De Paradis Venture :

50. Alger au 18 Siècle, Ed, Fegnan E. Imprimeur Libraire Éditeur, Alger, 1898

De Castries Henry :

51. Les sources Inédites de l’Histoire Du Maroc, T1, Edition Ernest Leroux, Paris, 1921

De Tassy Laugier :

52. Histoire du Royaume d’Alger, S.E, Amsterdam, 1724

Haedo F.D :

53. Histoire des Rois d’Alger, Tr, H.D. De Grammont, Imprimeur Libraire Éditeur, Alger, 1881

54. De la Captivité a Alger, Tr, Moliner Violle, Adolphe Jordane Imprimeur Libraire Editeur, Alger, 1911

Inconnu :

55. Vie de Barberousse, General des Armées Navales de Soliman le second Empereur des Turcs, Bellin Librairie, Paris, 1789

ثانيا:المراجع:

أ – باللغة العربية:

إبراهيم بك حليم:

1. التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ط1، مؤسسة المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، 1988
أرسالن شكيب:
2. خلاصة تاريخ الأندلس، ط2، مطبعة الميناء، مصر، 1925
3. تاريخ غزوات العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
الأنصاري أحمد بك النائب:
4. المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، د.ت.
بن اسماعيل عمر علي:
5. انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا، ط1، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1966
الباروني عمر محمد:
6. الإسبان وفرسان القديس يودنا في طرابلس، مطبعة الاماجي، طرابلس، ليبيا، 1952
بازامه محمد مصطفى:
7. ليبيا في عشرين سنة من حكم الإسبان (1510-1530م)، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1965
بيات فاضل:
8. الدولة العثمانية في المجال العربي (دراسة تاريخية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا، مطلع العهد العثماني-أواسط القرن 19م)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2007
9. البلاد العربية في الوثائق العثمانية، تقديم خالد أرن، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، تركيا، 2010

التميمي عبد الجليل:

10. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، منشورات م.د.ب.ع.م، تونس، 1989

11. تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية، منشورات م.د.ب.ع.م، زغوان، تونس، 1991

جبارة تيسير:

12. تاريخ الدولة العثمانية، ط1، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، 2015

الجيلالي عبد الرحمن:

13. تاريخ الجزائر العام، د.ط، دار الأمة، الجزائر، ج2، 2000

حتامله محمد عبده:

14. التنصير القصري لمسلمي الأندلس في عهد الملاكين الكاثوليكين، ط1، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1980

15. التهجير القصري لمسلمي الأندلس في عهد فيليب الثاني، ط1، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1982

حركات إبراهيم:

16. المغرب عبر التاريخ، ط1، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ج2، 1978

حليمي عبد القادر:

17. مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، ط1، مركز الوثائق الاقتصادية والاجتماعية، وهران، الجزائر، 1972

حماش خليفة:

18. كشف وثائق الجزائر في الكتابات المتعلقة بالمغرب من العهد العثماني إلى العهد الراهن، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2018

بوحمشوش نعيمة:

19. مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن 16م، ط1، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015

حومد أسعد:

20. مدنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، د.ت

أبو خليل شوقي:

21. وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1988

ديب ليلي:

22. فهرس خاص بالرصيد العثماني (دفتر مهم)، مؤسسة الأرشيف الوطني، الجزائر، 2004

رائسي محمد ناصر:

23. العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن 16م، ط1، دار الهادي، بيروت، لبنان، 2007

رزوق محمد:

24. دراسات في تاريخ المغرب، ط1، أفريقيا الشرق للطباعة والنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1991

رشدي راسم:

25. طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، ط1، دار النيل للطباعة، القاهرة، مصر، 1953
الرشيدى سالم:
26. محمد الفاتح، ط2، دار البشير للثقافة، مصر، 2013
سالم أحمد سالم:
27. السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2011
سعيدوني ناصر الدين:
28. تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2013
29. ولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس)، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2013
بوشرب أحمد:
30. وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، ط1، دار الأمان، الرباط، المغرب، 1997
صابان سهيل:
31. المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة السعودية، 1999
طقوش محمد سهيل:
32. تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2013
عبّاد صالح:
33. الجزائر خلال الحكم التركي، ط1، دار هومة، الجزائر، 2012
بن عميرة محمد، بن عميرة لطيفة بشاري:

34. تاريخ بجاية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين، ط1، دار الفاروق، الجزائر 2015
عنان عبد الله:
35. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين، ط4، مكتبة الخانجي القاهرة، مصر، 1997
فكاير عبد القادر:
36. الصراع الجزائري الإسباني خلال القرن السادس عشر، ط1، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016
القدوري عبد المجيد:
37. المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر مسألة التجاوز، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2012
قطب علي محمد:
38. مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، دن، د.ت
كرّم عبد الكريم:
39. المغرب في عهد الدولة السعدية، ط3، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، المغرب، 2006
الكيلاني شمس الدين:
40. الإسلام وأوروبا المسيحية، ط1، دار الثقافة للنشر، دمشق، 2007
المحامي محمد فريد بك:
41. تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار الذفائس، بيروت، لبنان 1981
المدني أحمد توفيق:
42. حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا، دار البعث، قسنطينة، د.ت

معاشي جميلة:

43. الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري ما بين القرنين 16 و19م، ط1، د.م.ج، الجزائر، 2015

الميلي محمد:

44. تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تحقيق محمد ميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989

نايت بلقاسم مولود قاسم:

45. شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل 1830 ، ط2، دار الأمة، الجزائر، ج1، 2007

نويهض عادل:

46. معجم أعلام الجزائر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980

الوذينياني خلف:

47. الفتح العثماني لجزيرة رودس، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1997

مؤلف جماعي:

48. الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، تدقيق عائشة غطاس، ط.خ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2007

مؤلف جماعي:

49. المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، تنسيق دلندة الأرقش، مؤسسة النشر الجامعي، تونس، 2003

ب- المترجمة للعربية:

آرينال مارثيديس غارسيا:

50. الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر 2003

الآسكي علي همت بركي:

51. أبو الفتح السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية وحياته العديدة، ترجمة محمد إحسان عبد العزيز، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، 1953

إلتر عزيز سامح:

52. الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989

أمجان فريدون:

53. سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ترجمة جمال فاروق وأحمد كمال، ط2، دار النيل، القاهرة، مصر، 2015

أوزتونا يلماز:

54. تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، ط1، مؤسسة فيصل للتمويل، إسطنبول، تركيا، 1988

إيرفينج واشنطن:

55. أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هلاني يحيى نصري، ط1، دار الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2000

إي غافيريا مينيوت خوزي:

56. تاريخ ثورة الموريسكيين، ترجمة عبد العزيز السعود، ط1، منشورات ليتوغراف، طنجة، المغرب، 2010

إيفانوف نيقولاي:

57. الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، ط1، دار الفرابي، بيروت، لبنان، 1988
باروخا خوليو كارو:
58. مسلمو مملكة غرناطة بعد عام 1492م، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، أبوظبي، الإمارات العربية، 2003
برنشفيك روبير:
59. تاريخ أفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988
بروديل فرنان:
60. المتوسط والعالم المتوسطي، ترجمة مروان أبي سمرا، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1993
بروشين نيكولاي إيليتش:
61. تاريخ ليبيا من منتصف القرن 16م إلى مطلع القرن 20م، ترجمة وتقديم عماد حاتم، ط2، دار الكتب الليبية، طرابلس، ليبيا، 2001
بروفنسال ليفي:
62. مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلافي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب، 1977
بيتروسيان إيرينا:
63. الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة قسم الدراسات بمركز جمعة الماجد، ط1، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية، 2006
جوزيف بيريز:

64. التاريخ الوحيد لمحاكم التفتيش بإسبانيا، ترجمة مصطفى أمادي، ط1، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية، 2011
رايت لويس وماكليود جوليا:
65. الحملات الأمريكية على شمالي إفريقيا في القرن 18م، ترجمة البعلبكي محمد روجي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، د.ت.
رايلي سميث جوناثان:
66. الإسبانية، فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، ترجمة صبحي الجابي، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، 1989
روسي إيتوري:
67. طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا، ترجمة محمد التليسي، ط1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، 1969
68. ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1991
زليترجان كلود:
69. طرابلس ملتقى أوروبا ووسط بلدان إفريقيا، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، 2001
سبنسر وليم:
70. الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007
شيمشيريغيل أحمد:
71. بني عثمان سلطنة بنفوذ عالمي، ترجمة مهتاب محمد، ط1، دار ثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2016
فاليرين دومينيك:

72. بجاية ميناء مغاربي، ترجمة علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014

فيرو شارل:

73. تاريخ جيجلي، ترجمة عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر، 2010
كار ماثيو:

74. الدين والدم؛ إبادة شعب الأندلس، ترجمة مصطفى قاسم، ط1، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، الإمارات العربية، 2013
كاردياك لوي:

75. المورد سكيون الأندلسيون والمسيحيون، ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة المغربية، تونس، دم.ج، الجزائر، 1983
كريسي إدوارد شيفرد:

76. تاريخ الأتراك العثمانيين، ترجمة سالم أحمد سالم، ط1، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة، قطر، 2019
كولز بول:

77. العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 1993
لي هنري تشارلس:

78. العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ترجمة الكرسي حسن سعيد، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1988
ماخوفسكي يانسيك:

79. تاريخ القرصنة في العالم، ترجمة أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 2008
مانتران روبير:

80. تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ط1، دار الفكر للدراسات

للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1993

ملين محمد نبيل:

81. السلطان الشريف؛ الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب،

ترجمة عبد الحق الزموري و عادل بن عبد الله، ط1، مطبعة كوثر، الرباط،

المغرب، 2013

منفروني كاميلو:

82. إيطاليا في الأحداث البحرية الطرابلسية، ترجمة عمر محمد الباروني،

صلاح الدين السوري، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس،

ليبيا، 1988

وولف، ج.ب:

83. الجزائر و أوروبا، ترجمة وتحقيق أبو القاسم سعد الله، ط.خ، دار عالم

المعرفة، الجزائر، 2009

ج- باللغة الفرنسية:

Abitbol Michel:

84. Histoire du Maroc, Perrin Editeur, Paris, 2014

Belachemi Jean Louis :

85. Nous les frères Barberousse Corsaires et Rois d'Alger,
Librairie Artheme Fayard, Paris, 1984

Belhamissi Mouley :

86. Marin et Marins d'Alger 1518-1830, Bibliothèque
National d'Algérie, Alger, 1996

Berbrugger Adrien :

87. Le Pegnon d'Alger, Challamal Libraire, Alger, 1860

Boulifa Saïd Si Amar :

88. Le Djurdjura a travers l'histoire, Bringau Imprimeur Editeur, Alger 1925

Christian Pitois :

89. Histoire de Pirates et Corsaires de L'Océan de Méditerranée, D. Cavaille Editeur, Paris, 1846

De Grammont Henry Delmas :

90. Histoire d'Alger Sous La Domination Turque 1515–1830, Ernest Leroux Editeur, Paris, S.D

91. La Course et l'esclavage et la rédemption a Alger, extrait de la revue historique, paris, 1885

De La Gravière Jurien :

92. Doria et Barberousse, Libraire Plon Librairie Editeur, Paris, 1886

De La Primaudaie Ilie :

93. Documents inédits sur l'histoire de l'Occupation espagnol en Afrique 1505–1574, A. Jourdan Libraire Editeur, Alger, 1875

De Rotalier Charles :

94. Histoire d'Alger et de La piraterie des Turcs dans La méditerrané, Paulin Libraire Editeur, Paris, T2, 1841

Farine Charles :

95. Deux Pirates au 16^{eme} Siècle, Histoire des Barberousse, Paul Ducroco Libraire Editeur, Paris, 1869

Fey Henry Léon :

96. Histoire D'Oran avant, pendant et apre La Domination Espagnole, Adolphe Perrier Editeur, Oran, 1858

Heers Jacque :

97. Les Barbaresques (La course et la guerre en Méditerrané), Ed8, Perrin Editeur, Paris, 2008

Genevois H. :

98. Legends des rois de Koukou, Atelier de l'école second, El-Harrach, Alger, 1974

Maxange Defontin:

99. Eudj' Ali, A. Pedone Editeur, Paris,1930

Mercier Ernest :

100.Histoire de Constantine, Marle et Biron Imprimerie Editeur, Constantine, 1903

101. Histoire De L'Afrique Septentrionale, Ernest Leroux Editeur, Paris, T2, 1868

Orse L'Abbe :

102. Alger pendant Cent ans et la Rédemption des Captifs, Imprimerie Adrien le Clere, Paris, 1860

Sander Range et Denis Ferdinand:

103. Fondation de La Régence d'Alger, J. Ange Editeur, Paris, T1, 1837

Livre Collectif :

104. Histoire General de La Tunisie, Sud Edition, Tunis,

ثالثا: المقالات:

أ- باللغة العربية:

أبلالي أسماء:

1. التحرشات الإسبانية على السواحل الجزائرية خلال القرن 10هـ/16م،
مجلة روافد للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، الجزائر، ع2، 2017، ص33-
65

بن براهيم هاشمي، بوغفالة ودان:

2. القبائل المتعاونة مع الاحتلال الإسباني، مجلة الناصرية للدراسات
التاريخية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر، مج8، ع1، 2017، ص187-
197

بلبروات بن عتو:

3. بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني 1510-1554م،
مجلة عصور جديدة، جامعة وهران، الجزائر، ع7-8، 2012، ص174-188

بعرة مريم رزاق:

4. أهمية حوض المتوسط في العلاقات المتوسطية وانبعاث النشاط البحري
الجزائري في العصر الحديث، مجلة المعارف للبحوث والدراسات، جامعة الوادي،
الجزائر، ع3، 2015، ص150-174

تركي عباس:

5. إضاءات حول شخصية بايلر باي الجزائر قليج علي 1568-1587م،
مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، الجزائر، م2، ع4، 2020، ص107-125
التميمي عبد الجليل:

6. رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني، المجلة
التاريخية المغربية، تونس، ع3، 1975، ص36-47

7. أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول سنة
1519م، المجلة التاريخية المغربية، زعوان، تونس، ع6، 1976، ص116-
120

الجبوري رابحة محمد:

8. القائد سنان باشا و جهوده في استعادة اليمن وتونس 1568-1574م،
مجلة جامعة تكريت للعلوم، تكريت، العراق، ع1، 2011، ص351-384

جوامع سالم:

9. آل بربروس وآل القاضي بين التحالف والصراع خلال القرن 16م (مقاربة
تاريخية أنثروبولوجية)، مجلة أنثروبولوجية الأديان، جامعة تلمسان، الجزائر،
مج16، ع2، 2020، ص100-119

10. الإمارات المستقلة بالمغرب الأوسط مطلع العصر الحديث؛ أصولها
ونشوءها، مجلة مدارات تاريخية، الجزائر، مج2، ع4، 2020، ص343-375

بوحمشوش نعيمة:

11. التضامن بين إيالة الجزائر والباب العالي أثناء القرن السادس عشر من
خلال وثائق "مهمة دفترية"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مؤسسة كنوز
الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ع30، 2015، ص107-119

بلحميسي مولاي:

12. نهاية دولة بني زيان، مجلة الأصالة، الجزائر، ع26، 1975، ص30-37

درويش الشافعي:

13. الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، الجزائر، ع20، 2017، ص1-12

14. علاقات طرابلس الغرب بإسبانيا خلال القرن 16م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، الجزائر، ع19، 2013، ص189-199

دوالي خديجة:

15. حركة الجهاد الإسلامي في إسبانيا خلال الفترة الممتدة من 1499م وإلى غاية سنة 1609م؛ الآليات والدوافع، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، الجزائر، مج11، ع1، 2021، ص328-346

رضوان نبيل عبد الحي:

16. تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط، مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، مصر، ع20، 1998، ص221-266

روابحي نذير، محمد شبوب:

17. استراتيجية الدولة العثمانية تجاه المغرب الأقصى خلال عهد السلطان سليمان القانوني 1520-1566م، مجلة البحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، الجزائر، مج12، ع4، 2020، ص171-188

زريوح زين العابدين:

18. مراكز عاصمة للدولة المركزية خلال العهد السعودي من الأوج إلى الركود 1525-1659م، مجلة إبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج

بوعرييج، الجزائر، ع1، 2020، ص28-47

زغار محمد مختار:

19. صالح رايس بطل الوحدة والجهاد 1552-1556م، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، الجزائر، مج2، ع4، 2020، ص90-106
سحابات زهيرة:

20. البحرية الجزائرية ودورها في الحروب العثمانية، مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة تيارت، الجزائر، ع9، 2016، ص137-160
21. دور الأسطول الجزائري في إنقاذ مسلمي الأندلس 1529-1609م، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، الجزائر، ع20، 2019، ص547-575

السويكت فهد بن محمد:

22. موقف الأشراف السعديين بالمغرب من مسألة الخلافة العثمانية، مجلة جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة السعودية، م19، 2006، ص177-221
بن سيفي عز الدين:

23. ملامح من العلاقات السياسية الجزائرية المغربية على عهد الأتراك العثمانيين في الجزائر والأشراف السعديين في المغرب الأقصى، مجلة القرطاس، جامعة تلمسان، الجزائر ع11، 2011، ص35-46
سيلفاتور بونو:

24. العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي، مجلة الأصاله، الجزائر، ع6، 1972، ص98-105
شارف رقية:

25. تشكل الكيانات السياسية للمغرب العربي في إطار الدولة العثمانية في الفترة الحديثة، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر2، ع13، 2011، ص131-151

الصباغ ليلي:

26. ثورة مسلمي غرناطة عام 978هـ أواخر 1568م والدولة العثمانية، مجلة الأصاله، الجزائر، ع27، 1975، ص116-176

طحطح خالد:

27. العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث القرن 16-18م، مجلة كان التاريخية، ع14، 2011، ص106-113

عبيد مصطفى:

28. طرابلس الغرب من الاحتلال الإسباني إلى دخول العثمانيين، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ع18، 2015، ص318-336

العبيدي سمير عبد الرسول:

29. الحملات الإسبانية على الموانئ الجزائرية (1505-1510م)، مجلة العميد، العراق، مج8، ع31، 2019، ص121-163

عقيب محمد السعيد:

30. دور خير الدين بربروسا في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر، مجلة البحوث والدراسات، جامعة الوادي، الجزائر، ع13، 2012، ص289-304

بلعربي خالد:

31. الوضع السياسي في الجزائر أواخر سقوط الدولة الزيادية، مجلة كان التاريخية، ع23، 2014، ص100-106

عمر السيد عمر سلمى:

32. بنو الوطاس في المغرب (1465-1553م)، مجلة دراسات إفريقية، جامعة إفريقيا العالمية مركز البحوث والدراسات الإفريقية، الخرطوم، السودان، ع43، 2010، ص95-121

الغاشي مصطفى:

33. صورة مغربية للإمبراطورية العثمانية خلال القرن الـ16م؛ نموذج التمكروطي، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، مج11، ع44، 1999، ص85-106

غيلاني السبتى:

34. دور البحرية الجزائرية والعثمانية في إنقاذ م سلمي الأندلس 1492-1609م، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة بسكرة، الجزائر، ع14، 2015، ص69-82

فكاير عبد القادر:

35. دور الأسطول الجزائري في معركة ليبانتو 1571م، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، جامعة معسكر، الجزائر، ع9، 2014، ص415-422

بن قومار جلول:

36. إشارات من محن بعض الفقهاء بالمغرب الأقصى في العهد السعودي الأول (1509-1603م)، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة وهران، الجزائر، مج10، ع2، 2019، ص427-435

الكندري فيصل عبد الله:

37. الأملاح والجغرافيا في بيري ريس، مجلة رسائل جغرافية، جامعة الكويت، الكويت، ع234، 1999، ص106-113

مبارك فيصل:

38. وقوف صالح ريس في وجه النزعة التوسعية لمحمد الشيخ السعدي 1539-1557م، مجلة تاريخ المغرب العربي، جامعة الجزائر، ع9، 2018، ص400-413

المدني أحمد توفيق:

39. تلمسان بين الزينيين والعثمانيين، 1530-1554، مجلة الأصاله، الجزائر، ع26، 1975، ص37-46

المودن موسى والناصرى نجوى:

40. الحملات العسكرية البرتغالية على الشمال المغربى خلال القرنين 16 و17م و ردود فعل المغاربة، مجلة التراث، جامعة الجلفة، الجزائر، ع1، 2020، ص376-393

مؤنس حسين:

41. أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواج للونشريسى أبو العباس أحمد، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، إسبانيا، مج5، ع1، 2، 1957، ص129-191

نوار جليل هاشم، محمد كاظم المعينى:

42. مابين الجيوبوليتيك والجيوستراتيجية؛ دراسة فى اختلاف المفاهيم، المجلة الأكاديمية للبحوث القانونية والسياسية، جامعة عمار ثلجى، الأغواط، الجزائر، مج4، ع2، 2020، ص431-453

هلايلى حنيفى:

43. القضية الموريسكية فى الفضاء العثمانى الجزائرى على ضوء الفرمانات العثمانية 1492-1609م، مجلة الحوار المتوسطى، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ع6، 2014، ص9-37

44. محاولة الجزائر العثمانية توحيد المغرب العربى، مجلة الحوار المتوسطى، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ع5، 2013، ص55-77

الويشى عطية فتحي:

45. العثمانيون بطرابلس الغرب جدلية العلاقة بين المجتمع والدولة 1551-1912م، *المجلة العربية للعلوم الإنسانية*، جامعة الكويت، الكويت، ع 35، 2017، ص 123-154

بويقران خالد:

46. علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين من خلال الوثائق الإسبانية الدفينة لتاريخ المغرب، *مجلة كان التاريخية*، ع 39، 2018، ص 123-134

بويقران خالد، بويقران محمد:

47. علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين من خلال الوثائق الإسبانية بمجموعة الوثائق الدفينة لتاريخ المغرب، *مجلة قضايا تاريخية*، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، ع 9، 2018، ص 131-146

ب- باللغة الفرنسية:

Berbruger Adrien :

48. Mers El Kebir, Tr, Suarez Diego, **La Revue Africaine**, V:9, Alger, 1856, p337-355

49. Une Lettre inédite d'un Empereur du Maroc, **R.A**, V:10, Alger, 1866, p451-472

50. La Conquête d'Oran en 1509, **R.A**, V:10, Alger, 1866, p43-50

51. La Mort de Le Fondateur de La Régence d'Alger, **R.A**, V:4, Alger, 1860, p25-34

Berbruger Adrien et Dr Monnereau:

52. Topographie et Histoire General d'Alger, **R.A**, N:14, 1870, p361–519

De Grammont H. D :

53. H.D, Quel est le Lieu de la Mort d'Aroudj Barbarousse, **R.A**, V:22, Alger, 1878, p388–399

De La Primaudaie Elie :

54. Documents inédits sur l'histoire de L'Occupation Espagnol en Afrique, **R.A**, V:19, Alger, 1875, p63–496 (6^{eme} Partie)

55. Documents inédits sur l'histoire de l'Occupation Espagnol en Afrique (1506–1574), **R.A**, V:21, Alger, 1877, p17–472 (6^{eme} Partie)

Feraud Charles :

56. Conquête de Bougie par Les Espagnols d'apre un Manuscrit Arabe, **R .A**, V:12, Alger, 1868, p244–378

ج- باللغة التركية:

Ceran Ismail :

57. Vadilmehazin Savasi 4 agustos 1578, **Belletin Turk Tarihi Kurumu**, Cilt:60, Sayi:228, 1998, s271–388

Kavas Ahmet:

58. Osmanli Devleti 'ni Kuzey Afrika'da Kalicilastiran Sefer : Tunus Savasi 1574, **Siyasal bilgiler facyulesi (ISMUS)**, I/1, 2016, s1–42

Yesilmen Gokhan:

59. Osmanli Devliti'nin Fas Siyaseti Uzerine bir Degerlendirme, **Medeniyet ve toplum**, Cilt:2, Sayi:2, 2018, s107-121

أعمال الملتقيات:

دادي مارية:

60. أضواء على تاريخ العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن 16م من خلال مراسلات باللغة الإسبانية، أعمال الندوة الدولية "المغرب والتحويلات الدولية" (مؤتمر رقم 22)، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب، 2008

سعد نيفين مصطفى حسن:

61. دور الأخوين خير الدين بربروسا وأخوه عروج في مقاومة الاستعمار الإسباني في شمالي إفريقيا، أعمال المؤتمر الدولي الخامس "العرب والترك عبر العصور"، جامعة قناة السويس، الإسماعيلية، 2013

يحياوي ياسين:

62. الديني والسياسي في الذاكرة الجمعية؛ معركة وادي المخازن (الم لوك الثلاثة) بين ذاكرتي الغالب والمغلوب، أشغال المؤتمر الدولي السنوي لمؤسسة مقاربات؛ الذاكرة والبناء الثقافي، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس، المغرب، مج2، 2019

63. مجموعة مؤلفين، مراكش خلال المريني والسعدي، أشغال الملتقى الثاني 1990، جامعة القاضي عياض، مطبعة إدويسعين، مراكش، المغرب، ع8، 1992

خامسا: الرسائل الجامعية:

أ- باللغة العربية:

- رسائل الدكتوراه:

بن براهيم هاشمي:

1. قبائل وهران والاحتلال الإسباني؛ قراءة في مواقف التحالف والولاء، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، الجزائر، 2020، 2021

تومي طاهر:

2. علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا 1520-1792، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2018-2019

جميل عائشة:

3. الجزائر والباب العالي من خلال الأرشيف العثماني 1520-1830، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2017-2018

رضوان نبيل عبد الحي:

4. جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة السعودية، 1987

سقور سناء عارف:

5. عهد البكاربكي (إمرة الأمراء) في إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب (دراسة مقارنة)، رسالة دكتوراه في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، جامعة دمشق، سوريا، 2018

شوقي عبد الكريم:

6. الاستخبارات الجزائرية (1492-1830م)، أطروحة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 2015-2016
بن الشيخ علي:
7. مملكة كوكو ونظامها السياسي والعسكري، رسالة دكتوراه في اللغة والثقافة الأمازيغية، جامعة تيزي وزو، الجزائر، 2018
8. الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية 1505-1792م، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2009
قويسم محمد:
9. قسنطينة مابين القرن 13م والقرن 16م، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر 2، 2014
معاشي جميلة:
10. الإنكشارية والمجتمع بباييك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2007-2008
- رسائل الماجستير:
جبارة الخنساء صلاح:
11. الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة النيلين، الخرطوم، السودان، 2017
أبو جبل كاميليا:
12. السلطان سليمان القانوني (حياته، حروبه، إدارته)، رسالة ماجستير في تاريخ الدولة العثمانية، جامعة دمشق، سوريا، 2010-2011
جبور ميلودية:

13. ظاهرة الاغتيال السياسي في نظام الحكم العثماني بالجزائر 1519-1830، مذكرة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران 1، الجزائر، 2014، 2015
بوحسون عبد القادر:

14. العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس خلال العهد الزياني، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، الجزائر، 2007، 2008
بن خروف عمار:

15. العلاقات بين الجزائر والمغرب 1519-1659، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة دمشق، سوريا، 1983
دكاني نجيب:

16. الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر وردود الفعل الجزائرية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 2001-2002
سي يوسف محمد:

17. قليج علي ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 1988
صقر ولاء:

18. أوضاع الجزائر السياسية والإدارية والاقتصادية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة تشرين، سوريا، 2016، 2017
بن علي زكريا:

19. الدولة العثمانية ودول البحر الأبيض المتوسط في عهد بايزيد الثاني وسليمان القانوني، رسالة ماجستير في تاريخ الجزائر والعالم المتوسطي في العهد العثماني، جامعة سيدي عباس، الجزائر، 2014، 2015
بن فريجة عبد المالك:

20. القبائل العربية ومكانتها في الدولة الزيادية، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران1، الجزائر، 2014-2015

فكاير عبد القادر:

21. الغزو الإسباني لاسواحل الجزائرية 1505-1792م، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر2، 2009

قروء لحسن:

22. دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال القرن 16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر2، 2017-2018

قرين محمد:

23. السلطة المخزنية وعلاقتها بالسلطة الدينية في المغرب الأقصى خلال العدا السعدي (1510-1658م)، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر2، 2011

قموح فريد:

24. الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا يحي المازوني؛ دراسة تحقيقية، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2011

بن قومار جلول:

25. معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا 1578-1603م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، الجزائر، 2011

مبارك فاهيمة:

26. بلاد زواوة في ظل الحكم العثماني 1511-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر2، 2015-2016

الميلق عبد القادر:

27. تأثير ثورات الموريسكيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية 1492-
1609م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، الجزائر، 2012-
2013

ب- باللغة الفرنسية:

Courdier Zoe :

28. Les Batailles entre chrétiens et Ottomans dans La Méditerranée du 16^{eme} siècle 1535-1575, Diplôme National du Master, Université de Lyon, France, 2013

الفهارس

أ- فهرس الأعلام:

- أ -

ابن عبّو (قائد موريسكي) 101

أبو بكر (بن أبي عمر عثمان الحفصي، والي طرابلس) 11

أبو بكر (بن أبي محمد عبد الله، حاكم قسنطينة) 7

أبو حسّون الوطاسي 153، 156، 158، 159، 160، 161، 162، 167،

168، 169، 170، 171

أحمد الأعرج 148، 150، 151، 152، 153، 155، 156

أحمد بن بايزيد الثاني 17

أحمد بن الحسن الحفصي 72، 105، 107

أحمد بن القاضي 51، 55، 58، 216

أحمد المنصور 178، من 204 إلى 219

أحمد بن محمد البرتغالي الوطاسي 153، 155، 156

إسحاق بربروس 44، 46، 48، 49، 56

أسكانيو دو لاكورنيا 86

ألفارو دي ساندي 74، 78، 86

ألفونسو الخامس (ملك البرتغال) 145

إلياس بربروس 44، 46، 47

أندري دوريا 52، 77، 112، 121

أنطوان كولونا 111

أوغستين بارباريغو 121

آيدن رايس 93

إيزابيلا (الملكة) 15، 28، 32

- ب -

باربارا بلومبيرغ (أميرة) 112

بايزيد الثاني 30، 47، 48

برتو باشا 114، 115، 117، 119

بياله باشا 74، 78، 81، 86، 89

بيدرو نافارو 38، 40، 41، 43

بيدرو مازقارينهااس (ديبلوماسي) 159، 161

بيري رايس 53

بيوس الرابع (البابا) 84

بيوس الخامس (البابا) 111

- ت -

تشابين فيتيللو 86

- ج -

جعفر باشا 114، 212

جيستياني (قائد) 121

جمّ بن محمد الفاتح 13

- ح -

حاجي حسين 58

حسن آغا 61

حسن بن خير الدين 82، 83، 86، 87، 89، 90، 122، 123

حسن فنزيانو 205، 207، 212، 213

الحسن بن محمد الحفصي (ت1543م) 60، 61، 62

حميدة العبد 7

حيدر باشا 129، 137، 138

- خ -

خوان الثالث (ملك البرتغال) 160، 161

خوان زاباتا 78، 79

خير الدين بربروس 45، 46، 47، 49، 51، 50، 52، 53، 54، 55، 56،

57، 59، 60، 61، 62، 65

خير الدين كرمان 66، 67

- د -

دارامون 68

دو لافاليت 84

دون خوان النم ساوي 96، 101، 112، 113، 121، 125، 126، 127،

131

دون سيباستيان 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 207

دون غارسيا دو طوليدو 86

دون مدينا تشيلي 74

دي كوردوبا (قائد) 121

دييغو فيرنانديز 36

- ر -

الرشيد بن محمد الحفصي 59، 60، 61
رمضان باشا 127، 130، 132، 133، 135، 191، 192، 199، 212
روي دو روكسا 37
ريخنتي (الأميرة) 175
ريمون دو كوردوبا 36

- س -

سالم التومي 41، 54
سليم الأول 48، 53، 58
سليم الثاني 122، 132، 134
سليمان القانوني 30، 47، 60، 61، 62
سنان باشا 132، 133، 134، 136، 137، 138، 139
سيريبلوني 131، 137، 138

- ش -

شارلكان 62، 63، 64، 92، 94، 108

- ص -

صالح راييس 93، 114، 166، 167، 168، 174
صفا بك 163، 164

- ط -

طرغود راييس 73، 74، 75، 76، 77

- ع -

عبد الحق بن عثمان المريني 147
عبد الرحمن (أمير بجاية) 40
عبد العزيز (بن أحمد ، أمير بني عباس) 7، 164
عبد العزيز (بن أبي محمد عبد الله، حاكم بجاية) 7
عبد الله (العباس) بن عبد العزيز (أمير بجاية) 40
عبد الله الغالب بالله السعدي 176، 177، 178، 179، 180، 181، 182،
183، 184، 186، 187، 188، 189، 195
عثمان أبي عمر الحفصي 8، 10، 11
عبد الملك المعتصم 178، 179، 180، 183، 184، 185، 186، 187،
188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 198،
199، 200، 201، 2032، 203، 204، 205، 206، 219
عبد المؤمن (الأمير السعدي) 178، 179، 183، 186، 187، 188، 219
عزب أحمد 108، 128، 129، 133
عروج بربروس 44، 45، 47، 48، 49، 50، 53، 54، 55، 56، 57، 58
علاج علي (أغلب صفحات الفصل الثاني) +62، 168، 179، 188، 189،
191، 200، 208، 209

- غ -

غاسبر دي سانغوزا 64
غاسبر دي فالبير 67
غريغوري الثالث عشر 113

- ف -

- فرانسوا الأول 21
فرانسيكو زاباتا 79
فرديناند النمساوي 22
فرناندو الخامس 15، 28، 32، 37، 43، 54
فيرناندو دي زافرا 33
فوركوفو (سفير فرنسي) 97
فيليب الثاني 73، 74، 80، 84، 94، 96، 97، 100، 101، 107، 111،
112، 120، 126، 131

- ق -

- القائم بأمر الله السعودي 149، 150، 151
قانسوه الغوري 18، 47
القايد بن الطيب 106
القايد بن جيبارة 106
القايد الخضار 106

- ك -

- الكاردينال خيمينيس 32، 38، 39
الكاردينال غراونيل 114
كركود (الأمير العثماني) 16، 17
كمال ريس 30، 48
الكونت الكوديت 170، 175، 181

- ل -

لايوش الثاني (ملك المجر) 21، 22

لويس إبيريرا 205

- م -

مامي رايس 106، 134

مارين القسيس 207

محمد الثابتي 7

محمد أبي عبد الله بن الحسن الحفصي (ت1452م) 10

محمد أبي عبد الله بن الحسن الحفصي (ت1526م) 8، 41، 49

محمد بن أمية 99، 100، 101

محمد شولوك باي 121

محمد الشيخ أبو زكرياء الوطاسي 147

محمد الشيخ السعدي 148، 151، 153، 155، 156، 158، 161، 162،

163، 164، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 173، 174،

175، 176

محمد بن صالح رايس 114

محمد صوقلي باشا 106، 122

محمد الفاتح 13، 14، 25

محمد بن مبارك الآقوي 149

محمد المتوكل بن الغالب بالله السعدي 178، 187، 189، 190، 191، 192،

196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 204

محمد الوطاسي "البرتغالي" 147، 152، 153

مراد آغا (حاكم طرابلس) 64، 65، 66، 68، 72
مراد خان (السلطان) 185، 206، 207، 215، 216
مصطفى باشا 81، 82، 83، 84، 86، 87، 89
مؤذن زاده علي باشا 114، 117، 119، 120، 121
مولاي عمر 167، 169

- ه -

هرناندو الحبقي (قائد موريسكي) 100، 101، 103
هنري الثامن 108
هوغو دي مونكادي 43
هيرنونيمو دي ميندوزا (جاسوس) 107

- ي -

يحيى أبي زكرياء الثالث الحفصي (والي طرابلس) 11
يعقوب نور الله آغا 44، 45، 46
يوحنا الثالث (ملك البرتغال) 176

ب- فهرس الأماكن والبلدان:

- أ -

إسبانيا (أغلب صفحات البحث)
الأسبانية 60، 125، 127، 138، 186، 209، 211، 213
إسطنبول 57، 59، 79، 121، 138، 215
الإسكندرية 67، 85، 120
آسفي 146، 155، 197

أصيلا 145، 147، 153، 161، 196، 197، 201
آزمور 146، 155، 197
إزمير 48
أغادير 146، 155
آغريبور 46
الأناضول 14، 18، 21، 81، 114
الأندلس 2، 15، 16، 19، 26، 27، 28، 29، 30، 31، 34، 38، 53،
57، 92، 93، 98، 99، 101، 102، 103، 207
أنطاليا 16، 47
ألبانيا 16
ألمانيا 74، 94، 126
ألميرية 26، 36، 97، 100، 101
إيطاليا 14، 48، 50، 52، 67
- ب -
باتراس 110، 120
باديس 26، 31، 167، 169، 180، 181، 182، 183
بجاية 4، 5، 7، 8، 10، 26، 29، 40، 41، 43، 50، 51، 52، 53، 54،
55، 158، 171، 172، 175
البرة غال 4، 31، 113، 124، 145، 146، 149، 151، 158، 160،
161، 169، 172، 175، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202
البندقية 14، 15، 20، 35، 45، 79، 104، 111، 112، 114، 119،
121، 199

بنزرت 61، 90، 132، 133

بونة 106، 137

- ت -

تاجوراء 44، 64، 65، 66، 68

تارودانت 151، 163، 173، 177

تبريز 17

تطوان 144، 202

تلم سان 3، 4، 7، 26، 37، 59، 162، 163، 164، 167، 168، 171،

176، 178، 179، 180، 181، 187، 212، 217، 218

تونس (أغلب صفحات البحث)

- ج -

جبل طارق 51، 145، 161، 169، 180، 181، 182

جربة 48، 49، 67، 74، 78، 79، 81، 90، 92، 111، 137

الجزائر (أغلب صفحات البحث)

جنوة 50، 52، 113

جيبل 8، 52، 53، 54، 55

- ح -

الحجاز 147، 148، 193

الحسيمة 160، 161

حلق الوادي 50، 61، 92، 105، 106، 109، 110، 114، 124، 125،

127، 130، 131، 132، 133، 134، 136، 137، 138، 139، 140،

142، 141

- د -

درعة 147، 148، 151، 154

- ر -

رودس 14، 20، 21، 47، 63، 64، 72، 75، 84

الروميّلي 44، 81

- س -

سبّطة 145، 196، 200

السوس 154، 170

سيلانيك 46

- ش -

الشام 15، 18، 19، 126

شرشال 7، 42، 56

شفشاون 144

- ص -

صقلية 15، 42، 43، 61، 67، 74، 78، 86، 87، 112، 105، 113،

126، 130، 131، 136

- ط -

طرابلس (المدينة) 11، 12، 63، 64، 66، 65، 67، 68، 73، 112

طرابلس المغرب (الإيالة) 59، 63، 68، 84، 85، 88، 89، 90، 91، 92،

110، 111، 112، 114، 116، 118، 128، 129، 131، 133، 135،

137، 138، 141

طنجة 145، 160، 181، 196، 202

- ع -

العرائش 202، 207

- غ -

غرناطة 28، 29، 31، 32، 69، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 99، 100،

101، 102، 103، 104، 105، 107، 109، 111

- ف -

فارس 17، 18، 19، 20

فاس 27، 29، 42، 168، 169، 170، 171، 173، 174، 176، 177،

179، 180، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 191، 192، 193،

194، 195، 198، 199، 201، 209، 213

فرنسا 15، 21، 45، 63، 95، 100، 199

- ق -

القاهرة 14، 18، 19

قبرص 20، 103، 104، 110، 111، 114، 115، 119

القصر الكبير 144، 171، 181، 202

القصر الصغير 145، 171

القسطنطينية 19، 20، 22، 25، 59، 60، 64، 66، 67، 72، 80، 82،

131، 165، 184، 188، 192، 206، 212

قسنطينة 5، 7، 8، 10، 106، 135، 137

القل 8، 10

القيروان 9، 10، 26، 62، 106، 129، 130، 137، 138

- ك -

كورفو 113، 118، 126

- ل -

لشبونة 160، 201

لي بانتو 103، 104، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117،

118، 119، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 128، 131،

140، 141، 142، 189

- م -

مالطا 42، 43، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 72، 73، 74، 76، 77، 78،

79، 80، 81، 82، 83، 84، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 105،

110، 111، 113، 121، 127، 141، 183، 184

مالقة 26، 36، 159

المرسى الكبير 35، 36، 37، 38، 39، 41، 110، 124، 191

مراكش 144، 152، 153، 154، 156، 159، 163، 165، 168، 170،

177، 179، 182، 185، 188، 192، 193، 194، 206، 209، 210

المجر 20، 21، 22

المغرب الأوسط 3، 4، 5، 6، 8، 10، 30، 32، 35، 36، 42، 49، 50،

52، 53، 54، 59، 143، 146

المغرب الأقصى 84، 108، 124+ أغلب صفحات الفصل الثالث

المغرب الأدنى 8، 9

مستعانم 42، 164، 181، 183

مكة المكرمة 19

مكناس 156، 213

مليية 159، 167، 170

ميديلي 14، 44، 46، 47

ميسينا 112، 126، 127، 130، 136

- ن -

نابولي 14، 15، 42، 43، 74، 78، 79، 81، 113، 114

نافارين 15، 81، 136

النمسا 22

- و -

واد ملوية 164، 165

وادي نون 146

و هران 7، 26، 29، 30، 35، 36، 38، 39، 41، 67، 68، 81، 97،

104، 110، 124، 131، 164، 167، 168، 170، 171، 175، 181،

191

- ي -

ينبُع 147، 148

اليونان 15، 16، 44، 48، 110، 126، 136

ج- فهرس الأمم والطوائف والجماعات:

- أ -

الإسبان (أغلب صفحات البحث)

الأندلسيون 15، 25، 26، 29، 30، 32، 33، 56، 69، 93، 98

- ب -

البرتغالليون 145، 146، 149، 151، 152، 153، 154، 156، 169،

171، 196، 197، 202، 206

بنو عامر 5، 39

بنو عباس 8

- ت -

التُرْك 13، 51، 61، 130، 165، 167، 172، 182، 191، 197، 217،

218

- ح -

الحفصيون (بنو حفص) 3، 4، 5، 6، 41، 49، 53، 59، 60، 61

الحنانشة 5

- د -

دُرَيْد 5

- ذ -

الذواوذة 5، 8، 9

- ز -

الزيانيون (بنو زيان) 3، 5، 6، 7، 37، 39، 165

زواوة 55

- س -

السعديون (أغلب صفحات الفصل الثالث)

سويد 5

- ع -

العلوج 88

- ف -

فرسان القديس يوحنا (فرسان مالطا) 67، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 72،

73، 74، 76، 77، 78، 79، 80، 84، 86، 87، 88، 89، 90، 141،

183

- م -

المماليك 13، 17، 18، 19

المريديون (بنو مريين) 32، 143، 144، 145، 146، 147، 165، 168،

171، 180

- و -

الوطا سيون (ب نو وطا سي) 143، 144، 146، 147، 149، 150، 152،
153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 161، 162، 163، 167،
168، 170، 171، 172، 176

د - فهرس الموضوعات:

الصفحة	عناصر البحث
أ - أأ	مقدمة
36-01	الفصل التمهيدي: أوضاع بلاد المغرب والدولة العثمانية نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م: مدخل
19-3	المبحث الأول: الأوضاع السياسية في بلاد المغرب نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م:
	المطلب الأول: المغرب الأوسط (الجزائر)
	المطلب الثاني: المغرب الأدنى (تونس وطرابلس الغرب)
36-20	المبحث الثاني: أوضاع الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م:
	المطلب الأول: في عهد بايزيد الثاني (1489-1512)
	المطلب الثاني: في عهد سليم الأول (1512-1520)
36	خاتمة الفصل
115-37	الفصل الأول: الوجود العثماني في بلاد المغرب وبداية الصراع الأوروبي العثماني في المنطقة 1492-1551م: مدخل
81-39	المبحث الأول: الظروف الإقليمية وتداعياتها على بلاد المغرب 1492-1512م:
	أولاً: سقوط غرناطة وتداعياته على بلاد المغرب
	ثانياً: الاحتلال الإسباني لسواحل بلاد المغرب

<p>114-81</p> <p>114</p>	<p>المطلب الثالث: ظهور الإخوة بربروس في بلاد المغرب المبحث الثاني: بلاد المغرب بين الاحتلال الإسباني والفتح العثماني 1512-1551م أولا: الإخوة بربروس في مواجهة الإسبان وتأسيس إيالة الجزائر 1519م ثانيا: تأسيس الحكم العثماني في تونس (المرحلة الأولى 1534-1535م) ثالثا: تأسيس إيالة طرابلس الغرب 1551م خاتمة الفصل</p>
<p>227-116</p> <p>148-118</p> <p>177-149</p>	<p>الفصل الثاني: الدولة العثمانية في مواجهة التهديدات الأوروبية على إيالتي تونس وطرابلس الغرب (1551-1574م): مدخل المبحث الأول: موقف الباب العالي من التهديدات المالطية-الإسبانية على إيالة طرابلس الغرب 1560-1565: أولا: التصدي لمحاولة فرسان مالطا استعادة مدينة طرابلس (معركة جربة 1560م) ثانيا: الحصار العثماني لجزيرة مالطا سنة 1565م المبحث الثاني: سياسة الباب العالي تجاه الوجود الإسباني في تونس (1568-1570): أولا: استغلال ود عم ثورة الموريسكيين ضد الحكومة الإسبانية (1568-1570م) ثانيا: استعادة السيطرة العثمانية على تونس (1569-1570م)</p>
<p>226-178</p>	<p>المبحث الثالث: استراتيجية الباب العالي تجاه الحلف الأوروبي المقدس والقواعد الإسبانية في تونس (1571م-1574م):</p>

226	<p>أولاً: مواجهة الحلف الأوروبي المقدس (معركة ليبانتو 1571م) ثانياً: تصفية القواعد الإسبانية في تونس (تحرير تونس وحلق الوادي 1573- 1574) خاتمة الفصل</p>
352-230	<p>الفصل الثالث: موقف الدولة العثمانية من تهديدات الدولة السعودية وتحالفاتها مع القوى الإيبيرية ضد إيالة الجزائر (1551-1598م): مدخل</p>
254-233	<p>المبحث الأول: ظهور الدولة السعودية بالمغرب الأقصى : أولاً: الأوضاع الداخلية في المغرب الأقصى مطلع القرن 16م ثانياً: بداية الدعوة السعودية بالمغرب الأقصى ثالثاً: قيام الدولة السعودية ونهاية الحكم الوطاسي</p>
285-255	<p>المبحث الثاني: الموقف العثماني من تهديدات وتوسعات السلطان محمد الشيخ السعودي تجاه إيالة الجزائر 1551-1557م: أولاً: إيواء واستغلال الأمراء الوطاسيين المناوئين للدولة السعودية ثانياً: ازدواجية السياسة العثمانية (السلم والحرب) تجاه محمد الشيخ السعودي ثالثاً: اغتيال محمد الشيخ السعودي</p>
316-286	<p>المبحث الثالث: التدخل العثماني في الشؤون الداخلية للدولة السعودية 1558-1578م: أولاً: سياسة الباب العالي تجاه انشقاق الأسرة السعودية ثانياً: الموقف العثماني من السياسات العدائية للغالب بالله السعودي ثالثاً: الباب العالي بين مساعي الصلح والتدخل العسكري ضد الغالب بالله السعودي</p>

352-317	<p>رابعاً: تنصيب الباب العالي عبد الملك السعودي سلطاناً على المغرب الأقصى</p> <p>المبحث الرابع: السياسة العثمانية تجاه الدولة السعودية إبان معركة وادي المخازن وولاية السلطان أحمد المنصور 1578م-1598م:</p> <p>أولاً: الدولة العثمانية ومعركة وادي المخازن 1578م</p> <p>ثانياً: الدولة العثمانية وولاية أحمد المنصور؛ الموقف والعلاقات</p> <p>ثالثاً: سياسة "السلام الحذر" تجاه السلطان أحمد المنصور وتحالفاته الإقليمية</p> <p>خاتمة الفصل</p>
356	خاتمة
364	قائمة الملاحق
403	قائمة المصادر والمراجع
445	<p>الفهارس:</p> <p>فهرس الأعلام</p> <p>فهرس الأماكن والبلدان</p> <p>فهرس الطوائف والأمم والجماعات</p> <p>فهرس الموضوعات</p>

ملخص الدراسة:

يتمحور موضوع دراستنا حول موقف الدولة العثمانية من التهديدات الخارجية التي كانت تتعرض لها إيالاتها المغربية (الجزائر، تونس وطرابلس الغرب) إبان النصف الثاني من القرن السادس عشر، وذلك انطلاقاً من المراسلات العثمانية حصراً، أي أننا سنقوم في هذه الدراسة بتحليل المراسلات العثمانية الرسمية الموجهة لحكام الإيالات المغربية، والتي تدور مواضيعها حول التهديدات القائمة على هذه الإيالات سواء من قبل الغرب المسيحي بقيادة إسبانيا أو من طرف الدولة السعدية في المغرب الأقصى، وذلك لمعرفة واستخلاص سياسة الدولة العثمانية واستراتيجياتها تجاه هذه التهديدات والأخطار الخارجية التي كانت تتعرض لها إيالاتها المغربية خلال الفترة المذكورة.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية، الإيالات المغربية، مراسلات الباب العالي، التهديدات الخارجية، القوى الأوروبية، الدولة السعدية، القرن 16م.

Résumé de l'étude :

Le sujet de notre étude porte sur la position de l'Empire ottoman face aux menaces extérieures auxquelles ses régences du Maghreb (Algérie, Tunisie et Tripoli) étaient exposées au cours de la seconde moitié du XVI^e siècle, en s'appuyant exclusivement sur la correspondance ottomane. C'est-à-dire que dans cette étude nous analyserons la correspondance officielle ottomane adressée aux dynastes des régences du Maghreb, dont les sujets abordent autour des menaces qui pèsent sur ces régences, que ce soit par l'Occident chrétien dirigé par l'Espagne ou par l'État saâdien en Maroc, afin de connaître et d'extraire la politique de l'Empire Ottoman et ses stratégies face à ces menaces et dangers extérieurs auxquels ses provinces marocaines ont été exposées au cours de la période susvisée.

Mots-clés : Empire ottoman, régences du Maghreb, correspondance de la Sublime Porte, menaces extérieures, puissances européennes, État saâdien, XVI^e siècle.

Study summary:

The subject of our study focuses on the position of the Ottoman Empire regarding the external threats to which its Maghreb regencies (Algeria, Tunisia, and Tripoli in the west) were exposed during the second half of the sixteenth century, based exclusively on Ottoman correspondence. That is, in this study we will analyze the official Ottoman correspondence addressed to For the rulers of the Maghreb regencies, the topics of which revolve around the threats to these provinces, whether by the Christian West led by Spain or by the Saadian state in Morocco, in order to know and extract the policy of the Ottoman Empire and its strategies towards these external threats and dangers to which its Moroccan provinces were exposed during the aforementioned period.

Keywords: Ottoman Empire, Maghreb regencies, Sublime Porte correspondence, external threats, European powers, Saadian state, 16th century AD.